اشراق من القرآن الكريم

الجزء الاول

بقلم

آية الله المجاهد السّيد محمود الطالقاني

تقديم وترجمة

الـدكتور عباس الترجـمان

طالقانی، محمود، ۱۲۸۶ - ۱۳۵۸.
اشراق من القرآن الکریم / بقلم محمود الطالقانی ؛ تقدیم و ترجمة عباس الترجمان ـ تهران الهدی، ۱۳۷۹
۶ ج
ISBN 964 - 472 - 273 - 6 (دوره) ISBN 964 - 472 - 274 - 4 (ج ۱)
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا
عربی.
کتابنامه به صورت زیر نویس
۱ تفاسیر شیعه ـ ـ قرن ۱۴ الف. ترجمان، عباس، مترجم. ب عنوان ج عنوان برنوی از قران
۴۰۴۳ ب ۲ ط / BP ۹۸ ۲۹۷/۱۷۹
۱۳۷۹ کتابخانه ملی ایران م ۷۹ - ۱۰۰۳۱



مؤسسة الهدیٰ للنشر و التوزیع
ص. ب: ۱٤۱٥٥ ـ ٤۳٦۳
تلفون: ٦٤٠٦٢٦١ فاکس: ٦٤٠٦٢٤٠

الکتاب: اشراق من القرآن الکریم / الجزء الاول
المؤلف: آیة الله السید محمود الطالقانی
الناشر: مؤسسة الهدیٰ للنشر و التوزیع
المترجم: الدکتور عباس الترجمان
الطبعة: الاولیٰ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م
الکمیة: ٢٠٠٠
السعر: ١٤٠٠ تومان
ISBN 964 - 472 - 274 - 4

مقدمة المترجم

هذا التفسير ومفسّره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لِله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على عبده خاتم الأنبياء والمرسلين، سيّدنا أبي القاسم محمّد وآله الطاهرين، والطيّبين من أصحابه أجمعين.

أمامك أيّها القارئ العزيز كتاب اسمه «اشراق من القرآن»، وهو اسمٌ على مسمّى، وستثبت لك الصفحات النيّرة القادمة صدق هذه التسمية، وهو نموذج متطوّر من نماذج كتب التفسير الكثيرة، لم يسبق له مثيل في منهجه وموضوعه. واتجاه خاص الى القرآن بكلّ معانيه من المحكمات والمتشابهات، والناسخ والمنسوخ، والقصص والأحكام. عَرَجَ فيه المؤلّف ـ رضوان الله عليه ـ بأفكاره المجرّدة عن الدنيا ولذائذها في معارج القرآن الكريم، وتطلّع إلى بعض شهب معانيه البعيدة عن العيون المجرّدة عن التلسكوبات الفكرية، التي تساعد على اكتشافها في سماواتها اللامتناهية، فراح يسطّر لآلئه التي اكتسبت نورها وَلمَعَانَها من هذه الشهب الزاهرة على هذه الصفحات الناصعة.

وكانت فرصته السانحة التي اغتنمها لتكريس جهوده في هذه المجلدات الستة سجنَه من قِبَل جلاوزة الشاه، خلال السنوات التي قضاها في السجون المتكررة بعيداً عن

١٤- اعتمد على تفاسير الفريقين الخاص والعام على السواء، فأينما وجد ضالّته أخذها، ولا سيما على تفسير الصافي للعلاّمة الشيخ محسن الفيض الكاشاني.

١٥- و الاسلوب الطريف في شرحه وتفسيره هذا هو أن يوصل شرحه وكلامه عن الآية السابقة بالآية اللاحقة، ولم يجعل فاصلاً تفسيريّاً بين الآيتين أو العبارتين، ممّا يجعل موضوع التفسير وحدة متكاملة متناسقة مترابطة الحديث.

فهو بحقّ شرح وتعليق على القرآن الكريم بأسلوب عقليّ علميّ فنّي عصري، لم يسبق له مثيل في التحليل والتعليل في عالم التفاسير، يفتح للقارئ نوافذ علىٰ آفاق جديدة من معاني هذا السفر الإلهيّ العظيم.

سبب الترجمة:

ولمّا كان ـ رحمه الله تعالى ـ يعيش بين ظهراني الشعب الإيراني المسلم، كتب كتابه هذا باللغة الفارسيّة باسم «پرتوي از قرآن»، وبمجرّد أن طبع وصدر الىٰ الأسواق، وغاصت الأفكار في بحار معانيه، وارتوت من فيض أنوار لآلئه، تلاقفته القلوب قبل الأيدي، ممّا أدّى الى طبعه ثانيةً وثالثة. فرأينا من الجدير به ألّا يقتصر على اللغة الفارسيّة، وإنّما يجب أن ينبع هذا النور على أبناء الضاد من برج اللغة العربيّة العريقة، فبادرنا الىٰ ترجمته إلى اللغة العربية بتشجيع وانفاق من مؤسّسة «شط» في طهران.

والكتاب ـ كما قلنا ـ لايقتصر على التفسير المجرّد الجاف، وإنّما يضمّ بين دفتيه تعليقات وشروح مهمّة جدّاً، هي التي منحت هذا التفسير الحيوية، وأضفت عليه حُلّةً قشيبة جديدة، ساعدت كثيراً على الوصول الى بعض دقائق معاني هذا الكتاب المعجز المقدّس.

ومن المؤسف أن القدر الحتميّ لم يمهل المؤلّف لإكمال هذا التفسير الفريد من نوعه، فقد كتب الجزءين الأول والثاني في السجن، تناول فيهما سورتي الفاتحة والبقرة، ثم كتب القسم الثالث والرابع منه في تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم في فترة اخرى

من سجن آخر، وكتب القسمين الخامس والسادس في سورة آل عمران وأوليات سورة النساء في خارج السجن في المنفىٰ ثم في السجن.

تأييد قائد الثورة الاسلاميّة في إيران الإمام الخمينيّ وتوصيته لابنه بمطالعة هذا التفسير:

قال «السيّد محمود دعائي» وهو أحد ملازمي الإمام عندما كان في النجف الأشرف حول هذا الموضوع ما ترجمته:

«... قد أشرت في إحدىٰ المقابلات الىٰ أنّ السيّد الإمام كان في النجف الأشرف متفرّغاً للمطالعة الكثيرة، وكان أكثر ما يطالع الكتب الاسلاميّة والاجتماعيّة للمحققين المجدّدين بشوق وتدقيق. وقلّما يقبل كتاباً بمجموعه أو يحثّ الآخرين على مطالعته. وكما تعلمون أنّ الإمام لم يقرّظ كتاباً الىٰ الآن، وبهذه النسبة ـ طبعاً ـ لم يخطّىء كتابا أو كاتباً أيضاً، إلّا أن يكون فيه خلافٌ واضحٌ. وما رأيته بنفسي من تأييد الامام المطلق والتأكيد على المطالعة هو حول كتب المحقّقَين العالِمَيْنِ الإسلامِيَّيْن الشهيد مطهّري والمرحوم آية اللهِ الطالقاني. وكنت قد قدّمت «پرتوي از قرآن» لحضرته ليطالعه. فبعد مدة سمعت من نجله الشهيد المرحوم الحاج السيد مصطفى أنّ الامام أوصاه وأكّد عليه بضرورة مطالعة هذا التفسير، وأن يستلهم منه أسلوب الاستنتاج التفسيري في التفسير الذي كان مشغولا بكتابته (لأنّ المرحوم الحاج السيّد مصطفى كان آن ذاك مشغولاً بكتابة تفسير للقرآن)، إنّ وصيّة الامام بمطالعة هذا التفسير، وتأييده المطلق كان جادّا إلى حدّ أن المرحوم الحاج السيّد مصطفى كان متّعجباً مع علمه بأنّ الامام يتّبع أسلوب الاحتياط بالنسبة للأشخاص وكتاباتهم...» مع الاحترام ـ محمود دعائي.

أما ما قمتُ به بالإضافة إلى الترجمة والتقديم فيتلخّص بما يلي:

١- لم يأت المؤلف ـ رضوان الله عليه ـ غالباً بالنصّ العربيّ للآيات أو الأحاديث التي يستشهد بها، بل يأتي بترجمتها الفارسية، مما دفعني الى البحث واستخراج النصّ

العربي من مظانّه قدر الإمكان، ليكون مطابقاً للأصل.

٢- دوّنت بعض التعليقات للإيضاح أو الإضافة.

٣- قمت بشرح المفردات بدلاً من الترجمة الفارسية، لأنّ المؤلّف أوردها بالفار سيّة.

٤ـ ترجمتُ الأبيات الفارسيّة من المثنويّ وغيره الىٰ أبيات عربيّة.

٥- وضعتُ علامات التنصيص للآيات أوالكلمات أو الحروف التي يريد البحث حولها، ليتبيّن أنّ الكلمة أو الحرف من أصل النصّ القرآني، بينما جاءت درجاً وبدون تعليم وتنصيص في الأصل الفارسيّ.

٦- بدأت من أول السطر فيما يلزم الابتداء به من استئناف الجملة أو الموضوع.

٧- حرّكت الآيات القرآنية و وضعتها بين علامتي التنصيص.

٨- لم أفرّط بشدّة أو همزة أو حركة لازمة في الترجمة لإزالة اللبس والاشتباه.

٩- وضعت علامات الترقيم من نقاط وفواصل وعلامات استفهام وتعجّب وشرح واعتراض وغيرها، ليتّضح معنى الجملة بصورة أكثر.

١٠ـ اضفت الكلمة أو العبارة التي رأيتها لازمة، و وضعتها بين خطّين معقوفين [].

وأمّا المفسّر:

فهو السيّد محمود بن السيّد أبي الحسن الطالقاني، الفقيه المحدّث والمفسّر والمجاهد المحنّك، والسياسيّ الصلب الذي لم يلِنْ أمام طواغيت زمانه، وتحمّل السجون والتعذيب والنفي في نصر عقيدته الاسلاميّة،واعلاء كلمة الله، وهو بَعدُ لولب حركة الثورة الاسلاميّة في ايران.

وُلد يوم السبت الرابع من شهر ربيع الأوّل لسنة ١٣٢٩هـ ق في قرية (گِلي رُدْ) من قرىٰ مدينة طالقان.

كان المرحوم والده السيّد ابو الحسن الطالقاني من تلامذة السيّد محمد حسن الشيرازي الكبير نزيل سامراء المقدّسة، فنشأ ولده تحت ظلّ هذا الوالد في العلم

والسياسة. وكان والده يعقد في بيته ندوات سريّة، يحضرها لفيف من المجاهدين المسلمين، منهم السيّد حسن المدرّس، وكانوا يتداولون البحث حول الوقوف بوجه استبداد «رضاخان» قبل أن ينصب نفسه ملكاً على ايران. ينقل المؤلف ـ رضوان الله تعالى عليه ـ فيقول: كنتُ في السنّ العاشرة إلى الثانية عشرة عندماكان والدي يعقد هذه الندوات، فكان والدي يوقفني بباب الدار، لكي أخبرهم فيما اذا اقترب البوليس من الدار، وفي أحد الأيّام رأيت البوليس قادماً نحونا، فبادرت بسرعة وأخبرت والدي، فسرعان ما حوّل ذلك الاجتماع إلى حالة تضرّع ودعاء، وأخذوا يهتفون بالآية الكريمة ﴿أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكشِفُ السُّوءَ﴾ بصوت عال، ويُداهِمُ البوليس الدار، فيراهم يدعون ويتضرّعون، وكلما ينادي رئيس البوليس أبي، ويقول له: من فضلك، لي معك كلام. لم يعتن به أبي، ويستمرّ في دعائه، ويردّدُ «أمَّنْ يُجِيبُ...» وعندما رأى رئيس البوليس وضع الحاضرين وتضرّعهم لله تعالى، اضطر إلى تركهم ومغادرة الدار. وأخيراً أمر رضاخان بغلق هذه الندوة، وكنتُ قد اختفيت مع أبي في بساتين «شميران».

وكان والده ـ رحمه الله ـ لا يرتزق من سهم الامام، بل كان يصلّح الساعات، ويأكل من كدّ يمينه.

قضى المؤلّف دراسته الأولى والمتوسّطة ونال درجة الاجتهاد في المدرسة الرضويّة والمدرسة الفيضية في مدينة قم المقدّسة. وكان قد انتقل إليها منذ بداية تأسيس الحوزة العلمية في «قم» من قِبَل آية الله الفقيه الشيخ عبد الكريم الحائري، حيث قدّمه زوج أُخته المرحوم السيد محيّ الطالقاني الىٰ الشيخ عبد الكريم المذكور، واستمرّ بدراسته حتى نال درجة الاجتهاد على يد المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري. ومن شيوخه المرحوم آية الله السيّد محمد الحجّة، والمرحوم آية الله السيّد محمد تقي السبزواري.

قلنا: إنّه بدأ نشاطه السياسي منذ العاشرة من عمره، وظلّت هذه الروح تتوقد فيه وتشتدّ يوماً بعد يوم. وكان عندما يعود الىٰ طهران يطلب منه بعض الشبّان أن يعقد لهم مجلسا لتفسير القرآن، فاستجاب لهم، وكان يعقد مثل هذه الندوات رغم منع رضاخان

الشديد لمثل هذه الاجتماعات والندوات.

وفي سنة ١٣١٨ هـ ش يرى المؤلّف شرطيّاً يحاول سلب أزار احدى النساء بالقوّة، فينبري للدفاع عن المرأة، ويشتبك مع الشرطيّ، حتى يؤدّي موقفه المشرّف هذا إلى الحكم عليه بالسجن، بحجّة اهانة مأمور الحكومة في حال القيام بواجبه!!

وبعد خروجه من السجن يستمرّ في عقد مجلس التفسير، وفي عام ١٣٢٠ هـ ش. يؤسّس جمعيةً باسم «كانون اسلام» أي دار الاسلام، وكان يلقي في هذه الجمعية الخطب الحماسية لارشاد الناس، وتوجيههم توجيهاً اسلاميّاً، وقد أصدرت هذه الجمعية مجلّة باسم «دانش آموز» أي التلميذ، وكان من المساهمين في تحرير هذه المجلّة وإعدادها المهندس مهدي بازرگان أوّل رئيس للوزراء في الجمهورية الاسلاميّة في ايران، والدكتور سحابي اللذان بدأت مسيرتهما الجهاديّة مع السيّد الطالقاني من هنا الىٰ نهاية حياته. وبالطبع كانت لهذه الصداقة جذور، فإنّ أبا المهندس مهدي بازرگان، المرحوم الحاج عبّاس قلي بازرگان، والمرحوم أبا السيّد الطالقاني كانا يعقدان اجتماعاً في مدرسة «مروي» بطهران، للإرشاد ودعوة أهل الكتاب، والفرقة البهائية الضالّة الىٰ الاسلام.

إنّ الحديث عن نشاط السيد الطالقاني السياسيّ وجهاده الاسلامي يحتاج الىٰ كتاب خاصّ به، وعسى أن نوفَّقَ في المستقبل لثبت مواقفه الجهاديّة المشرّفة في سبيل الاسلام والمسلمين.

لم ينثن عزمه عن مقاومة الطاغوت، ولذا فقد حكم بالسجن لعدّة مرّات، منها أنّه حكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات سنة ١٣٤٢ هـ ش. وهنا عندما قرئ قرار الحكم عليه وعلى المتّهمين معه في هذه المحاكمة الصوريّة الظالمة، التي كانت كلها كذِباً وافتراءً. انتفض السيّد الطالقاني ـ رضوان الله تعالى عليه ـ ونادى رئيس المحكمة ومرافقيه ـ بلهجة الآمر القوي: وكانوا يحاولون مغادرة قاعة المحكمة: قفوا. فوقفوا جميعاً، فقرأ:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ، وَلَيالٍ عَشْرٍ، والشَفعِ والوَتْرِ، وَالليلِ اذا يَسْرِ، هَلْ فِي ذٰلكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ، أَلَمْ تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ العِمادِ، التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البِلادِ، وَثَمودَ الذِينَ جَابُوا الصَّخرَ بِالوادِ، وفرعون ذِي الأوتادِ، الذينَ طَغَوا فـي البِـلادِ، فاكثروا فِيهَا الفَسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عذابٍ، إنّ رَبَّكَ لَبِالمِرصَادِ...﴾.

وبعد تلاوة هذه الآيات، قال لهم: إذهبوا وقولوا لأسيادكم: أنتم المحكومون، لانحن!!

وكانت فترة سجنه الأخيرة من أغنى فتراته البنّاءة، فقد حوّل السجن الىٰ جامعة درس وتفسير للقرآن الكريم، فكان له ثلاث ليال في الاسبوع يتحدّث فيها لمرافقيه في السجن.

وأخيراً يضطر النظام الحاكم بناءً على ضغط الرأي العام الى إطلاق سراحـه، و مـعه المهندس مهدي بازرگان سنة ١٣٤٦ هـ. ش ولكنّه يبادر الى نفيه سنة ١٣٥٠ هـ ش الى «زابل». وبعد عودته الىٰ طهران يستمرّ في نشاطه الجهاديّ ضد النظام القائم والصهيونيّة، مما اضطر النظام الىٰ سجنه وتعذيبه، والحكم على ابنته «أعظم» بالسجن المؤبّد، لالشيء، سوى أنّهم كانوا يريدون تعجيز أبيها، وجرّه الىٰ هاوية الخنوع والاستكانة، ولكنّه لم يبالِ ولم يستكن، بل ظلّ يقاومهم بأشدّ ما يمكن من المقاومة.

وبعد أربعين عاماً من السجون والتعذيب والمشاق والنفي، تنفتح أبواب سجن «قصر» بوجهه عشيّة الثامن من شهر «آبان» لسنة ١٣٥٧ هـ. ش يقول ـ رحمه الله ـ عندما أُطلِقَ سراحي تلك العشيّة، وخرجت من السجن، رأيت بعيني مـاكـنت أسـمعه مـن ولادة الجماهير من جديد، فشعرت بنفس اللحظة بأني أواجه أناسا آخرين، منتفضين، قد نزعوا رداء الغفلة والركود، متجهين نحو الغاية من المبدأ «الله» وفي مسيرة «لا إله إلّا اللـه»، خلف السالك الواعي «روح الله». وكنت قد قصدت ان أذهب في تلك الليلة لزيارة الشيخ

رحمة الله على أبيه العظيم، الذى كان على رأس المتقين، وعلى روحه حيث كـان عَضُدَ الثورة القوّية. أقدّم تعازيّي الى الأمّة الاسلاميّة، والشعب الايرانيّ، واسرته الكريمة، والبقيّة الباقية من عائلته بهذه الخسارة الفادحة.

رحمة الله عليه وعلى جميع المجاهدين في سبيل الحق. والسلام على عـباد اللـه الصالحين.

روح الله الموسوي الخميني

١٨ شوال ١٣٩٩ هـ. ق ـ١٣٥٨/٦/١٩ هـ ش

فالحديث عن حياة المغفور له السيّد محمود الطـالقاني (قـدّس سـره) حـديث ذو شجون، رحمه الله تعالى، وحشره مع أجداده الطاهرين عليهم السلام، والسلام عليه يوم وُلِـدَ، ويوم مات، ويوم يُبعث حيّاً.

عباس الترجمان

طـهران

١٤ رجب / ١٤٠٨ هـ. ق.

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«الحمدُ للهِ الذي أنزَلَ على عَبدِهِ الكتابَ ولم يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قيماً لينذِرَ بأساً شديداً مِن لدنهُ وَيبشر المؤمنينَ الذين يَعملونَ الصَالِحَاتِ انّ لَهُم أجراً حسناً».

صلوات الله وبركاته على الذي أنزل عليه القرآن ليكون للعالمين نذيرا، وللذين آمنوا وعملوا الصالحات بشيراً، وعلى آله وأهل بيته الذين هم خيرة خلقه وحفظة رسالاته.

القرآن؟!

نزوله من عالم الملكوت الأعلى، ظهوره في جمال عبارات أسمى من البلاغة، وتأثيره البليغ في الهداية، لهو ممّا يُبهِر العقول ويسحر الألباب؟! الكتاب الذي نوّر بهدايته زوايا الروح والفكر والنفسيّات وصلات واجبات الجماهير وحقوقها مع بعضها، والكلّ مع الخالق، والأعمال بالنتائج، وساق النفوس نحو الصلاح والإصلاح، وأيقظ القابليّات من سُباتها وحرّكها، وأجرىٰ خيرات الطبيعة مرافقة لإصلاح النفوس واستخدام القابليات وجعلها في متناول الجميع.

استقطب الافكار، وفتح المجال للنظر، وألهب في القلوب شُعَلاً من الإيمان، وأزال ظُلَمَ الأوهام والرعب والاحقاد، وحطّم الأغلال التي قيّدت العقول والأفكار والأيدي

طيلة قرون الجاهلية المتمادية التي استعبدت الجماهير لغير الله.

وحلّ عُقَد التخلّف، وأزال الحرمان عن الضعفاء، وفتح بوجه الجميع طرق الإلتذاذ المشروع من اللذائذ المادية والمعنوية . وأحدث ـ بالتطوّر النابع من أعماق النفوس والضمائر ـ طفرة في الأفكاروالأخلاق والآداب، ونسّق العناصر المختلفة غير المتجانسة مع بعضها وقرّب الفوارق بينها بإزالة الأوهام والعصبيّات، و وحّدها، وأقام منها مجتمعا قويّا متماسكا تقدّم بخطوات ثابتة، وضمائر يقظة، وألسن يتعالى منها صوت التكبير التحريري، وأيدٍ تحمل دستور الحياة العام، وظلّ الرحمة، وطائرالسعد، وأكفّ فولاذية كانت تحمل سيوف العدل اللامعة، نحو عالَمٍ منفصم عن بعضه، وأنظمة وضيعة، ومناطق الظلم والجور.

و أزالوا ـ بفترة قصيرة ـ حجب الشرك السميكة، وأشباح السلطات من أمام اعين الجماهير المظلومة المرعوبة. وانهارت أمامهم قلاع الظلم الطبقي ومتاريسه، وأذاعوا صوت التكبير والتوحيد من على ذروة أمنع قصور الوثنيّين ومعابد الأوهام ومراصد الكهنة، فطأطأ وابصوت الحق والحريّة هذا رؤوس الجبابرة، ورفعوا رؤوس الأرقّاء وسكنة الأكواخ وحرّموهم.

أزالوا الفوارق من بين الطبقات، فاجتمع سكّان البادية الرُّحَّل من الأخبية وزوايا الصحراء ليقودوا سُكّان المدن المتمدنين إلى نظام إلهيّ سام وعدل عام بمشاعل الهُدىٰ التي أشعلها في صدورهم هذا الكتاب، ولينقذوا عامة الجماهير من تحت ضغط القوانين البشرية الوضعيّة التي فُرضت لصالح الطبقية ضدّالعامة ومن براثن الطبقات الحاكمة الدموية، وإعادة شخصيتهم الإنسانيّه إليهم، والسموّ بالقيم الإنسانية.

وزال إلافراط والتفريط في الرغبات المعنوية والمادية، والتجاذب والتضاد بين الاحتياجات الروحية والغرائز الجنسيّة من نفوس حملة هذه الرسالة والعاملين بهذه الشريعه وذلك بتعاليم هذا الكتاب وأحكامه.

وبالنظر إلى الدوافع المتخلفة وإنجاز الطلبات المشروعة بادروا إلى تهذيب الأخلاق،

وتزكية النفس، وتحكيم العقل، وأزالوا الفوارق بين سكنة الأديرة و المستضعفين الزاهدين في الدنيا، وبين عبدة الدنيا والمال والشهوات، وفتحوا العيون للنظر إلى صلة المادة بالمعنى، والدنيا بالآخرة وتلازمهما، وسلكوا الطريق في الصراط المستقيم من إعمار الدنيا والسير نحو الآخرة، وأزالوا عدم التناسق بين الجسم والروح.

إنّ هذا التوحيد في العقيدة والهدف والتفتّح فيالنظر إلى العالم، هذا التطوّر النفسيّ والتناسق بين القوى النفسيّة، ويقظة القابليات، وفوران ينابيع الفضائل، وازالة الفوارق الوهميّة المصطنعة، وإتّساع ظلال العدل، والقدرة على البناء والإبداع، كان كلّه من آثار أشعّة القرآن المباشرة على زوايا النفوس ونوره الهادي.

فكما أنّ النور والهواء والغذاء من ضروريّات الكائن الحيّ ولوازمه من أجل استمرار الحياة وتربية الجسم، فإنّ استمرار الحياة المعنوية والتكامل في جميع نواحي الحياة، تستلزم الهداية كضرورة لجهاز الانسان المعنويّ، فإنّ القسم المهم من جهاز الانسان الجسميّ يشكله المخ والمخيخ وشعيرات الأعصاب المتشعبة منه، التي هي بمثابة شبكة استوعبت جميع أنحاء الجسم، وربطته بالمخ. إنّ خلايا المخ والأعصاب أعقد خلايا الجسم وألطفها وأسماها، وقدرة نشاطها في كل ناحية غير محدودة ولا تقاس بظروف الحياة الجسميّة.

إنّ هذا الجهاز الجسمي الغامض المتشعّب لا يمكن أن يكون آلة لتأمين الغذاء والشهوة واللذة الجسميّة المحدودة فقط، فهو في المرحلة الأولى الواسطة للصلة مع المحيط الخارجيّ ومعرفته، ليقوم بتحليل المحسوسات والمدركات وتركيبها عن طريق الحواس والادراك، ومعرفة كل شئ مهما أمكن، ويتقدم في سبيل الاستفادة وفهم فوائد الموجودات وصلاتها ونتائجها. فإن الانسان بمجرّد أن يأتي إلى الدنيا يحاول بواسطة هذا الجهاز الجسميّ وموهبة العقل والاختيار الفطريّ ـ أن يخلّص نفسه من الجهل بالنسبة لنفسه والمحيط و العالم. ويحاول أيضاً ـ مزامناً مع أوائل حركات الأمواج النوريّة الشفافة، وعمل أجهزة التنفّس، ودوران الدم والحاجة الى الغذاء ـ أن يفتح عينه على المحيط، وأن

يتعرّف ـ مهما أمكنه ـ على ظواهر ما يحيط به ومميّزاته وحدوده، بالوقت الذي يريد الطفل ان يفتح عينيه، و يصمد بوجه هجوم النور، يريد العقل الفطريّ وجهاز المخ والأعصاب أن يسجّل المنظورات والمسموعات أيضاً، وأن يدرك الحدود الذاتية والواقعية لكل شيء ويدرك آثارها وفوائدها.

عندئذ يريد أن يصل من اللاشعور الى الشعور، ولذا يبحث عن نفسه وعلله الوجودية والغائية، ويريد أن يستخدم كل ما عرفه وسيطر عليه في تحقيق غايته المنشودة. وهذا البحث والتقدم يستمرّ مادامت غرائزه المستيقظة المتحركة وتأثراته من المحيط لم تثنيه عن ذلك. ولكنّ جميع الناس ـ سوى عدّة معدودة ـ تتغلّب عليهم الغرائز والمحيط مع وجود العقل والإختيار، فيختارون دائماً مقاصد من بين الافكار المحدودة المتفاعلة مع المحيط وحركات الغرائز والعُقَد الخفيّة، وربّما رتّبوا لها مقدمات على شكل أدلّة وبراهين ليثبتوا صوابها، وفي هذا المحيط الباطني المحدود يسير العقل الحرّ المتحفّز ـ رضي أم أبىٰ ـ خلف الغرائز الحيوانية الوضيعة، ويرجع عن الطريق الذي اتخذه نحو الكمال بعد التطوّر، وتجرّ قوى التفكير ميدان التنازع من الباطن إلى محيط الحياة الخارجية، فيكون الانسان بواسطة الأفكار المجهولة ونوازع الغرائز المضلّة أضلّ من الحيوان: «أولئك كالأنعام بَل هم أضَلُّ سبيلا»، فلا هو كالحيوان المشدود الى الغرائز يبقى محدوداً، ولا هو كالانسان المؤمن العاقل المتحفز يجد أمامه طريقاً واضحاً.

وبعبارة أخرى: إنّ الفكرة الحرّة والاختيار في العمل من مميزات الإنسان، يفكر ليفهم، يفكّر ليصوّر شكلا مُجمَلا أو مفصّلا من غايات أعماله ونتائجها، ثم يقرّر فيها يعمل فيحصل له العزم على ذلك، ولهذا قيل: «إن الغايات متأخرة في الوجود الخارجي و التحقّق، ومتقدمة في التصوير والإثارة وتكون مصدر نشاط الفاعل دائما.»، وكلما كان المحرّك والمثير ـ الذي هو الفكرة الغائية ـ أفضل وأوضح كان العزم على العمل أكثر تركيزاً، وأقل قلقاً، ومحيط العمل وانعكاساته أوسع، وآثاره ادوم، لأن ادراك الواقعيات والفوائد والمصالح كما هي وتصورها التام، والانقيادله الذي هو مصدر العزم والارادة،

خارج عن نطاق العقول المحدودة المحكومة وانطباعاتها، وعليه يجب أن تنعكس على العقول والنفوس أشعة هداية فضلىٰ، لتشمل حدود الموجودات إلى حدّ الامكان، وتوضح غايات الاعمال ونتائجها، لتأخذ بيد الانسان الذي هو ظاهرة مفكّرة وحرّة، وتفضّل الشخصيّة الانسانية، وتسوقه نحو الخير والصلاح والبقاء.

وإن لم تشع مثل اشعة الهداية هذه على النفوس، تزول القيم الانسانية التي هي العقل والاختيار والارادة، وتستخدم آثار الموجودات وفوائدها حتى العلوم والآثار العلميّة في طريق الفساد والإفساد، ويكون مجال نظرة العقول محدوداً، ولا تظهر قابلياتها كما ينبغي، ولا تحصل طفرة في طريق التكامل، وعليه فان الهداية الفضلى هي التي تتمكن من قيادة العقول ذات القابليّة إلى الغايات المطلقة والنسبية لكل ظاهرة، وتفتح جهاز الانسان وقواه المعقّدة وتنسّقهما، وتدفع العلم والأفكار نحو المحيط والحياة بصورة أفضل، لذا اختير العظماء من الرجال و الأنبياء متزامنين مع ظهور العقل المستقل ومن أجل تقدّم القابليات، وأدّوا هذه الرسالة الضرورية التي هي كسائر الضروريّات الحيوية في مستوى قابليّة العقول، وإن كان للعلماء والمصلحين الكبار دور كبير في إعداد النفوس والعقول، لكنّهم لما كانوا محكومين لبيئتهم ومحيطهم ومحدودين بالزمان، ومختلفين في فهم الحقوق والواجبات والغايات دائما لم يتمكنوا من أن يكونوا هداةً، ولا يُعرَفون أيضاً بهذا اللقب، ويلقّبون بالفيلسوف والمحقق والمخترع والمكتشف لا غير[1]. وطلعت آيات

---

١) يقول الدكتور «الكسيس كارل» في كتاب «الانسان الموجود المجهول»: لايعلم رجال العلم وسالكو طريقه بصورة مسبقة إلى أين ينجذبون وعلى أيّة نتيجة يحصلون. فالصدفة والتأمّل وربما النظرة الناقبة تقودهم، وكأنما كلّ واحد منهم دنياً لوحده، يدار بانظمة خاصّة به، تارة تتّضح لهم أمور مستعصية تخفى على غيرهم، والاكتشافات بصورة عامة حدثت بدون علم بنتائجها، ولكنّ هذه النتائج موجودة في العمل والتي عكست صورتها على حضارتنا الحديثة وقد «اخترنا» ما اخترناه من بين الاكتشافات العلمية الكثيرة المكدّسة، ولكننا لم نعتن بهذا الاختيار بصالح الانسانية السامية، بل انحدرنا وراء رغائبنا وشهواتنا فقط، وكان همّنا الوحيد دائماً تحقيق قاعدة «راحة اكثر في مقابل جهد أقل» والسرعة في العمل وتنوّع الحياة المطلوبة وتلوّنها، ولم يسائل أحد نفسه كيف يتحمّل الانسان هذه العجلة وعدم التناسب لتجمّلات الحياة الناتجة من وسائط الحمل والنقل السريعة والبرق والتلفون والماكنات الكاتبة والحاسبة والتي تؤدّي الأعمال البيتيّة بسهولة؟! إنّ الاهتمام العام بالطائرة والسيارة والسينما والتلفون والراديو والتلفزيون

القرآن الأبدية متزامنة مع استعداد نفوس العامة لاستيعاب الهداية المطلقة. الآيات التي تضيء أشعّتها المباشرة النواحي النفسيّة المختلفة والحدود والحقوق والصلات العامّة والغايات الوجودية، وتحلّ المشاكل والالتواءات في كل زمان ومكان، فهذه الهداية الكاملة المطلقة بذاتها هي عنوان القرآن ومعرّفه: «هُدى للمتقين»، وهذا هو سرّ الأبديّة والخاتميّة.

إنّ نور الهداية هذا الذي جاء على شكل آيات وكلمات، سجّله حاملوه وأتباعه في صفحات كتاب ذاكرتهم ورتّلوه بصورة مستمرة، واستمر بالتقدّم خلال القرون المتتالية كالأمواج القادمة في صعود وهبوط، وخلال هذه القرون يُتلى ليلَ نهارَ في المجالس والحفلات وعند الصلاة بصورة متتالية (وبواسطة وسائل البثّ والإعلام في عصرنا)، ليأخذ مكانته في مخازن الأفكار والنفوس، وليتصل بالأجيال القادمة عن طريق اسلاك التلاوة الموصلة الرابطة، ويوضّح كل موضوع حيويّ معقّد وكل زاوية من زوايا الحياة بما يتطلّبه الزمان والحاجة.

نظرة في نزول الآيات، وجمع القرآن وتدوينه وتفسيره:

أوائل الآيات النازلة في غار حِراء على الرسول الكريمﷺ هي الآيات الأولىٰ من سورة «العلق» (واعتبر البعض سورة الفاتحة لوجوب قراءتها في الصلاة)، ثم سورة

= جاء بسبب تلك الرغائب الطبيعيّة التي كانت تؤدّي إلى تناول المشروبات الروحيّة (كما يسمونها) في قلب القرون المظلمة. فمُكيّفات الهواء بالبخار الساخن، والإنارة الكهربائية والمصاعد الكهربائية، والمواد الغذائية المصطنعة، والأخلاق البيولوجيّة المقتصرة على ما تفيد الراحة واللذة، كل هذه الأمور موضع اهتمام العامّة، ولكن بدون أن تكون لها نتيجة مؤثّرة وحاسمة على الانسان المطلوب.

وموضوع المؤسسات الصناعية وتأثير المعامل على نشاط العمال الجسمي والنفسي بصورة تامة طُرِحَ في سلّة المهملات، وان الصناعة الحديثة التي تعتمد على قاعدة «زيادة الانتاج في مقابل رأس المال» من أجل إثراء أصحابها اتسعت بدون أن يهتموا بجبلّة العمال الذين يشغلون الماكنات، وكذلك بدون أن يفكروا بما لحياة المعامل المصطنعة هذه من تأثير على أجسامهم وأجيالهم. ومن جهة أخرى فإنّ بنايات المدن الكبيرة تتعالىٰ أيضا بدون رعاية ما تقتضيه الحال، ويحاولون ـ في خارطة البنايات ـ ان يستفيدوا من كل شبر من الأرض، وبهذا الترتيب قاموا ببناء العمارات الضخمة ليتمكنوا من إسكان اكبر عدد ممكن فيها...

«المدّثّر والمزّمّل» أو آيات منهما، وبعد انقطاع الوحي لمدة سنوات ثلاث أو سنتين ونصف عكست سورتي «الضحىٰ» «والانشراح» أشعّتها، ثم تتالىٰ بعدها نزول السور القصار ببلاغة خاصة ومعان مضغوطة، وبيان قواعد التوحيد، وأسلوب الدعوة وطريقتها واظهارعا قبتها، وإعلان تطوّر العالم العام، وبقاء الانسان، وتبديل النشآت وتكميلها، وظهور جزاء الاعمال والاسرار الباطنية.

كانت هذه الآيات تنفذ إلى قلوب الجماهير الفطريّة وتحدث فيهم هزة عظيمة وتفتح أعينهم وعقولهم، وتزيل حجب الشرك والأوهام من أمام انظار أبصارهم لينظروا إلى قدرة الله العظيم وظهور آياته في جميع أنحاء العالم، ويعتقدوا ـ بعكس ما كانوا يتصوّرون ـ ببقائهم وفناء العالم.

وعندما جاء موضوع الهجرة، واتصل المسلمون ببعضهم، وتمركزوا في يثرب (مدينة الرسول)، نزلت الآيات والسور التي تبيّن الحقوق والواجبات وأصول القوانين والأحكام والعبادات وخطط الجهاد في مناسبات معيّنة[1].

فالمسلمون الجُدد الذين فتحوا أعينهم تَوّاً بالقرآن كانوا يحفظون كل سورة وآية تنزل بشوق وإقبال، وكان الغالب منهم يسجلها على صفحات ذاكرته، والذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كانوا يكتبونها على الرقّ والجلود والورق والأحجار المستوية وعظام الأكتاف، وكانوا ينظمون الآيات النازلة المتفرقة بأمر من الرسول الكريم ﷺ مع بعضها في السور، وبهذا الترتيب كتب المسلمون الذين كانوا بحضرة النبي الآيات النازلة إلى آخرها حسب امكانيّاتهم، وحفظوها في ذاكرتهم[2].

---

١) الظاهر من تدبّر الآيات والروايات هو أنّ القرآن انعكس في البداية بصورة مجموعة وتامة على قلب الرسول الكريم (ص)، ثم نزل نجوما بحسب الحوادث الطارئة، وكان نزول القرآن التدريجيّ يجلب انتباه المسلمين دائما الى مصدر الوحي، ويهب لهم القوة والحركة شيئا فشيئاً.

٢) ذكر المؤرخون المحدثون عدد كتّاب الوحي ورسائل الرسول وأوامره الى ست وعشرين وحتى اثنين واربعين كاتباً وذكروا أسماءهم، والمتيقّن المنهورمِنهم: ١- أمير المؤمنين علي عليه السلام -٢- زيد بن ثابت الانصاري الخزرجي. ٣- عبد الله بن مسعود. ٤- أبو زيد. ٥- أبي بن كعب الانصاري. ٦- عبد الله بن ارقم. ٧- الزبيربن العوّام. ٨- حذيفة بن اليمان. ٩- علاء بن عقبة. ١٠- خالد بن سعيد. ١١- معيقيب بن

وجاءت فتنة مسيلمة الكذّاب بعد وفاة الرسول ﷺ وفي زمان خلافة أبي بكر وقُتِل كثير من القرّاء وحفظة القرآن في حرب اليمامة الدموية، هذه الحادثة أقلقت المسلمين خشية أن تذهب البقيّة الباقية من القرّاء فيذهب بعض الآيات من الذاكرة إلى الأبد.

هذا القلق دفع المجلس الاسلامي الأعلى إلى العزم على جمع القرآن وتدوينه، وبعد المداولة والمشاورة جمعوا حفظة القرآن والقرّاء الباقين، وجعلوا زيد بن ثابت الانصاريّ مشرفاً، وآخرين ناظرين ليستوعبوا السور و الآيات التي تُتلىٰ أو المكتوبة ومطابقتها مع بعضها ثم تنظيمها، وبهذه الدقة نظموا السور والآيات ودوّنوها على شكل كتاب.

إنّ تقارير حوادث ما بعد وفاة الرسول تشهد على أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام بعد اعتزاله خلال المدة التي اختلى بنفسه بادر إلى جمع القرآن وتدوينه، واحتفظ به لنفسه والأحاديث الواردة عن أهل البيت والأئمة الطاهرين في هذا المجال بلغت حدّ التواتر أيضاً.

فاذا كان القرآن الذي جمعه يختلف ـ حتى في الكلمات وترتيب الآيات ـ مع القرآن الذي دوّنه المجلس الاسلامي في الصدر الأول وأمام عينيه فلماذا سكت ولم يبيّن ذلك؟ مع سابقته وقربه من آيات الوحي وملازمته المستمرة لمربيه ومعلّمه العظيم، فلماذا تمرّد المسلمون عن قوله وكيف وذلك في مثل هذا الأمر الخطير؟!... لم يكن هو عليه السلام مخالفا مع ترتيب ونظم المجلس الاسلامي بكلمة واحدة، بل كان هو وأهل بيته وأولاده يقرأون آيات القرآن وكلماته بهذا الترتيب الموجود في الصلاة وغيرها ويستندون عليه.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ماهي مميّزات المصحف الذي دوّنه أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المصحف؟ لايمكن أن يقال غير إنّ المصحف الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام وأودعه عند أهل بيته كان يشتمل على مواضيع من المعارف الإلهيّة، وشأن النزول، والتأويل والتفسير، وبيان المصاديق والرموز حول الآيات. فإنّ اشتياقه عليه السلام وذوقه السليم لاستيعاب الحقائق من منبع الوحي، واهتمام الرسول الكريم ﷺ الخاص بتعليمه

= أبي فاطمة. ١٢– حنظلة بن الربيع. ١٣– الجهم بن أبي الصلت.

وملازمته الدائميّة (إلا في غزوة تبوك، وسفر أمير المـؤمنين عليه السلام إلى اليـمن)، وسـابقة حياته، كلّ هذه الأمور تؤيّد هذه الحقيقة، وهي أنّ كنوز المعارف وأبواب العلوم وذخائر النبوة التي كان يتباهى بها أمير المؤمنين عليه السلام والرسائل التي ورثها أهل بيته منه في الفقه والفرائض، ما كانت سوى هوامش تدور حول الآيات ولايمكن أن تكون مـن مـصادر القرآن نفسه.

والمسلمون الآخرون لم يكن لهم هذا الفهم الفيّاض ولاهذا الولع، ولا تلك الملازمة المستمرة، لأنّ اكثرهم أسلموا بعد سنوات من بعثة الرسول صلى الله عليه وآله، ولم يـلازموه دائـما، وكانوا يعيشون في قلق وعدم استقرار بواسطة الهجرة.

ويتضح من الاختلافات التي حدثت بعد مدّة بين المسلمين في ظـواهـر الأعـمال وكيفيّة العبادات كالوضوء والقراءة أنّ عامّة المسلمين لم يكن لهم ذلك الاهتمام برموز تعاليمه صلى الله عليه وآله العامة وأعماله الواضحة المشهودة أيضاً. ويجب الاعتراف ـ بهذه الكيفيّة من الدراسة ـ أنّ جميع المعارف الإلهية، ورموز الأحكام، وحقائق الآيات كانت مخزونة في خزانة اسرار صدر عليٍّ عليه السلام، وانتقلت إلى أهل بيته على شكل أحاديث وكتابة: «هم لجأ أمره، وكهوف كتبه، وخزائن علمه، ومستودع سره».

وعامّة المسلمين التي انبهرت أفكارهم البسـيطة السـاذجة بـبلاغة ظـاهر القـرآن، وتولّعوا به، وكان جُلّ اهتمامهم المحافظة على كيان الاسلام والدفاع عنه وتقدّم النظام، ولم يهتموا بفهم المعارف والأصول الاسلامية، بل كانوا يتصورون أنّه لايجوز الاهتمام بغير واجبهم اليومي، ولذا فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام طوى لسانه وحديثه وكتبه ونفسه وقال: «إنّ مُجتني الثمرةَ قبلَ وقتِ إيناعها كالزارع بغير أرضه... واندمجتُ على مكـنون عـلمٍ لوبُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطُّوىٰ البعيدة».

بناءً على هذا، إنّ معارف أمير المؤمنين عليه السلام وكتبه الخاصة لم تكن مفهومة بـالنسبة إليهم ولم يهتمّوا بها، وربّما كانوا يتصورون أن انتشار مثل هذه المعارف والانشغال بها يكون مصدر عدم التقدم وسبباً في الاختلاف. كما قالوا: «حسبنا كتاب الله»، وكما وقفوا

بوجه نشر احاديث الرسول ﷺ أيضاً[١].

وعليه يجب ان تكتم هذه المعارف والأصول العلميّة الالهيّة عند أهلها، لكي تـزيل الستار عنها شيئا فشيئا حاجات الظروف واستعداد القابليات.

وبعد تدوين القرآن وانتشاره ظهرت الاختلافات اللغوية حسب اخـتلاف لهـجات القبائل، وكل قبيلة كانت تروم أن يتلىٰ القرآن بلهجتها، وكاد هذا الاختلاف العصبيّ أن يضع المسلمين متناحرين، والتقارير التي كانت تصل من هنا وهناك حول هذا الموضوع ـ ومنها الجيوش التي اتخذت موضعها في أذربيجان ـ أقلت زعماء المسلمين، فلذا أصدر الخليفة الثالث «عثمان» باقتراح من «حـذيفة بـن اليـمان» بـجمع جـميع المـصاحف الموجودة لدى المسلمين، وكتبوا عدداً من المصاحف على المصحف المدوّن بلغة قريش وأرسلوها إلى المدن الكبيرة، وأبادوا المصاحف الأخرى. وبـعد تـدوين القـرآن بـلغة قريش، لم يجد الاختلاف في القراءة واللهجة واللحن سبيله الى نصّ القـرآن، وأصـبح اختلاف القرّاء في ألفاظه فقط من قبيل المدّ والقصر والإمالة والاطلاق [٢].

فنشب ـ بالاضافة الى الاختلاف في القراءة ـ البحث النهائي والقول الفـصل حـول معاني المفردات وشرحها وشأن نزول الآيات، وانفتح طريق الروايـات والمـوضوعات الاسرائيليّة الملفّقة بين المسلمين مزامنا مع تفتّح المسلمين وانتباههم إلى إشارات القرآن حول المواضيع التاريخية، وكيفية التكوين، ومع غلق دار تعليم أهل البـيت وتـربيتهم، وأصبح المسلمون الجدد من اليهود وعلمائهم ـ الذين كانوا يتظاهرون بأنـهم المـصدر الوحيد لمعرفة تاريخ الأنبياء والأمم السالفة ورموز الخلقة ـ مراجع للمسلمين في تفسير

---

١) أمر أبو بكر في أيام خلافته بحرق خمسمائة حديث مكتوب، وعندما استولى عمر على الخلافة منع تدوين الحديث، وأصدر أوامره إلى الولايات أن يحرقوا كل حديث مكتوب، ومنع بشدة من نقل الحديث، ولهذا كان تدوين الحديث ممنوعا حتى زمان عمر بن عبد العزيز، وهذا الموضوع مذكور في كـتب التـاريخ والحديث، ومنها كتاب كنز العمال: ٢٣٧/٥.

٢) كان البحث في عصر الصحابة في القراءة واللهجات، وفي عصر التابعين قلّما كان التفسير يتجاوز حدود شرح المفردات والمعاني. واتسع تفسير القرآن في بداية القرن الثاني، و وجدت مباحث ومعلومات أخرى طريقها الى تفسير القرآن. وجاء الاختلاف غالبا من حيث «الامالة» مثل «مالك» و «ملك» و «لا أقسم» و «لأقسم» و التنقيط مثل: «بعد أمة» و «بعدامه».

مواضيع القرآن التي كانت من هذا القبيل، فكانوا ـ من أجل أن ينحرفوا بالمسلمين عن هدي القرآن الواضح، أو من أجل أن يتظاهروا بالقدرة على حلّ كل معضلة ـ يأتون بالأوهام والخرافات والمواضيع الملفّقة التي لم تكن في كتب السابقين أيضا على أنّها تفسير للقرآن، وباتساع رقعة الاسلام، واستقرار المسلمين في البلدان المختلفة، والتوقف عن التقدم وتبليغ الرسالة التي كانوا يحملونها، وجدت الأفكار والفلسفات الايرانية والكلدانية والهندية والصينية إلى أذهانهم سبيلا، وترجمت انواع الكتب العلميّة والفلسفية اليونانية والرومية الى اللغة العربية في بداية الدولة العباسيّة، وأشغلت أفكار المسلمين المستعدة بالبحث والدراسة حول هذه المواضيع الجديدة. ونشب الاختلاف ـ بالاضافة الىٰ الاختلاف المتأصل الذي كان موجوداً حول الإمامة والخلافة ـ حول صفات المبدأ، وكيفية المعاد، والوحي، والنبوة، والجبر والتفويض، وقدم القرآن وحدوثه، والفقة...، إلى حيث ظهرت المذاهب المختلفة، وبرز تدوين علم الكلام، وكانت كل فرقة تتمسّك بالقرآن من أجل اثبات صحة رأيها، وتفنيد الفرق المخالفة، تفسر الآيات وفقا لآرائها.

و المدرسة التي فتحت بابها في خضمّ هذه التناحرات العقائدية هي طريقة العرفان والتصوّف والكشف والشهود. ولم يتقيّد أتباع هذه المدرسة بظاهر الألفاظ والتعابير، واتخذوا سبيل التأويل اللامنطقي بناءً على ما يتذوّقونه فقط وبدون ايّ دليل. وفي هذه الاثناء ظهرت فرقة أدارت بوجهها عن الفلسفة وعلم الكلام وتدخل العقل، وتعبّدوا فقط بظواهر الحديث والروايات الصحيحة والسقيمة، والمستندة وغير المستندة، والاسلامية والاسرائيلية التي كانت مختلطة ببعضها.

وفي خضمّ غوغاء الفلسفة والعرفان والتأويل والتفسير بالرأي كان أئمة أهل البيت عليهم السلام المترعرعون في مدرسة الوحي و النبوة بصورة مباشرة في معزل، وكانوا ينذرون من مغبّة التفسير بالرأي. وكان حقد الحاكمين ومستبدّي العصر يصدّون الجماهير العامة من سماع صوت الهداية من قبل أعلام الوحي، ويمنعون من انتشار اسلوب تعليمهم

وتربيتهم عن إطار رقعة محدودة.

وكلما كانت تتسع مباحث القراءة واللغة والإعراب والمواضيع الكلامية والفلسفية حول آيات القرآن كانت أذهان المسلمين تضيق وتتحدّد عن هداية القرآن العامة الواسعة. وهذة العلوم و المعارف هي بمثابة الأسرجة ذات النور الضعيف المرتعش في صحراء مظلمة تعصفها الرياح. وإن أضاءت ما حولها قليلا، لكنّها حجبت أشعة الكواكب النيّرة، فالظنون التيكانت تطلع رأسها من الأفكار، ثم يُضفيٰ عليها الدليل من القرآن والعقل لإثبات صحتها، أصبحت كالضباب المتراكم المتّسع الذي أحاط بآفاق القرآن، ومنعت من وصول أشعة القرآن المباشرة إلى النفوس.

ولو أطلعَ المسلمون رؤوسهم من بين هذه السحب والافكار والظنون، وبالانتباه والادراك الصحيح لاستنتاجات المحققين المعقولة ذات الأدلّة، واستعادوا تلك البيئة الفطرية النظيفة، فكان من الممكن أن تنعكس على نفوسهم أشعة هداية الآيات، وأن تُثار عقولهم الراقدة التي فقدت شخصيّتها، في سبيل فهم حقائق الوجود وتمييز الخير من الشر. وليس الغرض من العودة إلى البيئة الفطرية الأولى أن نعود إلى تقاليد الحياة والبيت والملابس التي كانت للمسلمين الاوائل، بل هو أن نخلّص أنفسنا من سيادة آراء العصر وأفكاره ومدنيّته التي لم تقم على أساس.

إنّ جملة «هدىً للمتقين» عرّفت القرآن باعتباره كتاب هداية، والمتقين باعتبارهم موضوع الهداية، والقصد من التقوىٰ والمتقين ربما يكون أوسع مما هو مألوف لدى الأذهان، لأنّ هذا الإتّقاء «الوقاية» بمعناه الواسع، هو الكف عن المعاصي في العمل، والكف عن طغيان الشهوات والغرائز النفسية في النفس، واحترام الانسان نفسه وتفضيلها عن نفوذ الآراء والعقائد والمعلومات البشرية وتدخلها في شؤونه في العقل، وهذه هي اسمى مراتب التقوى.

إنّ ذلك التطوّر الذي حدث لأولئك الناس البسطاء الفطريين الأوائل، تلك العُقَد التي انحلّت، تلك الحركة العقلية والمعنوية والإصلاح الخُلُقي والاجتماعي الذي ظهر كان كلّه

بسبب هداية القرآن الصريحة غير الملوثة.

فالآيات التي كانت تشع على النفوس من لسان رسول الله ﷺ والمسلمين المؤمنين بعيدة عن حجب المصطلحات والمعلومات، لو كانت آن ذاك تُمزَج بالبحوث الأدبية والكلاميّة والجدل، وتتشكّل حوزة الدرس لفهم مثل هذه المواضيع، بدون شك لم يكن لها مثل هذا الأثر. وبالقياس إلى إتّساع الرقعة الاسلامية، وتغيير معيشة المسلمين، وإشاعة العلوم الجدلية، وظهور الاخصائيّين الفنيّين أصبحت الأذهان محدودة، وتجزأت آيات القرآن من وراء عدسات معلومات البيئة، وظهرت بلون تلك العدسات، وأعرض وجه فطرة الجماهير عن انعكاس نور هداية القرآن التام الشامل، وكل فرقة حدّقت نظرها إلى القرآن ـ بناءً على أذواقهم ـ من نافذة آراء المفسّرين وكتب التفسير، وكلّ فرد من المفسّرين فسّر القرآن في حدود معلوماته وفنّه.

فالبعض كتبوا التفسير على ضوء فن المعاني والبيان والبلاغة والأدب والإعراب كالزمخشري والبيضاوي، والبعض الآخر طووا آيات القرآن في غشاء مواضيع الكلام والفلسفة واصطلاحاتهما، كالفخر الرازي، أو العرفان والتصوّف والتأويلات، مثل عبد الرزّاق الكاشاني، والآخر اكتفىٰ بنقل الأحاديث والروايات، كالطبريّ من العامة، والمفسّر الجليل «الصافي» من الخاصّة.

إنّ مواضيع المفسرين وتحقيقاتهم المستندة الصحيحة تكون مؤثّرة في فهم القرآن من أجل الهداية عندما تكون انعكاسا من أشعة هداية القرآن، لا أنّها منظورة من زاوية أنظار هؤلاء، فالاحاديث الصحيحة المستندة إلى مصادر الوحي تدور حول تأويل المجملات وتطبيق الكليّات وبيان جزئيات الأحكام وتوضيح الهداية، ومثل هذه الأحاديث لايمكن أن تكون حجاباًللقرآنٍ هو كتاب نور وهدى وموعظة للمتقين.

فالقرآن الذي هو أسمى من حيث الدلالة والسند، كيف يمكن أن يستندفهم هدايته إلى الأحاديث؟ إنّ القرآن يخاطب المؤمن والكافر وعامّة الناس باعتبارهم يبحثون عن الهداية، لا باعتبارهم أدباء أو متكلّمين أو رواة حديث،

فالنظر إلى القرآن كالنظر إلى النبع الفيّاض الذي يصعب النظر إليه. ولابد من النظر إليه، وهل يمكن للانسان أن يغضّ النظر عن النور، مع العلم بأنه صنيعه وعاشقه؟ فالقرآن نور من نور السماوات والأرض «اللهُ نورُ السماواتِ والأرضِ» الذي شعّ على قلب نورانيّ، وانعكس منه على شكل الفاظٍ ومفردات، فاذا لم يكن التحدّق إلى مصدره وحدّه الأسمى، لايمكن أن يغضّ النظر عن مرتبته الدنيا وانعكاساته.

إنّ كتاب الهداية هذا الذي يجب أن يكون ـ كنصف القرن الاسلامي الأول ـ سائداً على جميع الشؤون النفسية والأخلاقية والحكم والقضاء، أصبح في معزل عن الحياة بصورة تامة، ولم يتدخّل في أيّ شأن.

انّ دنيا الاسلام التي كانت في يوم من الأيّام في الطليعة والقيادة بقيادة هذا الكتاب، أضحت اليوم تابعة، والكتاب الذي كان سند الدين والسائد على جميع الأمور، صار كالاشياء الأثريّة وكتاب الأوراد ذاسمة تبرك وتقديس فقط، وفي معزل عن الحياة العامة، ومشرفا على عالَم الأموات و مراسيم الغفران وتلاوته تعلن عن الموت.

إنّ دنيا الصناعة والاختراع التي افتقدت شخصيتها، ودنيا المسلمين المندحرة لم تنتبه إلى أنّ للقرآن موضعاً في الحياة ولاتصدّق ذلك، وكلتا هما تقولان بصراحة وبلسان الحال: أيّة حاجة الى دستور القرآن إلالهيّ مع تقدّم العلوم والاختراعات الباهرة والكواكب المثيرة للعالم؟ مع العلم بأنّ هذه كلّها يمكن أن تأتي بالفلاح وتهب السعادة في ظل الهداية المديدة، فان كانت الهداية قد ارتحلت بصورة تامّة من الانسانية وسادت عليها الشهوات والتحرّكات النفسيّة، فمهما تُستَخدم قوى الطبيعة بصورة اكثر ازداد الظّلام والاضطراب، واقترب انهيار البشرية اكثر فاكثر. ومهما كانت هذه الاختراعات عجيبة ومهمّة لم تكن أكثر من أدوات حياة، ولم تكن بنفسها غاية نهائية، ولذا فإن السؤال يطرح نفسه دائما: لماذا هي، وإلى أين تريد بالانسان؟ وهل أنّ قيمتها بالمستوى الذي لاتكون سببا للضرر والشقاء والكبر والفساد في الأرض، وتُستَهلك في سبيل خير الانسان وسعادته؟ هناك أيضاً سؤال: كيف يمكن الوقوف بوجه الضرر والشقاء والفساد، وماهو

الخير والسعادة، وكيف يمكن الوصول إليهما؟ الخير والسعادة الحقيقيان هما الهداية إلى نتائج وجود الانسان نفسه والموجودات الأخرى وغاياتها.

إنّ القرآن الكريم يوضح علائم التكوين والإبداع بالفوائد البدائية والهداية إلى الغايات النهائية، والآيات (١٠ ـ ١٤) من سورة الزخرف تقول: ﴿الذي جَعَل الأرضَ مَهداً وجَعَلَ لكم فيها سُبُلاً لَعَلَّكم تهتَدونَ* والذي نَزَّل مِن السماء ماءً بِقَدَرٍ فَأنشَرْنا به بلدةً مَيْتاً كذلك تُخرَجُونَ* والّذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها وجَعَلَ لكم من الفُلْكِ والأنعام ماتَركبونَ* لِتَسْتَوُوا علىٰ ظهورِه ثمّ تذكروا نِعمةَ ربّكم إذا استَويْتُم عَلَيْهِ وتقولوا سُبحانَ الّذي سَخَّرَ لنا هذا وماكنّا له مُقْرِنين﴾.

ويقول في سورة النحل في الآيات. (٣٠ ـ ١٧) حول الفوارق بين خلق السماوات والأرض وما يستفيد الانسان من لحوم الحيوانات وأصوافها وجلودها وحملها الأثقال، وجمالها في الذهاب والإياب، وإنزال المطر ونتائجه، وتسخير الشمس والقمر وما يخرج من الأرض، وتسخير البحر وما يستخرج منه واختراع الفُلك: «وعلى اللهِ قصدُ السبيلِ ومنها جائرٌ ولو شاءَ لَهَدَاكُم اجمعين. لآيات لِقَومٍ يتفكّرون. لآيات لِقوم يعقلونَ. لآيات لِقومٍ يذكرون. ولعلّكم تشكرون، لعلّكم تهتدون. أفلا تذكّرون».

وفي سورة ابراهيم، الآية ٣٨، بعد أن يبيّن خلق السماوات والأرض وإنزال المطر والثمرات الناتجة منه، وتسخير الفلك، والانهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وما يحصل من جرّاء البحث، والنِعَم التي لاعدّلها، يقول: ﴿إنّ الانسانَ لَظلومٌ كفّار﴾.

وفي سورة الحديد، الآية ٢٦، حول الحديد وفوائده وغاياته النهائية ووجوده في متناول اليد يقول: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ ولِيَعلَمَ اللهُ من ينصُرُهُ ورسُلَهُ بالغيب...﴾.

فالهداية الىٰ الغايات تستخدم القابليات اكثر فأكثر الى العمل، وتتقدّم بالقوى البشرية في طريق الخير والصلاح، وكلما يكون تحت تصرّف الانسان يُستخدم في طريق الأمن والكمال، وهذا هو الطريق الأقوم الذي لايُمَهَّدُ من قبِل أيّة مدرسة وكتاب سوى مدرسة

أكنّة، وَقر، غلف، أقفال، وكأنّ كل واحد منها يشير إلى نوع من الحجب له صلة بأحد المدارك الباطنيّة: فالحجاب الذي يستوعب أعماق الضمير، أو يحجب ما حوله، أو يمنع الأذن والعين الباطنيّتين من السمع والبصر. أو الحجاب النفسي غير المكتسب: كالذين لم ينتبه عقلهم الفطريّ بسبب عدم التفكير، وبقيت نظرتهم في اطار بيئة ظواهر الحياة الدنيا. والمعلومات والعلوم المكتسبة التي تثير الغرورَ والعُجْبَ هي أيضاً من الحجب التي تمنع من تدبّر الآيات ومعرفة الهداية، وما اكثر الاصطلاحات والعلوم التي تستخدم في سبيل فهم الدين وآيات الكتاب الحكيم أصبحت حجاباً عليها، وتفاسير للقرآن والتفسير هو فنّ المفسّر ومعلوماته والمفسّر يسند جميع آرائه وأفكاره إلى الحد الذي يريد إلى القرآن ويثبتها بواسطة آيات الوحي، وربّما هناك احاديث وروايات مطعونة من حيث السند والدلالة، وغريبة عجيبة من حيث المفهوم تأتي في التفسير وحول الآيات التي هي برهان الحق، ونور مبين، وهُدىً للمتقين، فتكون عليه كنسيج العنكبوت وربما كان البعض من أصحاب النظرة الضيّقة الجامدة في وجه التعبّد بالدين لايجوّزون تفسير جميع آيات القرآن الهادية إلّا بالروايات الاسلامية وغير الاسلامية التي لم يجرعليها الجرح والتعديل. مع العلم بأن مثل هذه الروايات التي جاءت في التفسير والمعارف لم تتنقّح مثل أحاديث الفقه والاحكام وماتنقّح منها لا يستوعب تفسير جميع الآيات.

وبناءً على هذا الرأي، يجب أن تعرض جميع آيات القرآن على الروايات، مع العلم بأن الروايات يجب أن تعرض على القرآن، كما يجب أن يتوقّف هدي القرآن قبل صدور هذه الروايات بمدة غير قليلة. «وكما اشرنا سابقاً، فإن الأحاديث الصحيحة من حيث السند، المتينة من حيث الدلالة تفسّر آيات الاحكام. وتؤوّل المتشابهات، وتبيّن بطون القرآن، وهذا غير فهم هداية القرآن».

واكثر من هذه الحجب، هي الحجب الأخرى من الأمراض النفسيّة المكتسبةُ الموروثة، والانحرافات الفكرية. والطبائع الوضيعة كالغرور والكِبر والحسد، والتي لكل منها مصدر وعلاج.

إنّ مثل هذه الحجب هي التي تفسد ذائقة فهم كل حقيقة، وتمنع من الالتذاذ بفهمها، وتلتوي بدويّ آيات الحق، وتمنع نفوذها إلى الضمير الانساني، لأنّ اكثر المسلمين يواجهون مثل هذه الحجب، فأصبحوا محرومين من هداية القرآن واتّباعه. ولو كان المسلمون يتبعون هدىٰ القرآن الأقوم، فلماذا أصبحوا مشتّتين، أذلاّء، حائرين، فاقدي شخصيّاتهم، وبدلا من أن ينهضوا بالأقوَم التصقوا بالأرض أو غرقوا في سُبات. واذا أرادوا النهوض والسير يأخذون طرق التقليد الأعمى من الآخرين؟!

إنّ المسلمين مسؤولون أمام الله تعالىٰ عن كتاب الله، لا عن أقوال المفسّرين، ولا عن الروايات القاصرة التي لم يثبت سندها الى مصادر الوحي

وبا تّخاذ «الاتّقاء» من الحجب المشار اليها وأمثالها، يشع نور هداية القرآن على القلوب: «هُدًى للمتقين»، ويظهر جمال ذلك الوجه دائما، وينتشر ظلّ رحمته الوارف على رؤوس المسلمين المرعوبين، ثم على الدنيا الحائرة.

«عروس حضرة القرآن تميط عن وجهها النقاب عندما تكون دار مُلك الإيمان نزيهة من الغوغاء[1]».

إنّ مايؤثر في فهم هداية القرآن بعد الإتّقاء من الحجب هو:-

١ ـ البحث عن مادة المفردات، وفهم المعاني ومفاهيم عصر النزول العامّة، وفصلها عن المعاني والمصطلحات المستحدثة، مثل مفاهيم: الإيمان، الكفر، النفاق، القلب، المحكم، المتشابه، والتأويل وأمثال ذلك .

٢ ـ التدقيق في النقاط المقصودة والإشارات الملحوظة والمقايسة في الأسلوب، والالتفات إلى سر الإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والحذف والإبدال، والتشبيهات والكنايات، والأمثال والعبر، والتعبيرات البلاغية. ولم يكف فهم فنون البلاغة المتعارفة فقط لمعرفة بلاغة القرآن الواسعة المتنوّعة. بل بالتأمّل والتفكير الحرّ يمكن التعرّف على رموز بلاغة القرآن، فتكون هذه المعرفة شيئاً فشيئاً على شكل مَلَكةٍ، كما أنّ

١) النص ترجمة بيت شعر فارسيّ استشهد به المؤلّف رحمه الله. (الترجمان)

العربيّ البسيط كان يتمكن بفطرته الحرّة وملكة فهم الدقائق من معرفة رموز بلاغة كلام الله ونفوذه. وكثير من المحققين في البلاغة ورموزها محرومون من فهم دقائق القرآن، وكلامهم في مستوى كلام العامة، وكثير من علماء الأدب والشعر يعجزون عن انشاء الشعر السلس والمؤثّر.

٣- معرفة الأخلاق النفسية، والقوى الباطنية، وتحليل المبادىء الفكرية، والشهوات، والغرائز، والعواطف، والتطوّرات الاجتماعيّة، واسرار رقيّ الشعوب وانحطاطها.

٤- الانتباه العام إلى بيئة العرب الجاهليّة، وعند نزول القرآن، والتمثّل بالبلاغة الفيّاضة، والفطرة الحيّة، والفضاء المفتوح وسمائهم المنيرة، والبيئة التي كان فيها آيات القرآن تجتذب القلوب، وتقهر العقول، وغيّرتهم الىٰ حدّ أنّهم كأنما خُلِقوا من جديد.

٥- على أهل الرأي من العلماء والمحقّقين أن يجعلوا كليّاتهم العقليّة والفلسفيّة ومعلوماتهم في طريق فهم هداية القرآن، لا أن يحدّدوا القرآن بانطباعاتهم.

٦- يجب الرجوع إلى الأحاديث المحققة التي تستند الىٰ مصادر الوحي والأئمة الطاهرين عليهم السلام من حيث السند والدلالة الصريحة في تأويل المتشابهات، وفهم آيات الأحكام، واستنباط الفروع.

اسلوب هذا الكتاب لفهم القرآن من حيث الهداية:

إنّ الأسلوب المُتخذ في هذا الكتاب للناطقين باللغة الفارسيّة ـ لَربما تستقر أشعة آيات القرآن في أذهان من يتلقّونه بصورة اكثر، فيستفيدون من هدايته ـ هو: في البداية يأتي بعدد من الآيات المترادفة بأرقامها، ثم تأتي ترجمة الآيات ترجمة تطبيقيّة الىٰ اللغة الفارسية بحيث لم تخرج عن نطاق معاني المفردات الصحيحة [1]، مع العلم والاعتراف بهذه الحقيقة وهي أنه مهما جرت الدقة في ترجمة القرآن وبأية لغة كانت لم تكن معجزةً كآيات القرآن، فلم يكن لهاذلك الأثر المستولي على القلوب، ولاذلك

---

١) هذا فيما يخصّ النصّ الفارسي الذي يحتاج الىٰ الترجمة، أما العربيّ فلا يحتاج إليها. (الترجمان).

الاحترام الشرعيّ والحكمي.

إنّ معاني القرآن الرائعة التي تشبه البحر المائج لاتسفر عن وجهها إلّا في قالب التعابير التي صنعها القرآن! ولا يوصِلُ تلك المعاني والاشارات والرموز كما ينبغي أيٌّ قالب وتركيب آخر، إلى درجة بحيث لو تغيّر حرف أو كلمة، تتغير معانيها وأغراضها واشاراتها ولحنها. بناءً على هذا، فكلّ ترجمة قاصرة عن أيصال القصد القرآنيّ، إلاّ أن توضّح وتفسّر.

ثم توضّح معاني المترادفات وموارد استعمالها ومادة المفردات عند اللزوم ليتفتّح مجالٌ أوسع في فكر القارئ لتفكير أوسع. عندئذٍ يُوَضّح ما شع على الفكر بصورة مباشرة من نصّ الآيات، وتارة يستفاد من الأحاديث الصحيحة وآراء المفسرين عند الإقتضاء، ثم ينعكس ماوصل الىٰ فكر الكاتب وتجلّى في ذهنه، لَربّما يتعرف القارئ بنفسه على رموز هداية القرآن بصورة اكثر ويتحقّق الايمان التقليدي بكماله، وأن يغوص الباحثون في أعماق الآيات اكثر فأكثر.

إنّ ماكتبَ حول الآيات او في نصّها طرأ على الفكر من تعلّق القلب بالآيات في أوقات فراغ الفكر عن أمور الدنيا، والانصراف من الآمال والأمنيات الخدّاعة، والجزئيّات اللاهية، أو من البحث والدراسة في التفاسير. عندما كانت تعتريني العناية التامة بالآيات احيانا في جلسات البحث التفسيريّ (التي كانت تعقد منذ سنوات لطبقة الشبان) و احدّق النظرة بنظرة الشبان الطاهرة الجذّابة، تلوح أشعة من خلال الآيات موضوعة البحث، والآن وبعد سنوات طويلة. أريد أن أستعيد تلك المواضيع إلى الذاكرة، وأسجّلها على القرطاس، أرى ـ مع الأسف ـ أنّ كثيراً منها كالبرق الخاطف والانعكاس المرتعش رحل عن مرآة ذاكرتي، وبقيت لمحات منها تشع على أطراف الذاكرة، واكثرها مذكّرات ناقصة ومُبَعثَرة، سُجّلَت في زوايا الذاكرة والأوراق، والتي أحاول الآن ـ بتوفيق ملهم الحقائق ـ أن أصنّفها على صورة كتاب.

إنّ ما يُكتَب حول الآيات أو من ناحية هداية القرآن ليس له اسم تفسير (إزاحة

الستار) ولا يعتبر بأنه قصد القرآن النهائي، ولذا وجدت اسم «اشراق من القرآن» اكثر مناسبة له، لأنّ ما كتب أو يُكتب باسم «تفسير القرآن» لا يخرج عن اطار أفكار المفسّرين ومعلوماتهم، مع العلم بأنّ القرآن جاء لهداية جميع الشعوب وفائدتهم في كل عصر إلى يوم القيامة.

إذاً لا يمكن أن يستوعب ظرف فكر شعب من شعوب العصر أعماق حقائقه، وإذا كان كذلك لانتهىٰ، و يبقى الآتي خلف المسيرة التكامليّة ، ولم تبق أية فائدة للأجيال القادمة.

إنّ تقدّم العلم والعصر هو الذي يتمكن أنْ يميط الستار شيئاً فشيئا عن بواطن القرآن وأسراره، كما أنّ المحقّقين الإسلاميّين بدأوا بتفسير القرآن من بداية القرن الثاني، وبعد ذلك كُتب الكثير من التفاسير للقرآن الكريم طُبعَ بعضها، ولم يبق من البعض الآخر سوى الاسم. «أوّل تفسير كتب في أوائل القرن الثالث الهجري والذي لايزال في متناول الأيدي، هو تفسير جامع البيان للطبري». ومع كل هذه التحقيقات والتفسيرات التي كتبت حول الآيات مع بذل المساعي وتحمّل المشاقّ، وعدم وجود الأدوات، لم يكن مورد استفادة الناس كما ينبغي في هذا العصر.

فالذي يريد استفادة اكثر من الآيات المبحوث عنها في هذا الكتاب، عليه: أوّلاً ـ أن يعتني بالآيات وترجمتها والتدبّر فيها.

ثمّ ـ يتفهّم المفردات.

بعد ذلك ـ يدقق النظر في البحث حول الآيات. ولما كان شرح المفردات والمصطلحات الخاصة التي هي بمثابة قاموس للقرآن قد جاءت في هذا القسم، يكون هذاالقسم ـ بالطبع ـ اكثر تفصيلا من الأقسام الأخرى. واذا تكررت الكلمة الغريبة أو الآية في مكان آخر، يشار الى الآية السابقة أو رقمها فقط.

واتخذت هذا الأسلوب في بيان هداية القرآن، لَربّما يتجلّى وجه القرآن للناطقين باللغة الفارسيّة، ويجمّلون أنفسهم بجمال الهداية القرآنية والكمال القرآني، ويصحوا المسلمون الذين خسروا أنفسهم في مقابل فلسفة الحياة والصناعات الخلّابة، والتعلّق

بالحضارة الفانية التي صنعتها عقول البشر الناقصة، ويتّخذون طريق الخير والصلاح، ويتمتّعون اكثر فأكثر من رؤوس أموالهم العقلية والروحيّة والماديّة.

لوكنّا نتعرّف على تعاليم القرآن وهداه والطريقة والأسلوب الذي يعرضه من أجل أن نحيا حياةً «طيبة»، ونعرّف به الآخرين في دنيا الحيرة والوحشة هذه، سوف يعترف طالبو الحق والهداية أكثر من هذا بأنّ هذا الكتاب كتاب سعادة البشر عامة قبل أن يكون كتاباً للمسلمين.

هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي يخصّ ضمير كلّ انسان، وهو ضمير مبدأ المؤسّسة الانسانية النشطة، ويمكنه أن ينير الباطن الانساني بين ظلمات المادّة، ويجعله ساطعا كالليل المليء بالقمر والكواكب، وعندئذ يبدي فجر الضياء من أفق الباطن.

وهذا واجب علماء الدين وحرّاس سرادق النظام الوحيد أن يوضّحوا جمال أحكام القرآن وأسراره وهدايته اكثر فأكثر، ومهما امكنهم أن يعرضوا زوايا من الاشارات والحقائق والدقائق حيث قال: «للقرآن عبارات وإشارات ولطائف وحقائق، فالعبارات للعوام، والإشارات للخواص، و اللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء».

نظرة في بعض الاحاديث حول التمسّك بالقرآن:

الكافي «محمّد بن يعقوب الكليني ومحمّد بن مسعود العياشي في تفسيره» عن الامام الصادق عن آبائه عليهم السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس إنكم في دار هُدنة وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار، والشمس والقمر يبليان كلَّ جديد، ويأتيان بكل موعود؟ فأعِدّوا الجهاز لبعد المجاز» قال: فقام المقداد بن الاسود وقال: يا رسول الله، ما دار الهُدنة؟ فقال: «دار بلاغ وانقطاع، فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفع، وماحل مُصَدَّق، ومن جعله أمامَه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره

انيق، وباطنه عميق: له تخوم وعلى تخومه تخوم، ولا تحصى عجائبه، ولاتبلىٰ غرائبه، فيه مصابيح الهدىٰ ومنار الحكمة ودليل المعرفة».

وعن الامام الصادق عن رسول الله ﷺ قال: «القرآن هدىً من الضلال، وتبيان من العمىٰ، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا الآخرة، وفيه كمال دينكم، وما عدل أحدٌ من القرآن إلّا الىٰ النار».

حديث آخر: «تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفُوا بنوره فإنّه شفاء للصدور، وأحسِنوا تلاوته فإنه أنفع القصص... فالقرآن آمر وزاجر، و صامت وناطق، حجّة الله على خلقه، أخَذَ عليكم ميثاقه، وارتهن عليه أنفسهم، أتَمّ به نوره، واكمل به دينه، وقبض نبيّه ﷺ وقد فرغ الىٰ الخلق من احكامه، الهدى به».

أيّها القارئ العزيز، إذا وجدت في مواضيع هذه المقدمة وقسم من الكتاب خطأ أو غفلةً فذكّر، واسمح لي، لأنني كنت منقطعا عن كل مكان في وقت الكتابة، ولم تصل يدي إلى أي مصدر، كالانسان الحيّ أعيش وسط القبر.

شرحُ ذا الهجرِ وشجوِ الخاطِرِ دعه ذا الوقت لوقتٍ آخـرِ[١]

فرّج الله عن الاسلام والمسلمين بمنّه وفضله ورحمته

السيّد محمود الطالقاني

ربيع الأوّل ١٣٨٣ هـ ق ـ مرداد ١٣٤٢ هـ ش.

١) شـرح ايـن هـجران وايـن خـون جگـر ايــن زمــان بگــذار تــا وقت دگــر



مكيّة، ٧ آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿اَلحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمينَ ﴿٢﴾ اَلرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نستَعِينُ ﴿٥﴾ اِهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِراطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾

شرح كلمات البسملة:

اسم: من السموّ بمعنى العلو، وذلك بدليل مشتقاته، لا من السِمَة بمعنى العلامة، لأنّ اسم المشاهير من الناس، صفات الأشخاص أو الموجودات وآثارهم المعروفة توجب رِفعتهم، وبروز شخصيّتهم في الأنظار. «تسقط همزة الاسم عند اتصال الباء بها في الكتابة في جملة البسملة فقط».

الله: خاصّ وعَلَمٌ لحقيقة الذات المقدسة، للجامع لجميع الكمالات، المنزّه من كلّ نقص. وما يلفت النظر بهذا الاسم هو مبدئيّة جميع الكمالات، لا الذات، لأنّ الذات الإلهيّة

أسمىٰ من التصوير والتعقّل وتحديد العقل والفكر المحدود، وما هو مطلوب من قبل الانسان أن يتنبه إليه هو نفس مبدأ الصفات والكمالات الظاهر في العالَم، إذاً فكلمة «الله» مع أنّها اسم ذات وعَلَم فهي تعطي المعنى الوصفيّ. والأصل اللغويّ أيضاً يدلّ على هذا المعنى الوصفيّ الذي جاء من «أَلَهَ» بمعنى: عَبَدَ، تَحيَّرَ، تَضَرَّعَ، سَكَنَ. إلٰه: اسم معبود، سواء كان حقاً أم باطلاً. «الله»: مع حذف الهمزة واضافة الألف واللام، هو اسم المعبود الحقّ. إذاً «الله» اسم جامع الصفات، والصفات كل واحدة منها اسم لهذه الحقيقة الجامعة.

الرَّحمنِ الرَّحيم: كلاهما من الرحمة. رَحمٰن على وزن فَعلان للمبالغة، ومن ناحية زيادة مادة الكلمة تدلّ عَلى الرحمة الواسعة وازديادها. والرحيم فيها دلالة على الرحمة الخاصّة والمحدودة، أو الاولىٰ للصفة الذاتية، والثانية رحمة اضافيّة، أو الأولى مثل عطشان عارضة، والثانية مثل عليم وحكيم ذاتية.

جاء في الروايات: الرحمن لجميع الموجودات، والرحيم للمؤمنين، أو الرحمن في الدنيا والآخرة، والرحيم في الآخرة. وعن الإمام الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص لصفة عامّة (لأنّ هذه الصفة لاتقال لغير الله)، والرحيم اسم خاص لصفة خاصّة. فالأولى تأتي في الآيات والتعابير بصورة مطلقة، والثانية تضاف: رحيم بعباده، رحيم بالمؤمنين.

ان هاتين الصفتين للِهِ تعالى، ويمكن أن تكون بدلاً أو عطف بيان من الاسم أي ذلك الاسم الذي هو الرحمن الرحيم.

الأثر الفكريّ والاخلاقي للبسملة وتكرارها:

إن القرآن الذي هو كتاب التوحيد الوحيد، وجاء من أجل تكامل البشر الفكري الاخير، تبدأ سوره بالبسملة، لينتبه الإنسان إلىٰ أنّ جميع تعاليمه وأوامره هي من مبدإ الحق ومظهر الرحمة (سوىٰ سورة التوبة التي تدل آياتها على القهر والغضب على المعاندين الحاقدين على الحق والخير وإعلان قطع صلة الرحمة عنهم). والأمر بهذه الكلمة لهذا السبب، وهو أن يدير بوجه فكره وقلبه عن غير الله، لينظر الانسان كلَّ العالم

وكلّ عمل من زاوية التوحيد، ويتّجه من التشتّت الفكري نحو الوحدة والصلة، ويـزيل أسماء الأصنام والأوثان وأصحاب السلطة الذين كان يذكرهم في بدايـة الأمـور عـن ذاكرته ولسانه، سواء العرب أو غير العرب. ويختم على القلوب والألسن ختم اسم الله مبدأ الرأفة والرحمة والخير. ليستمد ـ بالاهتمام بهذا الاسـم ـ قـوةً أكـثر مـن قـابليّته ويستخدمها عند الإقبال على كل عمل، ولا يعتمد على قوته المحدودة فقط، وبهذا تكون قوّة العمل والأمل بالنتيجة أكثر، بل العمل نفس النتيجة، لأن نتيجة كل عمل هي الحصول على القوة، هذه الفكرة نفسها تستحصل القوة وهي صورة لاستمرارية العمل. إذاً إذا تم العمل باسم غير الله أو غفلةً عن اسم الله لا تحصل تلك الفائدة والنتيجة التـي تـليق بالعمل الانساني الرشيد، كما قال عظماؤنا: كل عمل لم يبدأ ببسم الله فهوأ جدع ابتر.

إنّ الإنسان الذي يرىٰ نفسه عاجزاً في هذا العالم بوجه عوامله ومناظره، يتطلّب ملجأً من حيث يدري أولا يدري، ولما كان جاهلا بنتيجة أعماله وخائفاً منها يتّجه نحو قدرة ليطمئنّ قلبه بها، ويحرّر نفسه من القلق عند الإقدام، ولهذا فإنّ جـميع الشـعوب كـانوا يبدأون أعمالهم المهمّة باسم الالهة وأرباب النوع والسلاطين. والقرآن يأمر بأن تكـون البداية باسم الله الرحمن الرحيم، وارتباط الفكر به، ليتخلّص من التشتّت، ولا يجد القلق إليه سبيلا، ذلك الله الذي لم يكن كأرباب النوع والسلاطين والأصنام حاقداً، سيّئ الطبع، ويركض وراء شهواته، بحيث يكون تارة رؤوفاً وأخرىٰ غضوبا، يسالم جماعة ويحارب أخرىٰ (وما اكثر اساطير حرب الالهة وسلمها ورأفتها وغضبها في التاريخ).

﴿الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ ○ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾:

الحمد والشكر والمدح واحد، وهو في مقابل النعمة والمساعدة، دون الالتـفات إلىٰ كمال المنعِم ومقامه ومنزلته. والمدح: هو الثناء على الممدوح بلحاظ كماله وجماله، دون الالتفات إلى النعمة والاحسان والحمد: جامع معنى الشكر والمدح، لذا يأتي تارة بمعنى الشكر أي الممنونيّة، وتارة بـمعنى المـدح أي الثـناء. والألف واللام يـمكن أن تكـون للجنس، اي جنس الحمد وطبيعته، ويمكن أن تكون للاستغراق بقرينة ربّ العالمين، أي إنّ

كل حمد من كل حامد سواء كان بلسان اللفظ أو بلسان الوجود الذي هو ظهور التربية والكمال يختصّ بذات مبدأ الكمال الذي هو ربّ كل عمل. ربّ: مصدر من ربا يربو، أو من رَبَّ يَرُبُّ، مثل نَمَّ يَنُمُّ. وهو بالمعنى الوصفي للمبالغة، أي ذلك المبدأ الذي صفته الذاتية تكميل الموجودات والعالمَّيين وإبداعها وإيصالها إلىٰ الكمالات التي تليق بها.

العالمينَ: جمع العالم يقال لكلّ نظم واندماج كلّ فصيلة من الموجودات التي توجد في ظروف وقوانين خاصة عالَماً، لأن هذا النظم والاندماج هو الذي يتعلّق به العلم، مثل: عالَم الجمادات، والنباتات، والحيوانات، والكواكب، والملائكة. وهذا الجمع ـ جمع المذكر السالم هو للعقلاء، وهنا إمّا أن يكون القصد الموجودات ذوات الفكر والعقل، أو جميع الموجودات و عوالمها بلحاظ نوع من الشعور أو القابليّة الموجودة لدىٰ الجميع، أو بلحاظ أنّ مسيرة جميع الموجودات التكامليّة هي الوصول إلىٰ العقل وظهوره، وهذا المعنى يلائم كلمة ربّ التي بمعنى كمال التربية.

وان كانت جملة «الحمد لله» جملة خبرية لكنّها تعطي معنى الانشاء، أي إنّ ما يدركه العقل المفكّر من الخيرات والنعم والصالحات والكمالات يُعَبَّرُ عنها بهذه الجملة، ولما كان العقل عاجزاً عن إدراك الجميع، فعليه أن يكون هذا التعبير بكلام الله المحيط بالجميع وتلقينه، ليؤدّي واجب الحمد بصورة أفضل، فالألف واللام للاستغراق، واللام للاختصاص بالله الذي هو جامع الكمالات ومبدأ جميع الخيرات مع وصف الربوبيّة، تدلّان على الحصر، أي إنّ كلّ نعمة وكل كمال موجودان وعلى أية صورة هما من ذلك المبدأ و الذات المقدّسة. والجمل التالية هي كالمثال والشاهد علىٰ هذا الحصر والإختصاص، لأنّه مربّي جميع العوالم (ربّ العالمين) أي يهب النمو للجميع من لحاظ الذات والصفات. إذاً فكلّ نعمة هي منه، وكلّ حمد من كلّ حامد منتبهٍ أو غير منتبه بواسطة أو بغير واسطة فهو له، لأنّ جميع النعم والكمالات تبد به، ولأنّ الانسان جامع كمالات الموجودات الأخرىٰ، وله مقام الحمد الجامع، وإيداء هذه الكلمة التي هي في الحقيقة اهتمام بالقابليّات الباطنيّة وأمل بكل كمال وتقدّم، يليق بالانسان.

أيّ أثرٍ لتكرار الحمد وصفة الرحمة؟

هذا الانسان هو الذي يضع حبل عبوديّة غير الله الذي هو الكمال المطلق في جيده عندما يُبتلىٰ بقصر النظر ونسيج التخيّلات والأوهام، ويغفل عن قابليّاته الباطنيّة ولياقة مقام الحمد، ويطأطئ برأسه أمام كل شبح بلا روح عاجز، ويطلق لسانه بالحمد والثناء على كل ذي سلطة فارغ عاجز، و مع الشعور بحقيقة حمد الله والالتفات إلىٰ القُوىٰ الباطنية والانفتاح نحو العالَم الكبير يمكن أن يُطلَق من هذه الأشراك، وأن يطفر من هذه البيئة المظلمة، ويدير بوجه قلبه عن غير الله، ويجعل العقل والقابليّات الراقدة يقظةً نشطة، وأن يصل إلىٰ الرفعة والعزّة بحمد الله وثنائه عن الا ستجداء والذل والاستكانة في رحاب غير الله. إنّ الانسان يصنع لنفسه بنسيج الخيال والأوهام الواهية، والوحشة والخوف المهلهل محيطاً مُتعباً، رهيباً، كلّه ألم وتعب ومشقّة، وبالتالي التشاؤم بنفسه وبالعالم، وفي مثل هذا المحيط يلتفّ حول نفسه كالدودة، ويضطجع في وسط لفّافته خائباً يائساً خاملاً، وبعد مدة لم يبق منه سوىٰ الجلد. فتعليم الحمد هو من أجل إيجاد الأمل وتمزّق هذا المحيط. وكلمة الحمد كالحُلّة النورانيّة التي تغطي محيط الحرمان المظلم المحدود والتنازع إلىٰ البقاء، وتبعده عن مجال النظر، وتفتح العين للعالم المليء بالجمال والنعمة والتربية، وبنظرة التفاؤل والخير ينسىٰ الألم والتعب والتشاؤم والتفكير بالشر.

يعتبر الحمد والثناء مختصّا بالمبدأ الذي شمل بلطف تربيته جميع أنحاء العالم والموجودات كافة، يهب القوّة لكل عاجز، يهب الروح لمن لا روح له، ويعطيه ما يليق بشأنه من مستلزمات الحياة، ويجعله أفضل مما هو عليه الىٰ أن يزينه بجمال العقل، وعندئذ يثير ـ من إجل إكمال تربيته ـ الأنبياء وذوي الحجىٰ العظماء، فيجعل أمام عينيه الشرائع والقوانين ويتمّم التربية التكوينية بالتشريع، ولذا فقد جاءت آيات التكوين بالتشريع، ولذا فقد جاءت آيات التكوين والتشريع معاً فيالقرآن الكريم الذي هو مظهر

التربية وارادة الحق، ويعتبر الكل أثراً لقانون التربية.

وبهذا البيان فإنّ حقيقة كلمة الحمد تتّسع بسعة العالم الكبير، فمهما تفتّحت أسرار العالَم وتقدّم عقل الانسان اكثر، واتضحت مجهولات نظام الطبيعة والنباتات والحيوانات الصغيرة والكبيرة، وعُرِفت مسافة الكواكب وأجهزة الحيوانات الباطنيّة والظاهرية تتجلّى حقيقة الحمد والاهتمام بتربية العالم بصورة اكثر، وتتعمّق واقعيّتها وتتسع أكثر فأكثر. وتكرار عبارة «الرحمن الرحيم» بعد «ربّ العالمين» لها لطف خاص، وذلك أنّ ربوبيّة الله لم تكن للقهر والغلبة والضغط على الموجودات، بل هي لرحمتين خاصّة وعامّة، بحيث تتربّىٰ الموجودات في ظل هذين النوعين من الرحمة، وكلّ مربّ ومعلّم وحاكم تثمر تربيته عندما تكون عن حبّ ورأفة، ويتناسق نظام الخلق مع الخالق والانسان والعالَم.

إذاً، حتى لو كانت البسملة جزءً من السورة فلا تكرار لهذه العبارة في الحقيقة، ففي البسملة التي هي البداية يكون الرحمن والرحيم وصفا مباشراً لاسم الذات وبلاواسطة، وفي سورة الحمد جاء الوصف بواسطة الربوبيّة بحيث يكون مقيدّاً ومحدوداً بصورة اكثر.

والرحمة في الانسان عاطفة وشعور مرهف، والتي هي مصدر الشعور بالمساعدة وحب الخير و التفكير بالخير، ويلتذ الانسان من إنجاز رغبة هذه العاطفة دون النظر الىٰ المكافأة، وبالنسبة لله تعالى فمن لحاظ آثار الرحمة وظهورها، لاتأثّر ولا انفعال، وعاطفة الخير هذه أو الطبع الانسانيّ كغيره من القابليات والفضائل مكنونة في ضمير الانسان، فالالتفات الىٰ مبدأ الرحمة وآثاره وتكرار هذه الكلمة توقظ هذه العاطفة، وتدفعها إلىٰ العمل، حتى يكون قلبه ينبوعا للرحمة، وتجري من لسانه ويده نحو الآخرين. وهذا هو أثر تكرار جميع صفات الله وأسمائه وتذكّرها، بحيث تظهر حقيقته ومعناه في الإنسان المستعد.

﴿مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾: مالك وملك قراء تان مشهورتان، اختار البعض الأولى، والآخر الثانية، فقد وصف الله في آيات أخرىٰ بالمالك وبالملك أيضاً. المَلِك هو المتصرّف في إدارة البلاد، والمالك هو الذي يمتلك كل تصرّف بالنسبة لما عنده ويتمكّن

من ذلك. وكلّما كانت القدرة على التصرّف اكثر كانت المالكيّة أكثر، وإن كانت المالكيّة في الدنيا تعتبر أمراً عقديّاً واعتباريا، ولكن أصلها هو القدرة على التصرّف في الموجودات التي يمكن التصرّف بها.

ولذا، لمّا لم تكن لنا قدرة التصرّف والتدبير في قوانا وأعضائنا، ولا نحيط بها علماً، لم نكن مالكيها، ومالنا قدرة التصرف فيه هو تلك الافعال وآثارها، والتي هي من مبدأ الاختيار والارادة، إذاً فالمالكيّة بحث هي الاختيار في التصرّف، والتي مصدرها العلم والقدرة بالنسبة للملك.

يَوْمِ: ما بين طلوع الشمس وغروبها بلحاظ اللغة، واصطلاحاً يقال للعصر والزمان والمدة التي تقع فيها حادثة تاريخيّة (بسبب ظهور الحادثة ورؤيتها، كما أن المرئيّات تظهر من ستار الظلام بعد طلوع الشمس) يقال: يوم السلطة، والسلطنة، والحرب، التكوين ـ وعبّر القرآن الكريم عن أدوار تكوين السماء والأرض بالأيّام: ﴿خَلَقَ السَماوٰاتِ وَالأرضَ في سِتَّةِ أيّامٍ﴾ ـ فالدين، أي الجزاء. وربما يطلق على الشريعة كلمة الدين، لأنّه يبيّن آثار الأعمال الحسنة والسيئة وجزاءهما، ويحدّد ثواب كل عمل وعقابه، وربما تكون كلمة «دين» من المفردات الدخيلة في اللغة العربيّة، كما يوجد شَبَهٌ لها في الجذور اللاتينيّة والفارسية القديمة وفي «الافستا» عينها.

ما معنىٰ ﴿مَالِك يَوْمِ الدِّينِ﴾؟

إن الارادة الحرّة في اختيار العمل لهي من مميّزات الإنسان، وعلى هذا الأساس من الإرادة والاختيار تكون أعماله ذات قيمة جيدة أو جزاءٍ سيّئ، ويحسبون له حساب الشرع والعرف، وهذا سبب التكليف، لأنّ حقيقة المِلكيّة هي حق التصرّف التام، والانسان حرّ ومتصرّف في العمل، إذاً فمِلكيّة العمل موهبة له، واختيار العمل هذا ومِلكيّته يبدأ من التصور والاختيار والعزم حتى الإنتهاء، وبمجرّد أن يتمّ العمل بأيّ شكل من الأشكال يخرج من اختيار الانسان الفاعل ومِلكيّته، وتترتّب عليه الآثار والنتائج في ظروف وقوانين خارجة عن اختيار الانسان وارادته أي في مالكيّة الله، كما أننا مختارون

أن نتكلم أو نسكت، او ندير مفتاح الكهرباء أو الجهاز، أو نغلقه، لكن أثـر الكـلام فـي النفوس والأفكار والنتائج المترتّبة عليه بتشغيل الجهاز أو المعمل، أو اشتعال المصابيح خارج عن اختيارنا. وعندئذ يتّضح أثر العمل أو الكلام، فـيصل إلى النـتيجة النـهائيّة،، وتتجلّى آثاره من جميع الجوانب.

إذاً، فكل عمل وأثر هو مبهم مالم يصل الىٰ نتيجة، ويتّضح بمجرّد أن يصل إلىٰ النتيجة والجزاء. فكل فعل له عالمان ومحيطان: الأول: محيط التصوّر والاختيار والعزم والانتهاء. والانسان في هذا المحيط مكلّف، والنتيجة والجزاء الذي هو نهاية المسيرة وأثره مجهول، ويختفي وراء ستار العوامل والمقتضيات. الثاني محيط ظهور الآثار والجـزاء، أو «يـوم الدين». وفي هذا المحيط تكون المِلكيّة لِله وحده، وخارجة نهائيّا عن اخـتيار العـباد وارادتهم. وعالَم الجزاء النهائيّ عالم تنكشف فيه آثار أعمال الانسان ونتائجها وبـاطنه وملكاته من خلف ستار الغفلة والطبيعة، وتُطلِع الحقائق رأسها ـ كما هي من أفق هـذا العالم المظلم الذي خفي فيه كل شيء على النظر سوىٰ الظواهر والسطوح.

إذاً، فإنّ هذا العالم بجميع أنواره وأجسامه النورية لَيْل ليس إلّا، وذلك العالم يوم ظهور الأعمال صغيرها وكبيرها وفعل الآثار وانفعالها، وملكيّته كلّها لِلِه الذي وهب للانسان قسطا بسيطا جداً من مِلكيّته باعطائه الاختيار والارادة الحرّة، ومحيط هـذه المـلكيّة ينتهي بانتهاء العمل وبصورة ناقصة، ومن هذا الحد إلىٰ مالانهاية يكون مـحيط مـلِكيّة الله[1] التي تبدأ بعد العمل حتى تطلع من الأفق النهائي ﴿يَوْمَ لا تَملِكُ نَفْس لِنَفْسٍ شيئاً وَالأمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلِهِ...﴾، إذاً، إضافة «مالِك» إلىٰ «يوم» لا تحتاج الىٰ أيّ تأويل، فما أبلغها وأدقّها، سبحان الله عمّا يصفون.

---

١ ـ ليس الغرض من كلام المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أنّ ما قبل هذه الفترة خارج عن قدرة الله وملكيّته، وانما الحديث يدور حول عمل الانسان ونتائجه. فإنّ عمل الانسان يتمّ بارادتـه واخـتياره وهـما مـن معطيات الله له، والامر كما عبّر عنه الامام الصادق (ع): «أمر بين أمرين». ونـتائج الاعـمال وآثـارها الجزائية تبدأ بعد انتهاء فترة العمل لاغير، وملِكيّة فترة هذه النتائج والآثار التي لا نهاية لها تختص بالله تعالى. (المترجمان).

شرح جملة: ﴿إياكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾: -

العبادة كما يفسّرها البعض ليست بمعنى الخضوع فقط، ومعناها العبوديّة، أي جعل الانسان نفسه رِقّاً، وشدّ حبل الرقيّة في جيده دائماً، والتسليم أمام أيّ شيء وأي شخص هو نفس عبوديّته، سواء كان بسبب الحاجة أو الرغبة والحب أو الإعظام والاحترام ولازم مثل هذا التسليم هو الخضوع. إذاً يشعر العبد في البداية بالكمال والعظمة في المحبوب درجة أنّه يستسلم بدون قيد أو شرط، ويُطأطيء رأس عبوديّته أمامه، وعندما يصل الأمر الىٰ هذا الحد يكون المحبوب معبوداً.

اشراق هذه الآية وتأثيرها:

إنّ الانسان المركّب من القوىٰ والرغائب المختلفة يستسلم تدريجيّاً لما يتطلّبه في أية جهة اتّجه، و يضع غلّ عبوديّته في جيده، وبهذا السبب يختار معبودين بعدد القوىٰ والرغائب وما ينجم عنها من أوهام. ويمكن فصم هذه الأغلال عندما يتحرّر العقل، ويفتح عينه على ربوبيّة العالَم العامّة والرحمة اللامتناهية العامة، وتدبير مبدأ التربية والخير والرحمة ومالكيّتها. فبالشعور بهذه العظمة والقدرة والتصرّف يتمكّن من التخلص من أغلال عبودية غيره، ويعبّر بهذه الجملة عن هذا التخلّص، الذي هو الشعور والحركة والتخلّص والفناء في إرادته: «إيّاكَ نَعْبُدُ» مع تقديم ضمير «إيّاك» الذي يفيد الحصر والالتفات التامّ والحركة، فعاد من حمد الغائب ووصفه إلىٰ الحضور والخطاب، ففي الوصف بالربوبيّة والحمد والرحمة و المالكيّة يجد المطلوب والمعبود الحق، وينظر إلىٰ جميع أنحاء العالم مليئة بصفاته، بل لا يلوح للعين شئ سوىٰ ظهور هذه الصفات، ويشعر بجاذبيّته في وجوده، ويفصم بعبادته والتقرّب والتسليم الكامل إليه آخر أغلال عبودية غيره. ولما كان قليل من الغفلة يجذب جواذب مخالفه إلىٰ عبوديّة غير الله، فقوّة الحركة وحدها لاتكفي، بل تجب الاستعانة لاستمرار ذلك، لذا يقول ـ بتكرار الضمير وتقدمه على الفعل:

﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾: والاستعانة هي لا نجاز عمل مستصعب لا تكفيه القوّة والجهد الجهيد لوحده. فتكرار ضمير «إيّاكَ» يفيد مطلوبين ورأيين:–

الأوّل: الالتفات إلىٰ المعبود وعظمته وقدرته وجاذبيّته، وبهذا الالتفات يتقدّم الى الأمام ويطلب أن يتقرب اليه بصورة اكثر، ولما كان يرىٰ الالتفات والهمة غير متناسقة مع الحركة والتقدّم، ويشعر بوجود الموانع، فيعود التفاته الىٰ الجواذب المخالفة، ويرىٰ قَدَمَ الهمّة محصورة بين العلائق والعواطف، عندئذ يقول: «وَإِيّاكَ نَسْتَعِيْنُ»، وتكرار الضمير يدلّ أيضاً على أنّه كلما اتّجه بقصد القربة الىٰ العبوديّة، يجب عليه ايضاً الاستعانة والطلب من أجل قرب آخر.

وربمّا يكون ضمير الجمع لهذا السبب، وهو أنّه يجب ان تكون الحركة اجتماعية وبقوة المجتمع من أجل رفع المانع واجتياز السدود والعقبات، لأنّ مجموع مركّب قوّة عدد من الأفراد أكثر من حاصل جمع قوّة كلّ فرد فرد لتلك المجموعة، أوقل: إنّ مجموع القوىٰ يتصاعد بالتصاعد الرياضي، كقوانين الجاذبيّة والحركة والسرعة، والتكاثر المضاعف لثواب الجماعة بحسب تكاثر عدد الأفراد مُبْتَنٍ على هذه القاعدة.

وبهذا السبب كان أصل تشريع الصلوات اليوميّة هو الجماعة، والصلاة فرادىٰ رخصة فيه. وفي الصلاة الانفرادية وان كان من الممكن أن يكون التوجّه إلىٰ المبدإ أكثر، والمعارضات النفسيّة أقلّ، ولكنّ قوّة المقاومة والحركة تقلّ بذلك القدر أيضاً، لأنّ أغلال عبوديّة غير الله والجواذب المخالفة للكمال قوية جدّاً، وقطعها والاجتياز من هذه العقبات لايتهيّأ إلا بتمركز القوة في جهة واحدة، وتوحيد القوى، والاستعانة واستقطاب القوىٰ المضاعفة، (وكل هذه الأمور تستفاد من جملتيْ ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِياكَ نَسْتَعِيْنُ﴾. فقصّة ابتلاء طائر الروح الانسانيّة المحلّق في الجوّ في هذا الفخّ وطريق نجاته هي قصّة «الحمامة المطوّقة» في كتاب «كليلة ودمنة».

ثم يُعِدّ العبد نفسه، ثم يديرقوّته ضمن القوىٰ الأخرىٰ مرة واحدة نحوه (إنّ هيئة الجملتين وتركيبهما يفيدان هذا الأمر)، وهذا الإعداد وتمركز القوىٰ لايكفي وحده

للطفرة والهروب من مركز الأشراك، إلّا أن يصل لطف اللـه الذي هـو تـلك الجـاذبيّة لمساعدته، وكأنما هذا التوجّه والإخلاص في الإستعانة يستجلب اللطف والجاذبيّة، و الاستعانة هذه التي هي للطفرة والخلاص في الاستعانة والتقرب والعبادة لا تتأتى إلّا من جانب الله تعالى، لأنّها متعلقة بلطفه بصورة كليّة، بل هي اللطف والجاذبيّة، وتختلف عن الاستعانة في الأمور الأخرى، لأنّ الاستعانة في الدفاع عن الحق وطلب الفائدة والشفاء والرزق من غير الله من سنن العالَم وأسبابه، ولكن السنّة والسبب المنحصرين في العبادة هما نفس الاستعانة با لله «إذاً أخطأ بعض مفسّري السـلف فـي اعـتبار الآيـة لحـصر الاستعانة في الأمور الأخرىٰ أيضاً» .

إنّ ما قيل هو المعاني والأسرار التي تستفاد من نظم وتركيب هاتين الجملتين، وربّما يشعّ من خلال ذلك على الفكر نور من هذه الآيات، وضُربَ عنها صفحاً، أو لا يـمكن إضاءتها كما هي، ولا تفيد أية جملة قصيرة أو طويلة كما تفيد هذه الجملة من المعاني، فمثلاً يقال: إيّاك نعبد ونستعينُ، إنّما نعبُد ونستعين بك، نعبدك وحدك، لك العبادة وبك الاستعانة، وأمثالها، وهذا هو الإعجاز في الكلام، بحيث عـندما يـتغير مكـان الحـرف لايكون مثله، ولم يجد أحد أبلغ منه.

﴿إهْدِنَا الصِرَاطَ ٱلمُسْتَقِيْمَ﴾: الهداية هي الدلالة بالحبّ والرأفة والصلاح، وتطلق على قصد الخير، وتطلق مجازاً للسوء والشر. وذلك لتوجيه الملامة والتوبيخ: «فَاهدُوهم إلىٰ صِراط الجَحيم».

الصراط: سِراط في الأصل، ومعناها اللغويّ البَلْعُ، ولتقارب مـخارج الراء والطـاءمع الصاد وتطابقها، قلبت السينُ صاداً، وتطلق في الاستعمال على الشارع العام المفتوح، وربما لأنّ الشارع العام يتقدّم بسالكيه، ويجتذبهم في نفسه مثل الجهاز الهضمي.

والسبيل: طريق خاصّ باتجاه الخير أو الشر، ويوعز ويضاف إلىٰ جميع الفئات: سبيل الرشد، سبيل الغيّ، سبيل المؤمنين، سبيل الكافرين، ولما كان السبيل كالطرق الخـاصة غير معروف، يُعرّف بالاضافة إلىٰ الاشخاص. ولما كان الصراط طريقا عامّا الىٰ الخـير

والصلاح، وهو مطلوب فطريّ عام يوصف بمثل الحق والمستقيم أويُضاف. إذاً فالطرق الفرعيّة الخاصة عندما تكون طرق خير وسلامة وسعادة تؤدّي الىٰ صراط الحق والصراط المستقيم، ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلىٰ اللهِ عَلىٰ بَصِيرةٍ﴾. واذا لم تكن طرق الحياة الخاصّة عن بصيرة ولاتؤدّي إلىٰ الصراط المستقيم، تؤدي بسالكها إلىٰ الحيرة والقلق. إذاً فالصراط المستقيم مطلوب بنفسه، وعندما يسلك الشخص هذا الطريق يتقدم نحو غايته، ويزول قلقه واضطرابه، ويجتذب طريق السالك إليه.

فالصراط المستقيم وان كان طريقاً، والطريق هو للوصول إلىٰ الغاية، ولكن الطريق المستقيم هو بنفسه مطلوب وغاية للموجود المتحرّك المستعدّ للسلوك، وكل جهد يبذل لاستمرار الحياة وكل قلق و اضطراب إنّما يكون من أجل الوصول إليه، ليصل الىٰ الطريق الذي يجتذبه، وكلما تقدّم ازداد إطمئنانه، ويجد في كل خطوة المطلوب والكمال والنور والبصيرة، إلىٰ أن تنقذه أشعّة من مبدأ الكمال والربوبيّة، وحبال جاذبيته تزيد في سرعة حركته، ويجتذبه نحو قربه، وعندما أمسك بالاستقامة والمحاذاة التامة ـ يؤدّي السبيل إلىٰ الصراط والصراط يكون مستقيما ـ تعتور الأشعّة السالك من كل جانب، وتملأ قلبه شوقاً وحماساً. ويتخلّص من كل جاذبيّة، ولا يميّز قرنه من قدمه، إلىٰ درجة أنه يصرف بوجهه عن كل شيء غير أنوار العظمة والقدرة:

أذهَبُ إلىٰ ينبوع الشمس المشعّ لرؤية وجهه راقصا كالهباء[1]

وسر الحركة الذاتية والجوهرية والارادية ومبدأ التكامل هو الوصول الىٰ الصراط، لا أنّ الصراط طريق نحو هدف معيّن محدود، لأنّ الكمالات لاحدّ لها، والله أعلى من كل كمال، والانسان أيضا غير محدود في قابليّته، ويصل إلىٰ أيّ حدّ ونهاية، بداية اللانهاية.

وإذا كان المطلوب شيئا آخر، والصراط وسيلةً وطريقاً اليه كان الواجب أن يُقال: إهدنا إليك، أو إلى جنّتك... بالصراط، أو: من الصراط وامثال ذلك من العبارات، والعبارة استدلالية: الحركة عين البقاء والكمال، الحياة، أو ملازمة لها، وهذه ظهورات وأطوار

١) ترجمة شعر فارسي.(الترجمان).

للحركة، والسكون نقص وموت وفناء:

نـحن أحـياءٌ بأنّنا لانسكـن   نـحن مـوج سكـوتنا عـدمنا[١]

إنّ غريزة أو فطرة حب البقاء والكمال والهروب من الموت والفناء تبحث عن طريق يكون فيه التقدم ولا يوجد فيه سكون أوتوقّف، وهذا هو الصراط المستقيم ـ إذاً فطلب الصراط المستقيم مطلوب الانسان الذاتي، بل كل كائن حيّ ـ كما أنّه قد جاء في القرآن الكريم في كل مكان وعد بالصراط المستقيم كالوصول إلىٰ قرب الله والجنة واللذائذ، ذُكِرَ باعتباره غاية مستقلة ومقصوداً لذاته، ولهذا: ـ

الصراط: عُرِّفت بالألف واللام للعهد الذهني أو الحضوري، أي ذلك الطريق المعهود والمطلوب لكل باحث وسالك، أو طريق تكامل الموجودات، أو الناس المتقدّمين في طريق الكمال.

المستقيم: يقال: المستقيم بمعنى المعتدل والمستوي، اسم فاعل من استقام، ومجرّده قام، استقام جاء لازماً بمعنى قام، وجاء متعديا أيضا بمعنى أقام، وباب الاستفعال في اكثر استعمالاته يفيد التكلّف والجهد والطلب. استخرجه، أي أخرجه بطلب وسعي.

عندما يقوم جسم مستقيم على جسم أخر يبقى قائماً، ولهذا صار الخط المعتدل مستقيماً، و الخط المستقيم إمّا أن يقال له بلحاظ الخط الفرضيّ، أو بالنسبة إلىٰ السالك الذي يسير باستقامة، ويحافظ على الطريق من الميل والانحراف.

وبالنظر الى المعنى الذي قيل للصراط، فالمستقيم صفة بيانيّة له، لأن الطريق إن لم يكن مستقيماً لا يكون صراطاً، والصراط المستقيم هو غاية الانسان الفطرية، وهذا هو أيضاً مبدأ التكامل.

إنّ بقاء الكائنات الحيّة يكون بقدر الانطباق مع التكامل، وقد انقرض مليارات الكائنات الحيّة وهي التي انحرفت عن مسيرة التكامل، فالعلماء الطبيعيون مثل «لامارك» و «دارون» وأتباعهما يعتبرون مبدأ التكامل ومنشأه من الحاجات الطبيعية وتنازع البقاء،

١) ترجمة شعر فارسي. (الترجمان).

والمطابقة مع المحيط وبقاء الأصلح، و وصلوا إلى هذه النتيجة، وهي أن هذه العوامل تؤدي إلى تغيير صورة الموجودات وأعضائها، وتكمّل المؤهّل منها، وتبيد غير المؤهّل. ولما بدأ هؤلاء الحركة والتكامل من الحاجات والتنازع، إذاً ينتهي الأمر بالاختيار الطبيعي والتطبيق مع المحيط: إذاً، إنّ المبادىء، الفرضية لتكامل هؤلاء تنقض التكامل، ويشاهدون أن بعد انقراض نوع من الأنواع في القرون السالفة ظهر نوع آخر يشبه النوع السابق من جهة، وأكمل منها من جهات كثيرة.

فالطبيعيّون عندما انتبهوا إلىٰ أنّ الفاصلة كبيرة بين الأنواع، وحلقات هذا الفيلم لم تتصل ببعضها يسعون معاندين أن يملؤا هذه الفراغات بالفرضيّات الناقصة، وأن يعثروا على الحلقات الوسطىٰ المفقودة ولذا فقد وردت مئات النقوض والردود على هذه الفرضيات من قبل علماء الطبيعة الآخرين، ولما أراد هؤلاء أن يجدوا منشأ التكامل في المحيط والحاجات الطبيعية والعوامل العضوية فقط، ولم يرفعوا نظرتهم عن هذه الظواهر، بقيت فرضيّتهم ناقصة، وواجهوا مشاكل في مسيرتهم في هذا الطريق، مع أنّ الحق هو هذا، وأنّ التكامل يصل الىٰ ظاهر الموجودات من باطنها وذاتها، وهناك حركة في جوهرها، كما أنّ النطفة تبدأ بالحركة منذ بداية التكوين وقبل أن تستقر في المحيط المناسب من رَحِم الأمّ، وتصنع الآلات وتغير في الصورة، وتوصل نفسها إلىٰ المحيط المناسب، وتظل تعقّب طريقها حتى تكمل آلات ادراكها ومعلوماتها، وتخرج بالصورة الانسانية، وتطوي مراحل الاحساس والتخيّل والتعقّل.

هذا نموذج صغير ودائمي للتكامل. إنّ مسيرة الخليّة وأطوارها في رَحم الأرض الواسع كالمحيط الداخلي ورحم الكائنات الحيّة، لأنّ قوانين الحياة متساوية، واذا كان هناك اختلاف فمن جهة الكمال والنقص، فآفات المسيرة التكاملية وعوارضها في محيط الأرض الواسع اكثر ومدتها أطول. إذا إنّ هؤلاء العلماء ـ مع كثرة الضوضاء هذه ـ لماذا يغضّون النظر عن تكامل الخلايا النُطفويّة، ولا يعتبرونها معلولة لقوانين التنازع والاختيار الطبيعي وبقاء الأصلح؟! مع الشبه الظاهري لاول خليّة نطفة الانسان مع الحيوانات

الأخرى، ولأنّ قدرتها على التكامل اكثر، ومحيطها اكثر قابليّةً تستمرّ في مسيرتها، وتطلع رأسها من عالم الانسان، ولكن الحيوانات، الأخرىٰ تتوقّف.

إذاً فالكائنات الحيّة التي تتقدّم في رحم الحيوان أو في الأرض جميعها تطوي المراحل نحو عالم الانسان، وتطلع رأسها من العقل والحريّة والارادة، وعليها أن تسلك هذا الطريق بالعقل والارادة الحرّة، وأن تجتاز المحيط بعد المحيط. فالمجموعات التي انحرفت عن صراط التكامل المستقيم، أو لائمت نفسها مع المحيط تتوقّف، وتعتبر من الضالّين أو المغضوب عليهم، ويحكم عليهم بالفناء إذاً كما أنّ الانحراف عن المسيرة التكاملية يؤدي إلىٰ الفناء والانقراض، فالتطابق والملائمة مع المحيط يؤدّي الى توقّف الكائن الحيّ أيضاً. وينقرض على أثر التوقف بخلاف ما يقوله بعض علماء الطبيعة).

إنّ الانسان الذي يريد باختياره وارادته أن يجعل صراط الكمال هذا بصورة أكمل، ويتقدّم في هذا الطريق، عليه ألا يكون مطابقا للمحيط ولامنجذبا إليه، وعليه أن يغير من محيطه الفكريّ والروحيّ على الدوام، ويسير في الخط المستقيم، ويحذر من الانحراف، لأنه دائماً يتعرّض للغفلة والضلال، وأن يداوم على هذا الدعاء والطلب أيضاً، ليكون مشمول عناية مبدأ الكمال والوجود ومشيئته الخاصة.

إنّ الآيتين المباركتين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من سورة النور تستعرضان بجملات موجزة جامعة أدوار الحياة التي مرّت عليها ملايين السنين حتى ظهور الانسان والعقل والهداية الىٰ الصراط المستقيم:

﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ أَرْبَع يَخْلُقُ اللهُ مايَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ . لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾.

تكرر في الجملة «مِنْهُمْ مَنْ».. وهذا التكرار لطف وإعجاز في البيان بالنظر الى تكامل الأنواع: بناء على هذا إنّ مِن (المكسورة) نشئيّة لاتبعيضية فحسب، ومَن الموصولة (المفتوحة) تطلق على العاقل بالفعل أو العاقل بالقوة مثل جنين الانسان، وكأنمّا هنا كان

يجب أن يأتي بـ«ما» فجاء بـ«مَن» (وحيّر المفسّرين) والسبب في ذلك هو هذه المسيرة التكامليّة التي تتقدّم نحو عالَم العقل، وبالنسبة الىٰ العالم والنوع السابقين، كل نوع يتقرّب اِلى عالم العقل اكثر من ذي قبل: ويظهر من عود الضمير على مايُعاد عليه القريب أن يقال: بعض ذلك النوع السابق الناشئ المنفصل حيوان يمشي على بطنه او على رجلين... إذاً، كلمة مِن المكسورة تشير إلىٰ النشوء، ومَن المفتوحة تشير إلىٰ الارتقاء والكمال، كما أنّ علماء الطبيعة يطلقون على فلسفة التكامل اسم فلسفة النشوء والارتقاء أيضاً. ثم يشير في الآية الأخرىٰ إلىٰ ظهور العقل الانساني المميّز، وإنّ نزول الآيات المبيّنات القولية والتكوينيّة وجعلها في متناول الأيدي من أجل تمييز العقل وتبيينه، ليتقدّم بحرّية الارادة والتميز وفقاً للمشيئة الالهية نحو التكامل الذي هو الصراط المستقيم: ﴿وَ اللّهُ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ .

والآية الستّون من سورة هود تفيد ـ ببيان آخر ـ سلطة التربية والتكامل ونفوذهما على جميع الحيوانات: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبّي علىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾.

– الناصية شعر مقدّم الرأس، وكأنما هي استعارة تشير الى مركز ظهور التكامل ـ كما أنه نسب الكذب و الخطأ الىٰ الناصِيَة في سورة العلق: – «نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ»، لأنّ المخ هو الذي يسجّل الادراكات بواسطة الأعصاب ويجعلها إرثا باقيا في الأعقاب وإنّ جهاز المخ والأعصاب يتقدّم في تكامل مستمر، ورأس سلسلة هذه التربية والتكامل بيد ربوبيّة الله، ومراحل التكامل المحسوسة الواضحة تتقدّم من الطبيعة البسيطة والمركّبة نحو الغريزة، ومنها الىٰ مراحل الادراكات الحسيّة والوهميّة والخياليّة حتى ظهور العقل الفطريّ والتكامل العلميّ. وان طفرة المركبات الطبيعيّة الأولىٰ هي ظهور الحياة والغرائز، وفي هذه الطفرة تحرّض الغرائز الكائنات الحيّة على السعي وراء الغذاء والدفاع والنسل. والطفرة الثانية ظهور الحواس والادراكات الظاهرية التي ترشد الغرائز وتكملها، لأنّ تمييز الغذاء والمسكن والنسل وما يلائم منها. وما لا يلائم يتم عن طريق الحواس، وبعد

ذلك تظهر الحواس الباطنية التي تسجل الادراكات الظاهريّة ولما كانت الحواس والادراكات الجزئية ربّما تخطأ ـ كالخطأ في البعد والقرب والاستقامة والإعوجاج ـ تظهر الادراكات الكليّة و الاستدلال الذي هو أثر العقل الفطريّ، فالعقل يرشد الادراكات والمحسوسات والغرائز ويكمّلها.

إنّ هذه الادوار والمراحل كما هي ظاهرة في تكوين الانسان، يجب أن تكون في سائر الانواع هكذا أيضاً وإنّ تغيير الأعضاء والجوارح والجهاز العصبيّ وتكاملها أثر من آثار هذه التربية والتكامل المعنويّ والباطنيّ وظهوره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

هل يحصل المطلوب بتمامه مع بزوغ العقل الفطريّ من أفق الغرائز والحواس، وتتوقف هنا التربية والهداية؟ مع أن طليعة الفطرة هي الاستعداد للطفرة والتحرّر من عالم الحيوانات فقط، فإنّ العقل الفطريّ في أسر الحواس والغرائز ومقيّد بهما دائماً، بل محكوم لها، ولا تميز أشعته القصيرة الباهته الحقّ والباطل في مجال الرأي، والصلاح والفساد في مجال العمل من كل الجوانب، ويبقى صامتا ومحكوماً في مهابّ الهوىٰ والشهوات والطغيان التي تثار من قبل حبّ النفع واللذة والغرائز، وكأنّما لم تحصل مثل هذه الطفرة والتطوّر في الحياة. فاذا لم يدركه نور الهداية ليجعله حاكما مستقلاً توقّف التكامل، بل ينعكس.

إذاً، فالهداية النهائية التي هي هداية الدين ـ الوحي والالهام ـ إلىٰ قانون التكوين الذي هو قانون التكامل، لابدّ منها. والتجارب والاكتشافات في مسيرة الاحتياجات يمكنها أن تهّيئ العقل الفطريّ وتجعله قادرا، لكنها لا تجعلها حاكماًومستقلاً وحرّا، وعلى فرض انّ الناس يصلون الى هذه المنزلة واحداً وحداً وببطء وعلى طول الزمان، الاّ أنّه لم يكن عامّاً ولا سريعاً.

والهداية الغريزية الحسيّة الفطرية خارجة عن الارادة والرغبة، وبعد بزوغ الفطرة التي هي بداية الإرادة والاختيار، فإنّ استقلال العقل الفطري واستقامته وتكميله تتعلّق بالارادة والرغبة أي الاستعداد والقابليّة الاختياريّة. اذاً لم يكن الغرض من هذا الدعاء:

﴿إِهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية السابقة اللااختيارية. فاذا كان الضمير «نا» يشير إلى الحقيقة وفصل الانسان المميّز والذي هو ذلك العقل الفطري والاستعدادي، فالمطلوب في هذا الدعاء استمرار الهداية وكمالها، أي أزِح ستار الغفلة والجهل عن عقلنا، واحفظه من الزلّة والانحراف، وخذه إلىٰ الفعليّة والكمال، واجعله مستقلاً مستقيماً، واجعل ادراكاتنا الإجماليّة والنظرية تفصيليّة واكتسابيّة وإذا كان الضمير «نا» يتعلّق بمجموع الجنس وفصل الانسان، يعني ذلك: خذ جميع قوانا وغرائزنا وادراكاتنا منسّقة مستقيمةً إلى الأمام في ظل الهداية، ولما كان الاستعداد الكماليّ لجميع الموجودات والكائنات الحيّة متحقّقا في الجبِلَّةِ الانسانيّة، يمكن أن يكون هذا الدعاء لسان حال استعداد الجميع، أي اجعل الجميع على صراط التكامل المستقيم هذا.

الخلاصة: الهداية هي الدين الذي يجعل العقل الفطريَّ مستقيماً، ويظهره في الصِلات العامّة وفي كل ناحية من نواحي الحياة وآثار الخير والشر... ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ لأنّ النظام الدينيّ وتعليم الأوامر والأحكام الكليّة وبيان معارف المبدأ والمعاد كلّ ذلك يصل الىٰ الناس عن طريق الأنبياء ويكمل، إذاً فمثل الهداية الغريزية والفطرية لم تكن موضع طلب العبد، وما يجب أن يُطلَب دائما هو الهداية في التمييز والتطبيق، ليعرف ـ بالعناية الربوبيّة ولطفها ـ معارفها ويطابق نيّته وأعماله معها، لأن الانسان من هذه الناحيّة يكون في معرض الزلل والانحراف. إذاً يجب أن يكون هذا الدعاء دائميّاً.

من ناحية الروايات

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية: يعني:

«أدم لنا توفيقك الذي أطعناك به في ماضي أيّامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا». وجاء عن الامام الصادق عليه السلام يعني: «إرشدنا إلىٰ لزوم الطريق المؤدّي إلىٰ محبّتك، والمُبلغ الىٰ جنّتك، والمانع من أنْ نتّبع أهواءنا فنُعطب، أو أنْ نأخذ بآرائنا فنهلك»

إنّ الغرض ـ كما يتّضح من هاتين الروايتين ـ من طلب الهداية هو استمرار الطاعة والبعد عن الأهواء والآراء التي تأخذ لنفسها صورة الدين، فتكون سببا للانحراف عن الصراط المستقيم، لأنّ صورة الانحرافات الدينية الباعثة على الغرور خطرها أشدّ من اللادينية بكثير.

اذا كانت فاتحة الكتاب من أوائل السور ـ كما يتضح من بعض الروايات وأنها جزء من الصلاة ـ فالمسلمون الأوائل كانوا يطلبون توضيحاً أكثر بواسطة الوحي، وعلى المسلمين الآخرين بعد أولئك أن يقوموا بالاستفسار والتمييز والاجتهاد.

وبناء على ماقيل، فالصراط ـ كما وصلنا في الروايات عن رسول الله ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام هو الاسلام والنظام الذي لايُقبل سواه، «الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلوّ، وارتفع عن التقصير واستقام، وفي الآخرة طريق المؤمنين إلىٰ الجنة».

والرواية الأخرىٰ التي جاء بها المرحوم ملامحسن الفيض في تفسيره الصافي: «إنّ الصورة الانسانيّة هي الطريق المستقيم إلى كل خير، والجسر الممدود بين الجنة والنار». وصورة الانسان الحقيقيّة هي العقل الفطري الذي يجب أن يكون بواسطة التوجيه الدينيّ حرّاً مستقلاً، فيكون - بناءً على اتحاد العاقل والمعقول ـ الطريق والسالك واحداً، والمقدمة تثبت النتيجة دائما، والمقدمة توصل الىٰ نتيجة أخرىٰ، وكل فكر وادراك جديد يكون مصدر عمل وأثر، والأعمال والآثار تكون مصدر أخلاق وملكات، وهكذا يتقدم إلى الأمام في الفكر والاخلاق والآثار والمكتسبات.

وجاء في عدد من الروايات عن طريق الخاصة أنّ الصراط المستقيم هو أمير المؤمنين و الأئمة الهداة، ومعرفتهم. لأنّ هؤلاء المثال الكامل للعقل المستقل الإيماني والفضائل الخُلُقية، والسيرة العمليّة السامية، فمعرفتهم وخلقهم وعملهم يصدّ عن كل زلّة وانحراف، والنظر الىٰ جهة حركتهم يقود الىٰ صراط الهداية. كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الثالثة والتسعين من نهج البلاغة: «انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا،

ولاتسبقوهم فتضلوا، ولاتتأخروا عنهم فتهلكوا».

وعن الامام الصادق عليه السلام: «وهي الطريق إلىٰ معرفة الله، وهما صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فامّا الصراط في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدىٰ بهداه، مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه عن الصراط في الآخرة، فتردّىٰ في نار جهنم».

ندرك مما قيل لحد الآن في معنى الصراط ومن مضمون الآيات والروايات الأخرىٰ انّ للصراط حقيقة وواقعية والتي هي نفس طريق التكامل والقرب إلى مبدأ الكمال، وقد جاء بحسب العوالم ومراتب الفهم البشريّ بأشكال وتعابير مختلفة، والتعبير النهائيّ عنه جسر جهنّم والذي على أصحاب العقول والتكليف أن يعبروا عليه ويجتازوه. وهذا مثال كل حقيقة تدركها العقول البشريّة بصورة من الصور حسب قوّة ادراكها وضعفه، ويظهر في عالم الخيال والحسّ أيضاً بصور مختلفة. كما أنّ طريقة كل فرد وأسلوبه وأهدافه في الذهاب والإياب، و حياته اليومية تظهر بشكل من الأشكال، ولها شكل آخر في عالم الخيال والعقل، وتظهر في المنام كالطريق المعبّد سهلةً، أو الطرق الملتوية مظلمة ذات شفا جرف مخيف. فالعقل الحرّ و طريق الكمال في الحقيقة سبيل أو جسر على شفاجرف الشهوات والأهواء، فالشخص الذي يتمكن من اجتيازه بسهولة هو الذي يكون نور الايمان دليله وقوّة العمل تحافظ عليه، ويقتدي بالامام الحق، وبهذا النور والقوة والجاذبيّة يتمكن من التخلّص من جاذبية الغرائز، ويجتاز من وسط نار الشهوات، ويستقيم من الانحراف إلىٰ الإفراط والتفريط، ويعبر مسرعا أو كالبرق كما جاء في الروايات وأنْ يتطلّب الهداية إلىٰ الصراط المستقيم في كل فكرة وخصلة وعمل صغير أو كبير، ومتابعة الامام الحق.

وضعف هذه الجاذبيّة والغفلة عن هذا الدعاء تؤدّي الىٰ الانحراف والسقوط.كما أنّ الانحراف نحو الشهوات يلهب شعلات الطمع والجشع، ويحرق قوىٰ الخير وحب الحق و العفة والغَيرة. ويعمّ الغضب وسوء الظن والتفكير السيّيء وسحق الحق جميع ما يحيط

بمثل هؤلاء الناس. والتفريط أو تعطيل الغرائز أيضاً يؤدّي الىٰ الفقر والاستكانة وانهيار الفكر والاخلاق والمجتمع. والنمط الأوسط ـ كما جاء في الروايات ـ ما ادقّه وأصعبه، لا يمكن اجتيازه إلّا بجاذبيّة الإيمان والاخلاص والبصيرة.

﴿صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: النعمة بمعنى الراحة، واسطة الحياة، ولاراحة للانسان الموجود المفكر المتقدّم سوىٰ الهداية إلىٰ الصراط المستقيم بعد تعيين الغاية والمطلوب ـ إنّ الحياة عقيدة وجهاد ـ إنّ السالك والمسافر الذي يعرف الطريق ومنازله يسهل عليه تعب السفر، ولا يخشى قلّة الزاد، ويعتبر المال وبالاً، وكلّ ما يملك إلى الفناء والزوال.

والذي عن مَسلك الحقّ انفصل   لم يجد خيراً له مهما حَصَل [1]

والآية الأخرىٰ تبيّن النعمة حسب المراتب: ﴿وَمَنْ يُطِع اللهَ وَالرسولَ فأولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أنْعم اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلصَّالِحِينَ﴾.

إنّ القوافل التي وردت عرصة هذا العالم وانقرضت، رسموا بآثارهم التي تركوها من حَسن وقبيح وخير وشر الصراط المستقيم وغير المستقيم، كلما كان عندهم وتعلّقوا به ذهب الىٰ الفناء، وبقيت النتيجة والأثر، وهذا هذا هو ذهابهم، وهكذا عامّة الناس يمكنهم أن يتصوّروا الحقائق بالنظر إلىٰ الامثال والنماذج التاريخيّة، بل التاريخ لم يكن سوىٰ أعمال الماضين وحركاتهم المباشرة وغير المباشرة، والمواضيع الأخرىٰ هي نتائج تلك الأعمال وآثارها. فالماضون من البشر بكل تقاليدهم وآدابهم وسلطتهم وحضارتهم كانوا كالحيوانات الصغيرة والكبيرة إمّا أن تقدموا في صراط التكامل المستقيم فرداً ونوعاً وتركوا من أنفسهم آثاراً، وإمّا أن توقفوا وسرعان ما انقرضوا، أو أنحرفوا وزالوا بعد مدة. هذه هي روح تاريخ الشعوب والأمم وفلسفته، وتصدق على كل كائن حيّ متحرّك.

﴿المغضوبِ عَلَيْهِم﴾ تطابق اليهود في الروايات، و «الضّالّينَ» تطابق النصارىٰ، وبالنظر الىٰ الوضع الروحي والأخلاقيّ لليهود والنصارىٰ يكونان مصداقين واضحين

---

١) ترجمت البيت الفارسيّ الىٰ البيت المذكور. الترجمان.

لهذين الوصفين، لأنّ اسلوب تفكير اليهود العامّ هو التمرّد على الحق والكمال. فاليهود من ناحية التربية العنصريّة والغرور الديني يعتبرون العالم وأهل العالم مِلكاً لهم، ويعتقدون أنّ اللّه إله اليهود، والدنيا لليهود، وأهل الدنيا أرقّاء لليهود، والدار الخالدة لليهود. وأثر مثل هذا الاعتقاد والغرور قَتْلُ روح الخير والرحمة والعواطف والفضائل الانسانية ليس إلا. والشعب الذي يفقد هذه المعاني والفضائل سوف لاتكون عنده روح التكامل والقدرة المعنوية، وينجذب الىٰ المال والمادة اكثر من اللازم بدلاً من القدرة المعنوية، وتكون غايتهم الثراء من أيّ طريق كان وباي شكل من الأشكال حتى لوكان بدون عوض أوإسداء خدمة صحيحة، إلىٰ درجة أنّ السعي وراء العلم والصناعة والتمسّك بالدين، كل ذلك في رايهم مقدمة للقدرة الماليّة. وهذه الاخلاق والروحية هي التي جعلتهم موضع غضب الله والشعوب ونظم العالم، وصدّتهم عن التكامل المعنوي والفضائل الأخلاقية التي يكون العلم وسيلةً لها.

الغضب حالة نفسية، وأثرها الإبعاد، بخلاف الرحمة، ولم ينسب الغضب كالهداية إلىٰ الله، لأنّ الهداية لطف الله الخاص، والغضب أثر عمل الناس، والهداية منه فقط، والغضب انعكاس عن المحيط والوجود.

النصارى، وإنْ تقدّموا من لحاظ الكمالات العقليّة والاخلاقية و العواطف الإنسانية، ولكنّهم ظنوا في ذلك الزمان أنّ الرهبنة وقطع العلاقة عن الزوجة والولد والدنيا شرط الفلاح والفوز والكمال المعنويّ، فانحرفوا عن الصراط المستقيم وضلّوا. وهذا الاهتمام المفرط بالثروة والماديّات الذي هو أساس الحضارة الغربية المسيحيّة وقاعدتها، والذي أقلق العالم، وسلب الراحة من سكان هذا الكوكب، ردّ فعل ذلك التفريط والرهبنة المصطنعة المبتدعة.

العطف بـ«لا» يفيد أنّ فئتين ممتازتان، والمغضوب عليهم الذين أضيف إليهم «غير» يبتعدون اكثر من «الضالين» عن أصحاب النعمة، أو أنهم وُضِعوا في الجهة المقابلة، والتائهون «الضالّين» لما كانوا يملكون الطريق وهم ضالّون أقرب إلىٰ الفئة الأولى:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِيْنَ آمَنوُا الَّذِيْنَ قَالوا إنّانَصَارَىٰ...﴾

بنظرة العقل الفطريّ الظاهرة

والآن ونحن نبتعد من منطقه الحمد (روضة الحمد) نعيد النظرة مرة أخرىٰ في آياتها، إن الانسان الذي يفتح عينيه على هذا العالم بفطرة طاهرة نيّرة، يراه كلّه نعمةً وجمالاً وحكمة وكمالا، ويشعر في نفسه رغبةً وحركةً مُلِحةً نحو الكمال والبقاء، فتراه مضطراً لِسَوْق حكمة وجود العقل الفطريّ وجماله ونعمته نحو ينبوعها، ويدرك ظهورها في الكمال والوجود من المبدأ اللامتناهي، فينطلق لسانه بكلمة «اَلحمدُ للِهِ»، ذلك المبدأ الذي وسعت عناية تربيته جميع العوالم بنوعين من الرحمة، وينحو بالأعمال والآثار بتصرّفه المالكيّ نحو البقاء. وهنا يجد مطلوبه ومقصوده ومحبوبه الحقيقيّ في نور هذه الصفات، وعند ماميّز المطلوب يتّجه نحوه بعد التشتّت، ويستعين به فقط: ﴿إيّاكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾ ، وبعد هذا الادراك والتمييزوالاستعداد يحتاج الىٰ طريق لايوجد فيه انحراف وزلّة وتوقّف، فيضطرّ إلىٰ أن يطلب هذا أيضاً منه، لأنّ العقل البشريّ عاجز عن تمييز مثل هذا الطريق، الطريق الذي يميّزه بهدايته، ويتقدّم فيه بعونه، ويطابقه ببصيرته الإيمانية مع طريق الماضين وأسلوبهم.

لما كانت الهداية إلىٰ الصراط المستقيم مبدءً ومنبعاً لكلّ خير وسعادة، جاء طلبها في نصّ سورة الحمد، وأضحت سورة الحمد الجزء المكمّل للصلاة ـ «لاصلاة إلّا بفاتحةِ الكتاب» ـ ولاتقال جملة أو كلمة على وجه الأرض دائماً وبصورة منسّقة مثل هذا الدعاء. عندما ينتشر النور بجمالهٰ وجلاله في آفاق الأرض صباحَ مساءَ ويتفتّح، وفي فصول طلوع الشمس وغروبها، ملايين المسلمين يفوهون بهذه الجملة ويسمعونها عشرات المرات منفردين وفي الصفوف. هذا الدعاء جامع كل خير وفاتحته، وهذه السورة جامعة القرآن وأمّ الكتاب وفاتحته، لأن مبادئ القرآن وفهرستها مجموع في هذه السورة.

آيات القرآن الحكيمة تعود إلىٰ خمسة أمور: المبدأ، المعاد، الانسان، الأحكام،

الماضين. وسورة الحمد سبع آيات في كل آية جملتان أو كلمتان وهي جذر الكتاب وأصله وأمّه، وسائر الآيات الأخرى فروعها واغصانها (ولهذا فإن أحد أسماء هذه السورة السبع المثاني) وقالوا لأنّ هذه الآيات السبب يجب أن تقرأ في كل صلاة مرتين، ولأنّ امّهات مواضيع القرآن قد أوجزت فيها، وكأنّها قرآن مستقل، كما ذكرت في سورة الحجر بصورة مستقلةٍ وعطِفَ عليها القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتيناكَ سَبْعاً مِنَ المَثانِي وَ القُرآنِ العَظِيم﴾ .

بداية سورة الحمد جاءت بوصف الله عن طريق نعمه وصفاته المشهودة وبيّنت صفته الربوبيّة، ونوعين من رحمة ظهور ذاته وارادته في عوالم الوجود، ويفيد وصفه بمالكيّة يوم الجزاء (يوم الدين) تصرّفَه القهّار في العالم وتطوّر العالم العام وسِرَّ المعاد، والخطاب بلسان العبد: «إيّاكَ نعبُدُو...» وقصر العبادة عليه يشير إلىٰ قابليّة الانسان واستعداده للتطوّر والتكامل، والذي هو المميّز الوحيد للانسان. والصراط المستقيم على شكل تشريع، القوانين والشريعة، و ختام السورة اسرار الموت والحياة وأسبابهما، رقيّ الأفراد والشعوب وانحطاطهما، هذه هي بذور وجذور المواضيع الخماسيّة في جميع آيات القرآن.



مدنية، وهي مائتان وست وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

﴿الٓم (٢) ذٰلِكَ ٱلكِتَابُ لا رَيْبَ فِيْهِ هُدىً لِلمُتَّقِيْنَ (٣) الذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيْمُونَ ٱلصَّلوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٤) وَالذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٥) أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٦)﴾

نظرة في حروف أوائل السور:

هناك آراء وأقوال تدور حول الحروف التي وردت أوائل بعض السور. والتي وردت روايات تؤيّد بعضها، ويبدو من مجموع هذه الآراء والروايات أنّ ذكر هذه الحروف كان لغرض ما، ويمكن معرفة ذلك الغرض بصورة مجملة بواسطة أو بلا واسطة، او هو لفتح الطريق بوجه العقول الايمانيّة للعمل والتفكير، والتدبّر في هذا الكتاب السماويّ والمعجز بصورة اكثر.

والان نأتي بما يبدو من الاحتمالات وآراء علماء التفسير المعروفة والروايات، وما

يمكن أن نجد لكل رأي من تبرير وبيان:

١- هي أسماء السور التي بدأت بهذه الحروف. يمكن تبرير هذا الرأي بما يلي: وهو إنّ هذه الحروف الخاصّة تشير إلىٰ آيات خاصّة في تلك السورة، والحروف الأولىٰ لتلك الآيات مثل حروف أول السورة، ولمّا كان التأمّل في تلك الآيات موضع اهتمام وعناية فجيء بحروف أول السورة مشابهة لها أو لبعضها. كما يقال للبيت الممتاز في القصيدة «بيت القصيد» ويأتون به في بداية القصيدة، أو يأتون من المقالة أو البحث بجملة منتخبة منه ويجعلونها عنوانا للبحث. فمثلا في سورة البقرة نرىٰ الآيات التي بدأت بـ«الم»: «أَلَمْ تَرَ الى الذِينَ خَرَجُوا...»، «أَلَمْ تَرَ إلى الملإِ مِنْ بَنِي إِسرَائيلَ...»، «أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ...» أتت متتاليةً في أواخر السورة ومتقاربة. ويمكن أن نجد مثل هذا الموضوع في السور الأخرىٰ التي تبدأ بحروف مقطّعة.

٢- كل حرف من هذه الحروف أو مجموعها تشير إلىٰ صفة من صفات الله، وبعضها اسم و وصف لرسول الله، أو هي قَسَمٌ ببعض الأسماء والصفات، فالحكماء والعرفاء المتنوّرون يقولون: إن العالم ظهور لصفات الله وأسمائه، وكل ظاهرة هي مظهر اسم أوأسماء، كما أنّ النور البسيط يتصوّر ويتلّون بحسب قابليّة الأجسام، أو أنّ أعمال الانسان وآثاره كلٌّ منها ظهور صفة من صفاته أو سجيّة من سجاياه.

٣- إنّ ما بُدِئ به الآيات التالية هو لجلب انتباه السامعين لينصتوا ويصغوا، ولأجل أن يقيس القرّاء بأداء هذه الحروف الوقف والوصل، والمدّ والقصر، ولحن القراءة وجوانبها الأخرىٰ. كما يستخدمون كلمات غير مفهومة لقياس الأوزان الشعرية والإيقاعات.

٤- يقول البعض: إن الحروف التي تُفْتَتَحُ بها بعض السور رموز وإشارات إلىٰ حوادث المستقبل مثل وقت تأسيس وانقراض ومدة الدول، وبقاء وفناء الشعوب، ويرىٰ البعض مصدر هذه التنبّؤات هو تركيب عدد من هذه الحروف. ويقول البعض الآخر: إنّ هذه الحروف تدلّ على أسماء وصفات هي مفاتح الغيب ولها آثار. فالحوادث المتعلقة بكل موضوع يمكن للعلماء المتخصّصين به من التنبّؤ حوله بقدرما يدركون من العلل

والظروف، فالطبيب يشير الىٰ مستقبل المريض ومدّة المرض من حيث الشدّة والضعف وبحسب الأمزجة. وعلماء الاجتماع والتربة والأنواء يخبرون عن التطوّرات الجوّية والأرضية والاجتماعيّة وتقارن الكواكب والحوادث التي لها صلة بهذه التطوّرات. والذين يعرفون نفسيّات الشعوب وأخلاقهم، وأدركوا فائدة أنواع الحكومات وآثارها، ينظرون الى استمرار الشعوب وفنائها، وانهيار الحكومات في المستقبل القريب والبعيد والصدمة التي يوردها الحجر في الماء، أو القنبلة التي تنفجر في الهواء تحدّد شدّة التشعشع والأمواج ومقدارهما ودوامهما.

فكلما سما الفكر في الأسباب والعلل، وحلّقت الروح في أفق أسمىٰ، تنظر إلىٰ الحوادث والمسبَّبات بصورة اكثر وأوسع.

فالقرآن أصبح مصدراً وعلةً لتطوّرات معنويّة وأخلاقية بليغة، بحيث أصبحت هذه التطوّرات مصدر تطوّرات اجتماعيّة، وكلما ازداد ادراك قوة تأثيره وكيفيته في نفوس الافراد والجماعات والشعوب المختلفة وأخلاقهم، يكون التنبؤ بالمستقبل أدق وأوسع. إذاً يمكن القول بأن حروف أوائل السور التي هي جزء من القرآن رموز عن الحوادث أو أسبابها أو صفات الله الخاصّة، والتي يمكن بالانتباه إليها وفهمها، التنبّؤ بالحوادث التي للقرآن تأثير عليها بصورة اكثر ـ كما أنّ آيات من القرآن وأحاديث عن الرسول الكريم وأميرالمؤمنين وسائر الأئمة عليهم السلام أخبار تخبر بصراحة عن بعض حوادث المستقبل ـ كان هذا التوضيح لتبرير الآراء والروايات التي تعتبر حروف أوائل السور رموزاً لما يدور في المستقبل من الحوادث. لكن الغيب الذي مصدره الوحي أو الإلهام هو بحث آخر.

٥- قال جماعة إنّ هذه الحروف تنبيء عَن إعجاز القرآن، بهذا المعنى: وهو أنّه يعلن للمنكرين والمكذّبين أنّ القرآن آيات وكلمات مركّبة من هذه الحروف، وهذه الحروف و المفردات التي تركب منها هي في متناول أيديكم، فإن لم يكن معجز من قِبَل الله فاتوا بآيات مثله. فإبداء المعجز في الكلام كالمعجز في الطبيعة: والحروف هي عناصر الكلام،

وعناصر الحروف المركّبة، وعلماء الطبيعة يعرفون العناصر البسيطة لكل مركّب حي ويعرفون مقدارها، ولكنّهم عاجزون عن صنع حبّة قمح أو نواة فاكهة أو خليّة، وآيات الوجود تبدأ دائماً من العناصر، وتظهر على صورة مركّبات رفيعة المستوىٰ وكائنات حيّة، ويعلن مبدع العالم بهذا العمل: إن أمكنكم فاصنعوا حبّة قمح بهذه الأوصاف الحيوية! وآيات القرآن أيضا بالابتداء بهذه الحروف البسيطة تعلن عن نفس هذا الإعجاز، وذلك على لسان من لم يدرس ولم يعرف الحروف!

هذه الحروف التيعددها في اللغة العربية تسع وعشرون حرفاً جاءت في تسع وعشرين سورة بصورة خاصة من الحساب، وقد درس القاضي البيضاوي هذا الحساب في أوّل تفسيره وخرج بهذه النتيجة: إنّ الحروف مجهورة ومهموسة، شديدة ورخوة، مطبقة ومنفتحة. ومن مجموع الحروف الثمانية والعشرين ـ بناء على أن الألف لا تُحسب ـ جيء بنصفها الأربعة عشر في أوائل تسع وعشرين سورة، وهذه الحروف الأربعة عشر من النصف، تشكّلت من كل نوع من الأنواع الستة...(يراجع التفسير المذكور للاطلاع على تفصيل هذا الحساب وعدد كل نوع من الحروف).

يقول المحقّق الطنطاوي: إنّ العدد ثمانية وعشرين ونصفه مشهودان في نظام الموجودات الكامل: ـ عظام مفاصل كل يد، الفقرات العليا و السفلى في ظهر الحيوانات التامّة الخلقة، قوادم أجنحة الطيور، منازل القمر الشماليّة والجنوبيّة. ويدغم اربعة عشر حرفا في اللغة العربية في لام التعريف، وأربعة عشر لاتدغم، وأربعة عشر حرفاً يعتريها التنقيط، وأربعة عشر غير منقوطة، وحرف الياء ـ لوحدها ـ غير منقوطة، وفي الوسط منقوطة وجيء في أوائل سور القرآن بأربعة عشر حرفا أيضاً، وأربعة عشر حرفا لم تأت.

إنّ مطابقة القرآن مع وضع اللغة والتكوين تدل على أن الجميع آيات للهِ تجلّت في صور مختلفة، وتمّت بحساب وأعداد خاصة. ويتميّز العدد ثمانية وعشرون من بين الأعداد بأنه لا مثيل له بين الأعداد العشرية مثل الستة في الآحاد والعدد ست وتسعين واربعمائة (٤٩٦) في المئات، أي أن أجزاء كل عدد إمّا أن تكون أقلّ أو اكثر من ذلك

العدد، سوىٰ هذه الأعداد المعدودة مثلا العدد ثمانية وعشرون نصفه أربعَة عشر، ربعه سبعة، حاصل القسمة على النصف اثنان، حاصل القسمة على الربع اربعة، حاصل القسمة على ثمانية وعشرين واحد، والمجموع هو ثمانية وعشرون.

كانت هذه الآراء المعتمدة على الروايات حول الغرض من الحروف الافتتاحيّة أو تأويلها، وهل أن هذه التأويلات وأمثالها صحيحة ومطابقة للواقع؟ الله اعلم.

والقدر المتيقّن من القول هو أن هذه الحروف لم تكن مهملة عن غير قصد، وانّما جيء بها عن قصد وحكمة. ونقول بعد هذا: ربما كان القصد رمزاً بين الله ورسوله، ويعلم ذلك بعض أفراد اهل بيت النبوة الراسخين في العلم وتأويل المتشابهات. وفائدة أهل الرأي هو أن تتنبّه أفكارهم وقابليّات تحقيقاتهم، ويُعملون أُفكارهم لَربّما يصلون ـ بمعونة الراسخين ـ إلىٰ معانيها وتأويلها الواقعيّ، كما أنّ البعض يعرفون مِن التركيبات الطبيعية والكيماوية مقدار عناصر كل مركب ونِسَبَه وأوصافها وآثارها فقط، وهناك مَن يعرف رمزها ومفتاحها.

وهناك ذكرىٰ أخرىٰ تتردّد في الذاكرة لابأس بذكرها لإكمال هذا البحث: ربما تشير الحروف الافتياحية إلىٰ المجهول والمقصود من ذلك اللامقصود. ويُؤَيِّد هذا الاحتمال بمقدّمتين قصيرتين:

الأولىٰ: ان ادراكات الانسان الحسيّة والعقلية محدودة، كما يدرك الانسان الأمواج الصوتية والمرئيّات والمشمومات في حدٍّ ومقدار معيّن، مع العلم بأن الأمواج والروائح والأصوات الصغيرة والكبيرة، وكيفيّتها وكميّتها ملأت العالم، وصلة الانسان بالعالم لم تكن إلّا عن طريق الحواس المتناسبة المدركة لها. فلو كانت الحواس تدرك اكثر من المقدار المتناسب، فمثلا تسمع جميع الأصوات البعيدة والقريبة، وترىٰ المرئيّات المجهريّة منها كالميكروبات والضخمة منها كالكواكب البعيدة، ويشم جميع الروائح، أو كانت لناحواس أخرىٰ نحسّ بها المحسوسات الأخرىٰ أيضاً، لكان وضع الحياة شاقّاً لايُطاق ولايمكن استمراره: ـ

غـــفلة أضـحت وجـودَ العـالِمِ والذكــاءُ آفــةٌ يــا آدمـي[١]

إذاً، كلّما يمكن أن تدركه حواسنا من الأمواج والأشعّة والأصوات، وما يدركه عقلنا من حقائق الوجود عن طريق الآثار والصفات والبرهان والعلّة، وان كانت محدودة من جهة وغير محدودة من جهات أخرىٰ، وما وراء ذلك لا يمكن إدراكه بالنسبة لنا، ولا صلة له بحياتنا الحسيّة والعقلية وكمالنا وبقائنا.

الثانية: العوالم اللامتناهية هي ظهور آيات الله وإرادته، والقرآن هو إرادة الله وآياته الذي جاءت على شكل ألفاظ وعبارات، ونزل بحسب عقلنا المحدود وحسّنا السمعيّ والبصريّ، متناسباً مع حياتنا وكما لنا العلميّ والعمليّ: ﴿لوْ أنْزَلنا هٰذَا ٱلقُرْآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خَشْيَةِ اللهِ﴾: فالقرآن الذي لونزل على الجبل لجعله خاشعاً متصدّعاً يجب ألا يكون على شكل صوت وكلمات!!

وبالنظر الىٰ هاتين المقدمتين ـ اللتين يجب أن تُشرَحَا أكثر في محلّهما ـ يُؤَيَّد أنّ هذه الحروف تشير إلىٰ المجهول والمقصود من ذلك اللامقصود. وبعبارة أخرى: الحد الفاصل بين ماوراء المحسوس والمعقول. وما يمكن لنا إدراكه وفهمه واستخدامه، كما يقال في الإصطلاحات العلمية: فوق الحس، فـوق العـقل، المـجهول، إيكس، س. ويـقال فـي المحاورات العرفيّة:- بعد اللُتَيّا و التي.

وهذا الكلام صحيح بالنسبة للرأي القائل إنّ هذه الحروف رمز بين الله ورسوله، أو أنّها إشارة الىٰ الصفات العليا، لأن مجهولات العقول المتعارفة هي معلومات الحسّ والعقل الأفضل المؤيَّد بالوحي، وتتجلّى صفاته وآثاره بصورة كاملة فوق العقول البشريّة العاديّة.

ما قيل ـ الىٰ هنا ـ يعود لكل الحروف والبحث كان بصورة عامة، ولكن ما يعود على كل حرفٍ من الحروف الموجودة في أوائل سور معيّنة بحث آخر، قَلَّ ما بحثه القوم، وربّما تفتح أبواب بوجه الباحثين في المستقبل.

---

١) ترجمة شعرية لبيت شعر فارسي. (الترجمان).

شرح الكلمات والروابط الأدبيّة:

ذلك: إشارة إلىٰ البعد المكانيّ والزمانيّ والرتبيّ.

كتاب: كالحساب واللباس، مصدر مجرّد بمعنى الكتابة، أو من المفاعلة بمعنى المكاتبة، واستعماله الشائع في المكتوب.

ريب: بمعنى سوء الظن وسلب الثقة، وزوال التفاؤل، ولا يرادف الشك، ويستعمل متعدّيا، وينسب إلىٰ الشخص وغيره، مثل: رابني فلان، رابني عمله. والشك لا يكون كذلك.

هُدىٰ: كالتُّقىٰ مصدر في الأصل، ومعناه أنه دلالة حتى نهاية الطريق.

المتّقين: جمع فاعل الإتّقاء، أي عمل الوقاية، والوقاية واسطة المحافظة، والمانعة كالترس والملابس الشتائية.

يؤمنون: فعل مضارع من الإيمان، ومجرّده أمن، أي صار في الأمان، أو أمّنه، أو صار أميناً، والإيمان الذي هو إفعال من الأمن، أي ايصال الانسان نفسه او الآخر إلىٰ الأمن، والتمسّك، أو الصيرورة في الأمان. و لم يكن الفعل المضارع في هذه الآيات للإخبار عن المستقبل، بل يفيد الدوام والاستمرار.

الغيب: ماغاب عن الحواس.

الآخرة: في مقابل الأولىٰ، أي الحياة الأخرىٰ أو الفضلىٰ.

اليقين: العلم القاطع الحاصل بالدليل والبرهان، ولهذا لايُنسب الىٰ الله تعالىٰ. المُفلِح: من الفلاح أي الحرث، والاجتياز بمشقّة، والفوز، أي التخلّص من المشاكل، واجتيازها والوصول إلىٰ النجاة والراحة.

ويحتمل في الآية الأولىٰ تراكيب وإعرابات مختلفة، بحيث يختلف المعنى أيضاً بحسب التراكيب المختلفة، واكثر المعاني المحتملة صحيحة أيضا. وإجمال ذلك كما يلي: «ذلك»، خبر «آلم» أو للمبتدأ المحذوف مثل هو، أو مبتدأ مؤخر لـ«آلمٓ»، أو لـ«لا ريب

فيه» أولـِ«هُدى»، أو مفعول لفعلٍ مقدّر مثل «أعني»، أو منصوب على الإختصاص.

«الكتاب» خبر، أو صفة، أو عطف بيان، أو بدل.

«لاريب فيه» خبر أول، أوثان، أوثالث لذلك، أو عطف بيان، أو بدل، اومع متعلقها جملة حاليّة للكتاب أو للضمير في «فيه»، أو مبتدأ مؤخّر لـِ«فيه» المقدّرة.

«للمتقين» متعلّق بالكتاب، أو بلا ريب فيه أو بهُدًى. ويكون حاصل ضرب هذه الاحتمالات كثيراً.

ويرىٰ بعض المفسّرين احتمالات أخرىٰ بعيدة عن نظم الآية ومعناها، وقد أوصلوا حاصل الضرب إلىٰ عدد مذهل!! وعلى كل حال، وهذا أيضاً من بلاغة القرآن المعجزة العجيبة، بحيث تظهر من كلمات معدودة من أول آية هذه الاحتمالات الكثيرة المعقولة الصحيحة!!

ميزة القرآن:

إنّ ميزة كل كتاب وعلمٍ بما يمتاز به من موضوع، والموضوع هو مايدور حول مضمون الكتاب. مثل: المقدار المنفصل والمتصل: في علم الحساب والهندسة. الجسم: من جهة نوعين من التغيير في علمي الفيزياء والكيمياء. البدن: في علم الطب والتشريح. وعندما يعُرَف الموضوع تعرف النتيجة والتعريف أيضاً، وتثبت مواضيع الكتاب إمّا عن طريق التجربة والحسّ، أو بواسطة التفكير والبرهان، أو كالقرآن، تتقبّله الفطرة الأولىٰ والوجدان النظيف، ويُثبته العقل والتجربة. وموضوع بحث القرآن هو الإنسان، لا من ناحية التشكيلات الجسميّة أو النفسيّة، بل من ناحية الذات الانسانية وحقيقتها، أي الضمير الخيّر الطالب للحق الذي يؤدّي صلاحه وفساده إلىٰ صلاح النفسيّات والأخلاق والاعمال وفسادها. ونور هداية القرآن تضيء ذلك الضمير الطالب للحق وتضعه على الطريق، هذا الضمير الذي لم تفسد تشكيلاته الأولى ولم تنحرف، ويتوقّىٰ من التلوث والباطل، أي يكون له تقوىٰ فطريّ.

هذا هو موضوع القرآن الذي يميز هذا الكتاب عن الكتب الأخرىٰ. ومعرفه الموضوع توضّح التعريف: فالقرآن كتاب هداية المتقين، وكأنّما الهداية بنفسها مطلوب ذاتي، ولكن اعلن بأنّ الغاية والنتيجة هي الفوز والفلاح. هذه الامور الثلاث: الموضوع، والتـعريف، والغاية. يعتبر علماء كل علم معرفتها واجبة في الابتداء بذلك العلم. والتوضيح الكامل لهذه المسألة جاء في أول سورة البقرة هذه فقط، التي يبدأ القرآن بها بعد سورة الحمد، ويفيد نظم وترتيب سور القرآن وآياته. والآن لِندقّقَ مَعاً في هذه الآيات، لِنرىٰ ماذا نفهم من النظر إلىٰ معنى الكلمات والمفردات.

﴿ذٰلِكَ الكِتَابُ﴾: مع العلم بان القرآن لايزال على أوّله، ولم تنزل جميع آياته قبل هذه الإشارة ليكون على شكل كتاب، ماذاتعني كلمة «ذلك»؟

أمّا أن يكون من الأفضل ـ بالنظر إلىٰ «ذلك» التي تفيد الاشارة إلىٰ البعيد، والتوسّع في معنى الكتاب ـ مِن كلِّ تبرير أنْ نقول: إن الاشارة هي إلىٰ القرآن المحقق قبل أن يـظهر بشكل ألفاظ وعبارات، كما أنّ كل حقيقة علميّة في عالم العقل البسيط تتكوّن في عالم الذهن قبل أن تنزل إلىٰ عالم الحس، فكذلك معنى نزول القرآن، الذي نزل في ذهن العالم العام ـ أو على حدّ تعبير الروايات إلىٰ سماء الدنيا ـ قبل نزوله الكامل.

﴿لاَرَيْبَ فِيهِ﴾: لما اعتبروا معنى الريب مرادفاً للشك، ونفي مطلق الشك ـ مع كل هذه الشكوك الموجودة في الأذهان والكتب ـ لم يكن صـحيحا، أوّ لوا ظـاهر الكـلام وبرّروه، كما قالوا: إنّ القصد هو نفي لياقة الريب، أو أنّ الجملة في معنى الانشاء، مـثل: «لارَفَثَ وَ لا فُسُوقَ» أي يجب أن لا يشكّ أحدٌ. أو هو نفي الشك حول الهداية، بناءً على هذا تكون «هُدىٰ» حالا لضمير «فيه». وبالنظر الى معنى «ريب» الذي قيل هو اضطراب الذهن وسوء الظن، ونُسِب الى العلل، وبالنظر الىٰ دراسة ما مضى من التاريخ، يتضح أن شكوك الناس وشبهاتهم حول القرآن كان مصدرها الآراء التي لا أساس لها، أو العصبيّات أو إيحاءات الاعداء، ندرك بلاغة هذه الجملة وغَنَاءَها. تعلن هذه الجملة بصراحـة بأنّ هذه الظنون السيّئة والشكوك والاضطرابات لم يكن القرآن مصدرها، بل العلل النفسيّة،

والانحرافات الفكرية، وقصر النظر عن رؤية الواقع، والعوامل السياسية والاجتماعيّة، فأفكار البشر المحدودة تضيق حدودها اكثر فأكثر على أثر المقدمات العلميّة الخاطئة او الإيحاءات أو التقاليد، ولا تصدّق سوىٰ الآراء والعقائد الناتجة عن هذه العلل التي غشّت على الفكر كالستار السميك، أو تنظر إليه بنظر الشك وعدم الثقة.

عندما نفقت الفلسفة اليونانيّة بين المسلمين بعد القرن الأوّل، واصبحت آراؤها ونظرياتها حول الأمور الالهيّة والمعاد وتكوين الأرض والسماء وكيفيّته من المسلّمات، إعتَرىٰ الشك بعض الأشخاص الذين لم يشاهدوا التطابق في بعض الآيات مع تلك النظريات وتخلخلت عقائدهم. فبادر كثير من العلماء والفلاسفة الاسلاميين إلىٰ تأويل وتطبيق الآيات من أجل المحافظة على عقائد المسلمين، حتى ظهور الأسس العلميّة التي انهار على أثرها أساس تلك الفلسفة، وانقشعت تلك النظريات والتخيّلات كالسحب الموسميّة، وشمخت آيات القرآن الحكيمة ببلاغتها الخاصة كبنيان العالم المرصوص بثباتها. واليوم ـ أيضا ـ جاء الشك والريب وقصر التفكير من الذين انشغفوا بنظريات العصر العلميّة أو نظمه الاجتماعيّة، ولكن سرعان ما يدركون أن القرآن يعلن من أفق أسمى: «لارَيْبَ فِيهِ» عندما يتضح قصر هذه المواضيع أو خطأها على أثر ظهور نظريّات أكمل وأسمىٰ.

سيأتى البحث مقنعا بشرح أوفىٰ بعد الآن بتناسب الآيات.

﴿هُدًىٰ لِلمُتَّقِيْنَ﴾: سبق أن قيل في البحث اللغوي انّ المتقي فاعل الاتّقاء، والعامل بالوقاية، وهي ماتمنع من الضرر أو توقف شيئا عند حدّه كالترس، المظلّة، الاسطوانة، والسدّ، يقال لها وقاية. والآلة التي توقف السيارة وقاية أيضاً، وأهميّتها اكثر من الآلات الأخرىٰ تمنع من الاصطدام والانجراف إلىٰ الهوّة وسائق السيارة يأخذ سيطرته من قوّتها.

والضمير النشط الواعي الذي يكف الشهوات والعواطف والغضب من الجموع ومواجهة حدود الآخرين وحقوقهم، وقاية للنفس الانسانية، وصاحبها مُتَّقٍ. وهذا

الضمير موجود مع كل نفس باختلاف: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وتكرار الذنب والإنحدار في التمرّد والعصيان يضعفه أو يفصم عراه. وأيّ نفع من الهداية لمثل هذا الشخص الذي ظلّ متوقّفا أو إنهار الى الهُوّة، هداية القرآن تثير الفطرة، وتنسّق بين الضمير والأخلاق والأعمال.

وهذا الموضوع من سقراط العظيم حول حقيقة العدالة ينطبق مع حقيقة التقوىٰ حيث يقول:، إذا أردنا أن نميّز حقيقة العدالة (أو التقوى) في وجود شخص، علينا أوّلاأنْ ندرك التقوىٰ في المجتمع، كالخط الدقيق تسهل قراءته عندما يكون اكبر ويطابقه، فهيكل المجتمع العام يتشكّل من ثلاث طبقات:-

١- العلماء والساسة.

٢- العسكريين.

٣- المنتجين وعمّال مستلزمات الحياة.

فكل من هذه الطبقات الثلاثة لهم مهنتهم وسجيّتهم الخاصة وفقاً لعملهم و واجبهم، والتي يكتسب المجتمع أو الحكومة منها اسماً وصفة، فبحسب الطبقة الأولى حكيمة وفاضلة، ومن ناحية الطبقة الثانية شجاعة وغيورة، ومن ناحية الطبقة الثالثة مُنتجة ومقتصدة.

واجب الطبقة الأولى تنظيم القوانين وتعيين الواجبات والحقوق وفقاً للخير والصلاح. وللطبقة الثانية واجب الدفاع وحراسة الحدود وتنفيذ القوانين تحت اشراف الطبقة الأولى. و واجب الطبقة الثالثة الانتاج والتبادل الاقتصادي وتأمينه. فتمركز كل طبقة في اطار حدودها، والتمتّع بحرّيتها، وعدم التدخّل في شؤون الآخرين عدالة، ومثل هذا المجتمع عادل، والمحافظة على الحدود وتنفيذ القوانين وبواسطة القوات التنفيذية والعسكرية تحت اشراف قوىٰ العلماء والحكّام العقلية يقال له التقوىٰ الاجتماعي والسياسيّ. واذا ثبت التقوىٰ الاجتماعيّ يتمتّع كل فرد وكل طبقة برؤس الأموال المادّية

والمعنويّة بصورة صحيحة، ويتقدّم نحو التكامل. واذا اجتازت طبقةٌ حدودها، واعتدت على حدود الآخرين يصيب الهيكل العام الخلل والضعف والفناء.

هذا دور التقوىٰ البارز الذي يظهر في جهاز المجتمع، ودوره الدقيق الخفيّ يتمّ في جهاز الانسان الداخلي. وجهاز الانسان الداخلي على ثلاثة أقسام:-

مبدأ التعقّل والتفكير الذي هو الذهن.

مبدأ الميول واللذائذالحيوانية الذي هو الشهوة.

مبدأ الغضب والدفاع الذي هو الغيرة.

أمّا عمل المبدأ الذهني والعقلي هو إدراك الحقائق العلميّة والعمليّة، والنظر الى العواقب، والتفكير في الصلاح. والشهوة والرغبة الجنسيّة للمحافظة على الفرد وبقاء النسل. وأمّا المبدأ الغضبيّ فهو حارس الحقوق، وعليه ـ بأمر من العقل وهدايته ـ أن يقف بوجه الاعتداء على الحقوق والحدود، ويوقف كلّا من القوىٰ الداخلية عند حدّها. فمثل هذا الانسان مُتّق ويمتلك الوقاية، وعقله المُؤَهّل بنور الهداية الذي يشع عليه من الخارج متّجه نحو الكمال وإدراك الغيب، فإذا زالت هذه الوقاية والنظام النفسيّ على أثر التحريضات وجموح بعض القوىٰ الداخليّة، استخدم المبدأ الشهواني والغضبي العقل والذهن، وحرّض على الوصول إلىٰ اللذائذ الشهوانية خارجاً من الحدّ، عندئذ تنفقد قابليّة اهتدائه.

والآن، وبعد الدراسة والتدقيق في كلمة التقوىٰ وتحققها في جهاز المجتمع والفرد، يمكن القول: إن معنى التقوىٰ الجامع هو الضمير الواعي بالحق والحارس على الحدود، واثره تنسيق القوىٰ النفسية، وظهور الفضائل الخُلُقيّة كالعدالة والشجاعة والعفة. وعندما غفل علماء الأخلاق عن هذا التنسيق والترابط وحقّقوا في الخصال الحسنة والسيئة كلّا على حدة، وللتحلّي بذلك صدّروا أمراً، قلّما حصلوا على نتيجة.

إذاً، فالتقوىٰ من مفردات القرآن والدين الخاصة، وحقيقتها أنّها تضم جميع الكمالات المعنوية والفضائل الخُلُقيّة، ولم تكن مجرد الإتّقاء الظاهر والتسليم إلىٰ الدين.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: الإيمان غير العلم واليقين، لأنّ في معنى الإيمان الحب والتعلّق، والتقديس والتعظيم والصلة، والعلم بشيء في حد ذاته لايؤدّي إلىٰ الايمان به. والإيمان باللغة الفارسية يترجم بالرغبة والرغبة تفيد الصلة والتشاكل، كرغبة الجسم إلىٰ النار بحيث يتطبّع عليها شيئاً فشيئاً ولكن كلمة الإيمان تفيد الوصول إلىٰ الأمن اكثر من الرغبة (كما قيل في البحث اللغوي)[1] فاذا تعدّىٰ إلىٰ المفعول يوصل غيره، واذا جاء بلامفعول يوصل نفسه إلىٰ الأمن.

إنّ طلب الأمن والهروب من الفناء يحثّ الانسان على السعي دائماً ليرتاح باله، والتعلق بالمحسوسات والماديّات التي هي في حالة فناء وتغيير مستمر يزيد من القلق وعدم الأمن، إذاً ما الحيلة؟

اذا كان هذا القلق والخفقان الداخلي من مستلزمات الحب والتعلّق بالظواهر الزائلة وأظلّة الحسّ والخيال، إذاً فالانقطاع عنها يستلزم راحة البال والقلب والأمن. يأتي هذا السؤال أيضاً: هل من الممكن للانسان الذي نسجت لحمة ضميره وسداه من الحبّ والتعلّق أن يكون انساناً بانقطاعه عن كل حب وتعلّق ويبقى حيّاً؟! والجواب هو أن التحرّر والانقطاع من هذه العلائق هو الارتباط والرغبة بالغيب، والغيب هو ما يجده الانسان بالعقل والضمير، الغيب هو تلك الأصول والحقائق الثابتة التي ينعكس منها الجمال والكمال على هذا العالم، أو قُل: إن المادّة كالصفحة الشفّافة أو البحيرة الصافية التي تظهر فيها كل تلك الصور مع أشعة النور، والذين لم يروا سوىٰ تلك الصور المنعكسة بمجرّد أن فتحوا أعينهم، ولم يطّلعوا على إشعاع النور في حلقات الفلم يتصوّرون أنّ كل تلك الصور موجودات أصيلة، فيتعلّقون بها، لكنّ التعلّق بالصور التي وجودها حركة وفناء، لا يعقبها سوىٰ الهمّ والألم والقلق، والهمّ والألم يعكس بعض هذه الصور بصورة غير صحيحة أحياناً ويقطع العلاقات أو يضعفها، ولكنّ هذه الحالات توقع اكثر الناس في شرك أشباح الوهم والخيال. أصحاب التصوّف والعرفان الذين يظنون أن طريق الكمال

١) هذا الشرح يخصّ الأُصل الفارسيّ وترجمة الايمان بالفارسيّة ولاصلة له باللغة العربية. (الترجمان).

الوحيد هو قطع العلاقات الحسيّة، يبتلون بعلاقة تخيّلاتهم وأوهامهم.

ما أكثر ما أثبت العلماء والمحقّقون عن طريق القياس والبرهان عدم أصالة المادة وظواهرها، ولكن لمّا كان نورهم العلمي في محيط محدود، ولم يصلوا الىٰ إدراك الحقائق الثابتة يصطدمون بالشك والريب، والعقل الفطريّ يريد تارة أن يفتح عينيه ليدرك ماوراء المحسوسات والعلل والمعقولات كما هي، ولكنّه يقع في شِباك سلسلة القياس، والحسّ والخيال يبديان الانطباع الفطريّ بصورة أُخرىٰ ويظهرانه على غير الواقع، كالطفل الذي يسمع تغريد الطير على غصن عالٍ، ويرىٰ هيكله وريشه وأجنحته الجميلة تحت شعاع النور من خلال الأوراق، ويتعلّق قلبه به، وللوصول إليه يرديه بالحجر الىٰ الأرض ويمسكه بأظفاره، هل هذا الهيكل المشرق على الفناء، الذابل، أو الميّت هو نفس ذلك الغرّيد الذي كان يصفّق بجناحيه؟ وما يُدركه الخيال والوهم والعقول المحدودة عن حقائق وجود القِسم، يكون شبحاً منه لاهو. والحق إنّ ما ينعكس في مرآة النَّفْس صورة ناقصة عن الواقع. وكلما صفت البحيرة أكثر وكانت هادئة تعكس صور الجبال والسحاب بصورة أفضل، ومالم يكن لم تعكسه. والمهمّ هو هل أنّ هذا الانطباع الناقص القصير يمكن أن يكون أكمل واوضح لتعكس مرآة القلب ماهو موجود؟ وشروط الانطباع الفكري (الرؤية الباطنيّة) كشروط الانطباع البصري وشرط البصر الحسّي، بصر العين، مواجهة المحسوس، واشعاع النور، وكلما تكاملت هذه الشروط تكون الرؤية أكمل، والرؤية الكاملة تكون عندما تكون العين سالمة، مواجهة الجسم تماما، واشعة النور تكون مباشرة. وتفتّح عين العقل الفطريّ والبصيرة الباطنيّة نحو الغيب والتمسك به عندما يكون عدم الاعتناء واللامبالاة لم يضعف الرؤية الباطنيّة، ويتمكن بقوّة التقوىٰ أن يلفت نظره من المحسوسات إلىٰ الحقائق المعقولة.

اذا شع نور هداية الله الذي هو نور السماوات والأرض بهذه الشروط والظروف النفسية، ونوّرت آياته البيّنات عين العقل بمحيط النفس الداخليّ وعالم الغيب، يعود الالتفات من المحسوسات والمتغيّرات إلىٰ ذلك العالم، ويميل اكثر فأكثر، إنّ معنى الإيمان

ـ لاسيما في صيغة المضارع ـ يدلّ على الاستمرار والتكامل.

تبدأ هذه الحركة العقلية من الشك بين أصالة المحسوسات والمعقولات، وتتقدّم نحو الظن والاعتقاد ومراتب اليقين (الظن، التصديق، التلقّي أو الاستلام). بناءً على هـذا فـ «الذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ» وصف حدوثي للمتّقين بعد الاستقرار في معرض نور الهداية، اي أنّ المتقين بعد أنْ يتنوّروا بنور الهداية يؤمنون بالغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: قيام البدن حالة يستقر فيها أعضاؤه كلٌّ بـحالته الطـبيعيّة، و يؤدّي واجبه لقاءَ انتصاب البدن، ويظهر الهيكل كما هو: فمراكـز الإدراك والرأس فـوق البدن، والبدن يعتمد على فقرات الظهر، والكلّ يقوم على عـمودي الرجـلين، وتـتلقّى الأعصاب الأوامر وتُخبر بسهولة، والعين والاذن والاطراف تتجه بسهولة إلى كلّ جهة، وللارادة سلطتها وأوامرها التامة على الأعصاب، والأعصاب على العضلات، والعضلات على الفقرات وأعمدة البدن، وقيام البدن له صلة بقيام الفكر والتصوّر، وما زال المطلوب لم يُتَصَوَّر بصورة صحيحة، لا تتم إرادة الانسان لإنجاز ذلك والوصول إليه، ولايتحرّك البدن انحناءً واستقامة خلافاً للرغبة الطبيعيّة.

والاستعداد للصلاة يكون عندما يثير الله الهمّة ويقيم الذهن الذي كان متجهاحواسه وشهواته المنحنية أو الراقدة (وهذا سرّ قصد القربة)، وفي هذا الوقت تأخذ القوىٰ النفسيّة وضعها الطبيعيّ وتقوم كقيام أعضاء البدن، يقع مركز التفكير والادراك في جهاز جسـم الانسان الداخليّ في الأعلى، والقلب الذي محل ظهور العواطف في الأسفل، والمعدة والأمعاء التي هي مِرْجَل شهوة الطعام أسفل من ذلك، والجهاز التناسلي المثير للشـهوة الجنسية، أسفل منه.

وفي جهاز النفس الداخلي المركب من هذه القوىٰ يجب أن يكون هكذا، الإقـامة ـ التي معناها اللغوي القيام، الانتصاب والتكميل ـ كمالها في الانسان قيام ظـاهر البـدن وباطنه والقوىٰ النفسية. وتكميل هذا القيام يكون في الجماعة عندما يعود الأفراد مـن أهواء الاختلاف والنظام الطبقيّ إلىٰ الوحدة والاتّحاد، ويقفون في صفّ واحد، ويقتدون

بامام عادل عالم له الحق الطبيعيّ في التقدم. ولما كان تحقق الصلاة وكمالها بالاقامة، نرىٰ أن القرآن يأتي بلفظ: أقام، أقم، يقيمون، مقيمين، كلما أمر بالصلاة أو وصفها، وأوعد المصلين الغافلين عن حقيقة الصلاة بالويل وجاء بكلمة «المصلين» و حدها: «فَوَيْل لِلْمُصَلِّينَ». وفي سورة «المعارج» عندما استثنى المصلّين عن سائر الناس غير الثابتين ذكر دوام الصلاة متمّما لكلمة المصلّين: «اِنّ الانسانَ خُلِقَ هَلُوعَا، إذا مَسَّهُ الشَرُّ جَزُوعَا، وَإذاْ مَسَّهُ اَلخَيْرُ منُوعَاً، إلّا المُصَلِّينَ، اَلذِيْنَ هُمْ عَلىٰ صَلاتِهِمْ دائمُونَ».

والفعل المضارع «يُقِيمُونَ» هنا يفيد السعي المستمر لاِقامة الصلاه أكثر فأكثر، لانّ إقامة الصلاة استقامة للانسان نفسه، ويجب أن تكون مستمرة وبالتدريج، لكي تتم الصلاة الكاملة المستقيمة التي تليق بشأن الإنسان في جميع العمر، وعندما يتم هذا الواجب النهائي بصورة صحيحة وكاملة، واستقامت الحقيقة الإنسانيّة وينتهي تكليفه في هذا العالم يرحل، وكأنّما جاء الىٰ هذا العالم من أجل هذا الأمر، لكي ينجز عملا لائقا كاملاً.

﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: إنّ بناء قوىٰ الانسانية الغامض المعقّد يشبه الأجهزة المنتجة للطاقة واللاقطة، يوصل بين الإيمان بالغيب و الصلاة مع مخازن القوىٰ: «وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغيْبِ...، وَلَهُ مَقَالِيْدُ السَّماوٰاتِ وَٱلأَرْضِ» هذا الاتّصال يحرّك القوىٰ العقليّة والنفسيّة، ويهب مفاتيح رؤوس أموال الطبيعة، أو أنّ الانسان كالنواة التي تمدّ جذورها في الأرض، فيمتدّ ساقها ويُورق، وتواجه النوروالهواء، وتفيد وتثمر بقدر نموّها وتغذيتها من الأرض: فاذا كانت «مِن» تبعيضيّة، فإنّها تشير إلىٰ الاِقتصاد في الصرف، فالرزق من كل أنواع الفوائد الماديّة والمعنويّة حلال، لاسيما إذا نُسِب إلىٰ الله وآثار رحمة الله: «رَزَقْنَاهُمْ» وهو إمّا أن يكون مالاً نتج من العمل البدنيّ أو الفكريّ، أو أدوات العمل وأعضائه والأخلاق والعلم الذي هو مصدر العمل: والإنفاق هو الإيصال وفتح طريق الصرف ـ وجميع الأفعال التي تبدأ بالنون وثانيها فاء تعطي هذا المعنى، مثل: نَفَعَ، نَفَخَ، نَفَثَ ـ ويرتفع مستوىٰ الانتاج والعمل بالإنفاق والصرف المقتصَد.

إذاً يستفاد من جملة «مِمَّا رَزَقْنَاهم...» أمور أساسيّة ثلاثة:

١- الرزق، و «ما» تدل على الشمول.

٢- المقصود هو الرزق الحلال بدليل كلمة «رزق» والضمير «نا» والآيات السابقة.

٣- يجب أن يكون الصرف في حدّ معيّن، وذلك يستفاد مِن «مِن التبعيضيّة». ولكن كيفيّة الصرف ومورده يعود إلىٰ تمييز الانسان.

﴿وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾: معنى النزول هنا جعل الشيء في متناول اليد، وبدلالة «ما» على الشمول يشمل جميع الآيات والأوامر والصفات العالية التي أوحيت على قلب الرسول الكريم وأُلهِمَ بها، وظهرت في وجوده. وإذا كانت «الباء» سببيّة يكون متعلّق الإيمان عامّاً، أي أنّ أيمانهم يزداد بسبب الآيات النازلة عليك.

﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: ما أُنزِل قبلك على الأمم السالفة، وهو مقدّم من حيث الزمان، ولكن إيمان المتأخرين به جاء عن طريق رسالة خاتم الأنبياء التي آياتها واضحة وخالدة، إذاً الإيمان بما أنزل إليك يستلزم الإيمان بما أُنزِلَ من قبلك. ويمكن أن تكون «ما» نافية، و «الواو» عاطفة أو حالية، فيكون المعنى هكذا:

يزداد إيمانهم بسبب الآيات النازلة عليك.

﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنونَ﴾: الآخرة ـ في مقابل المحسوس، الاول، الدنيا ـ هو عالم غير محسوس يأتي بعد هذه النشأة، العالم الأفضل. فاليقين المتزايد بمثل هذا العالم وبقاء الانسان وجزاء الأعمال عندما يكون نتيجة الفكر والاستدلال الصحيح لا يحصل لكل شخص، وباستقلال ـ الكلمة ـ وتقديم الضمير «هم» قد عرّف منزلة هؤلاء.

هذه الآيات الأربعة تعرّف القرآن وتبيّن أوصاف الذين يتمتعون بهدايته، ويصلون الىٰ الكمال البشري. إنَّ بناء الانسان النفسي كبنائه البدني يشبه النبات والشجرة ـ بناءً على قاعدة التطابق والتشابه في نظام الموجودات والعوالم ـ: يبدأ النبات بالنموّ والحركة ثم تمتدّ جذوره في الغيب خلال التربة وتصل إلىٰ المصادر الغذائيّة. ونموّ الانسان وحركته المعنويّة تبدأ أيضاً من الايمان بالغيب والذي هو إتصال الأسلاك الفكرية بمصادر القدرة. وإقامة الصلاة بعد الإيمان بالغيب كجذع الشجرة الذي يقوم على الجذور وينبع منه الورق

والثمر ويستقرّ عليه. ـ الصلاةُ عَمودُ الدّين ـ والإنفاق الذي معناه إخراج الفائدة وبسط الكف كالأوراق التي تنبسط، وتوصل الإدّخار الغذائيّ والعلاجيّ للانسان والحيوان. والايمان بالفروع النازلة على الأنبياء ﷺ بعد الإيمان بالأصول مثل أغصان (فروع) الشجرة التي تثمر من الجذور (الأصول)، واليقين بالآخرة هو تكوين فكريّ من أجل البقاء كالثمرة والنواة، والثمرة حصيلة عمل الجذر والجذع والورق والغصن الذي يأخذ من الهواء والأرض النور والغذاء، وهي تكوّن المادة الغذائية للنواة، ليتصلّب لُبُّها وتحيط به القشرة، وتؤمّن بقاء النوع: «إنّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ»، والتمتّع من الآيات لأصحاب اللبّ واللبّ هو حصيلة النواة، والنواة السالمة حصيلة الثمرة الناضجة، وهي ـ الثمرة ـ حصيلة الورقة الخضراء واجتذاب النور، وذلك ناتج عن ثبات الجذر.

وشجرة وجود الانسان تمد أغصانها وأوراقها باتّصالها بالغيب، وتتمتّع من نور هداية القرآن وتصل الىٰ ثمرة اليقين. وضرب الله مثلا ـ في سورة ابراهيم (٢٣ـ٢٦) الكلمة الطيبة كشجرة طيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّماءِ، تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ ٱلامْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيْثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ...﴾ وضرب في سورة النور بالزيتونة مثلاً للذين يشعّ منهم نورُ الله.

عندما تصل الشجرة بهذه الظروف الىٰ الثمرة والنواة، تخلّص نفسها من تأثير عوامل الفناء، وتوصلها الىٰ حدّ البقاء، ولو تُلِفَ منها آلاف الثمرات أو أُكِلَتْ مع ذلك تؤمّن بقاءها. وإن دُفِنَت في الأرض تنبت المئات من نوعها المتميّز بصفاتها وآثارها، وعندما تتفتّح أزهارها بوجه النور، وتشعّ، كأنما قد احتفلت ببقائها وفلاحها، وتُدَلّي أضوية ملوّنة على أغصانها وبين أوراقها، وتعلن نشيد:

﴿أُولٰئِكَ عَلَى هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾: المتقون الذين عُرِّفوا ـ في بداية السورة ـ بأنّ الهداية خاصّة لهم، هم الذين اتخذوا الوقاية، لأنّهم خائفون ويفكّرون

ويطلبون طريق الفوز والفلاح. ولما كانوا يبحثون عن الطريق يتمسكون بهداية القرآن، وبعد هداية القرآن العامّة، يستولون على الهداية الخاصّة ويستقرّون عليها، وتـخلّصهم الجاذبيّة الربوبيّة. - «أُولئِكَ» لتعظيم الشأن، «علىٰ» بمعنى الاستيلاء والاستقرار، «رَبِّهِم» تفيد إختصاص الهداية بهم بواسطة اضافة ربّ إليهم ـ إنّ هؤلاء يصلون من الهداية العامة الرحمانيّة إلىٰ الهداية الخاصّة الرحيميّة، وكلمة «مِن» النشئيّة تشير الىٰ انّ هدايتهم كلها من جانب الربوبية، وهذه نتيجة اليقين، يقين وصول العلم والايمان بتلك الدرجـة مـن الإحساس والشهود الذي يستقربه الذهن والضمير، ويمتلك الشعور والعمل، ويجتذب المتّقين أصحاب اليقين الِىٰ نفسه، ويتصرف بهم، ويـنقذهم مـن السـقوط والانـحراف والتوقف، ويجعلهم فائزين: «وَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ».

إنّ المرحوم الشيخ محمد عبده العلامة المـصلح اعـتبر «أُولئِكَ» الأولىٰ إشـارةً إلىٰ الجماعة الأولى، والثانية إلىٰ الجماعة الثانية باللفّ والنشر، واعتبر التنوين في «هُـدًى» للنوع لا للتعظيم. أي: إنّ أولئك الجماعة قد استقروا على نوع من الهداية نتيجة للإيمان والصلاة والانفاق وهم مهيّأون للفوز والفلاح، والجماعة الثانية الذين يؤمنون بـالفروع ومتيقّنون بالآخرة فائزون مفلحون في الحقيقة، ولكن يستفاد من ظاهر الآية والبيان أنّ هذه هي أوصاف مراتب كمال المتقين حتى مرتبة اليقين بالآخرة، وعندما يصلونهذه المرتبة يستقرّون على هداية خاصّة، والفلاح ملازم لهذه الهداية.

إنّ هذه الآية ـ بتركيبها الخاص ـ تشير إلى واقع وحقيقة العالم والدنيا ونهاية مسعى الجميع، «عَلىٰ هدًى» الاستواء على مطيّة الهداية، «الفلاح» الحرث والتقدّم والغـرس، والإفلاح السعي لهذه الأمور ـ والمادة التي حرفها الأول فاء والثـاني لامٌ تأتـي لهـذه المعاني، مثل: فَلَغَ، فَلَخَ، فَلَعَ، فَلَقَ. وتكرار «أُولئِكَ» يفيد الحصر، كل هذه إشارات لطيفة واستعارات تركيبيّة تشير إلى مادّة الطبيعة الفيّاضة وسعي الانسان من أجل الخلاص من أمواجها.

الانسان المركّب من هذه المادّة وذرّاتها الفياضة، ويريد البقاء بحسب الفطرة، يسعى

ويسعى بوهمه وتلاؤمه ليتعلّق بحبل نجاة، ويتعلّق بكل سبب، ويمسك بكل قطعة خشب، ولكنّ هذه المساعي لا توصله الىٰ مكان، وكلّها تغور في وسط أمواج الطبيعة المظلمة التي قعرها جهنم المحرّقة، سوى الذين يركبون سفينة الهداية، سفينة النجاة وكاسحة الامواج تلك التي صنع هيكلها من فولاذ الايمان ، وأعمدتها من إقامة الصلاة، وتتقدم بدقه (المقذاف) الإنفاق والعمل الصالح، وتضيء الساحل بواسطة الفانوس البحري: «أولٰئكَ عَلىٰ هُدىً ...».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لاٰ يُؤْمِنُونَ (٧) خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٨)﴾

نظرة الىٰ مفردات الآيتين:

إنّ: من الحروف المشبّهة بالفعل، لهيئتها ولزومها للاسم والخبر، ولتأكيد النسبة في مقام السؤال أو الشك، لا الخبر الذي لم يسبق.

الذين: اسم موصول،والقصد منه إمّا أن يكون جماعة خاصة، أو للجنس وعامّة الذين اتّخذوا الكفر حرفةً لهم.

الكفر: هو الإخفاء أو الاختفاء لغةً، يقال للزارع والليل كافراً، لانهما يستران الأرض أو الفضاء، وكفران النعمة يعني غضّ النظر عن النعمة، وفي اصطلاح الشرع انكار الأصول أو ضروريّات الدين.

الإنذار: التحذير من المستقبل والعاقبة، ويعود الفعل الىٰ معنى المصدر ليكون خبرَ «سواءٌ» والتعبير بالفعل يدلّ على الحدوث والتجدّد، والجملتان الفعليّتان بعد الهمزة و «أمْ» شرح «سواء».

خَتَمَ: الشيءَ أيْ أنهاه، على الشيء، أي ضرب عليه بالختم وصدّق نهايته، ولهذا يقال لآلة التصديق هذه خَتماً وخَاتِماً.

القلب: الوسط، وضع الشيء منقلبا، العضو المعروف، الضمير والوجدان. وربما يقال لهذا قلباً لأنه يتقلّب باستمرار: العضو الصنوبريّ الشكل الذي يستورد الدم من البدن ويدفعه إلى الرئة، ويستعيده مرة أخرى، والقلب المعنوي يتّجه دائما من جهة الىٰ اخرىٰ.

السمع: مصدر كالقلب، والقصد هو جهاز السمع.

الأبصار: جمع البصر والقصد نور النظر.

الغشاوة: الستر والغطاء، على وزن فِعالة بكسر الفاء، يقال للأشياء المحيطة و المستوعبة: تستوعب البدن كالعمامة والعصابة، أو الصناعة التي تستوعب الفكر كالخياطة والقصارة، أو الناسّ كالإمارة والخلافة.

العذاب: يفيد المنع لغةً، أو المانع. ولهذا يقال للماء الهنيء عَذْباً لأنّه يمنع من العطش، وكلما يمنع من الوصول إلى المطلوب يقال له عذاباً.

العظيم: في مقابل الحقير، والكبير مقابل الصغير، والعظيم كبير في الظاهر والباطن، بحيث يملأ القلب والنظر.

﴿إنّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾: كلمّا جاءت كلمة الكفر في القرآن فهي كالايمان بالنسبة للباطن والحقيقة وتناسب معناها اللغويّ، الكفر والايمان مصطلح شرعي أو متشرّعي اصطلح بعد ذلك من أجل آثاره وأحكامه، ويتعلّق بالظاهر، ويمكن أن لاينطبق على الباطن. والحق ان الانسان – بحسب الفطرة ـ ليس بمؤمن ولا كافر مازال لم يتنبّه ولم يُعمِل عقله، وبعد مرحلة الفطرة إمّا أنْ يبقى غافلا منصرفا وإمّا أن يعجز عن التمييز. وهاتان الطبقتان يمكن أن تعودا إلى الايمان بالاستدلال والتنبيه، والذى لايريد العودة والتمييز، إذا انكر بعد التنبيه أو التمييز لا تدركه الهداية، لأنّه اختار الكفر بارادته وانتباهه. والكفر عدميّ في أوّل الأمر، والثاني يقابل الإيمان ومتضادّ معه (لا العدم والملكة) وعارض نفسيّ وعناد. والاستمرار و الاصرار على الكفر يعطّل القوى المدركة عن العمل إلى درجة أنّها تتوقف نهائيّا، إنْ لم تكن قد وصلت فعلاً إلى هذه المرحلة، و لأنّها لا بد وأن تنتهي الىٰ هنا تُنسب له وحوله آثار الختم والغشاوة، كالمسافر الذي في أوّل الطريق، ولكنه أقرب إلى المنزل

الذي يؤمّه.

والظاهر أن «الذين» موصولة لا موصوفة، ومورد النزول (وان كان لم يخصّص) هم كفار مكة المعاندون. والجملة الفعليّة «كفروا» المستندة للاختيار والإرادة والتي تـفيد الاستمرار تشير الىٰ أناس اختاروا الكفر اختياراً واصرّوا عليه، لا الذين يـعيشون فـي غفلة كالأنعام، ولا الذين يواجهون الشك البدائيّ أو الشكّ الاستمراريّ. إذاً فالختم على القلوب والآذان المنسوب الى الله لم يكن جبراً ومخالفا للعدل واللـطف، لأنـه نـتيجة ارادتهم واختيارهم، وترتّب الآثار وتأثيرها ـ واللذان هما من قانون التكوين وعوامل الله ـ سيّرا عملَهم واختيارَهم نحو هذه النتيجة، وبعبارة أخـرىٰ: إنّ الفـيض والرحـمة الشاملة من قِبَل الفيّاض والخير المطلق في مرتبة الذات والاختيار يظهر بشكل المقتضي أو بالاختيار المراد، كما أنه يـظهر فـي الحـيوانـات عـلى شكـل غـرائـز وأحـاسيس توصلهاللشهوات واللذائذ الحيوانية، واذا كان الأمر غير هذا فهو خلاف العدل واللطف. واذا كان الحيوان في المرتبة الحيوانية غير هذا، وكان له إدراك ومطلوب أسمى فهو ـ اذاً ـ يزاحمه في مسيرة الحياة، مع هذا الفارق وهـو أنّ الحـيوان لا اقـتضاء له سـوى هـذا، والانسان يتمكن بالارادة من السير في هذا الطريق. وما هو خارج عن الاخـتيار أوّلا الجهاز البدني والدماغ وحدود العقل والإدراك والذوق البدائيّ الذي يختلف في الأفراد، كما أن الإنسان يختلف عن الحيوان، والحيوانات تختلف عن بعضها والمعادن كذلك.

وبعد الجهاز الأوّل يعمل الوجدان والضـمير فـي الإنسـان الذي يُـثار مـنه الرغـبة والاختيار، ولما كان في حال تغيير وتقلّب مستمر، عبّروا عنه بالقلب، ومنه اختيار الخير والشر وأسلوب العمل. وهذا هو الذي يحرّض العقل والقوى الأخرىٰ على العـمل فـي طريق الرغبات، ويمكنه فصم أغلال العادات والغرائز وتحرير الانسان، لأنّـه حـرّ فـي الاختيار، وهو مصدر التكليف والمحاسبة.

وفي المرحلة الثالثة تأتي العادات والملكات، التي تترسّخ نتيجة اختيار العمل. وبعد رسوخ العادات والملكات، عندما يفكر الانسان أو ينجز عملاً مختار في الظاهر، ولكنّه

في الواقع مجبر و مجبول على ذلك، والرجوع عن هذه العادات والملكات المكـتسبة مستحيل أو صعب. وقد اتّضحت الجهات او المراحل الثلاث في هاتين الآيتين، فالكفر نُسِبَ إليهم وإلى اختيارهم، والختم على القلوب الذي هو نتيجة أعمالهم نُسِبَ الىٰ الله، وجاءت الغشاوة بدون نسبة، وكأنّما جهاز وجودهم يكون هكذا وفي هذا الحدّ، أو أنّها نتيجة العوامل الوراثية والتكوينيّة السابقة.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: يمكن أن تكون معطوفة على «عَلى قُلُوبِهِمْ»، فتكون خبرا مقدّما لغشاوة. إذاً فالكفر نسب إليهم، والختم الىٰ الله، والغشاوة الىٰ الجِبِلّةِ والطبيعة، وعَـطَلُ جهاز السمع من الممكن أن ينسب الىٰ الله أو الىٰ جِبِلّتهم، وتبدو البلاغة العجيبة في هذا القول.

جاءت القلوب والابصار بصيغة الجمع، والسمع بصيغة المفرد؟ لأنّ «السمع» مصدر ولا يجمع، ربما كان بالنظر الى اعمال وادراكات كل فرد، لأنّ للقلب رغبات وادراكات متنوعة:، كليّة، جزئية، وهميّة، تخيّليّة، حسيّة، معنوية، ورغبات في الخير والشر، والحق والباطل. كذلك البصر يرى الألوان والسطوح والمقادير ويدركها. ولكنّ نوع إدراك السمع هو تلك الأمواج الصوتيّة.

ولما كان إدراك البصر يتأتّىٰ من الجانب المقابل، عبّر عن كفّ هذا الادراك بالغشاوة (الستار)، بخلاف إدراك القلب لما كان من جهات مختلفة، جاء له بكلمة «خَتَمَ»، وخَتَمَ الشيءَ، يعني أنهاه. وخَتَمَ على الشيءِ، يعني أمضى نهايته، أو جعل خَتْمَه عليه، أو أغلق باب الصندوق أو الدار ووضع عليها مادّة طبع عليها الخَتْم أو الخاتم.

بناءً على هذا لما كانت كلمة «خَتَمَ» أتت مع «على» نُسِبَ انتهاء العمل فقط – الذي هو الغلق أو الخَتْم ـ إلى الفاعل، لا المقدّمات ولا العمل نفسه، والجملة تـفيد التشـبيه والاستعارة: بحيث شُبِّهَ قلبُهم بصحيفة استوعبها ظلام الكفر وسواد الأوهام، وختم الله في نهايتها وأغلقها، أو يشبه مخزنا أوصندوقا مختوماً غير مفتوح بحيث بقيت داخـله قابليّاتهم وثرواتهم الانسانية مخفيّة، ومُنِعت من قابلية الظهور والاستفادة منها.

يقول امير المؤمنين ﷺ في الخطبة الاولى من نهج البلاغة حول علّة بعثة الانبياء الغائية: «يثيروا لهم دفائنَ العقول» أي ليخرجوا للناس كنوز العقول المدفونة أي المختفية. بمجرد أن يدخل الوليد الىٰ فضاء هذا العالم، واتصل جسمه بالمحيط الخارجي، يفتح فاه بالأنين، وبفتح فمه يضغط الهواء على رئتيه، وعلى أثره تبدأ دقّات قلبه وحركاته المنتظمة، وبهذه الدقّات والحركة يتطلّب الغذاء والطاقة الدفاعية باستمرار، ويهيّئ الجسمَ لحياة جديدة، ونوافذ العين والاذن هكذا أيضاً بالنسبة للقلب الباطني أو الضمير والوجدان.

إنّ انعكاس الألوان والسطوح مظاهر العالَم المختلفة على شاشة العين، ووصول أمواج الصوت الىٰ الأُذن، يحرّك القلب أو الضمير، وهذه الحركة هي نفس الرغبة ليدرك مايرىٰ وما يسمع. هذه بداية أساس جهاز الانسان الباطنيّ ومادّته التي تبدأ من الإدراك والعمل والسجايا. وهذا العمل مستمر كدقّات القلب ودوران الدم، وتعكس العينُ والأذنُ المرئيَّ والمسموعَ في الضمير، والضمير يدفع جهاز الإدراك والحافظة والباصرة والسامعةالحركة من أجل اكمال إدراكاته ورغباته والوصول إلى الباطن والعلل الفاعلية والغائية، ليكتشف سرَّ كلِّ شيء، ويعرف المبادئ والغايات، وذلك من أجل الوصول إلى منبع الجمال والقوة. ويمدّه الله بالعون المستمر، فيتقدّم في دور الفطرة، وتُطلِع العوامل الوراثية والشهوات والأهواء رأسه أيضا الواحدة تلو الأخرىٰ مزامنة لهذا التقدّم، وتجعل القلب ميدانا للجذب والدفع.

وهنا يجب أن تصل قوّة دعوة الأنبياء وتشريع القوانين والأحكام للمساعدة، لكيلا يمرض القلب. ولا يصيبه الخلل ولا يواجه الموت، كما أن الطبيب الحاذق اول ما يقوم به من عمل معرفة وضع القلب. والأنبياء أيضاً ـ الذين هم أطباء النفوس ـ نظرتهم الأولى تتّجه الىٰ الضمير والقلب الباطني، إلى الحدّ الذي يفيد فيه الإنذار والبلاغ الذي يضمن الحركة ودقّات القلب، وإلّا ييأس الطبيب ويتحتّم الموت.

يكون أثر القلب الحيّ المباشر في العين والأذن، وتكون العين منه أبصر والأذن أسمع

باستمرار، وكأنّما داخل هذه العين والاذن عيون وآذان يفتحها القلب الحي ويجعلها ترى وتسمع، كما أنّ المتعلم لا يرى ـ في البداية ـ من صفحة الكتاب سوى الخطوط، ولا يسمع من القول سوى الصوت والحجب الموجودة على العين والأذن ترتفع باستمرار بالإقبال على الدرس والتعلّم. كل شخص يدرك من الحروف أصواتا ومن الكلمات معاني اكثر يرى صفحة العالم كصفحة الكتاب، ولكن مايراه العالِم الإلهيّ لايراه العالِم الطبيعيّ، وما يراه العالم الطبيعيّ لا يراه الأمي. فواحد يرى من ورق الشجر الصورة واللون، والآخر النظم والهندسة والجمال، والثالث جهاز الجذب والدفع والتغذية والعارف يرى في كل ورقة منها كتاباً يدلّ على قدرة الله تعالى.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: تفيد الجملة الاسميّة المبدوءة بلام الاختصاص الثبات والاستمرار والملازمة، أيْ أنّ عذاباً عظيما ثابت وملازم لهم، وان كانت الغفلة قد صدّتهم عن العلم به والانتباه له، هذه نهاية الكافرين، كما أنّ الفلاح والفوز نهاية المؤمنين: وإنّ هذا الفرق والامتياز هو أثر اشعاع نور الوحي الذي يثير كلَّ مستعدٍّ له، ويميّز كل شخص أو طبقة بحسب قابليّته واستعداده، كما أنّ إشعاع النور بين الموجودات في الفضاء يخلّصها من السكون والتجانس في المستوى، ويفصل كلّ واحدٍ عن الآخر في الصورة والمكان، ويبدأ الفعل والانفعال والاصطدام بين العناصر والقابليّات المختلفة بعد اشعاع النور، فالبعض يسمون بحبّهم للنور، والبعض الآخر تَبَوَّؤُا أعماق الأرض فلا يفتحون أعينهم للنور، ولا تسمع آذانهم دعوة خطوط الأشعة التي هي رسل الله، والبعض حائرون بين جاذبية النور والظلام.

وامتازت النفوس الهادئة المطمئنّة بعد طلوع القرآن الشعاع الباطن فالذين تحيا فيهم فطرة حبّ الحقّ وضمير حبّ الخير بصورة سليمة، يند مجان في بعضهما بمستوى رفيع، ويتقدّمان بهدي القرآن. وفئِة أخرىٰ هم الذين تطبّعوا على ظلام الكفر، ونور الوحي لا يلائم عيونهم الخفّاشيّة، والفئة الثالثة هم الذين يعيشون حائرين: ـ

أرسل اللهُ النبيّين لِكَيْ　　　يوضحوا التمييز في رُشدٍ وغَيْ

أرســل اللــهُ الدُعـاةَ بـالورق	فارتضىٰ واختار دُرّاً فـي طـبق
إنّ كــلَّ النـاسِ قـبلَ الأنـبياء	مســلماً أو كـافراً كـانوا سـواء
قـــبلَهم كُــنّا ســواءً كَــبَشَر	مادرى شخصٌ بـنا خـيراً وشَـر
كـان للسِكّــةِ والقــلبِ رواج	وسُـــراةٌ نــحن والعــالَمُ داج
فـتجلّى كـوكب الرسـلِ وقـال:	ابتعد يـاغِشُّ يـاصافي تـعال[1]

انظروا الأوصاف النفسيّة والأخلاقية للفئة الثالثة في نور الآيات التالية:

﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِـاللهِ وَبِـالْيَوْمِ الآخِـرِ وَمَـاهُمْ بِـمُؤمنينَ (٩) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَايَخْدَعُونَ إلاَّأَنْفُسَهُمْ وَمَايَشْعُرُونَ (١٠) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُم اللهُ مَرَضاً ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١١) وَإذَا قِيْلَ لَـهُمْ لاتُفْسِدوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١٢) ألا إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُون وَلٰكِنْ لاَيَشْعُرُونَ (١٣)﴾.

نزلت هذه الآيات حول صفات فئةٍ أخرى وأعمالهم وسيرتهم بالنسبة للقرآن والدعوة الاسلاميّة، وهؤلاء ليسوا كالفئة الثانية الذين انتهت فطرة رغـبتهم للكـمال وشـعورهم بالخطر، ولاكالفئة الأولىٰ الذين تخلّصوا من الظلمات بإشعاع القرآن حتى وصـلوا اِلى ساحل النجاة. فالفئة الأولىٰ لما كانت قواهم النفسيّة ثابتة ومتناسقة وهم يتقدّمون فـي الطريق المستقيم بنور هدى القرآن والإيمان بالغيب، منحهم الله لقب «المتّقين»، والذي هو وصف اسمّي يدلّ على الثبات، ثم جاء بأوصافهم بصيغة افعال المضارع التي تـفيد الحركة والتكامل، وجاء وصف الكفر والختم للفئة الثانية بصيغة افـعال المـاضي، الذي يخبر عن الماضي وموتهم الروحيّ والمعنوي. ولم يذكر وصفا ثابتاً للفئة الثالثة، ولاجاء

١) ترجمت ستة ابيات فارسية بمثلها عربيّة. (الترجمان).

بخير عن مستقبلهم يفيد الرجاء، ولاذكر وضعهم في الماضي. وعبّر عنهم ببعض الناس، أي لم يكن لهم وصف ثابت، لأنّهم لاتنطبق أقوالهم مع أفعالهم، ولاأفعالهم مع نيّاتهم القلبيّة، وكل هذه مع إدراكاتهم الفطريّة والوجدانية. ويواجهون الاختلال الفكريّ وتجزئة القوى الباطنية وعدم التناسق النفسي.

وخطر هؤلاء على كل جماعة تواكبهم بالفكرة أشدّ من الكافرين، وقلّ ما يُكشَفون، ولم يكونوا في النفاق سواء. ولذا فان القرآن في هذه الآيات بحث بصورة اكثر أعمالهم وأوصافهم، وربما كان هؤلاء الفئة الظاهرة من المنافقين، لأنّ مرض النفاق موجود في اكثر الناس، وكما أنّ المؤمن الخالص قليل، كذلك الكافر المحض قليل ايضاً، وفي آيات القرآن الأخرى أطلق عليهم اسم المنافقين، وفيه سورة باسم المنافقين.

النفق: الثقب وجُحر الفأر في الارض الذي له طرق مختلفة، ويأوي اليها الفأر الأعمى الهارب من أشعّة النور، وكلما واجهه الخطر من جهة تخلّص من جهة أخرىٰ، وكأنما جاء اسم المنافق لهذه المناسبة،لأنّ المنافق عاجز من ناحية التفكير والارادة، لذا يتلوّن مع كل محيط وجماعة، وله وجوه متنوّعة، ليخدع الناس بكل وجه. كما أنّ بعض أوصافهم في هذه الآيات «مخادع» اسم الفاعل من «يخادعون»، وأحد معاني «الخدعة» اختفاء «الحيوان، الضبع» في غاره.

هكذا درس سقراط باطن أمثال هؤلاء الناس، يقول: كانما احتلّ باطن هؤلاء حيوانات متنوعة، أو أنّ باطنهم هيكل له رؤوس مختلفة، بحيث يخرجون رأسا منها متناسباً مع كل زمان ومكان، يظهرون تارة بصورة الانسان المحِقّ العادل، وتارة يظهرون بصورة الوحش الكاسر المفترس في مقابل الضعفاء، ويحرّكون ذيولهم كالثعالب في مقابل الأقوياء في الظاهر ويتملّقون، ويبدو الضعف والذل من عيونهم، وتارة يفتحون أفواههم لكل حرام كالخنزير، وتارة يظهرون بمظهر حيوان شهواني، وتارة يلعبون ويستهزئون بكل حقيقة ويخالفون كل عمل ثابت جادٍّ.

ويدعىٰ مثلُ هؤلاء الناس اتفه الناس وأحقرهم بنظر القرآن والأديان والرجال

الواقعيّين، وعديمي الضمير من وجهة نظر القرن الذهبيّ، واذكياء ديبلوماسيّين سياسيّين قادرين في بيئات الانحطاط النفسي والاخلاقي.

﴿وَمِنَ النَّاسِ...﴾ الألف واللام يمكن أن تكون للجنس كما يبدو، ومِن للتبعيض، أي بعض الناس، ويمكن أن تكون للعهد إشارة إلى الآيتين السابقتين، ومِن للتبيين، أي من أولئك الناس الكافرين. وأصل «الناس» أناس، بدليل إنس وانسان وأناسيّ، وجاءت الألف واللام بدلاً من الهمزة، وفعلها الماضي «أنس» أي تطبّع أو تحرك واضطرب، لأنّ الانسان ـ بخلاف الوحوش ـ له طبع الأنس والألفة، أوأنه لايستقرّ: ويمكن أن يكون اسم الفاعل من النسيان. أي الناسي والغافل.

الوصف الأول والظاهر لهذه الفئة التظاهر باللسان فقط، بحيث لايوجد شاهد على أقوالهم في العمل والسيرة، مع العلم بأن اعتقادهم الباطنيّ يظهر في العمل بصورة تلقائية.

جاء تكرار الباء في «وباليوم الآخر» لتأكيد الإيمان، والذي هو دليل على النفاق، لأنّ المؤمن الحقيقي عمله يشهد له، ولايحتاج لاظهار المؤكّدِ.

وجاءت الجملة الاسمية «وماهم بمؤمنين» وباء الملابسة بدلاًمن «ما آمنوا» أو «ليسوا مؤمنين» للنفي العام لأصل إيمانهم القلبيّ.

ويستفاد من هذه الآية أمران رئيسيّان:الأوّل: أنّ الإيمان حقيقة باطنية وقلبيّة، يجب أن تظهر بالعمل، ومجرّد إظهار الايمان لايجعل أحداً في صفوف المؤمنين. الثاني: ان الأصل الأول من أصول الدين هو الإيمان بالله وبالآخرة.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾: يخادعون فعل مضارع من المفاعلة، ويستعمل هذا الباب للفعل الذي يتم من قبل اثنين متقابلين أو اكثر، وهما فاعلان ومفعولان في وقت واحد، وينسب الفعل إلى الذي بدأ بة، ولما كان الخداع بدأ من قِبَل هؤلاء، نُسِبِ إليهم، ولما كان ردّ فعله، الخداع وتخطئة الادراكات الوجدانية الفطرية و حجبها، وهذا قانون الهيّ، نسب ـ بصيغه المفاعلة ـ الىٰ الله أيضاً، كما أنّ الظالم الأوّل يدمغ وجدانه ويجعله مظلها، ثم يدمع المظلوم وكل ذنب له هذاالأثر قلّةً وكثرة، وجملة «وَمَا يَخْدعُونَ إلّا أَنْفُسَهُمْ» بيان لِ

«يُـخَادِعُونَ»، أي إنّ نـتيجة فـعلهم وسـيرتهم تـعود عـلى انـفسهم، فـهم يـخدعون أنفسهم،ويُخلِّون نظامهم النفسيّ الطبيعيّ ولما كان إدراك الأمور النفسية وامراضها دقيقا جدّاً، والاهتمام بالحالات النفسية والتطورات الداخلية من الصعوبة بمكان على اثر الغفلة والاهتمام بالأمنيات والشهوات الخارجيّة عَبَّر بالشعور عن هذا العلم والادراك، وأنكـر القرآن الشعور فيهم. والشعور من الشَعر أي دقّة النظر، والشاعر هو من يدرك دقائق الأمور ولطائفها، وما اكثر الذين يحصلون على المـعلومات ولهـم فكـر لكـنهم يـفتقرون إلى الشعور...

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾ هذه الصفة الثالثة والإخبار عن وضعهم الداخلي، وسبب الوصف الاول واضح، والثاني الغشاوة عليهم بالترتيب.

المرض حالة عندما تعتري الجسم أو العضو تؤدي إلى اختلال عـام فـي العـضو أو الجسم، وبالنتيجة لايتم العمل أو الأثر الجدير بالعضو أو الاعضاء المريضة كما يـنبغي، ويعتريه الألم والحُمّى أحيانا حتى تلفت نظر المريض نـحو الخـطر، وهـذا الاخـتلال وعلائمه محسوسة في الجهاز الجسماني ويكون هذا الاحساس بهذا الاختلال في الجهاز النفسي أدقّ وأوضح أحياناً، كالاختلال والآلام النفسيّة كالجهل والتكبّر والحسد أو الطعن الذي يرد على شخصيّة الانسان وشرفه مما يسهّل تحمل الآلام الجسميّة، إلى درجة أنّ الانسان يتمنّى الموت، وهذا بنفسه دليل واضح على أنّ للانسان جهاز آخروراء الجهاز الجسميّ. فمثلا، كما أنّ ألم الضرس يذهب بالراحة ويسقط اللذة من النظر ويجعل الحياة مظلمة، فإنّ ألم الحسد أو التكبّر أو الأنانيّة له نفس النتائج: يتألّم، يصيبه الأرق، يتلوّى لأنّ الآخرين في نعمة أو جاه أومنصب.

ويتضح هذا الموضوع بصورة أكثر بتقدّم العلم والتجارب: وقد ثـبت أنّ كـثيرا مـن الأمراض الجسميّة سببها الاختلال النفسيّ، لأنّ هذه الاختلالات تؤثّر على الأعصاب، والأعصاب جهاز حيويّ يعمّ جميع الأعضاء، فبمجرد أنْ يختلّ هذا الجهاز تقلّ قدرته الدفاعيّة، ولاتقوم الأعضاء بإنجاز مَهَامِّها بصورة صحيحة، وهذا هو سبب كل مرض.

إنّ دنيا العلم تسعى باستمرار لاكتشاف أدوية تحدّ من الألم والموت غير الطـبيعي، ولكنّها لم تفكر بعلاج لهذه الانحرافات النفسيّة والخُلُقيّة والضغوط المعنوية، ولم تخترع دواءً يكون سيّىء الظنّ والحسود والانانيّ بواسطته حسن الظن يحبّ الناس انسانيّاً، أو تقتلع من الداخل جراثـيم الحـقد والجشـع واليأس. فـالمعالجات العـصبيّة المـتعارفة لاتتعدّىٰ التسكينات، والعـلاج الجـذريّ الحـاسم خـارج عـن مـهمّة عـلماء النـفس والأعصاب البشريّين، لأنّ إلاحاطة التامّة بجهاز الانسان النفسيّ الغامض وتأثير الأفكار والتخيّلات والأعمال والبيئة على القوى الباطنيّة لايتمكن عليها إلّا مبدعها «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». وهو الذي يُطلِع الناس على هذه الأسرار، ويزيد في قوة الدفـاع المـعنوي بالاوامر النفسيّة والعملية، يضع حدّاً لِسراية هذه الامراض بالوقاية والتقوى، وقد وضّحنا ذلك قبل هذا.

فكما أنّ المرض الجسمي يُضعِف الجسم ويمنعه من الاستقامة، وتقلّ الشاهِيّة نتيجةً لاختلال الجهاز الهضمي، ويكون الغذاء اللذيذ غير لذيذ في الذائـقة، ولايـقوم العـضو بواجبه الطبيعيّ، كذلك المرض النفسي والاختلال له مثل هذه النتائج. فالمريض النفسي لايدرك الحقائق والمعارف ولا يهضمها، ولايقوم على برهان ودليل مباشر، ولايتمكن من الاستناد على عقيدة ثابتة، ولايتلذّذ بالتوجّه إلى الله وعبادته، والتفكير الصـحيح، ومساعدة الناس وخدمتهم، ويخاف مما لايُخافُ منه كالمصاب بالما لنخوليا (المرض السوداوي)، ولايخاف مما يجب الخوف منه، ولا يؤثّر فيه الوعظ والإنذار والتحذير.

﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً...﴾ أخبر في البداية عن تمكّن المرض في قلوبهم، ولم يبيّن مصدر ذلك وسببه، لأنّه من الممكن أنّه ورث المرض من أبويه وأسلافه، أوجاء به من دور التكوين، أو أنّه أضعف قدرة الوقاية في نفسه، باختياره وعَـرَّضَ نـفسه للـمرض، لأنّ المرض (أو ميكروبه) يوصل نفسه إلى مراكز الجسم الأصليّة أو القلب، ويتقدّم به قانون التكامل الذي هو قانون الهيّ عامّ في العالم ويكثّره، لأنّ كل موجود صغير أوكبير له حق الحياة والنموّ في بيئته الملائمة له، وعناية الله متساوية بالنسبة للجميع.

تكرار كلمة «مرض» بصيغة النكرة يفيد على أنّ المرض الأوّل يختلف عن الثاني شدّة وضعفاً، أو بالأختيار وعدمه، أو من جهة المصدر والسبب، لأنّ المرض الأول ضعيف والثاني قويّ، والأول باختياره او غفلته وبواسطة الاسلاف، والثاني خارج عن الاختيار، وبواسطة قانون التكامل. وقدبيّنت الآية الكريمة هذه الحقيقة ببلاغة تبهر العقول، فقال تعالى «فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً» بدلاً من «فزاد اللهُ مرضهم» فزيادة الله الاولى تشملهم انفسهم، و«مرضا» الذي هو تمييز ونكرة جاء ضمن زيادتهم هم، أي إنّ هذه الزيادة تابعة للتكامل العام!!

إذاً يستفاد من هذه الآية أصول ثلاث: الأوّل: هو أنّ المرض عارض على صحة طبيعة الكائن الحيّ الأولى وعلى مزاجه. الثاني: لايُنسب عروضه وتمكّنه إلى الله. الثالث: زيادته تكون وِفق تكامل الأحياء العام والذي هو القانون الإلهيّ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بما كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ العذاب الأليم لهؤلاء وملازم لهم، وهذا العذاب بسبب كذبهم أو تكذيبهم (على قراءة يكذّبون بتشديد الذال)، الأليم بمعنى المؤلم أو بمعنى المبالغة في العذاب، والألم مقابل اللذة، واللّذة حالة تلائم الطبيعة، أيْ إنّ كلّ ما يلائم طبع إحدى الحواس والمدارك في الكائن الحي فهولذيذ. ومالايلائمها فهو مؤلم. فبمجرّد أن يعرض عارض أو مرض للعضو الحسّاس يعلن العضو عن عدم ملائمته عن طريق الالم ليتوقف الخطر العارض بكل سرعة، ولكن بعد استيلاء المرض وقطع صلة العضو بالحياة العامّة يهدأ الألم، وهذا هو الموت. ولمّا كان المنافق كالكافر لم تنتهِ حركة قلبه وضميره وحياته المعنوية، وهي في حالة التجزئة وقطع الصلة نتيجة تكذيب جهازه النفسيّ، فهو يعيش في حال ألم وعذاب. ولكن الكافر استولى عذاب الموت على كلّ قواه المعنويّة وأزال شعوره، وهذا هو السر في اعلان العذاب العظيم للكافر، والعذاب الأليم للمنافق، كما أن الشلل والعمى والطَرَش او الموت العام عذاب، ولكن بلا ألم. والانسان يهوّن الألم إلى حدٍّ ما لكيلا يواجه الموت الذي هو فناء.

يجد المتألّم بنفسه طريق العلاج، بل الألم نفسه إعلان عن وجود العلاج، كما أنّ الماء

اذا لم يكن موجوداً لم يكن العطش، العطش بنفسه إعلان عن وجود الماء، والامـراض التي لم يُكتشف لها دواء كالسرطان، يحاول العلماء دائماً أن يكتشفوا لها الدواء ولايقول أيُّ طبيب: لايمكن علاجه ولايوجد له دواء، بل الجميع يـقولون: له دواء ولكـنّه لمّا يُكتَشَف. إذاً الفطرة البشرية تقدّم هذه الشـهادة القـطعيّة بأنّ لكـلّ دواء مـوجود فـي التركيبات النباتية والكيماوية. إذاً فالانسان مصاب بمرض الجهل وألَمِهِ، وما أكثر الذين عاشوا في وسط الألم والمرض وماتوا، مع العلم بأنّ دواؤهم كان إلى جانبهم وفي وسط حديقة دارهم.

هل يمكن للحكمة واللطف اللذين خلقا لكل داء علاجا ودواءً، أن لايـخلقا للآلام المعنويةَ التي أثرها وألمها ـكما قيل ـأشد وادوم من الالآم العضوية والجسمية ، علاجاً ودواءً، ولم يُثر الأخصّائيّين والمكتشفين؟! وهذا دليل آخر على وجوب بعثة الأنـبياء وتشريع طرق العلاج.

﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ لاتُفْسِدُوا...﴾ وهذه أيضاً من صفات المنافقين الخاصة، من أنّـهم يعتبرون أنفسهم مصلحين مع كونهم مفسدين ومصدرَ كلِّ فساد. ومن وجهة نظر المنافقين أوساسة العصر المحافظة على النظام القائم ـ مهما كان ـ وإلهاء الشعب بالغرائز الجنسيّة، ومنع ظهور القابليّات هو إصلاح في الأرض، وهؤلاء يحاولون بهذه الطبول والمـزامـير والسدود والصدود أن يحافظوا على كل شيء كماهو ليستفيدوا ويسيطروا على الوضع القائم بصورة أكثر.

ومن وجهة نظر الأنبياء والمصلحين الكرام يكون أسلوب المنافقين وأعمالهم فساداً في الأرض. ولهذا يكون هذا الأسلوب سبب فساد القابليّات الفكريّة والخُلُقيّة بين أفراد البشر، ولمّا كان الانسان ثمرة التكوين والأرض يكون فساده فساد الأرض، أو من جهة أنّ فساد الطاقات البشرية يؤدّي إلى بوار الأرض وعدم الاستفادة من قـابليّاتها. أو أنّ كلتيهما ناتجتان عن بقاء النظام الفاسد والكلّ يؤثر بعضه في البعض الآخر.

وعلى كل حال فمن وجهة نظر الأنبياء ورسل الله يؤدّي ركود النـظام الاجـتماعي

والقابليّات النفسية إلى الفساد كركود الهواء والبحر وظاهر الكائنات وباطنها. ولهذا فإنّ القرآن أشار إلى المفسد في الأرض بالاعلان والتنبيه وتكرار الضمير، وهؤلاء هم المنافقون. ومثل هؤلاء يظنون أنفسهم فقط مصلحين (باستعمال كلمة «انما» الدالة على الحصر) بالتطبيل والتزمير والمحافظة على الوضع القائم، وأنَّ غيرهم مفسدون مُخِلّون. ولمّا كان النظام الاسلامي المقدّس وأتباعه تركوا الوضع القائم وأوهام الحاكمين عليه، وأثاروا قابليّات الناس الفكرية والخلقيّة، وصاروا السبب في نشوب الحروب الباردة والحارّة، يراهم هؤلاء مفسدين، هؤلاء الذين تطبّعوا على أوهامهم الجاهلية، ولايدركون سوى ماهو موجود، ولايفهمون حقيقة كلّ من الصلاح والفَسَاد، ولايتمكنون أنْ يفهموا: «وَلٰكِنْ لايَشْعُرُونَ».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ ٱلنَّاسُ قَالوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السّفَهَاءُ ألا إنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلٰكِنْ لايَعْلَمُونَ (١٤) وَإذَا لَقُوا الذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإذَا خَلَوْا إلىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٥) اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٦) أولئكَ الَّذِيْنَ اشتَرَوا الضَّلالَةَ بِالهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٧)﴾

معاني الفردات:

الشياطين: جمع شيطان، من شطن اي ابتعد عن الحق، وتمرّد على الأوامر، وكل موجود يكون كذلك يقال له شيطان.

الاستهزاء: استفعال من هزء أي التحطيم، الإستبراد، القتل، وعندما يتعدّى بالباء يكون بمعنى الاستخفاف والسخرية.

المدّ: الزيادة، الإطالة، وعندما تزاد أِلفاً تكون بمعنى إضافة شيء إلى آخر.

الطغيان: تجاوز الحد، التمرّد. الطاغية: المستبد، الجبّار.

العَمَهُ: الحيرة، الذهاب والإياب بلاقصد، السير بلادليل، العمىٰ.

يتّضح من الأوصاف والسيرة التي ذكرت للمنافقين في هذه الآيات أنّ هؤلاء من الناحية الطبقيّة طبقة ممتازة تُبلائيّة معيّنة، أناسٌ تعلموا بالتجربة طرق الخداع وإغفال العامّة والتلوّن بكل لون (كما يشير إلى هذا أيضاً معنى نفق والنفاق لغةً). ويتصوّرون أنّ مقياس الحق والباطل والإنتصار والإندحار هو الوضع القائم، وتجارب الماضي وأفكاره، وحالهم. ولما كانوا مغرورين بقوتهم الفكرية أو المالية أو معلوماتهم المحدودة، لايدركون الحق وقوّته كما ينبغي. وفي مقابل هؤلاء، العامة أصحاب الضمائر النيّرة والفطرة الطاهرة، الذين قلّما يصابون بأمراض نفسيّة، ولذا فهم يدركون الحق بصورة أفضل، وتضحياتهم واستقامتهم أكثر.

تفيد جملة «كَمَا آمَنَ النَّاسُ» أنّ عامّة الناس آمنوا، لأنّ صفتهم الانسانية لم تتلوّث، ولم يصابوا بالتعصّب الطبقيّ أو العنصري أو القوميّ، وكانوا يرون أنّ هؤلاء لايتجاوبون مع مخالفيهم، فأصابهم الحرمان والمشاكل، وعادوا على أنفسهم بالخطر، لاسيما كانوا ينظرون إلى المسلمين المهاجرين، والأنصار الفقراء، وبؤساء المدينة المحاصرين من قبل أعدائهم في الداخل والخارج من المشركين واليهود والدول العظمىٰ. ومن وجهة نظر هؤلاء لم تكن استقامة المسلمين وآمالهم وايمانهم سوى ضعف العقل والبساطة وعدم التفكير بالعواقب ليس إلّا، ولاتتفق مع الحساب للحياة. ولكن السفهاء بصورة تامة هم هؤلاء في الحقيقة والواقع، سواءٌ كان السفه خفة العقل، أو قصور التفكير، لأنّ هذه الطبقة من الناس هم الذين تواجه عقولهم القاصرة تيارات الشهوة والهوىٰ، ولايستقرّلهم فكر ورأي، أو أن قابليّاتهم العقليّة قلّما تبدو من وراء ستار الأنانيّة والغرور، ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِنْ لاَيَعْلَمُونَ﴾ كما أنّهم افتضحوا ولمّا يمض على ظهورالاسلام وقت طويل، وأصبح تنبّؤهم وتفكيرهم بالعاقبة وانكماشهم وبالاًعليهم، واتّضح سفههم. وكانت مقابلة الحق والباطل هكذا دائماً طيلة التاريخ.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾:

هذه ـ أيضا ـ خصلة الأنانيين المغرورين المستكبرين النفسيّة، الذين يسخرون من الآخرين، لاسيما المؤمنين، ويتخذون منهم آلةً للمرح واللهو، وهم مُمَثِلون كالقردة يتشكّلون بكلّ شكل، فكلّما قابلوا المؤمنين ظهروا بمظهر الايمان، مع العلم بأنهم يخفون وراء مظهرهم الايماني صورتهم الشيطانية، وهم ينجذبون دائماً لطبيعتهم النفسيّة تلك.

«خَلَوْا إِلىٰ شَيَاطِينِهِمْ» تشير الكلمات: خلوا، وإلى، وإضافة الشياطين، إلى باطنهم الشيطاني، وإنجذابهم اليه، والاستهزاء بالحق من آثار هذه النفس الشيطانيّة، والغرض منه الاستخفاف بالانسان المكرّم عند الله.

والفرق بين الاستهزاء والخداع ـ وقد عدهما القرآن من صفات المنافقين ـ هو إنّ الغرض من الاستهزاء الاستخفاف فقط، ولكن المخادع يريد أن يصل بواسطة الخداع إلى غرض آخر.

ومثل هؤلاء صفاتهم شيطانيّة ومهازل، لأنّ قواهم الفكرية تستخدم للسخرية والطعن في الآخرين، وبالتالي يعجزون عن التفكير الصحيح والإيمان الثابت والتصميم في العمل، ويفقدون قيمتهم، ويعيشون بحيرة وقلق، ويصابون باضطراب فكريّ، وهذا هو استهزاء اللهِ وعبادِ اللهِ بهم، كالزوبعة التي أثارتها الحوادث الجوية أو التراب والعجاج والتي ظنّت أنها اتّخذت الأرض والهواء ألعوبة، وهي الثابتة المستقلّة بنفسها، مع أنّ وجودها لم يكن سوى تراب وهواء قد التقّا ببعضهما وسرعان ما يتلاشى.

كأنما جملة «وَيَمُدُّهُمْ...» شرح لـ«اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» وقد نُسِب الاستهزاءُ والإمدادُ إلى الله في هذه الآية، والطغيان نُسِب إليهم وإلى سوء اختيارهم. بناءً على هذا فالطغيان الذي هو تمرّد على الحقّ وتجاوز الحدّ سبب الاستهزاء والإمداد ونتيجة هذه الامور «العَمَهُ» وهو الحيرة والتسيّب في الطريق المغلق، والسير بلاهادي وعاقبة أمر جميع هؤلاء الخسران النهائي والفشل المعنوي الذي توضحه الآية التالية:

﴿أُولٰئِكَ الَّذِيْنَ اَشتَرَوُا الضَلاٰلَةَ...﴾ إنّ كلمتي «أُولٰئِكَ» و «الَّذِينَ» هي للانتباه الخاص إلى أوصاف مثل هؤلاء ونفسيّاتهم وسيرتهم ليترسّخ في ذهن السامع بعدما جاء

في الآيات السابقة، ولتُعلَن نهاية حياتهم. وكأنّه توضيح آخر عن استهزاء الله بهم: كيف اتّخذوا أنفسهم ألعوبة، فأمدّهم الله أيضاً بقانون العالم العام فخسروا في النهاية جميع رأسمالهم.

إنّ هؤلاء جاءوا إلى الدنيا برؤوس أموال فيّاضة من القابليات والقوىٰ الظاهرية والباطنية التي هي مشاعل هداية الفطرة، وبدلا من أن ينيروا فطرتهم وقواهم، ويتّجهون بنورها نحو الهداية، اشتروا الضلال بأرواحهم، وحوّلوا هذه الأنوار بجدّهم وجهدهم ناراً ودخانا.

واعلان نهاية هؤلاء في مقابل نهاية الفئة الأولىٰ الذين أصبح رأسمالهم المعنوي كله نوراً وهُدى وفلاحا، وهؤلاء الضلال والخسران، وكما يبدو الأمل والبُشرىٰ، بالنسبة للفئة الأولى ومنها: «أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» يتضح الحرمان والأسف في هذه الآية بالنسبة إلى هؤلاء:

فغدا النورُ الالهيُّ دخان فِطرة الحق بها نمرود بان[1]

تشير جملة «اشتَرَوا» إلى أنّهم جعلوا هدايتهم الفطرية وإيمانهم التكوينيّ بسوء اختيارهم وجدّهم وجهدهم ثمنالسوق الضلال، لأنّ المشتري هو الذي يمتلك الثمن ويذهب إلى البائع، والبائع جالس في مكانه يعرض بضاعته، «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» تشير إلى أنّ هؤلاء لاأنّهم لم يربحوا من رؤس أموال الطبيعة وقواهم فحسب، بل خسروا ولم يهتدوا إلى طريق استغلال هذه القوى، وضلّوا مع وجود آلاف المصابيح.

﴿مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لايُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لايَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ أوْكَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بالكافِرينَ ﴿٢٠﴾ يَكَادُ البَرْق يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ

١) ترجمة البيت الفارسي ببيت عربيّ. (الترجمان)

كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيْهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوْا وَلَوْشَاءَ اللَّـهُ لَـذَهَبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ ﴿٢١﴾

معاني المفردات:

مَثَلٌ: صفة: قصّة ذات عِبَر، تأتي تارة لتشبيه المعقول بالمحسوس، أو التشبيه المركّب والاستعارة المركّبة بحيث تبيّن مجموعة صفات جماعة وأحوالهم وعواقب أمرهم، وتارة تأتي بشكل حكاية، أو جمل أو أمثال شائعة بين الشعوب، أو التقاليد، أو التمثيل على شاشة المسرح، ليتركّز المضمون والمطلوب في الذاكرة و تظهر المواضيع المشتتة بشكل مجموعة.

إِسْتَوْقَدَ: مِن وَقَد، والوقود بمعنى الاشعال والحطب، وصيغة الاستفعال تفيد الجـدّو الطلب والمشقّة.

صَيِّبٌ: المطر الغزير المتتالي، والسحابة الممطرة.

رَعْدٌ: الحركة القويّة، صوت اصطدام السحب ببعضها.

صَوَاعِق: جمع صاعقة، الصوت المخيف، البرق والنار النازلة من السماء.

يَخْطِفُ: من خَطِفَ، استلبه بسرعه.

ضرب القرآن هٰذَيْن المثلين بألفاظ وتعابير خاصة كالشاشة المحسوسة ليمثّل لذوي التفكير والتأمّل أوصاف المنافقين وحالاتهم، وأعمالهم المضطربة، وبيئة نفسيّاتهم القلقة، وتخيّلاتهم وآمالهم القائمة على غير اساس، التي ذكرتها الآيات السابقة، لعلّهم ينتبهون، أو يفتضحون ويعتبربهم الآخرون.

المثَل الأول: يمثّل الحيرة والضلال في صحراء مظلمة، والسحب المتراكمة قدسدّت جميع منافذ نور الهداية السماوية، بحيث لايبدو نجم واحد من زاوية الافق، وفي مثل هذا الظلام الدامس، وبين هبوب الرياح المضادة يجمعون حطبا بجدّو نصب ويوقدون ناراً، ليدفَؤُوا من حرارتها ويضيئوا المحيط المظلم بشـعلتها، لعـلهم يـجدون طـريقهم،

وبمجرّد أن تشتعل النار، وتضيء أطرافها تهبّ ريح وتعصف بماجمعوا هنا وهناك، فيقفون حائرين مبهوتين في مكانهم.

يشير هذا المثل إلى الحالة النفسية لأولئك الذين تراكمت سحب الشهوات المختلفة المظلمة على أفق فطرتهم، وقطعت صلتهم بنور الهداية، فيرون أنفسهم في بيئة تصبّ الموت والبلاء والفقر الملازم للدنيا، وبدلا من أن يخلّصوا أنفسهم بقوة العقل الفطري، والاتصال بسلك نور هَدي القرآن، جمعوا أوهاما ممّا يلبس الحق بالباطل كالحطب وأسموها معتقداً ونظاما، وبمجرّد أن أرادوا الاعتماد على ماجمعوا ونسجوا من تخيّلات، وأن يجدوا طريقا من خلال نور الفطرة الباهت، هبّت عليهم العواصف النفسيّة المضادّة، والتي هي من آثار الاجواء والبيئات المختلفة، فأطفأت نورهم، وأخمدت شعلتهم، وأظلم عليهم الطريق، وبعد أعوام مضت ظلوا واقفين في مكانهم حائرين لايجدون بصيص أمل ولابريق هداية للتقدّم، ولاطريق للرجعة.

هذا من الوضع النفسيّ، وأمّا وضع الحياة الظاهريّة، فيبادر هؤلاء إلى الوفاق مع الجماعات وتغيير اللون والوجه لتأمين حياتهم، بدلاً من ايجاد العلاقات الإيمانيّة الحسنة مع الناس وتحمّل المسؤوليّة، والقيام بالعمل الصالح، ولكن عندما يقارب نسيج سياستهم تصنّعاتهم وتراكم أمورهم إلى النتيجة، وتكاد أن تنفتح نافذة أمل للوصول إلى أمانيهم و آمالهم، تداهمهم حوادث الدهر القهريّة فتنقض غزلهم، وتطفيء نور أملهم. وهؤلاء في ظلمات أوهامهم لاأُذُنَ لهم ليسمعوا صوت الهُدىٰ، ولالسان لهم ليسألوا عن الطريق، ولاعين لينظروا موضع قدمهم: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ».

وبالنظر إلى هذا البيان، نلقي نظرة أخرى على هاتين الآيتين: «ٱستَوْقَدَ ناراً...» أشعل ناراً بجهده. تشير هذه الجملة إلى البيئة المظلمة، والتي هي الباطن والحقيقة لتلك التخيّلات والأوهام والتصنّعات: أي يريدون أن يجدوا الطريق بجهدهم وعقلهم القاصر، في مقابل المؤمنين الذين أضحت فطرتهم أنور، وآذانهم أسمع، واعينهم أبصر، وألسنتهم أنطق بتسليمهم للحق ونور الهدى وهذا هو النور المحض الثابت الذي أنار جميع الجهات.

ولكنّ مايشعله المنافقون هو نتيجة نفوسهم الملتهبة التي يرافقها الرماد والدخان، وذلك النور الباهت الضعيف القاصر الناتج عن سعيهم وهو من قِبَل الله الذي يجعل لكل عمل أثراً يزول، أويذهب به الله(«ذَهَبَ اللهُ بنورِهِمْ» ومعنى «ذهب به» أخذه معه، فنسب الذهاب به إلى الله، و النور اليهم، والتفت من المثل الذي هو إشعال النار إلى المُمَثَّل الذي هو أعمالهم الباطنيَّة)، وما يبقىٰ بالاضافة إلى التعب والمشقة حَطب تخيّلاتهم واوهامهم المحترق نسبيّا ونفوسهم المتدخّنة.

جاء ضميرا «استوقد» و «حوله» مفردين، العائدين على «الذي» (ويمكن أن يعود ضمير حوله إلى «ناراً» والضمائر التي تلتهما أتت بصيغة الجمع باعتبار معنى «مثل» العام، أو أنها تشير إلى الوضع العام، كما أنّ الذي يشعل النار واحد في اكثر المجتمعات أو جماعة واحدة، والمنافق الذي يلعب الدور الأول يكون واحداً عادةً، والآخرون حوله ويساعدونه، ولكنّ الجميع شركاء في الظلام والحرمان.

﴿ظُلُمَاتٍ﴾ جمع نكرة يشير إلى الظلمات الهائلة، كما أنّ مفعول «لايُبْصِرُونَ» محذوف، أيْ أنّ الظلمات إلى درجة بحيث كلّما ألقوا النظرة لم يبصروا شيئاً. ولم يشاهد في هذا المثل الخوف والقلق والعاصفة والظلمات من البداية بصراحة، وتصرّح جملة «آستَوْقَدَ نَاراً» عن الجهد والسعي. والظلام والضلال والبرد من ملازمات إشعال مثل هذه النار، وكأنّما كانوا يأملون النجاة أو تغيير الجو وتقشّع السحب، وطلوع الأنوار السماوية بجهودهم هذه والمساعي. والظلمات والرعد والبرق الواردة في الجملة التالية تفيد أن مساعيهم لم تصل إلى نتيجة، وانقطع نور أملهم، وازداد ظلامهم.

المثل الثاني يستعرض بيئة النفاق الاكثر خوفاً وخطراً، التي يشاهد فيها الأفق المظلم وشدة المطر، والظلمات والرعد والبرق منذ البداية، وربّما تكون نفس بيئة القصة الأولىٰ التي بدت بهذا الوضع الخطير، واستمرار النفاق أتَمَّ خطره. بدأ المثل الأوّل من الفرد «كَمَثَلِ الَّذِي» والثاني من البيئة «أوكَصَيِّب» وقد بدت أعمال الفرد بصورة جمع «جاءت الضمائر في الجمل التالية بصيغة الجمع» والجمع بصورة البيئة العامة. بناءً على هذا لانحتاج إلى

تأويل «صَيّب» بذوي الصَيّب، ليكون العطف على «الذي» صحيحاً، يشير في هذا المثل إلى أنّ المبتلين بمثل هذه البيئة استولت على نفوسهم المسكنة وقد يئسوا من جهودهم والمساعي، وآلتهم الدفاعية الوحيدة في مقابل الارض والسماء المظلمة، والسحب المتراكمة والبَرَد الذي ينزل على رؤوسهم، وصوت الرعد ولمعان البرق الذي يرعبهم، والصواعق النارية التي تخلع منهم القلوب، هي أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم (أو يغمضوا عيونهم) ليقلّلوا في انفسهم الشعور بالخطر.

ووضع الإصبع في الأذن في مثل هذه الظروف الخطرة كناية عن أنواع موجبات الغفلة والانشغال وآلات التحذير، والذين انسدت بوجوههم نافذة الرجاء والسعادة والبقاء ليس لهم سوى التحذير والتغافل. وهؤلاء يلقون بانفسهم في قبضة الموت خوفاً من الموت!

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالكَافِرِينَ﴾: كأنّما يزول شعورهم الوجداني وجميع أحاسيسهم وإدراكاتهم الانسانية نهائيّاً، على أثر تكرار مايؤدي إلى الغفلة والتحذير، ويستولي ظلام الكفر على باطنهم (تراجع الآيات الأولى من السورة التي وصفت الكافرين)، ولمّا كانوا قد وصلوا من الحد القائم بين النفاق والكفر إلى الكفر، أحاط بهم غضب الله من كل جانب ومكان.

﴿يَكَادُ البرقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾: لم تتمكن عيونهم الضعيفة التي اعتادت على الظلام أن تجابه أنوار الآيات عن قرب، وبمجرّد أن تضيء ماحولهم إشعاعة نور مَشَوا خطواتٍ. ولم يبدوا أيّ سعي من أجل نجاتهم بسبب اليأس والخوف، وعملهم الوحيد النظر إلى الآفاق منتظرين الحوادث الأرضية والسماوية والحظّ، والصِدفة. فحدّقوا النظرات إلى اقتران الكواكب والآلات العالميّة، ويأملون الحياة من نفس الجهة التي تنذرهم بالموت وذلك لعجزهم وضعف عقولهم!

يستفاد من جملة «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ...» أنّهم حدّقوا عيونهم إلى ماحولهم بقلق دائم، وغضّوا العيون عن النظر إلى طاقاتهم وقواهم المعنويّة، وبمجرّد أن يروا ضياءً من بعيد

«أضَاءَ لهم» مَشَوا فيه. ولكنّ توقّفهم دائميٌّ ومن مستلزمات طبائعهم «وَإذا أظْلَمَ عَلَيْهم قَامُوْا...».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ...﴾: فكما أنّ الله يذهب بنور آمالهم، كذلك يذهب بنور أبصارهم وأسماعهم، ولا يتمكنون من الاستفادة منها، والأنسب أن يكون الغرض من أخذ البصر والسمع خاصّاً بالإنسان، أي إنّ هؤلاء لم يستفيدوا كما ينبغي من هاتين الطاقتين، هاتين النافذتين، هاتين اللاقطتين ومركزي الاحساس والشعور، وتوقفوا على ذلك القدر مما يستفيد الحيوان من البصر والسمع اللذين يدركان الظواهر والمحسوسات، مع العلم بأنّ السمع والبصر الانسانيّين اقوى وأفضل بكثير!

تفيد كلمة «لو» التي تأتي للامتناع، ومجيء، «سمع» للجنس، و «أبصار» بصيغة الجمع، واضافتهما إلى «هم» أنّ هؤلاء لم يكونوا مستحقين لهذا البصر والسمع، وماذا يكون لوكان الله أخذمنهم هذا السمع والبصر؟!

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاتَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٣)﴾

معاني المفردات:

يا: حرف للنداء البعيد، وينادى به القريب للتعظيم، أو غفلةً.

أيُّ: رابطة الاتصال «يا» بأل التعريف، وللجنس المبهم.

هٰا: للتنبيه، وقد جاء مثل هذا النداء كثيراً في القرآن، ينادىٰ به الشخص الغافل أو الناسي أو المتطبّع على التخيّلات والأوهام (كما قيل في معنىٰ الانسان قبل هذا) البعيد عن النظر إلى نفسه وخالقه وواقعه لينتبه ويلتفت، ليعود عن البعد إلى القرب، وعن الغفلة إلى الانتباه، وعن الابهام إلى الوضوح. كالغارق في سبات عميق على أثر الغفلة والجهل،

ويحدق به الخطر من كل جانب، ويناديه المنادي المنبّه من بعيد ، ثم يدنومنه ويحرّكه ويذكر اسمه ولقبه عسى أن ينتبه وينهض.

الخَلْقُ: جعل الشيء بقدر بدون زيادة أو نقيصة، الإبداع بقدر وقياس.

الّذِي خَلَقَكُمْ: صفه تبيينيّة لِـ«رَبَّكم» ليوقظ الأفكار ويلفت نظرها إلى أنّ ربّكم ومربّيكم هو الذي أبدع ظاهركم وباطنكم والذين كانوا قبلكم بقدر وأوجدكم، لا الذي اتخذتموه على اساس الوهم والتقليد ربّاً أو أربابا. وكذلك جملة «الّذِي جَعَلَ...».

جَعَلَ: يتعدّى إلى مفعولين، بمعنى صَيَّرَ، وجَعْلِ الشيء من وضع إلى آخر ومن صورة إلى أخرى بصورة مستمرة.

الفِراش: مصدر بمعنى المفروش. المفروش للاستراحة والهدوء.

البناء: مصدر بمعنى المبني، ويتعدّىٰ بواسطة «على» أو «الباء» أي المبنيّ عليه، أو به. وهاتان الجملتان من معجزات القرآن العلميّة، مع العلم بأنّ التطورات الأرضيّة واتصالها بالسماء لم تكن تخطر على بال في تلك العصور، يصرّح القرآن بكلمتي «جعل» و «بناءً» ويشير إلى أدوار ماقبل دحو الأرض وتهيئتها، وكون السماء أساساً وقاعدة للارض، والسماوات العليا للعوالم السفلىٰ

النِدّ: الشيئان المتساويان في الذات أو الصفات الممتازة[1]، و «المِثل» أعمّ منه.

نظــم الآيات:

أشارت الآيات السابقة إلى الهداية والايمان والكفر، وبيّنت حقائق ثابتة وجامعة حول الاختلاف المعنوي والأخلاقي والجهاز الداخلي لجماعات ثلاث، وهذا الاختلاف هو السبب في الاختلافات الأخرىٰ، وادّى إلى الحروب والحرمان. بحجج وأسباب. يقولون: إن الاختلاف والخصام ناتج عن اصطدام المصالح واستخدام ثروات الطبيعة. ألم يمكن للفرد او المجتمع أن يستخدم الثروات الطبيعيّة بدون حرب واختلاف؟ وماهو

---

١) قصد المؤلف رحمه الله: الشيء المساوي لشيء آخر في الذات أو الصفات الممتازة. (الترجمان)

مقدار النفع والاستخدام؟

يقولون: إنّ طبيعة الجشع وحبّ التفوّق هما اللذان جعلا افراد البشر متجابهين متخاصمين وجعلا منهم صفوفا وطرائق متناحرة.

ماهو دافع هذه الطبائع، ولماذا يطلب الانسان أكثر من حاجته، ويُتعِبُ نفسه والآخرين؟ يقولون انها اختلافات ذاتية.

مع العلم بأنّ جهاز الانسان النفسيّ العام وذاتيّاته مشتركة، والإختلاف يجري في امور خارجة عن الذات. والذي صار سببا للاختلافات هو اتّخاذ الآلهة المختلفة، لأنّ الانسان محتاج ومخلوق ومربوب لآخر في الوجود والتكوين والتدبير والتربية والموت والحياة، وكذلك الموجودات، مع العلم بأنّه لابدو أن يعبد خالقا ورازقا، ويخضع له ويتقرّب إليه، ولكن سيطرة الحواس والأوهام والتقاليد على العقل الفطري تجعل ذلك المعبود المطلق بصور متنوّعة محدودة، وكل مايظن به أنّه مسبّب الأسباب والرزق والقوّة والوجود يعلّق علية آماله ويعبده. والاختلافات تبدأ من هنا.

يدعو في هذه الآية بنداء اليقظة العام إلى ان يحرّروا أنفسهم من قيود عبادة غير الله، ويتّجهوا إلى الله.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمُ الذي...﴾ العبوديّة من مستلزمات إدراك الربوبيّة، وهذا الإدراك فطريّ ووجداني، فلا يمكن للانسان أن لايعتبر نفسه مربوباً، اذاً لايمكنه أن لايتّخذ معبوداً، مهما كان ذلك المعبود وأيّ شيء كان! ذلك الربّ الذي خلقكم وخلق أسلافكم، وخلق كلّ ما اتّخذتموه إلّهاً او اتّخذه أسلافكم أو مايتعلّق بالارض والسماء، وقدّرها ودبّرها. والتذكرة بخلق الماضين كأ نما تشير إلى المعتقدات والآراء التي ورثها الأجيال التالية من الماضين، وترسّخ عوامل الوراثة واحترام الاسلاف في النفوس، وتسحب سلسلة التالين وراء الماضين، ويتمكّن الانسان بهذه الحركة الفكرية والتوجّه والانتباه إلى الربوبية وتكوين نفسه (ربّكم وخلقكم، وهذا ماتفيده الاضافة الى ضمير المخاطب) وتدبير الأرض والسماء، أن يفصم باستمرار سلسلة العقائد والتقاليد هذه،

ويحرّر العقل. اذاً لمّا كانت العبوديّة التي هي أثر الشعور بالربوبيّة وهي فطرة الانسان ووجدانه لم يدر حولها سؤال واستفسار من أنّه لماذا «آعبدُوا رَبَّكُمْ» ، وانّما الذي أدّىٰ إلى التشتّت في العبادة هو قيود العادات والتقاليد. أيْ أنّكم الذين تعبدون معبوداً ما على كل حال، حرّروا العقل، واسموا بالنظرة، واعرفوا الربّ الحقيقي بالتفكير في أنفسكم وفي العالم،واعبدوه.

فالشرك والكفر نتيجةٌ للعادة والغفلة.

إنّ هذه الآية بعدأن تذكر الفرق الثلاثة: المؤمن، الكافر، والمنافق وتوصفهم، تخاطب ببلاغة بارعة ونداءٍ منبّه جميع البشر المتساوين في الادراكات البدائية...

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إنّ الالتفات والانتباه إلى الربوبيّة يؤدّيان إلى العبوديّة، وهذه تؤدّي إلى التقوى المستمرة المتكاملة.وان كان ممّا يبدو أن هذه الجملة متعلّقة بـ«أعبُدُوا»، ولكنّها ترتبط بـ«خَلَقَكُمْ» بصورة ضمنيّة أيضاً.

إنّ هذه العصارة من الطاقات والقابليّات التي تكوّنت بصورة انسان، عليها أن توصل ضميرها وفكرها بمبدأٍ، وتتّجه إليه، باعتباره الكمال والقدرة اللامتناهيين وفوق ذلك، عسى أنْ يتيقّظ فيها الشعور بالمسؤولية بالنسبة إلى الثروات المعنوية، فيستخدم قابلياته معاً وبصورة منسّقة، ويتقدّم أكثر فأكثر، وهذا سرّ التقوى (كما قيل قبل هذا)، وقد جاءت العبارة بكلمة «لَعَلّ» والفعل المضارع «تَتَّقُونَ»، لأنّ العبادة لاتؤدي إلى هذة الحركة والمسؤولية في نفوس الجميع، وإنْ بدأت هذه الحركة والمسؤولية فلااستمرار لهما. وعندما تتيقّظ هذه المسؤوليّة في الإنسان بالنسبة إلى نفسه وإلى الله يكون مشمولاً لهَدْيِ القرآن.

وبالنظر الى نظم هذه الآية وارتباطها ببداية السورة «هُدًى لِلمُتَّقِينَ» يتّضح الطريق إلى الوصول إلى التقوى. وإلّا لكان موضع هذا السؤال من أنّه لمّا كان القرآن هو الهداية للمتقين فقط، فما هو الطريق للوصول إلى التقوى؟

كلّ شيء غير مبدإ الوجود والكمال لا يثير قوىٰ الانسان وقابليّاته ولا يوجد الشعور

بالمسؤولية. ولمّا كان كلّ شيءٍ سواه محدوداً، فعبادته والتوجّه إليه وجَعْلُه الغاية يجعل الانسان راكدا محدوداً، ويشتّت الطاقات الفرديّة والاجتماعيّة وإذاكان الايمان بمثل هذا المبدأ وعبادته يعتبر لحدّالآن من الواجبات والفضائل الشخصية، يزداد الشعور باحتياج الناس ـ اليوم ـ إلى مبدإٍ وتوحيد فكريّ كلّما از دادت صلة شعوب العالم ببعضهم، بل يعتبر من الضروريّات.

واذا كانت هذه الحقيقة قد بدت حتى اليوم بشكل تقاليد وأعراف بيئيّة وعنصريّة، فمن الآن وصاعداً تكون الطريق الوحيد والعلاج الوحيد للرابطة البشرية والقانون للسلامة والسلام العام.

فالقرآن يدعو الجميع في هذه الآيات لينتبهوا إلى خَلْقِهِم والعالم الذي يعيشون فيه، ويعتبرون العالم بكل النِعَم والجمال من مبدإٍ واحد، وليتمتّع به الجميع. ولمّا كان الكلُّ في ضيافته، عليهم أن يعبدوه جميعا. والتقدّم الفكري والتكامل وارتباط الحياة اليوم قد وهب هذا الانتباه للجميع.

﴿اَلَذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ..﴾: مهّد الأرض بعد أدوار مديدة ووسعها للجميع، وادّخر فيها المعادن والثروات الطبيعيّة منذ سنوات طويلة قبل ظهور الانسان، واكثر فيها الهواء والنور والماء، وجعلها بعيدة عن سيطرة الانسان ليتمتّع بها الجميع، ولايمكن لأحد احتكارها ومنعها. هذه آيات ربوبية الله، وأدلة وحدانيّته، وأصول نعمته: أصل الربوبيّة الخلق، الجعل، التدبير والرزق، هل ينبغي بعد هذا أن تتخذوا ندّاً؟ في جميع هذه الصفات أو في بعضها، وتتمسّكوا بغيره، وتطأطئوا رؤوسكم تعظيماله، وتطلقوا ألسنتكم بشكره؟ مع أنكم لو مزّقتم أستار التقاليد والعادات لعلمتم تحت أشعة العقل الفطري أنه لامعبود بحق سواه... ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلهِ أنداداً وأَنْتم تَعْلَمونَ﴾.

هذا تكوين الانسان صاحب الحواس والطاقات الكثيرة، وهذه الارض ذات المصادر والثروات الطبيعيّة، وهذه المياه الفيّاضة، وهذه المائدة المبسوطة في الجبال والسهول والصحراوات، بالارزاق والاثمار المتنوّعة، كل ذلك منه ولك أيّها الانسان والرجوع اليه.

إذاً يجب أن يكون بيان الغرض من المجيء إلى هذا المنزل وتنظيم الحياة فيه، وكيفيّة التمتّع بنعمه منه أيضا. وذلك البيان والنظام هو هذا القرآن. إذاً اكشفوا بالتدبّر والتأمّل فيه ظلمات الشك والريب من امام بصيرة العقل، ونوروا العقل بنور هدايته.

والآية التالية التي تبدأ بـ«الواو» تفيد نفس صلة كتاب التشريع بكتاب التكوين هذين اللذين يجب أن يكونا من مبدأ واحد...

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهدَاءَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (٢٤) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٥)﴾

معاني المفردات:

السورة: الشرف والمنزلة السامية، البناء الشامخ، الجدار العالي الصالح، كل قسم من القرآن من حيث سموّ المعنى واللفظ الذي تقصر عنه عقول البشر وافكارهم، ولايجدون طريقا للنفوذ إليه يقال له سورة.

الشهداء: جمع الشاهد، اي الحاضر الناظر، وعندما يتعدّى باللام، أو على، أو الباء، يأتي بمعنى الخبر الجازم القاطع الذي ينصبّ عليه الحكم.

حجارة: واحدة الحجر، الحجر بصورة مطلقة، أو حجر معين، وإذا دخلت عليها الألف واللام تشير إلى الأحجار الكريمة، المعروفة لدى الناس والمرغوب فيها.

نفت السورة في البداية مطلق الريب (بالمعنى المذكور سابقا) عن القرآن بالجملة الحاسمة «لاَرَيْب فِيْه». إذاً يبدأ مصدر الشكّ في القرآن من حالات النفوس وتأثرها، والشك حول كل حقيقة على نوعين: الشك الابتدائي الذي هو مقدّمة ومحرّك لليقين وعندما يواجه الانسان مثل هذا الشك فهو صادق في شكّه، ويريد أن يصل الى اليقين. أمّا الهاربون من البرهان واليقين، وتبتدع نفوسهم الشك، ويصرون عليه،لم يكن شكّهم

صادقاً، ولايحرّكهم نحو اليقين، والجملة التي تأتي في آخر الآية «إِنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ» تشير إلى هذين النوعين: اي اذا كنتم صادقين في شكّكم وتريدون ان تفكّروا بالحقيقة، يمكنكم بالتدبّر في هذه الآيات واستخدام طاقاتكم أن تنقذوا أنفسكم من الشك.

ويمكن أن يعود ضمير «مِنْ مِثْلِهِ» إلى «ما» في «ممّا»، أي آتوا بسورة مثل التي أُخذت. عنه، ـ أو تكون «مِن» نشئية ـ لأن صنع شيء على مثال شيء أسهل من الإبتداع والابتكار وهذه الجملة تفيد الصفح والسماح، أي أنّكم لو أتيتم على صورة القرآن مثلاً له يُقبل منكم أيضا. كما أنّ الذين عارضوا أرادوا جميعاً أن يأتوا بآيات معتمدين على الآيات القرآنيّة، ولكن لوحاتهم الناقصة أدّت إلى فضيحتهم. ويمكن أن يعود الضمير إلى «عبدنا»، أي اتوا بسورة من مثل هذا الشخص، الشخص الذي لم ير المعلّم والمدرسة، ونشأ في مثل هذه البيئة والمنطقة. ولم تتلّون نفسيّته بمعلومات العصر وحضاراته، ولون عبوديّة الله فقط هو الذي أوصله إلى هذه الدرجة، هذه العبوديّة التي استوعبت جميع وجوده، فأضحت روحه وقلبه مجرىً لأوامر الله وإرادته، وأصبح عبداً مطلقاً، فالاسم والشهرة والجوانب الشخصيّة كلها فنت في العبودية فصار: «عبدنا» (والعباد المختارون [من قبل الله] ذكروابأسمائهم لابمطلق [العبودية] «واذكر عبدنا داود، عبدنا زكريا»)[1]

ولما كان هذا الكلام [القرآن] من عند الله، فاستعينوا بغير الله للشهادة والقضاء.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا...﴾: جاءت هذه الآية للسماح وإفساح المجال للمنكرين، لأنّ الجملة الشرطية يحتمل فيها الوقوع وعدمه، والجملة الحاسمة التأبيديّة تأتي بعدها «وَلَنْ تَفْعَلُوا» التي تنفي هذا الاحتمال إلى الأبد.

دعوة الناس إلى معارضة القرآن والإتيان بمثله في عصرٍ أوقرنٍ وعجزهم عن ذلك معجزة، والنفي الأبدي والاخبار عن المستقبل اللامحدود معجزة أوضح منها. وبالنظر إلى أنّ الانسان موجود متكامل وينحو نحو التكامل شاء أم أبىٰ، واستمرار تغيير الصناعات

---

١) جاء في القرآن الكريم: «ذكر رحمة ربك عبده زكريّا» لاعبدنا. وجاء ايضا: «واذكر عبدنا أيوب» و: «كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا...». (الترجمان)

والعلوم ونظام الآلات وتكاملها يمثّل تكامل الانسان الفكريّ، ويظهر هذا التكامل بصورة أوضح في الكلام والقلم والبيان، لأنّ النطق ميزة الانسان الخاصة، إذاً هذا الإدّعاء الجازم الذي أيّده مرّ العصور أيضاً لايكون إلّا من المبدإ المحيط بكل العصور والأزمنة والاحوال والاوضاع البشرية!!

كان هذا الإدعاء الجازم دليلا على أنّ القرآن معجزة وكلام الله، كما أنّ جميع الموجودات والمركّبات كلّها معجزة، وإن كان الانسان يعرف عناصر نوع من المركّبات وموادّه، ولكنّ تركيبها بصورة كائنات حيّة وذات أثر حيويّ هي معجزة التكوين، وخارجة عن تناول فكر الانسان وفعله، لماذا؟ لأنّ ذلك المعنى وتلك الروح، وسرّ الحياة الذي جعل العناصر بهذه الصورة ومنحها هذه الخصوصيّات والآثار هو من عند الله، وظهور ارادته. وإعجاز القرآن أيضاً كان من أجل أنّ المعاني السامية التي هي ارادة الله والتي تهب الحياة قد ظهرت في قالب أسمى العبارات وأبلغها (وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) فسمّي القرآن هنا روحاً، واذا كان إعجاز القرآن لبلاغته، فانهّ كان معجزاً للعرب أو فصحاء العرب فقط، مع العلم بأن القرآن للجميع والىٰ الابد. وقد عبّر العلماء والمفسّرون عن اعجاز القرآن كلٌّ حسب ذوقه من جانب واحد: كالبلاغة، التنبّؤ، المعارف والعلوم العالمية، القوانين والقواعد الحيويّة، الجاذبيّة. وكل واحد من هذه الأمور هو معجزة لشعب وزمان لا للجميع كالصورة والآثار والخصوصيّات والنظم والنمو والانتاج كل واحدة منها هي معجزة التكوين في الكائنات الحيّة، ولكنّها جميعا أثر لسرّ الحياة وظهوره في العناصر. سرّ الحياة هذا هو الذي جمع العناصر المستعدة ومزجها وصيّرها على صورة وشكل ونظم لم يكن لها قبل ذلك، ويفصل العناصر غير المستعدّة ويجعلها جانباً. وسر الحياة هذا هو الروح والفرقان ـ كما أنّ القرآن سُمِّيَ روحاً وفرقانا ـ لأنّه يميّز اللائق عن غيره ويفصلهما، وينمّي في النفوس عناصر الخير والصلاح، ويسموبها، ويميّزها عن عناصر الشر النفسيّ، ويفتح العين والعقل للحق والباطل، والخير والشر، ويوصل الأفراد الصالحين اللائقين من كل لون أو قوم مع بعضهم، ويفصل الطالحين عنهم.

ولهذا فإنّ القرآن معجزة خالدة في كل زمان للعرب وغيرهم. فكلّ من له قلب ووعاه جذبت بلاغته ونظمه ونغمه الجذّابة قلبه. وانّه معجزة علمية وعقلية لأهل الفكر والتأمّل المتحرّرين من الغرور والعصبيّة والأغـراض بآيـاته المـحكمة حـول أسـرار السـعادة والشقاء، والهُدى والضلال، والامور الروحية والنفسيّة، والاخلاقيّة والاجتماعيّة، وبيان مبادئ التكوين وغاياته، وعلاقات العالم والمخلوق والخـالق العـامة، والحـقوق بـين الأفراد، وإعمال الملكات وآثارها، والآداب والتشريع والأنظمة.

أو لا نرى إلى حدٍّ ما رجالاً أحراراً من امثال: كار لابل، تولستوي، لز، وروسو، وكثيرٍ من أمثالهم جعلوا هذا الكتاب المعجز موضع تأمّل ودراسة مع كونه مترجماً ترجمة غير وافية شافية، وتوصّلوا إلى حقائق محدودة عنه، واعـترفوا بسـموّه وفـضله وسـيطرته المعنوية النافذة، وربّما طأطأوا برؤوسهم تعظيماً واحتراماً له، وقـد احـتفظت الكـتب بأسمائهم وأقوالهم.

والتصوّر بأنّ تحدّي القرآن وطلبه العارضة لم يقع موضع اهتمام، ولم يفكّر به أحـد تصوّر باطل، ولايتلاءم مع التاريخ والمبادئ النفسيّة والاجـتماعيّة[1]. فـالقرآن يـدعو المنكرين والمرتابين في هذه الآية وآيات أخر بصراحة وجزم إلى المعارضة ليأتوا بمثله أو بسور أو بسورة ـ وان كانت قصيرة ـ من مثله، وشعور العرب بالفخر والنخوة والأفضليّة في تلك الحقبة من الزمان كان كافياً لاثارتهم وإثارة غيرهم للمعارضة، والسباق في هذا الميدان، لا سيما في ميدان الأدب والخطابة، فكيف بهم وقد أُهينت جـميع مـقدّساتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم وآلهتهم مع تعصّبهم الجاهلي، ووجود دعوة وكتاب يريد إيجاد تطوّر في العقيدة والمبادئ الاجتماعية، ويكافح بشدة المصالح الشخصيّة والطبقية، مع العلم بأنّ الناس المتحضّرين الذين حدّت الحضارة من عصبيّتهم، لو اصطدمت إحـدىٰ

---

١) يريد المؤلف ـ رضوان الله عليه ـ الرد على القائلين بالصِرفة، أي أنّ الله صرفهم عن معارضة القرآن واعتبروا هذه الصرفة معجزة ايضاً. وموضوع الصِرفة لايتناسب مع هذا التحدّي الصارخ، بالاضافة إلى أنه يعني أنّ العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن، ولكنّ الله صرفهم عن ذلك. فكيف يطلب الله منهم المعارضة، ثم يصرفهم عنه، تعالىٰ الله عن ذلك علوّا كبيرا. (الترجمان)

تقاليدهم الاجتماعية وأمجادهم وآدابهم وأهينت، يثور شعورهم القوميّ، ويستخدمون طاقاتهم المادية والمعنويّة للدفاع عنها.

والتاريخ شاهد على أنّ العرب هم العرب الذين كانوا عصبة برمّتهم لخنق هذه الدعوة واخماد هذا النور، واستخدموا كل طاقاتهم، ووقف الآباء والأبناء والأقرباء متواجهين، لكنّهم لم يبادروا إلى هذا التحدّي، واعترف ابطال البلاغة بعجزهم في تلك البداية التي دوّىٰ بها صوت القرآن، ورفعوا قصائدهم وأشعار شعرائهم المشهورين عن جدران الكعبة، ولمّا رأوا سحر بيان القرآن وتأثيره كالسحر يجمع ويفرّق جماعة عن بعضهم، ويجمع الآخرين معاً، قالوا إنه سحرٌ! وكانت آخر محاولة لهم إبعاد الحجاج في مواسم الحج لاسيما الشبان والى الأبد من الاستماع إلى آيات الله، وكلّما كانت الدعوة تزداد انتشاراً كان قلق الحاكمين ورؤساء الأديان يزداد، فقاموا بمعارضة الدعوة بشدة ومحاربتها للاحتفاظ بحكومتهم على الافكار والأبدان التي كانت على صورة أوهام وقيود قوانين وتقاليد، حتى عصر رؤساء الاستعمار ومؤسّسيه، الذين اعتبروا القرآن أقوى قلعة شامخة بوجه أطماعهم في البلدان الاسلامية وبين المسلمين، فاستخدموا المرتزقة والأجراء باسم المستشرقين، والجمعيّات الدينية من أجل الانحراف بالافكار، وأثاروا الكتّاب العرب من غير المسلمين لانتقاد القرآن وتأليف جملات مثله ـ مثل جمعية «الهداية» المسيحيّة اللبنانية ـ وأوجد من يبتدع الأديان في ايران والهند وأفريقيا!!

وبهذا التاريخ الوضّاء القائم على أسس المبادىء النفسية والاجتماعية، هل يمكن غض النظر عن هذه الدعوة، واعتبارها لاأهميّة لها؟!

هاتان الآيتان نموذجان من سرّ إعجاز القرآن

إن التأمّل في هاتين الآيتين من قبل المفكرين والمتدبّرين يفيد أنّ إعجاز القرآن لم يكن في جانب خاص محدود، لأنّه حقّ وروح ظهرا في مفردات وكلمات وجعلاها معجزة للهدى من كل الجوانب:

١ ـ البلاغة، الجزالة، السبك... نجعل مقياسا لفهم هذا الجانب من الإعجاز: نأخذ بنظر الاعتبار المعاني الدقيقة للحروف والروابط والمفردات، ثم المقصود والمعاني لكل هذه الآيات بكل اتساع اللغة العربية وشمولها من مفردات ومترادفات ومشتركات ومجازات ونتمكّن أن نصبّ نفس المعنى في قوالب كثيرة، ثم عندما نجعل تلك المعاني في أية صورة، أو نحذف من هذه الآيات حرفا أو كلمة، أو تضع بدل الحرف أو الكلمة مشابهاً لها، أو نغيّر موضعها لانرى في الآيات التي ركّبناها تلك الجزالة ولاذلك السبك، ولاتعبّر عن المعنى والمقصود كما ينبغي، مع العلم بأنّنالم نبتكر شيئاً، لأننا اعتمدنا على نفس الآيات في تجربتنا هذه.

٢ ـ الجزم والقهر اللذان يفيدان احاطة المتكلم المطلقة وحاكميّته.

٣ ـ التنبّؤ الأبدي بكلمة «لن».

٤ ـ جملة التهديد ـ حول الإعراض عنه ـ الذي بيّنه بتعبير جامع في نهاية السرّ العلميّ والنفسيّ وأعلن عن النار والعذاب المعنويّ والماديّ، الدنيويّ والأخرويّ:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجارَةُ﴾: كل فرد يجد بين الجملة الشرطية: «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا...» وفاء الجزاء في «فَاتَّقُوا...» موضوعا صحيحاً حسب ذوقه الأدبيّ والعلمي وفي نطاق فكرته، مثل: عندما لم تتمكّنوا من الاتيان بمثله، يجب أن تعلموا بأنّه من الله، عليكم إزالة الريب والشك وتتيقّنوا بأنّه حق. عليكم أن تستسلموا لأوامره. يجب أن يسود القرآن على نفوسكم ومجتمعكم. لكي تحذروا وتتّقوا من مثل هذه النار وتتجنّبوها، وإلّا فإنكم ستواجهونها، النار التي حطبها الانسان وتلك الحجارة الخاصّة (بناءً على أنّ الالف واللام للعهد، والتاء تشير إلى النوع). يقولون: القصد من الحجارة القلوب القاسية التي لاتؤثّربها آيات الله، أو الاصنام المصنوعة من الحجر. إنّ قلب الانسان يتأثر، فلماذا أصبح كالحجر؟ لأنّه يهتم بالمادة والأحجار الثمينة دائماً. ولماذا تُعبَدُ الأصنام المصنوعة من الحجر؟ لأنّها تصنع من الجواهر والأحجار الثمينة، أو أنّ التفنّن فيها يجعل الحجر ذا قيمة، وعلى كل حال، فإنّ الحجارة التي عطفت على الانسان

أيضاً، ولو كان الغرض هو التخويف فقط لقيل بدلاً من «وقود» توقد، وبدلا من «الناس» الحديد. مثلا.

وننظر بالتدقيق فيما قيل مشهداً آخر من إعجاز هاتين الآيتين، ولكنّ التصوّر بأنّنا نظرنا إلى جميع جوانبهما، وأدركنا الغرض كما هو، تصوّر خام وفكرة قاصرة. وعلى كل حال هي حقيقة أسمى من الوهم والخيال قد تجلّت في كلمات وعبارات ﴿لامُبَدِّل لِكَلِمَاتِه، وَلاَيَأتِيْهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌمِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجري مِنْ تَحتِهَا الأنْهَارُ كُلَّما رُزقوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالوا هَذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيْهَا أزْوَاجٌمُطَهَّرَةٌوَهُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ (٢٦)﴾

معاني المفردات:

البشارة: الخبر غير المسبوق حول الخير والذي يوجب السرور، لأنّ آثار السرور تظهر على بَشَرَةِ المبشّر.

الصالحات: جمع الصالحة، اللائقة، المناسبة، الملائمة.

جنّات: جمع جَنّة، البستان الكثير الشجر، من جَنَّ: أي أخفاه وغطّاه، وجِنّ بالكسر والمجنون يقال بسبب خفائه عن البصر أو العقل.

أُتُوا: جمع المجهول من أتاه، وعندما يتعدّى بالباء (أتى به) يعني جاءبه معه. إنّ نهاية الآية السابقة إنذار وإعلان عن الخطر لأولئك الذين أعرضوا عن هَدي القرآن وكفروا به. وهذه الآية تبشّر المتمسّكين بالقرآن، والأشخاص الذين ساروا على نور هداه.

كما أنّ حطب جهنّم ولهيبها النفوس الكافرة المرتبطة بالحجارة، ومنشأ الجنة النفوس المؤمنة المتمسّكة بالقرآن المرتبطة به.

والبشارة حول الأمنية الطيبة والنِعَم الخفيّة التي تُشَاهَدُ آثارها وهي موجودة.

اللام في «لَهُمْ» تفيد الملكيّة والإختصاص، وهي [النعم الخفيّة] بنفسها ذات لذة اكثر من الكون في وسط النعمة. وقد جاء الإيمان مع العمل الصالح في أغلب الآيات، ويذكر الإيمان لوحده لأنّ الإيمان نفسه يؤدّي إلى العمل. وبالنظر إلى الآيات الأخر فالمقصود هو العمل الصالح، لأنّ الوعي ومعرفة الظروف واجب اكثر من أصل الايمان من أجل إنجاز عمل مناسب كما ينبغي، كما أنّ الماء مصدر النبات والشجر، ولكن كل نبت وشجرة لاقيمةلها بالقياس إلى الجهد ورأس المال، ولاتتناسب مع المحيط، وكل عمل صالح يجب أن يكون من مبدأ إلايمان، ولكنّ الإيمان لوحده لايكون مَنشأ العمل الصالح، لأنّ الصلاح والمناسبة أمر نسبيّ ويوافق مقتضيات البيئة. وما اكثر الأعمال الجيدة المقبولة لوحدها ولكنّها لم تكن صالحة (كما أنّ بعض الاشخاص يدّخرون بعض الأموال للأمور الخيرّية، وينفقونها في إحدى السُبُل أو ينشئون بها عمارة، أو يعقدون مجلسا لايناسب المحيط ولا الغاية الدينيّة)، والإيمان هو إدراك خطة سعادة الفرد والمجتمع، والعمل الصالح هو الذي يعدّ الفرد والمجتمع للوصول والتقرب الىٰ السعادة، والاتصال ينبوع الخير والرحمة هو الذي يجُري الخير والرحمة في القلوب والنفوس المستعدّة، ويجب أن ينبت منه بساتين الأعمال الصالحة المفيدة، الأعمال الصالحة التي امتدّت جذورها في ينابيع الإيمان، وإلّالم يكتب لها البقاء والاستمرار.

اذاً فالجنّات مِلكٌ ثابت للمؤمن، لأنّ منشأها الإيمان، وجذور أشجارها ممتدّة في هذا الينبوع، ولو كان الغرض وصف مناظر الجنة البهيجة فقط، كان يجب أن يقال: تجري من فوقها. أي الأرض، أو: تجري تحت أشجارها.

تجري ينابيع الطبيعة، وتعمر منطقة الدنيا التي هي علىٰ هامش الجنة، ومناهل الحياة توضع تحت تصرّف الجميع قبل الآخرة في ظل الإيمان الذي هو منشأ كل عمل صالح ولولب القابليّات وسبب الأمن العام، لأن دنيا الفقر والهوان لايمكن أن تكون مقدمةً لآخرة العز والثراء: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَانَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمىٰ﴾، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَد أَخْزَيْتَهُ﴾.

حين يتطابق مع أيّ شيء، ويجعله موضع حبه الباطنيّ يكون مرافقا للـتلوّث الخَـلقي والخُلْقيّ (بفتح الخاء وضمّها)، ويُطلِع رأسه من الآلام والجفاء، وكلّما يتمتّع به من لذائذ ونِعَم يكون وصلها وفصلها في آنٍ واحد، لازال لم يصل فهو يتمنّى الوصل، وبمجرّد أن يصل يفكّر في الفصل والفناء.

إذاً يجب الإعتماد على من يجتذب القلب، ولايتلوّن كلّ يوم بلون، ولايؤدّي خريف الفناء بورق نعمته وورد جماله إلى الذبول، ولاتبعثرها الرياح. إنّ الانسان المؤمن العاقل لايجعل نفسه لعبة للملاهي الزائلة، ولايغض نظرته الثاقبة عن النعيم الخالد، لأنّ عـدم الثبات يصاحبه القلق، والقلق يخلط النعم بالآلام. والقرآن في ختام بشارته رفـع هـذا القلق عن أصحاب الجنّة، وهدّأ خواطرهم بوعد الخلود: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

هذه نتائج وثمار الإيمان بالقرآن وسيادته، لأنّ أوّل تأثيره تحطيم العقائد والعادات الرذيلة التي تحجّرت مع مرور الزمان، وتصدّ النفوس والمجتمعات عن التطوّر الذي هو من مميّزات الانسان، لأنّ العقل البشري قد تخلّص من تحت حجاب الأوهام بنور هداية القرآن، وتنفتح فيه ينابيع المعارف والابتكارات، وتقدّم طاقات الفرد والمجتمع بالتوازن والتعادل، وتنبت منه الأخلاق الفاضلة والأعمال الصّالحة، وتتّجه الأعمال نحو النتيجة الصحيحة، وتحصل منه الثمار المتشابهة، وعندما تتلاقح كل ثمرة مع الفكـر إلايـمانيّ تتضاعف فيها الفوائد. ونتيجة هذا التضاعف خالدة.

ضرب الله مثلا لهذه الحقائق التي هي أساس الجنة بالأمثال في هذا العالم من أجل فهم الجميع وفي العالَم الآخر باللذائذ الحسيّة، ليتمتّع كل شخص منها بمايشتهيه عـقله وإدراكه، لأنّ اللذة والنعمة بمقدار الإدراك، بل لم تكن شيئاً سوى الإدراك:

عـــقلُ السُّـــفرَةُ لا خـــبزٌ ومـــاء	نـــورٌ العـــقلُ وللـــروح غـــذاء
لا ســـــوى النـــور إدامُ آدَمِ	مـــن ســـواه الروحُ لاتـــنمي نِـمي
خـــذ مـــن الآدام نَـــزْرا بـــاعتبار	لم تكـــن للـحرّ بـل تـغذوالحـمار
للـــغذاء الاصـــل حـــتى تســـتحِقّ	لُـــــقَمُ النـــور لهـــا أنت المُـــحِقّ

عكس ذاك النور فـي الخـبز جـرىٰ فيض تلك الروح في الروح سرى[1]

﴿إِنَّ ٱللهَ لايستحِيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاًمَّا بَعُوضَةً فَـماَفَوْقَهَا فَأَمَّـا الَّـذِينَ آمـنُوْا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهَذَ ا مَثَلاً يُضِلُّ به كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ ٱلفَاسِقِينَ (٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْد مِيْثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُـوصَلَ وَيُـفْسِدُونَ فِـي ٱلأَرْض أُولئِكَ هُمُ ٱلخَاسِرونَ (٢٨)﴾

معاني المفردات:

يستحيي: من الحياء: التأثر والانفعال من السوء في البشر. وبالنسبة إلى اللّه فإنّ أمثال هذه الصفات كالغضب والكره والحب فالمقصود أثرها، لِأنّ مَن يستحيي مِن فـعلٍ فـإنّ الحياء يصدّه عنه.

ضَرْبُ المَثَلِ: إمّا أن يكون مأخوذاً من «الضَرب في الأرض»، كالمسافر الذي يدور من مدينة إلى أخرى، يدور على الألسنة. أو أنه ماخوذٌمن «ضَرب الأوتار» كـالألحان والأنغام التي تكشف الحالات والأوضاع النفسية. أو من «ضَرب الخيمة»، لأنّ الأمثال تبقى ثابتة بين الشعوب كالخيام (تراجع الآية ١٤).

بعوضة: حشرة صغيرة.

الحق: الثابت، اللازم، الواقع، العدل، اليقين.

الفسق: الخروج او القفز. فَسَقَت الرطبة عن قشرها.

النقض: هدم البناء، كسر العظم، حلّ الغزل.

الميثاق: العقد، الاحكام، وثاق الحبل الذي يشد الأثقال.

من الآية الخطابية: «يا أيُّها الناس...» حتى بشارة الجنة، هذا هو أصل دعوة القـرآن

١) ترجمت الأبيات الفارسية الخمسة إلى أبيات عربية (الترجمان) .

الغَـيْثُ هـذا اللـطيف الطـبع مـنبته في الروض وردٌ وفي السَبخات أشواك[1]

يهدي الله جماعة بالقرآن وأمثاله؛ لأنّ الله هو مبدأ الخير والقرآن كـتاب هُـدىً، إذاً الضّلال لماذا؟ وكيف تهدي أمثلة القرآن وتُضِلّ؟ الجملة المحصورة التالية تجيب عـلى السؤالين: إنّ القرآن يزيد الضلال في نفوس الفاسقين المنحرفين الذيـن خـرجـوا مـن الحدود باختيارهم وتمييزهم، مع الأخذ بنظر الاعتبار معنى الفسق لغـةً. كـيف يـعرّف القرآن الفاسقين؟....

﴿الَّذِيْنَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِه﴾: العهد: الذمّة، أو المسـؤوليّة بـالنسبة لشيء يلتزم به الشخص. وإضافة العهد إلى «الله» بدون تحديد وتوصيف تفيد عموميّته وشموله؛ إذاً كلُّ حَسَنٍ وسيّئٍ وخير وشر يُدرك بحسب فطرة الانسان، وكلّ مسـؤوليّة يشعر بها، والسنن المتداولة بين الشعوب، وما أُنجِزَ بواسطة الأنبياء أو بلّغوا بتركه فهو عهد إلّهيّ. هذه العهود الأولى تكون تارة متينة ومورد تأييد: «مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» وميثاقها من قبل الله عن طريق الشرائع ، لتبيّن الحدود والآثار والثواب والعقاب، ويعرّف نتائج تلك العهود عن طريق العقل والتجربة، والميثاق من قبل الناس هو فهمه وقبوله وتـطبيقه، وتـتصل بواسطة هذه العهود والمواثيق الوجدانيات والفطريّات بالادراك، والادراك بالعمل، والفرد بالآخرين، والخَلق بالخالق، والمقدّمة بالنتيجة، والدليل بالمدلول.

والذين ينقضون هذه العهود، لمّا كـانوا قـد خـرجـوا مـن حـدود الفـطرة والعـقل والمسؤوليّة، وتمرّدوا عليها فهم فاسقون (كفسوق النواة من القشر الطبيعي)، ولأنّهم قطعوا هذه العلاقات والوشائج فهم قاطعون، ولأنّهم بقطعهم وشائج الطاقات الإنسانيّة صـدّوا أنفسهم والآخرين عن طريق الخير والهداية وأفسدوا فـهم مـفسدون، وبـالتالي كـلّهم خاسرون: ﴿أولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾.

إذاً الفِسْقُ كما تعرّفه الآية هو نقض العهد وقطع الوصل والإفساد في الأرض، ونتيجة كل هذه الأمور الخسارة المعنوية والمادية.

---

١) ترجمت البيت الفارسي ببيت عربيّ (الترجمان)

ويمكن تقريب الموضوع إلى ذهن الجميع بهذا المثل: إنّ عجلة كلّ جهاز وآلته لها واجب وعهد حسب بنائها الخاص، ويجب أن توضع في محل خاص في المصنع، وعندما تحلّ في محلّها تتصل بالجهاز الكبير وترتبط به، فاذا خرج هذا الجزء الصغير او الكبير عن موضعه، صار فاسقاً، انتقض عهده البنائي، وانقطعت صلته بالكل والسابق باللاحق أيضاً، ونتيجة ذلك الفساد والضرر العام لذاك الجهاز.

وخلاصة موضوع الآية هي أنّ الهداية تكون منشأ الضلالة في مجال نفوس الفاسقين ـ كما أنّ الخير في طريق الشر ورؤوس الأموال يؤدي إلى الخسارة ـ وسبب نقض العهود وقطع العلاقات هو البقاء وراء حُجُب الكفر والأهواء النفسية، وغضّ النظر عن الآيات الإلٰهيّة.

إذاً يجب التدبّر في الآية التالية، وقراءة آيات من هذه الآية.....:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ باللهِ وكُنْتُمْ أمْوَاتاً فَأحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحييكُمْ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ (٢٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا في الأرضِ جَمِيعاً ثُمَّ آستَوَىٰ إلى السَّماءِ فَسَوّٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ (٣٠) ﴾.

معاني المفردات:

كيف: للاستفسار عن الأحوال والأوصاف، كما إنّ «متى» تأتي للسؤال عن الزمان، و «أين» عن المكان.

أموات: جمع مَيّت، الذي لاروح له.

استوى: من سواء: الإحاطة بكل جانب، والمهيمنة على العمل، وعندما تتعدّى بـ«إلى» تفيد إتمام العمل مع الاحاطة.

هذا الكافر هو الذي يحار في أمثال خالق الخلق ومبدئه وغايته القوليّة والعمليّة ولايتفهّمها، مع العلم بأنّه لوكشف ستار الكفر والغفلة من أمام عين عقله، ويتّجه نحو

كافرين. «وَكُنْتُم أمْوَاتاً...»: الواو حالية، للضمير المستتر في «تَكْفُرُونَ» وقد ظهر هذاالضمير في «كُنْتُمْ»، كما أنّ المادة التي لاروح لها ظهرت بصورة كائن حيّ بظهورالحياة فيها، وعلى العقل والشخصيّة الانسانية المحجوبة بالكفر أن تظهر نفسها بالنظر إلى هذه الحقيقة. بالتدقيق في هذا التعبير ننظر إلى تنسيق هذه الآية مع آية وجود الإنسان التكوينيّ والعقليّ!!

الكفر بآية الوجود والحياة يرافق الكفر بالحق وآيات الحق أيضاً، ولمّا كان الانسان بغضّ نظره عن نفسه يغضّ النظر عن عقله، يغضّ النظر عن الله وآيات الله، ولمّا يجدُ نفسه يجد كلّ شيء، والعقل والتفكير يرجعان إلى الله برفقة الوجود التكوينيّ أيضاً: «ثُمَّإلَيْهِ تُرجَعُونَ».

إعرفَنْ نَفسك لوتعرِفُها لعَرَفْتَ قبحَك والحَسَنَا
لعرَفتَ الكلَّ لوتَعرِفُها وتجنّبت الأذىٰ والحَزنَا
ماعرفتَ النفس لازلت كذا لوتراها لرأيتَ المحسِنَا[1]

ربما لهذا السبب كان الكفر بالنفس كفراً باللله وبآياته والكل متلازم مع الآخر. جاء في أغلب الآيات الكفر مطلقاً، مثل: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» «أمَّا الَّذينَ كفَرُوا» (الآياتالسابقة).

لأنّ حقيقة الحياة نورٌالهيٌّ وشعلةٌأبديّة وهي حيّة بالذات، إذاً لايصيبها الفناء، كذاتيّة الحرارة للنار، والضياء للنور، إذاً الموت تحوّلٌمن قالب وصورة، والحياة ظهور ذلك بصورة أخرى. وهذا التحوّل والتكامل غير قابل للإنفصام أبداً مثل موجب الكهرباء وسالبه. والموت يُشاهد في فواصل معينة فقط، ليرجع إلى مبدئه: «ثُمَّ إلَيْهِ تُرجَعُونَ» ـ بالفعل المضارع ـ«ثُمَّ يميْتُكُمْ ثُمَّ يُحيِيْكُمْ...» بدون ذكر فواصل الموت والحياة وهذايفيد اتّصال (الموت والحياة والرجوع) بل ارتباطها معا:

من الجماد مِتُّ صرتُ ناميا مِن النموّمت صِرتُ ماشيا

١ - ترجمت الأبيات الفارسية إلى أبيات عربيّة (الترجمان).

مِتُّ مـن الحـيوان صـرت آدماً لَمْ أخشَ نقصاً موتُاِنْ بداليـا(١)

لأن نهاية التكوين وغايته تصل إِلى الحياة، وتتكامل في مظهر وجود الانسان، إذاً يكون جميع المخلوقات من أجل تصرّف الانسـان وتـدبيره ومـقدمةً لوجـوده: « هُـوَ الَّذِيْ خَلَقَ لَكُمْ...»، ولولم تكن عين الانسان وأذنه وإدراكه وقواه الأخرى، لكان كلُّ مرئيٍّ ومسموع وموضع تفكير والطعوم والروائح وثروات الأرض التي هي ظواهر عالمنا عبثاً. إذاً فالأرض وما يتعلّق بها يتحقق في وجود الانسان: «جميْعاً» إمّا أن تكون تأكيدا لـ«ما» «مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً»، أو تأكـيداً لضـمير «لكُـمْ» (أي لجـميع البشـر). إذاً فـثروات الأرض الأولىٰ حلال للجميع (لا الأرض، وهذا هو مبدأ حليّة الثروات الأرضية الأولى).

وبعد أن أتقن بناء الأرض للانسان واكملها، استوى إِلى السماوات (بما قيل في معنى الاستواء) لهيمنة إرادته الازلية علَى نظام المعمورة كما أنّه عند إنهاء آخر جزء من البناء يتوجّه صاحبه إلى جميع الأجزاء بصورة متساوية لادارتها والاستقرار عليها، وبعد أن استولى موظفو الحكومة على كل شبر من البلد واستقر الأمن والنظام، تسيطر الحكومة على الجميع بصورة متساوية، وتوصل جميع الأجزاء مع بعضها وتنظّمها: بالنظر إلى أنّ الأرض عندما لم تكن على صورة أرض ولم يكن فيها ساكن، لم تكن السماء ايضاً، لأنّ «السماء» من السموّ، وهو أمر نسبيّ واعتباريّ، ولازالت الأرض لم تكن، لم تكن السماء، كما أنّ التحت عندما لم يكن، لم يكن الفوق، ولمّا لم يكن الأسفل، لم يكنَ الأعلى. إذاً يصحّ هذا الاسم والعنوان والنسبة بتكامل الأرض: لم تفد هذه الآية أنّ أصل بناء الأرض كان قبل أو بعد موجودات السماء، فلم يبق موضع لهذا البحث (كان العلماء والمفكّرون الاسلاميون قد استأنسوا بفلسفة اليونانيين والاسكندريين ونظر ياتهم، حتى أن علماء التفسير والكلام اتّبعوا هذه النظريات أيضاً، فلذا كانوا يؤوّلون مثل هذه الآيات ويبرّرونها لأنّها تخالف تلك الأفكار، كانت فرضيّة اليونانيين ونظريتهم حول الأرض والسماء التي أشادوها على اساس حساب وأصول عبارة عن: انّ الأرض هي المركز الثـابت للـعالم

١) ترجمت الأبيات الفارسية إلى أبيات عربية (الترجمان)

وطبقات السماوات التسع والتي هي عناصر وأجرام أفضل من الأرض، وكلٌ منها يحيط بالآخر ويدور حوله، وبحسب قاعدة (امكان الأشرف) خُلقت السماوات قبل الأرض، وهيكل الأرض والأفلاك والأجسام إبداع وقديم. أي لم تخلق بصورة تدريجيّة وتكامليّة، بل كانت بهذه الصورة دائماً وستظل هكذا). هذا موجز عدد من الأصول العامة للفلسفة اليونانية حول الأرض والسماء.

بالتدقيق في مجموع آيات القرآن الحكيم وهذه الآية التي هي موضع البحث (لاسيما آيات السور الأخيرة) نرى أنّ الآيات لم تتلائم أبداً مع هذه الأصول والنظريات التي كانت من المسلّمات بين العلماء عند ظهور القرآن. وبعد أن أدّت الحركات العقلية في القرون الأخيرة بأسلحتها العلميّة إلى انهيار اركان بناء القدماء الخياليّ وجدرانه، تحرّرت الأفكار من نطاق تلك الفرضيّات، وتفتّحت عيون العقول الناظرة إلى العالم. ولكن لم تصدر حتى الآن أحكام قطعية وآراء حاسمة لم تتغيّر حول أغلب المسائل العويصة وأسرار الوجود، وهذه المواضيع في طريقها إلى التكامل بصورة مستمرة.

وبتحرر العقول من قيود النظريات القديمة، تحرّرت آيات القرآن أيضاً من التحديد والتطبيق والتأويل. والآن يمكننا أنّ نتدبّر بحريّة اكثر في مثل هذه الآيات، ولانكون مشمولين [لقوله تعالى]: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

﴿فَسَوّاهُنَّ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٍ﴾:

إنّ تنظيم السماوات والأرض وترتيبهما وتسويتهما وجعلهما على سبعة أشكال يدل على أنّهما كان لهما وجود واقعي، غير أنه لم يكن بهذه الصورة والوضع المنظم الكامل وبهذه النسب والمسافات. (سبع، إمّا أن تكون بدل الضمير، وإمّا أن تكون المفعول الثاني لِسَوّىٰ، والتي هي بمعنى جعل). وآخر الآية تفيد أنّ أسرار تنظيم السماوات وتسويتها ومقدارها ومسافاتها لا يعلمها الّا الله الذي يحيط علمه بكل شيء، والعالمَ ظهور من علمه. إذاً كان للعدد مفهوم ويفيد الحصر، فهنا لمّا أحيل إلى علم الله رفع هذا الحدّ والحصر، ويفتح المجال أمام علوم الانسان لدراسة اكثر لأنظمة السماوات وترتيبها ونظمها. وهذه الآية تبيّن وتشير إلى نموذج النظم والمقدار الذي يراه الجميع ويمكن

للجميع إدراكه.

بهذا البيان يمكن التصديق بأنّ المقصود من السماوات السبع هو تلك الكواكب الموجودة في المنظومة الشمسّية من عالمنا (إنّ الفلسفة وهيئة الأفلاك القديمة تعتبر ـ كما قيل ـ الأفلاك التسع، وتلك كانت فرضيّة لايدركها الجميع، فكيف بالنظر إليها)، وقد اكتُشِف كوكبان آخران، ولكنهما لم يكونا قابلان للرؤية، وكان اكتشافهما بعد العلم بأنّ الشمس هي المركز وأنّ القمر تابع للأرض.

إذاً يبقى عدد السبعة على حاله مع كشف هذين الكوكبين أيضاً! والأمر كما يلي: تبعد عطارد عن الشمس ٣٦ مليون ميل، ويفرض لها صفراً، الزهره ٣، الأرض ٦ (تخرج من حساب السماوات السبع)، المريخ ١٢، الفراغ الفضاء ماوراء المريخ الذي قيل عنه انه كوكب متناثر ٢٤، المشتري ٤٨، زحل ٩٦، اورانوس ١٩٢، نبتون ٢٨٤، ويضاف أربع لكل من هذه الاعداد التصاعدية، وتضرب في تسعة، هذا العدد يوضح بعد كل من الكواكب عن بعضها وعن الشمس.

ولمّا كان لفظ السماء موسّعا وعامّا، لم تكن معانيه محدودة حسب الاستعمال، كما أنّ بعض الآيات تنسب نزول المطر والقرآن والملائكة والرزق والتدبير وعروج الأمر إلى السماء، فمن الواضح أن معنى السماء في جميع هذه الآيات لم يكن واحداً. فالمقصود في البعض هو المراتب وعوالم الباطن المعنوية، وفي بعضها الآخر الجهات الظاهرة المحسوسة (ولكل منها بحث خاصّ) وهنا يمكن أن يكون المقصود الكواكب والجهات الظاهرة ـ كما قيل ـ ويمكن أن يكون الطبقات الجويّة هو المقصود (وربما كانت الآية في سورة حم دخان: «ثُمَّ استَوَىٰ إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ» تشير إلى هذا) وهو أنّه دبّر الطبقات الجويّة المحيطة بالأرض والتي كانت على شكل دخان وسوّاها قبل تكوين الأرض وجمودها، وجعلها سبع طبقات تحيط بالأرض «وان كان الاختلاف في الطبقات الجويّة من المسلّمات، ولكن عدد الطبقات لمّا يُعرفْ بعدُ».

وفي رأي بعض العرفاء والعلماء الروحانييّن أن المقصود هو التسوية الباطنيّة،

والسماء هي السرّ الإنسانيّ الذي على سبع مراتب ودرجات: النفس، القلب، العقل، الروح، السر، الخفيّ، والأخفي أو العقل الفطري، بالقوة، بالاستعداد... إلى العقل الفعّال. وهذا التوضيح والاحتمال يتناسب والآية السابقة: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، لأن الرجوع هو طيّ مراتب التكامل النفسيّ، والعقلي. ويتناسب ايضاً مع: «خَلَقَ لَكُمْ...» وانّه عندماانتهت الأرض بوجود الأنسان، اعتنى بالمراتب المعنوية وتسويتها، وبادر من الظاهر إلى الباطن، لأنّ الانسان هو الغاية من تكوين الأرض، ودرجات الكمال العقلي هي الغاية من وجود الانسان. «خَلَقَ لَكُمْ، ثُمَّ آستَوىٰ، لَكُمْ وَبِكُمْ، إِلَى السَّماءِ...».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي ٱلأرض خَلِيْفَةً قَالوا أَتجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنّي أَعْلَمُ مَا لاتَعْلَمُوْنَ (٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ ٱلمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هٰؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٢) قالوا سُبْحَانَكَ لاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلعَلِيْمُ ٱلحَكيْمُ (٣٣)﴾.

معاني المفردات:

إذ: حرف زماني للماضي بتقدير اذكر[١].

ملائكة: جمع مَلك مخفّف مَلئَك، من «الألوكة» بمعنى الرسالة، أو أنّ مفرده مَلْأك من مَلِك بمعنى المتصرّف والمالك.

خليفة: من خلف، الذي يحل محلّ الآخر ويكون قائماً مقامه، وينظم أعماله. والتاء للمبالغة.

السَفْكُ: إراقة الدم بغير حق.

١) وهم المؤلف ـ رحمهُ الله ـ بقوله: اذ حرف زماني...، لأنّ اذ لاتأتي حرفا، بل هي اسم في مواردها الأربعة، وهي في هذا المورد مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر. (الترجمان)

التسبيح: من سَبَحَ في الماء، وتقدم وتنزيه الله، وأنّه طاهر من كل رجس.

التقديس: القول بالطهارة والتفضيل.

آدم: اسم نوعيّ وشخصيّ، غير عربيّ، وربما كان مأخوذاً من معنى الفعل، اي صار حنطاويّ اللون، وَفّقَ بين المتضادين والمتخاصمين.

العرض: الإراءة والجعل في المعرض.

أنبأ: جاء بالخبر الجديد، الاخبار.

سبحان: مصدر، يضاف غالبا، منصوب بفعل محذوف، يقال عند الاعتراف بالذنب والتقصير وطلب التوبة.

العليم: بصيغة فعيل تدل على الصفة الملازمة للذات والعلم بالجزئيّات.

بالمقدار الذي يبد و الغموض والسريّة في خلق الانسان وتركيبه المعنوي وقواه النفسيّة، كما أنه يسأل نفسه أحْيانا، ما أنا، وكيف خُلِقتُ، ولماذا هذه الشهوات، هذه الغرائز، هذه الأهواء والطموحات، وهذه الطلبات، وهذه الضوضاء الداخليّة، وهذا العقل والاختيار، وهذا الحب والكره؟ من أين أتيت ولماذا أتيت في هذه الآيات التي تبحث حول خلق آدم ومنزلته وأسرار الهبوط والصعود، تأتي ايضا مثل هذه الأسئلة: حوار الله مع الملائكة حول الخلافة، جعل الخليفة في الأرض، كيفيّة الملائكة واعتراضهم وتسبيحهم وتقديسهم، تعليم الأسماء والإنباء وعرضها على الملائكة، مكوث آدم في الجنة، وحقيقة ذلك وهبوطه وطريق صعوده، كل هذه الأمور موضع استفهام وهي من الأسرار القرآنيّة. وهناك تمثيل وبيان عجيب في هذه الايات عن سر وجود الانسان والقوىٰ التي تركّب منها والتطوّرات التي طرأت عليه، وماهي الغاية من خلق هذا الموجود!!

لوخلت أذهان المسلمين من التأويلات المبهمة والأخبار الاسرائيليّات والمنقولات عن كتب الهنود لانفتح طريق التفكير الصحيح في مثل هذه الآيات، ويجاب على هذه الأسئلة بتأييد من الآيات والروايات الاسلاميّة الصحيحة.

«اذْ» تأتي في بداية بعض الآيات للتذكرة والانتباه إلى أهميّة الموضوع: وهنا جاءت قصة كيفية تكوين وجعل الخليفة وسرّ ذلك. فإذا كانت تتضمّن معنى الشرط فالمقصود هو جواب الشرط. «قَالُوا أَتَجْعَلُ» فاعل «قَالَ» «رَبُّكَ» لا الرَّبُّ، أو «اللهُ» للانتباه إلى أنّ هذه هي ارادة ربوبيّة ربّك، التي هي النموذج الكامل للربوبيّة، أن يوصل العالم إلى مثل مرتبة الكمال تلك، ويبدي التطوّر إلى درجة ظهور مثل هذا الخليفة فيه.

تفيد الجملة الإسميّة «إِنِّي جَاعِلٌ» التحقيق والثبات. جعل، التي هي تحويل من وضع إلى آخر، وعنوان الخليفة يفيد التطوّر والتكامل، وربما كان تطوّراً نوعيّاً وطفرة نوعيّة لابالنظر إلى بداية خلق آدم وكيفيته، بل صريح الآية «وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ...» تدل على أنّ آدم كان، ووصل إلى درجة الخلافة بتعليم الأسماء...

هناك رأيان حول كيفيّة ظهور نوع الانسان في الأرض: أحدهما رأي فلسفيّ قديم، والظواهر الدينية القائلة بأن أنواع الخلق واصوله ظهرت بلاسابق، والرأي الاستقرائي الآخر الذي يعتبر نتيجة ونمواً أو تكاملا من فروع الفلسفة، يعتبر ظهور الانواع من الداني إلى العالي بصورة مستمرة، ويعتبر كل نوع دانيّ منشأً للنوع العالي بمرور الزمان وتأثير البيئة. ولكنّ الفواصل بين هذه الأنواع بعدُ لم تعرف على أساس الدراسات العلميّة وعلم طبقات الأرض ، ولم تثبت جزئيات هذه النظرية وهذا الرأي كما ينبغي من الناحية التجريبيّة، وكليّاتها من ناحية الأدلّة الفلسفيّة. وهاذان الرأيان قام كلٌ منهما بوجه الآخر. ويمكن الجمع بينهما بفرضيّة أخرى: وهي أنّ طفرات وتكاملات فجائية ظهرت في فواصل التكامل التدريجي. بناءً على هذا، صحت نظرية التكامل التي تدل القرائن الكثيرة عليها، وأراحت المحققين من مشقة البحث التافه عن الحلقات الوسطى أيضاً؛ لأنّ الفواصل بين الظواهر والأنواع ليست بالدرجة التي يمكن ملؤها بواسطة رأي وفرضيّة أو اكتشاف عظام، مثل : الفاصلة بين الذرّة والكريات، الكريات والخلايا، الخليّة النباتية مع الخليّة الحيوانية، الحيوان الراقي مع الانسان».

على كلّ حال، فإنّ نسبة مثل هذا المجعول من قبل الله الى نفسه «إني» والقيد «في

الارض» وتقدّم هذه الجملة على «خليفة» كل ذلك يفيد عناية مبدأ الحياة الخاصّة بالأرض وإعدادها لمثل هذا التطور والطفرة، وتدل كلمة «لِلْمَلاَئِكَةِ»، باللام على أنّ خلق هذا الموجود هو نتيجة عمل الملائكة ومكمّل له، وخارج عن حدود عملهم.

لا شكّ لمتأمّل في أنّ العالم واقع تحت تأثير قوي ومبادىء، الأثر الذي يجعله بأشكال وصور مختلفة، وينظمه ويكمله. والاختلاف واقع في الكيفية والأنواع فقط: هل يمكن لهذه الآثار والأعمال الدقيقة المنظمة الحكيمة المشهودة في أجسام الموجودات أن لا يكون لكل منها مبدأ ومؤثر خاصّ وقريب؟! هل أن طبيعة المادة البسيطة الأولى فقط ـ التي هي في الحقيقة ليست سوى الحركة والطاقة ـ يمكن أن تكون منشأ لهذه الآثار؟ وغذاء النبات والحيوان هذا الذي يظهر باشكال مختلفة، ويتم تركيب خاص فيه في كل مرحلة فيكون مثل العضو ويتصلّ به، ويتجه الى الاغصان العالية بلامقاومة معاكسا للجاذبيّات العامة، هل يمكن أن يقال إنّه أثر للمادة ونتيجة طبيعيّة بسيطة لها؟ مع العلم بأن المادة تلين تحت نفوذ هذه القوى وتقبل التغيير، وتخفى الى درجة أنها لا تُرى الّا بالدقة والاستدلال.

وأنّما المحسوس هو تلك القوى وآثارها التي استوعبت باطن كل كائن حيّ وظاهره. إنّ مادة العالم الأولىٰ كالسبورة السوداء أو الصفحة البيضاء التي ملأتها خطوط الكاتب ورسوم الرسّام ولم تترك جزءاً منها خالياً! هل هذه القوى العاملة تعلم بعملها وآثاره ولها عقل وشعور؟ لم يكن كل من العقل والعلم والشعور محسوساً في الانسان ولا يمكن تعيين مركزه وموضعه، ومايدرك هو المشهود من آثار العلم في القول والعمل. إذاً كلما كان القول والفعل اكثر تنظيما يدل على اكثرية علم مبدئه وشعوره؛ لأنّ هذا هو مقياس ما يدركه العقل.

وعندما نرى كل هذه الحكمة والنظام في آثار هذه القوى التي نحن عاجزون عن إدراكها كلها، كيف نعتبرها عديمة العلم والشعور! والمميّز الوحيد بين عقل الانسان وعلمه وبين تلك القوى هو التكامل في شعور الانسان وعلمه الذي لا حدّ له، وتوقفه

فيها. إنّها لا يمكن أن تدرك نتيجة أعمالها ـ وليس لها علم بالعلم ـ ولما كانت بحسب الميزان العلمي بسيطة فكل نوع يكون مبدأ نوع واحد من الآثار، ولما كانت عقولها وعلومها ليست من أنفسها، فعليه يجب أن يأتيها الالهام ممّا فوقها، ولها مراتب ودرجات مختلفة؛ اذاً لا يمكن اعتبار هذه القوى والمبادئ كالقوى الطبيعيّة والجسميّة مثل الطاقة الكهربائية وجاذبيّة الأجسام وخواصّها، ومثل هذه القوى المادية لا نظام ولا تنوع لها، ويجب أن تنظم بالعلم والعقل؛ ولأن هذه القوى المنظمة أسمى من القوى الماديّة لا يمكن اطلاق اسم القوى الماديّة عليها، وهذه القوى لما كانت مدبّرة وتتصرف في المادة والقوى الماديّة سُمّيت ملائكة. والدراسة العلميّة والعقليّة حول وجود الملائكة تتوقف إلى هنا، وليس هناك طريق لمعرفة درجاتهم ومقاماتهم وحدودهم إلا مما أفاده القرآن وما أشار به سالكو هذه الطريق (لا يوجد بعد القرآن كلام أكثر تفصيلا واستناداً حول الملائكة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيما في خطبة الاشباح) ماذا نعرفُه من الآيات؟:

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إنّ محاورة الله مع الملائكة (أو مع السماء والارض وجميع الموجودات «قَالَ لَهَا وَلِلأَرضِ ٱئتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتيْنَا طَائِعِيْن») لم تكن كمحاورتنا عن طريق الصوت والهواء واللسان والآلات العضويّة الأخرى، وحقيقة القول هو إظهار المواضيع والنيّات والتعبير عنها ويتم بصورة التركيب الصوتيّ أو الرسم والعلامات أو الاشارة بالعين والوجه والاصبع، أو تسليم آلات العمل بيد العامل والإشارة إليها، كلّها قول وأمر أيضاً. عندما يأخذ العامل آلات العمل من ربّ العمل ويستخدمها ـ بلانطق لساني ـ يقولون: إنّه امر وقال: اعمل هكذا، وهذا أيضاً قال: أنجز ذلك، وكلما يظهر من العقل البسيط والذهن على صورة تعقّل وتخيّل هو حوار باطنيّ أيضاً، كما يقال: كنت أحدث نفسي، أو أتحدّث مع نفسي، وبعد ذلك يظهر بصورة ارادة وتصميم في أعضاء العمل وجوارحه، أو يظهر في العالم الخارجي بصورة صوت أو كتابة أو أشكال ماديّة، كما تقول: إنّ هذه الكتابة قول ذلك العالم، وهذا البناء أمر ذلك الوزير أو المهندس.

إذاً هذه كلها درجات وصور للقول. يعطي الذهن المصور تارةً نموذج صورة إلى قوى

الإرادة والعمل لإيجادها، ولكن الإرادة تتوقف في مرحلة العمل أو التصميم لوجود الموانع والعقبات، فالعقل الفعّال يُعلن عن الصورة، وتعلن قوى العمل عن وجود المانع بتوقفها ولسان حالها، (لا بصورة تمرد وعصيان)، لربّما يزول المانع الداخلي، ويتحقق الأمر والإرادة.

ويجب أن نعتبر محاورة الله مع الملائكة من هذا القبيل، فالعالم الكبير كالذهن لظهور الصور من مبدأ الفيض، وكأنما القوى والمبادئ الطبيعيّة (الملائكة) قد أعدت هيكل آدم الجسمي الذي هو اخر صورة الأنواع الكاملة، وظهور صورة النوع الكامل (العقل الحرّ والاختيار) من لدن عقل العالم المحيط الفعّال خارج عن حدود وجود الملائكة وعملهم الارضي، وينتسب ويرتبط بذلك المبدأ الأعلى فقط: «إِنِّي جَاعِلٌ...، وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِي».

إنّ ظهور هذه الحقيقة واتصالها بالهيكل النوعيّ المركّب من الغرائز والشهوات والغضب أدّى إلى تعجب الملائكة وحيرتهم وتوقفهم: «أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَن يُفْسِدُ...» «مَن» تدلّ على التفاتهم نحو العقل والاختيار الذي أدى الى حيرتهم، وإلّا لمّا كانت حقيقة آدم لم تظهر بعد وكانت مبهمة كان يجب أن يقال: «ما»، وهي أنّ هذه الطبيعة من الشهوات والغضب عندما تطلع رأسها في العالم بسلاح التدبير والاختيار، وتعمل هذه القوى بطاقة العقل التي لا حدّ لها، لا تقف عند حدّ ابداً، وباستخدام الأهواء والشهوات تجعل كل شيء حتى وجود نفسها هباءً منثوراً: «يفسد فِيهَا» وعندما يلتهب غضبه يُسفك الدماء بلامبالاة: «يُسفك الدِّمَاء»، لا مثل بقية الانواع والضواري التي تفسد وتسفك الدم في حدود تأمين معيشتها.

﴿ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكِ...﴾: التسبيح من السباحة، والسبّاح في البحر يحدّق عين أمله على الساحل وعلى قوّته، وبهذه النظرة والأمل لا يفقد شخصيّته بوجه الأمواج وقوة البحر، وتعمل يداه ورجلاه بقوة، وبمجرّد أن ييأس من نفسه وفقد شخصيّته أمام قوة البحر، تتراخى يداه ورجلاه، فيستسلم للأمواج، إذاً التسبيح هو من الامل والتفكير حتى

الحركة والعمل. وفي الاصطلاح الاعتقاد بنزاهة الله من كل سوء وحبّ سوء، هذا الشعور يرافق الالتفات الى نِعَم الله والطافه، أو بسبب هذا الالتفات؛ معرفة درجة الحمد والثناء على الله، تعريف نزاهة ارادته من كل شرّ لأنه مبدأ الخير، ولا يريد سوى الخير، إذاً كلّ سوء وشرّ هو منّا و من تلوثنا وتفكيرنا السيئ وتقصيرنا، ونخلص أنفسنا من التلوث والضعف والجهل بالسعي والحركة نحوه وهو الكمال والخير المطلق.

هذه حقيقة «نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ» بالباء التي هي إمّا أن تكون بمعنى مع، أو تكون سببيّة: ـ نسبّح بسبب أو مع حمدك ـ وكلمة «سُبحان اللهِ» تعبير عن هذا الإدراك والحركة، بواسطة اللسان. وبالتدقيق في هذا البيان يتضح عمل الملائكة ووجودهم وحدّهم: وصلتهم بالمقام الأعلى هي أخذ الخير والإمداد، وبالعالم السفلي عملهم تنزيه الملوثين بالمادة المظلمة الميّتة وتكميلهم وسوقهم نحو النور والحياة والكمال، والدعوة بصورة اكثر، وإزالة النقص، وإعداد وتفضيل كل ذي قابليّة إلى مقام قدسه «وَنُقَدِّسُ لَكَ». يتضح من لام «لَكَ» أنّه لم يكن المقصود تقديس الذات الإلهيّة، بل التقديس من أجل ذاته وفي سبيله. إذاً لم يكن كلام الملائكة من أجل أفضليتهم ومدح أنفسهم، وانّما بيان الحقيقة بلهجه التأثر والعجز من أنّه ما سرّ هذا العمل؟ ونحن بجهدنا الدائب وتوجيهاتك وإمدادك ياربّ نسوق العالم نحو الصلاح والكمال والتنظيم، ونعرف اكثر من كل شيء ـ ما تراه إرادتك النزيهة! وهذا الذي يريد أن يطلع رأسه من هذا العالم بالقدرة والاختيار والتدبير الذي منحتها إيّاه يلوّث مشيئتك، ويعبث بعملنا، وينقض غزلنا؟!

كان حيرة الملائكة وتريّثهم لانهم كانوا يظنون أنّ المقصود من الخلق هو عملهم وهو التسبيح والتقديس، ولم يطلعوا على خارج نطاق علمهم وعملهم ونتيجة عملهم المحدود.

وكان الواجب أن يتخلص الملائكة من الحيرة، ويتقدمون في عملهم ويعلمون أنّ المقصود لم ينحصر بعملهم، بل هناك مقصود آخر، ومادام لم يسفر عن وجهه لم يطلعوا على سرّه: «قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ...».

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّهَا...﴾ هذا جواب تفصيليّ مقنع للملائكة وتوضيح «ما لا تَعْلَمُونَ» وسرّ خلافة الانسان: ليس المقصود من الأسماء مفردات الاسماء فقط، لأنّ معرفة المفردات لوحدها لا تستوجب أفضليّة الإنسان، ووضع الاسماء والمفردات تدريجي ومتنوع؛ اذاً لا يمكن تعليم جميع الأسماء لشخص نموذجي كامل أو لأفراد النوع، والشيء الآخر يجب أن يكون تعليم المفردات والألفاظ بلغة أخرى ولفظ آخر، وهذا يؤدي الى التسلسل اللامتناهي وتعليم الله بواسطة الحروف والمفردات غير صحيح. إذاً يجب أن يكون المقصود المعنى العام الحقيقي للاسم والذي هو عنوان المسمى وعلامته، وكل مادل على موجود وعرّفه ذاك هو الاسم. وان كان هو بنفسه صاحب الاسم، ولا يمكن معرفة أي موجود إلّا عن طريق الاسم والعلامة والصفات الخاصة؛ لأن حقيقة وجود كلّ شيء هو نفس الشيء الذي لا تدركه الحواس والمدركات الانسانية إلّا عن طريق اللون والسطح والطبيعة والعوارض، والصفات والآثار من حيث أنّها ممثلة هي اسماء ايضاً ومن حيث لآثاره الخاصة بها هي مسمّى وصاحب العنوان: كما أنّ الحروف والكلمات الخطيّة من حيث تمثيل الكلمات الصوتيّة أسماء، وهي أيضاً موضوعات مستقلة، والكلمات الصوتية والخطيّة تمثل الصور الذهنيّة، والصور الخياليّة والعقلية تمثل الحقائق الخارجة عن الذهن، كل هذه ـ من ناحية التمثيل ـ انعكاس للاسماء والصفات، والتي تدركها قوى الانسان الحسيّة وإدراكه عن طريق الحواس وبقوة التعقّل والتجربة، والأسماء والمفردات اللفظيّة بوضعها الطبيعي تمثل آثار وصفات الأعيان الخارجة عن الذهن.

إذاً هذا وجود الانسان وحواس ادراكاته هو الذي يكشف عن ربائب التكوين من حجب الخفاء والمجهول، هذه هي قدرات درك حقيقة تعليم الأسماء والاحساس بها وتعقّلها، التي تتقدّم تدريجياً من الحواس الظاهرة نحو العقل بتفكير عامة البشر وتجاربهم (فالتعليم تعلّم تدريجي، والاستيعاب الفجائيّ وبلا تعلّم يسمى وحيّاً وإلهاماً) إنّ القدرة على التعلم وفطرة البحث هذه عندما تتصل مع القدرة على الاختيار والتصرف

في وجود الإنسان يستحق مقام الخلافة؛ لأنَّ الخليفة هو الشخص الثاني الذي يحلّ محل الأول، وينجز عمله ويكمله، ولو لم يطلع مثل هذا الموجود الفاهم المتصرّف رأسه في العالم، لبقيت جميع المخلوقات وراء حجب الجهل والنسيان، وعندئذٍ ما كان للعالم جلال وعظمة وجمال، ولا يصل أي مخلوق الى نتيجة وثمرة، ولم تظهر أفضلية البعض على البعض الآخر وقيمته. يد القدرة الأولى تصنع، ويد قدرة الخليفة تقوم بالتجميل، الحكمة الأولى تبدع كل شيء بخواصه وآثاره، والحكمة والعقل الثاني توضح ذلك وتحركه.

وإذا كان هذا معنى الخلافة وسرّها؛ إذاً يكون كلّ فرد من أفراد الانسان خليفة في نطاق قدرته العقليّة وإدراك الأسماء والتصرّف فيها، والخلفاء المنتجبون هم أناس مطلعون على أسرار الانسان. ويسوقون القابليات البشريّة الخفيّة نحو الخير والكمال، ويمنحون ذوي القابليّة من الناس استحقاق مقام الخلافة، ومن وجهة نظر هؤلاء الخلفاء المنتجبون بحق لم تكن للموجودات حقيقة ثابتة وواقعيّة، والأسماء كلّها حق. إنّ هذا التعبير الجامع، جامع لكل التعبيرات والتفسيرات التي قيلت عن الأسماء.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ المَلائكة...﴾ ثم: تأتي للفاصلة الزمانيّة بين المعطوف و المعطوف عليه تدل على مرور زمن على تعليم آدم وبعد ذلك عرضهم على الملائكة ـ أراهم فجأة ـ كما توضع نتيجة التجارب العلميّة بعد مدة في معرض المشاهدة، وتتضح لكل الذين كانوا يجهلون أسرارها و رموزها.

إنّ ضمير جمع المذكّر «هم» يعود على الذوات والمسمّيات من حيث دلالة الأسماء عليها، وجاء «هم» بدلاً من «ها»، مع العلم بأنّ المرجع يبدو واحداً ليفيد نوعين من الرأي والإدراك: فآدم استوعب الاسماء عن طريق تعليم الله إيّاه؛ لأنّ علمه بالمخلوقات كان بواسطة تعلّم آثارها وخواصّها فقط؛ لأنّ الحقائق والذوات كانت مجموعة عن عين عقل آدم، ولكن طريق إدراك الملائكة لم يكن بالتعلّم ـ الاستيعاب التدريجي والاستدلاليّ ـ بل بواسطة ظهور الذوات والحقائق ومشاهدتها، لا إدراك الآثار والصفات، بعد أن تجلّت الأسماء في مراتب ذهن آدم ومرآة روحه، وتحققت ذواتها بصورة خياليّة وعقليّة، أو لما

ظهرت آثار الأسماء وخواصّها من جرّاء تصرّف آدم في الخارج وعالم الطبيعة، صارت في معرض مشاهدة الملائكة، وبناءً على هذا نفس الأسماء المعروضة صارت مسمّيات في نظر الملائكة: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ» وآثارها أسماء الاسماء: «أسماءِ هؤلاءِ».

على كل حال؛ إنّ طريق استيعاب آدم التعليم واستيعاب الأسماء، كيفيّة تلقي الملائكة العرض، وما تلقونها هي المسمّيات. ويمكن أن يعود ضمير «هم» على آدم باعتبار النوع.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤُلاءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: لم يكن الملائكة قبل ظهور آدم مطلعين بخواص أسماء وذوات ربائبهم، ولا بالآثار الخارجية لهذه الأسماء، وظهرت هذه الأسماء وبانت في وجود آدم فقط. والى هنا لم يوجد اطّلاع عن اسم وأثر وظهور الأسماء في الخارج، وبتجلي وجه الأسماء في وجود آدم وعرضها عليهم، فكروا بقصر آرائهم حول آدم، ثم قيل لهم: اخبروا عن أسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في ظنّكم بأنكم بالقياس أفضل وأعلى من آدم؟

الى هنا انتهى القياس بين الخليفة الجديد، والملائكة القدماء في العمل ومسابقتهم بامتيازين هما لياقة آدم وافضليته: الأولى معرفة الأسماء والثاني تحققها في الخارج، وفي هذه المرحلة شاهد الملائكة نزاهة ارادة الله وحكمته، وأدركوا محدودية وجود علمهم، وقالوا بلسان حال العجز والاعتراف: يا من ذاتك وإرادتك أسمى من كل تقصير ونقص، أنت المنزّه الطاهر، لا علم لنا إلّا ما حددته لنا، ونعلم فقط بأنّ علمك محيط ونافذ وعملك حكيم ورشيد، أبدعت كل واحد لعمل خاص وعلّمته ما يجب وفي نطاق وجوده ـ ثالث امتيازات آدم يمكن معرفته من الآية التالية ـ وأقمت نظام العالم على هذه القاعدة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾... يمكن معرفة الامتياز للخليفة بالتدقيق في الآية التالية:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُم تَكْتُمونَ (٣٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائكةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِن الْكَافِرِيْنَ (٣٥)﴾.

معاني المفردات:

أنبأ: مِن نَبَأ: جاء به عاليا وقريباً، جاء بخبر جديد.

الإبداء: الايضاح، الابتداء بالموضوع.

السجدة: الخضوع والخشوع والتذلّل، وضع الجبهة على التراب، وعندما تتعدي باللام تكون لصالح المسجود وفي سبيله. وهي من الأضداد على حدّ قول[صاحب] القاموس، جلس خاشعاً وقام منتصباً.

إبليس : يقال انه اسم غير عربي، وربما كان من أبْلَسَ، أي قَلَّ خيره، ابتعد عن رحمة الله، حار في عمله. ولهذا الوزن أمثال في اللغة العربية مثل: إزميل، إحريص، إصليت.

إنّ ضمائر جمع أسمائهم مثل «عرضهم» تعود على أسماء (كما قيل)، والأسماء مسمّيات من وجهة نظر الملائكة، وأنها ظهرت بصورة مسمّيات بعد ظهور الأسماء في وجود آدم. ويمكن أن يكون الضمير في هذه الآية عائداً على الملائكة، كما أنه يحتمل أن يعود في «عرضهم» على آدم.

بناءً على هذا يفضّل آدم على الملائكة في ثلاثة مراحل واطوار وجوديّة: الأولى: القدرة الفكريّة والعقليّة لاستيعاب الأسماء، العلائم والمميزات الذاتية. الثانية: القدرة على التصرف والتدبير وبيان تلك العلائم في مسرح الطبيعة ـ المفهومة من أنْبَأَ ـ الثالثة: الإحاطة العقلية بالأسماء وصفات الملائكة.

إذاً يستفاد من هذه الآيات أنّ الملائكة لم يكونوا بأنفسهم مطلعين ـ قبل وجود آدم ـ بظواهر الوجود التي كانت نتائجها بإذن الله، ولا بالأسماء وعلائم تلك الظواهر، ولا الصور، والأطوار التي ظهرت بتصرف آدم فيها، ولا بحدود أنفسهم وخواصهم. كل هذه

ظهرت أولاً بصورة علم في عقل آدم، وعرضها والنبأ عنها في العالم الخارج عن العقل وبجعل الخليفة. إذاً لم يكن للملائكة رقيٌّ وتكامل من أنفسهم، وتدرج إليهم الكمال بتقدم العالم وتكامله بسبب وجود آدم ـ لأنّ التطور والتكامل يكون من المادة وتركيب القوى المختلفة ـ ثم إنّ كلّ نوع منهم محدود بمحيط علمه وعمله «مَامِنَّا إلّا ولَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ»(لأنهم بسطاء) وليس لهم علمٌ بعلمهم وبنتائج عملهم وآثاره أيضاً. وكأنما هؤلاء الملائكة أحياء كسائر الموجودات (سوى الانسان) مع الفارق وهوأن أعمالهم عن علم وارادة، ويقهرون الطبيعة والمادة ويسودونهما ومن الممكن أن يعوا كل هذه الأمور ـ لا عن طريق العلم ـ ولكن الكائنات الحيّة الأخرى أعمالها غريزيّة ومحكومة من قِبَل المادة والطبيعة، وهي لا تعي وجودها ولا تعرف نتيجة أعمالها وآثارها وخواصّها (كما أنّ النحل لم تعي ما تنتجه ولم تعرف حكمة بيوتها السداسيّة).

يستفاد من هذه الآيات وأقوال بعض المفسرين أنّ الخطاب والمحاورة حول جعل الخليفة والأمر بالسجود كان خاصّاً بملائكة الأرض، أولئك الملائكة العاملين في عالم الطبيعة أو خلاله أو في ما يتصل به (وتؤيّد هذا الآية: «أَسْتَكْبَرْتَ أم كُنْتَ مِنَ العَالِينَ» فيسورة (ص) تخاطب ابليس بعد التمرّد). ويمكن تشبيه ملائكة الأرض بمرايا تشع عليها الالهامات العلميّة من الأعلى (العلل الفاعليّة) ـ لا عن طريق الاستعداد والاكتساب ـ وتنعكس منها على المادة المتماسكة والطبيعة بصورة هداية غريزيّة وفطريّة، وتسوق كلّ مستعد ليصل إلى مقام الانسان ليسير حتى يصل إلى العقل والتفكير، ويكون أفضل من الجميع، عندئذ يتجلّى في وجود آدم العقليّ والعلميّ سرّ وجود الملائكة وآثارهم العلميّة والعمليّة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. اذاً يعلم اللـه بأسرار السماء والأرض وباطن الملائكة وظاهرهم وخليفته فقط، الذي علّمه الله.

﴿وَاذْ قُلْنَا لِلملائِكةِ اسجدُوا...﴾، إذاً كان المقصود هم ملائكة الأرض فإنّ الألف واللام في «الملائكة» في هذه الآيات تفيد العهد، وتشير الى أولئك الملائكة الذين يتولون

بلا واسطة إدارة القوى الحياتية وتنظيمها من حدّ المادة وأطوارها من القوى الجسـميّة والنفسيّة حتى أعتاب عالم العقل والاختيار، كأنّما حدث فاصل (حيرة وركود) في هذا التطور العظيم، إنّ تعليم آدم وإنباءه وكشف سر ذات الملائكة وأعمالهم، أخضع جـميع طبقاتهم المسلسلة أمام مثل هذا التطور والقدرة حتى صاروا على قارعة مسيرة التكامل وطأطأوا رؤوسهم على أعتابه، وهذا هو سرّ سجود الملائكة والأمر به؛ لأنّ روح السجود وسرّه هو الخضوع و الانقياد، الذي يظهر في هيكل الانسان بصورة التعفر بالتراب ووضع الرأس [الجبهة] على التراب. وهذه الحالة تدلّ على الخضوع التام كالتراب، يكون تحت تصرف المسجود وتدبيره: ﴿لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرضِ﴾ والنبات كبيراً وصغيراً: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ هذه هي حقيقة الخضوع والإنقياد، عبّرت الآية في سورة الحجر عن تطوّر الخلق هذا والأمر بالسجود لآدم بهذا التـعبير: ﴿فـإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحي فَقَعُواله سَاجِدِينَ﴾، أي اذا سَـوَّيت ظـاهره وبـاطنه وأكملته ونفخت من روحي فيه فاسجدوا كلّكم أمامه بصورة دائمة. لأن معنى الوقوع هو السقوط والثبوت والوجوب، والأمر بالوقوع في حال السجود. إذاً لم تكن هذه السجدة وضع موقت كسجدة هيكل آدم الظاهر. فلم يبق موضع للبحث في هذا المورد مـن أنّ السجود لغير الله يجوز أو لا يجوز.

﴿فَسَجَدُوا إلّا إبْلِيسَ أبىٰ...﴾: استثناء ابليس يفيد العموم والشمول بأنّ المـلائكة كلهم أو هذا النوع من الملائكة سجدوا، ويفيد أيضاً تكريم منزلة آدم المسجود والملائكة المأمورين. والوحيد الذي بقي في الطرف الآخر من هذا التطور وفي حال التمرّد والتكبر والحيرة هو إبليس. ولا نتمكن من تصوير كيفيّة ابليس وشكله وتركيبه (كالملائكة)، ولا طُلِبَ منا مثل هذا العمل، وما نتمكن من إدراكه بالدراسة العقلية هو أنّـه مـصدر الشـر والغواية والوسوسة ويجر الانسان إلى الجهة المخالفة للكمال والمصلحة والتفكير فـي العواقب، ويجب الانتباه إلى وساوسه وغوايته، وتحرير العقل والروح من كيده وشرّه. هذا مصدر يجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والشر خيراً والخير شراً، ويخيف مما لا يخاف

منه، ويجرّىء على ما يجب أن يخاف منه، يَعِدُ مخادعاً، ويبدي السراب واقعاً، ويسدل على الحق والمصلحة والتدبر حجاباً من الوعود الخدّاعة، ويحجب ما وراءه: ﴿يَعِدُهُم وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطان إلّا غُروراً﴾ وبمجرد أن يقف الانسان في موقف الغضب والاعتداء على حق الغير والشهوة وأي ذنب آخر يقوي الموقف ويسدل الظلام على محيط الفكر، ويحجب العاقبة، ويخمد نور الضمير ونداءه.

هذه علامات الشيطان وأوصافه التي بيّنها القرآن والروايات الدينيّة، ونشعر بها، وندرك أنّ هناك مبدأ لأمثال هذه الأمور، كما نعرف بنفس هذا الشعور مبدأ الخير والإلهام وهو المَلَك، وعندما نكون عرضة للخير أو الشر، والحق أو الباطل يقف صفان متجابهان في باطننا، ونبتلي نحن في الوسط بين تجاذبهما: مبادىء الخير التي تأخذ طاقتها من الضمير والعقل الصريح تجرّ نحو الصلاح، ومبادىء الشرّ التي تعبىء قوى الوهم والشهوات والغضب تسوق نحو جرف الهُوّة والانحدار، ولم تكن هذه القوى وحدها التي تعبأ للمواجهة مع بعضها، بل نشعر بأن العون يأتيها على التوالي، أفهل يكون غير هذا!! وهو أنّنا نعرف القوى الطبيعيّة وميكروبات المريض من كيفيّة آثارها وتنوّعها، ونطلب لكل حادثة وأثر مبدأ ومؤثراً، ولهذا السبب يعتقد جميع شعوب العالم من العلماء والجهلة بوجود المَلَك والشيطان، فالعلماء الماديون يعبرون عن مبادىء الأثر بالقِوى، ويهربون من اسم الملك، وأتباع الدين يتقون من أسم القوى. إذاً اكثر الاختلافات تقع في التسميّة أو في بعض الأوصاف لا في أصل ذلك. بناءً على هذا يجب أن لا يعتبر الشيطان نفس تلك القوة الوهميّة (كما يتصوره البعض) بل الوهم مظهر مبدأ الشرّ والشيطان و ممثّل هذا المبدأ فيوجود الانسان وباطنه، كما أنّ الضمير والوجدان هو ممثّل الخير وعامله في وجوده، والانسان بنفسه صورة مصغرة لجميع العالم ونموذج من العالم الكبير، وقد عبّروا عن هذه القوى النموذجيّة المتضادة الغامضّة بـ«اللّمّة»: «في الانسان لمّة من الملك ولمّة من الشيطان».

إذاًكل واحد من هذين النوعين من القوى الخفيّة المتراكمة في وجود الانسان موجود

الخليفة في الأرض، وخلق ادم من الطين وتسويته، ونفخ الروح فيه، وأمر الملائكة بالسجود له، ثم إسكانه في الجنّة، والروايات الصريحة الواردة عن المعصومين عليهم السلام حول جنّة خليفة الله هذا تؤيد هذا أيضاً، كما في الرواية المعتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: كانت هذه الجنّة من جنان الأرض وتشع عليها الشمس والقمر، وإذا كانت جنّة الخلد لم يخرج منها أبداً، ولم يدخل اليها إبليس»[1] حتى أنّ بعض المفسرين بحث حول تحديد منطقتها، وجاء في تفسير البيضاوي: «إنّه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على الانتقال منه إلى أرض الهند...»[2].

إذاً يجب أن تكون هذه الجنّة في الأرض ويمكن معرفتها بالعلائم والأوصاف التي ذكرها القرآن عنها، وقبل أن نبحث عن موضع هذه الجنّة أو نعيّنه (لم يحدّد القرآن الموضع، وقام المفسرون والمتكلمون بالبحث للعثور عليها) نلقي النظرة من بعيد على آدم ووضعه النفسيّ، آدم ذاك الذي كان الفرد الانسانيّ النموذجيّ، وكان له لقب خليفة الله، وقدرته وتصرّفه أدّى بالملائكة للسجود، وكانت روحه كالمرآة تجلّت فيها الأسماء وصفات الله وجميع الموجودات، ويشع فيها جمال العالم المعنوي وجلاله، وقلبه مشغوفاً به أكثر فأكثر، لم تظهر فيه بعد الشهوات والأمنيات التي يصرف كلٌّ فرع منها الفكر والذهن ويقلق البال، ولم تسيطر العواطف المختلفة التي تجتذب اهتمامه نحوها على عقله، ولم تكدّر روحه فكرة الموت والفناء وطلب العلاج من أجل البقاء، ولم يقلق باله الخوف من المستقبل، والجشع في جمع المال، والدوافع المملّة، ولم يستول غبار العداوات والأحقاد والأنانيّات على صفحة نفسه الساطعة، ولم تحدّده جدران القوانين والدساتير، كـدور الطفولة والفطرة عندما يفتح الانسان عينه بروح طاهرة نحو النور والعالم، ويرى كل شيء

---

١) ترجمت ما كان المؤلف رحمه الله ترجمه الى الفارسيّة؛ لأني لم أعثر على أصل النص مع كثرة البحث عنه. (الترجمان).

٢) نقلت النص من تفسير البيضاوي: ١/ ١٤٢. (الترجمان).

كما هو حسنا وجميلاً، وتظله شجرة الحبّ، والكل يأنسون به، كان آدم خليفه الله يعيش في محيط كمحيط الفطرة [هذا] بالاضافة إلى العقل النافذ والروح الساطعة. وآدم هـذا كأنّما كان يعيش في جزيرة أو منطقة خضراء بين الزهور والرياحين والأشجار الملتفة النابعة في كل مكان، والأنهار الجارية في كل جانب، وكان نور الشمس الذهبي ونسيم الهواء والغذاء الطبيعي يربّي هيكله العاري، وكانت أنوار الشمس والقمر تشع من فـوق رأسه، والنجوم تتلألأ، وكانت روحه وقلبه وروح زوجه متناسقة مع حركة النسيم وأوراق الأشجار، وصدح الطيور وتسبيح الملائكة. وكان عقله وفكرته تسيّر زوجـه مـعه إلى أسرار العالم. وتجتذبه عواطف زوجه إلى جمال الخلقة، يذهبان أينما يرغبان، ويأكلان كلّ ما يشتهيان، لا قلق لهما ولا ألم، لم تؤلمهما الآلام الروحيّة، ولا الآلام الجسميّة.

تلوح من نافذة كلمات الآيات وجملها التي تدور حول الجنّة وموضع هبوط آدم مثل هذه الجنّة: بعد تعليم الأسماء والإنباء عنها وسجود الملائكة، أمر اللـه بـالسكنى فـي «الجنّة» «أُسْكُنْ» (لا أُدخُلْ فيها) أي أبق بذلك المحيط الخَـضِر النَـضِر، والالف واللام العهدية تشير إلى الجنّة المعهودة، المكان الذي أُعدّ فيه جميع وسائل الحياة الأولى، ولم يكن فيها موانع وحدود: «رغداً حيث شئتما»، وجاء وصف هذه الجنّة في سورة «طه» كما يلي: «إِنّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرى، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيْهَا وَلَا تَضْحَى»، ويفيد تعبير: «فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كانا فِيْهِ» حالتهما الروحيّة ووضعهما المعنوي، أي أن الشيطان أخرجهما من المكان الذي كانا يعيشان فيه؛ مع أن سياق الكلام كان يقتضي هذا التعبير: «فاخرجهما منها، أو: من الجنة».

وقد جاء حول مَهبط آدم كلمات: الظلم، والعداء، والشقاء، وظهور القبائح والعورات في الآيات: «فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمينَ» «اَهبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» سـورة البـقرة. «فَـلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى» سورة طة. «لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنهُمَا مِـنْ سَـوْآتِهِمَا» سورة الأعراف.

ويجب أن يُعرف من مقابلة المهبط مع الجنّة أنّ آثار ظلام الظلم لم تكن تستولي على

أغصان الشجرة (الخلود، معرفة الخير والشرّ، الحياة) الملتفة، إلى أن خلبت لبّ آدم بالتهييجات النسائيّة والوساوس الشيطانيّة، وتقرّب إليها، وزلّت قدمه من هنا...

كانت هذه الجنّة شعاعاً من الأسماء والصفات على مرآة الفطرة الساطعة، وحينئذ ملأ انعكاسها جميع نواحي مسكن آدم وزوجه بالصفاء والنور ـ شعّت جيّداً ولكنها كانت على عجل ـ كانت مرآة فطرة آدم كالبحيرة الصافيّة التي كانت لعمقها في معرض الدخان والبخار والهزّات البركانيّة، وأقل حركة في أعماقها تكدّر وجه الماء، كما صار...

إنّ نفوذ عواطف المرأة وطلباتها مع وساوس إبليس والتقرّب إلى الشجرة أدّت إلى رخاوة موضع قدم آدم وزلته، ثم انقلع من الجنّة وهبط: «فَأَزَلَّهُمَا عَنْهَا» ـ بناءً على عود الضمير على الجنّة: أو أنّ إبليس زيّن الشجرة لآدم وكان ذلك بداية الزلّة وسببها ـ بناءً على عود الضمير على الشجرة. وبعد الزلّة، أُخرج الاثنان من الوضع والمحيط الذي كانا يعيشان فيه: «فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كَانَا فِيْهِ». وانحدرا نحو المهبط بأمر الله، أو أنّ ابليس أخرجهما وجرّهما إلى نفسه، وجلب انتباههما.

﴿أخرَجَ﴾ تعطي معنى خرّج واستخرج أيضاً، وبينهما فرق دقيق. هذه الزلّة بعثرت محيط الأمن والصفاء، وبدأ مَهبَط العداء والنزاع، والتقرّب إلى الشجرة صار مصدراً للمشاجرات:

﴿بَعْضُكُم لبعضٍ عَدُوٌّ﴾ جملة حاليّة تعود على ضمير الجمع في «اْهبطوا» بلا وساطة الفاء ولواو.

إذاً الهبوط هو نفس محيط العداء والخصومة، والمخاصمة تستلزم مثل هذه الحياة، وبحسب الحكمة الأزليّة. واللام في «لِبعْضٍ» تشير إلى اللزوم والانتفاع والتي جاءت بدلاً من «بعضكم عدوّ بعض». فالحياة التي كلها احتياج وآمال تؤدي الى الاجتماع، والاجتماع يؤدي إلى العداوة والاصطدام. إذاً فالهبوط والاجتماع والعدواة لا تنفك عن بعضها. محيط العداء وتنازع البقاء هو مهبط الانسان ومحيط الحيوان الطبيعيّ؛ لأنّ الإنسان هبط من محيط السلم و صفاء الفطرة والاستيناس بالجمال اللامتناهي الذي كان

مسكنه الطبيعي، وفقد ذلك السكون والاستقرار، وتارة يطلب الهدوء والاستقرار في الأرض و عالم الطبيعة التي لا قرار فيها وكلها عداء ونزاع، لأنّه طُرد من المُتَع واللذائذ التي لا مشقة فيها فإنّه يطلب المتعة واللذة في وسط الآلام والمصائب: «وَلَكُمْ في الأَرضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ...» وكل ما يتخذ القلب قراراً وهدوءً، لا قرار فيه ولا هدوء. ولهذا يئن دائماً كالناي، وكالورقاء التي افتقدت عشّها تحطّ على كل جدار وخراب وتقوم، وتئن في كل سهل وحدب بحنين «أين أين»[1] وتريد أن تخلّص نفسها بترديد الأمواج الصوتيّة الموزونة ومشاهدة حركات الطبيعة المنظمة ونقوشها وزخرفها من الالتفات إلى الحياة المليئة بالعداء، وترتاح قليلاً بتذكر الموطن الأصلي، أو تعطل العقل والذكاء بالتحذير عن إدراك الحرمان والمصائب والموت. «مستقرّ ومتاع إلى حين» ذكرت الكلمات الثلاث بلا تعريف وإضافة، لتدلّ على أنّ الأرض لا قرار لها، متاعها قليل وزائل، وقتها غير معلوم. ويمكن أن يكون مستقر ومتاع بالمعنى المصدري: يعني: الاستقرار، والتمتع القليل.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٨) قُلْنَا ٱهبِطُوا مِـنْهَا جَمِيْعَاً فَإِمَّـا يَأْتِـيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدىً فَمَنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَـلا خَوفٌ عَلَيْـهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّـارِ هُـمْ فِـيْهَا خَالِدُونَ (٤٠)﴾.

معاني المفردات:

التَلَقّي: الإتجاه، الاستيعاب، الاستلام جيّداً.

كلمات: جمع كلمة، لفظ ذو معنى، من الكَلْم بمعنى الجرح؛ لأنّ الكلمة تؤثر في النفس

١) يشير الى ابيات بداية المثنوي الفارسي «... كيف الناي يحكي حاله فهو يشكو من فراق ناله» [ترجمة الترجمان شعراً] أو عينية ابن سينا وورقائيته: «هبطت اليك من المحل الأرفع...» وكلاهما يشيران الى هذا الهبوط، وبعد حقيقة الانسان عن الموطن الأول.

المتفتحة الصحراوية وفي ظل هداية الأنبياء، طالبوا بتنوع الغذاء والفوائد (وكان لهم نوع من التقرّب إلى الشجرة) فجاءهم الأمر بالهبوط: «اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذِّلَّةُ...» كأنّما هذا الهبوط مرةً أخرى وصورة أخرى من هبوط آدم نفسه.

بناءً على هذا فالهبوط تحوّل من وضع حياة أفضل إلى ما هو دون ذلك ـ لا من مكان إلى آخر. إذاً للهبوط درجات ومراتب له مرتبتان متميّزتان حسب جهاز الهابط المعنوي ولكل منهما مراتب أيضاً: فالمنتخبون وأنبياءٌ كآدم يأخذون طريقهم نحو الصعود في نفس المرتبة الأولى بتلقي الكلمات ويتوبون، وهداية الهداة ومساعدتهم تفتح للجميع طريق الرجوع وتنيره.

هذه الآيات تفيد بوضوح أنّ قصّة التكوين والخلافة والجنّة وهبوط آدم هي حقائق نوعية وعامّة يمثلها القرآن في شخصٍ منتخبٍ، وأوّل [أمر] «اهبطوا» الذي جاء بضمير الجمع، مع العلم بأنّ الضمائر السابقة ذكرت تثنيةً، يشير إلى الهبوط العام، واشتراك الجميع في العلل النفسيّة ومقدمات هذا الهبوط، ولما كان إنجاز كل أمرٍ ودستور اختياريّ، إذاً فالجميع يتخذون هذا الطريق بارادة واختيار، ولو كان الأمر بالقهر والجبر لوجب أن يقال: «أهبطناهم». وجاء في سورة الأعراف في البداية عند ذكره لخلق آدم بصيغة الجمع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ..﴾ وذكر الهبوط الثاني بكلمة «جَميْعاً» لا «جَمْعاً».

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدى ...﴾ يعلن التأكيد في «يأتيَنَّ» وشرط «إمّا» أنّ مجيء الهداة حتم حسب قانون التكوين ومستلزمات الحكمة ومن أجل تدارك الهبوط، ولكن تأثير هدايتهم لها علاقة باستعداد الهابطين وذكائهم واستيعابهم، فإن كانوا قد اتبعوا هداية الهداة فازوا من الهبوط، وعلامة الفوز هي أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، الخوف وهو القلق من المستقبل قد انتفى بالجملة الاسمية: لا خوف عليهم، والحزن وهو على مافات جاء بالجملة الفعليّة: الحزن على أثر الهبوط وفقد النعم والحياة والخيرات والمكانة السابقة لا يدوم ويُتلافى: فحياة الانسان المليئة بالقلق في هذا العالم قائمة بين الخوف

والحزن، وكانّما الانسان ظاهرة كالفقاعة التي تمكث بين أمواج الحزن والقلق، وتحاول التخلص دائماً من بين هذه الأمواج، وما يتمكن من المحافظة على ثبوته وارتياحه هو هذا الاتّباع من أنوار الهدى ليوصله إلى ساحل النجاة أو مصعده الأوّل. وجاء في هاتين الآيتين الأمر بالهبوط والوعد بالصعود مع وجود الفاصل وبشروط: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ...».

يبدو أن الهابطين ثلاث فئات، فئة تستوعب الكلمات في البداية وإيّان هبوطها (الكلمات) فتصدهم عن الهبوط والسقوط النهائي. وهؤلاء هم أصحاب فطرة وعقول قويّة يدركون الحقائق بأنفسهم بدون واسطة، ويدركون من كتاب العالم الساطع كلماتٍ، ويقال لكل منهم بناء على الاصطلاح العلمي «مكتفٍ بالذات» يستمدون من قواهم وثرواتهم الذاتيّة».

الفئة الثانية: أولئك الذين يجدون نور الهدى باستخدام قابليتهم الذاتيّة وعقلهم الباحث عن الحق، ويسلكون طريق الصعود والنجاة من المهبط المليء بالخوف والحزن بمساعدة هداة الحق، ويتمسّكون بالهداية المطلقة «هُدًى» وبالهداية الخاصّة المضافة: «هُدَايَ». والأنبياء المتلقّون هذه الكلمات وتراجم كلمات الربّ وكتاب التكوين ويسلكون طريق الصعود والجنّه بقوّتهم العقليّة، وينقذون الآخرين بالدلالة والتوجيه والتذكير وتشريع الأحكام والحدود والإعلان عن نتائج الأعمال، من اليأس والأنس، والاحتراق والإلتثام في هذه الهوّة المظلمة. وبمجرد أن يقع نظر النفوس المستعدة والفطرة الجاهزة على نور الهداية يشعرون بالهدوء والإطمئنان، وعندما يتمّ هذا الإتّباع على أحسن ما يرام، أثره وعلامته هي الإطمئنان التام وزوال القلق والحزن: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، والإرتياح والأمل بالمستقبل والطريق المستقيم لمثل هذا الإتّباع يملأ مكان الحزن على الأضرار والمصائب الماضيّة شيئاً فشيئاً. والنظر إلى نور الهداية واتّباعُه يتهيّأ للذين لم تعم عقولهم وفطرتهم ظلمات المهبط. ولم تَمْحُ ظروف بيئة التربية قابليّة الاهتداء من نفوسهم، والأشخاص الذين يتبعون اتّباعا تامًا ليزول الخوف والحزن عن نفوسهم وبيئتهم بين المهتدين قليلون، ولذا جاء تأثير الهدى وزوال الخوف

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذكُروا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤١﴾ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤٢﴾ وَلا تَلْبِسُوا ٱلحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَ ٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

معاني المفردات:

ابن : جاء من البناء؛ لأنّه بناء على أساس حياة الأب.

اسرائيل : كلمة عبرية، قيل إنّها مركّبة من «اسر» بمعنى العبد أو المنتخب، و«إيل» بمعنى الله، وهو اسم يعقوب بن اسحق بن ابراهيم. ويقول البعض أنّها تعني القائد المجاهد مع الله. يقول المستر «هوكس» الامريكي صاحب الكتاب المقدس: «اسرائيل: الشخص الذي انتصر على الله» وهو يعقوب بن اسحق الذي اعطي هذا اللقب بعد مصارعته مع الملك الالهي في «فنيئيل». وتُقرأ: اسرال و اسراييل، أيضاً.

الذكر: الإعادة إلى الذهن، إلفات النظر، التلفظ، الشرف، الدعاء، الكتاب الديني.

الوفاء: إنجاز العهد والميثاق والمحافظة عليها.

الرهبة: الخوف مع الخشوع في مقابل العظمة والمؤاخذة.

الثمن: البدل في المعاملة، العوض الأعم، القيمة، القيمة الواقعيّة.

لَبْس: بفتح اللام: التعمية في العمل، خلط الحق بالباطل. وبضم اللام: ارتداء الثوب، المكث، الاستفادة.

الباطل : ما يقابل الحق، الفاسد، العبث.

الكتمان: إخفاء الحق والسرّ الذي يستحق الإظهار.

الركوع: الخشوع، طأطأة الرأس.

انّما خاطب اليهود بكنية «بني اسرائيل» لأجل أن يتذكروا ذلك الأب الكريم عند الله وآباءهم الكرام الآخرين، لَربّما يفيد هذا الاستذكار في إحياء تلك المحبة والصلة والتوحيد والأسلوب والطريقة والنعمة المضافة الموصوفة: «نِعْمتِي الَّتِي...» هي نعمة النبوّة والوحي والشريعة، التي أصبحت مصدر الوحدة والعزّة والراحة والنعم الأخرى. والتذكير هو لأجل أن يقيسوا وضعهم الحاضر بذاك، ويدركون بهذا القياس أسباب تلك العزّة وهذه النكبة.

﴿أوْفُوا بعَهْدِي...﴾ الشرط والإلتزام، الوعد والوعيد بعد الهبوط، عهد الله الخاص الذي تحقق في تاريخ بني اسرائيل، وفي دنيا الهبوط والانحطاط والكفر العام تقدّم هؤلاء في طريق الصعود والرقيّ ووجدوا الأمن ما داموا قد اتبعوا فيه الهُداة، وبمجرد أن جعلوا النظام الالهي آلةً للشهوات والأهواء، وصاروا فرقا وفئات، واجهوا ـ أوّلاً ـ بينهم العداوة والخوف، واستخدموا الطاقات الدينيّة لتحطيم بعضهم البعض، ثم شُنَّ عليهم غضب المجاورين وجعلهم أشتاتاً خاسئين.

المحافظة على عقيدة التوحيد واتّباع الأنبياء عهد اخذه الله منهم ومن كل أمة لها نظام الهيّ في الكتاب وحسب الفطرة والتجارب التاريخيّة. والعزّة والقوة والراحة عهد من الله للموفين بعهد الله.

﴿وإيَّايَ فَارهَبُونِ﴾: إنّ تقديم الضمير المنفصل، وضمير المتكلم المحذوف الذي تدل عليه كسرة النون يفيد الحصر المؤكد: تخوفوا من سلطتي وغضبتي فقط. وعندما تتخوفون من الله وغضبه فقط، و استسلمتم [خاضعين] أمامه يذهب الخوف والحزن (المذكورين في آية الهبوط) عن قلوبكم، وعندما اعتبرتم أنفسكم آمنين من غضب الله وعقابه، وتولّيتم عنه، تعيشون بخوف واستيحاش دائم من كل أحد ومن كل شيء.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ...﴾: أن الايمان بما أنزل [الله] هو أول عهد الله، و«الآية رقم ٣٨، فمن تَبِعَ هُدَايَ» هي نفس عهد الإيمان هذا. الإتّباع الصحيح هو فرع ونتيجة للإيمان، فالأنبياء الذين بعثوا من بين بني اسرائيل وفتحوا عيونهم في الكتاب والوحي،

كانوا سفراء عن الله لتوثيق أواصر عهد الفطرة، إنزال (جعل الشيء في متناول اليد) ما هو أسمى من العقل وادراك الانسان هو دليل الايمان به. جاءت «ما» في «بِمَا أَنْزَلْتُ» والمقصود من ذلك هو القرآن، مبهمة لتدل على أنّ ما تنزّل الآن هو الصورة الكاملة الجامعة لتلك الحقيقة التي نزلت قبل هذا بصور مختلفة. وهذا الايمان هو اصل النعم الأخرى التي تفضّل به الله على بني اسرائيل: «مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ»، وهو هذا القرآن الذي يصدّق نظام السلف، ويحيي مباديء دعوتهم وشرائعهم، ويوصل الحال والمستقبل بالماضي، في الوقت الذي كانت الاوهام والخرافات والأهواء قد سترت وجه دعوة الأنبياء الطاهر ونظامهم الساطع، وكانت علاقة اتباع الدين تنقطع عن أصله أكثر فأكثر، زال الستر عن وجه دعوة الأنبياء ببعثة هذا النبي ونزول هذاالكتاب، واستحكم دين الحق على قواعده، ولو لم يكن تصديق هذا المصدق لم يكن هنالك دليل وبرهان لأديان السلف، ولا اتضحت أصولهم وشرائعهم الحقّة ولا تميّزت.

﴿وَلا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ...﴾: كان من المؤمل في إبان ظهور هذه الرسالة أن يكون اليهود بسابقتهم وتنبّؤاتهم أول المؤمنين، لأنّ المشركين لم تكن لهم سابق معرفة بالنبوّة والشريعة، وكانوا بحالة كفر وشرك، واستمروا على هذه الحال، وكان النصارى بعيدين عن بيئة هذه الدعوة، وكان إيمان اليهود هو المؤمل، وكانوا هم يعيشون بحالة انتظار، وكانوا يحرّضون المشركين لاسيما أهل المدينة على الانتظار ويؤملونهم، وهؤلاء لم يكونوا مؤمنين أولاً ليكونوا أول كافر. وضمير «بِهِ» يعود على «بما» ويشير إلى أن كفركم بما أُنزِلَ هو في الحقيقة كفرٌ بالدين الذي تعتبرون أنفسكم مرتبطين به، في الحقيقة إنّ كفر اليهود وتمرّدهم على الاسلام صار سبب تشتت شعوب العالم وحيرتهم، وضعّف في نفوس الناس دعوة القادة العظام المؤدية إلى الهداية ووحدة الايمان، وماذا أنتجت من آثار سيئة لشعوب العالم!!

﴿وَلا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾: الآيات التي تكون في معرض التجارة هي: الشريعة، الكتاب، المعابد، شعائر الدين الزيّ الديني، التي يجب أن تذكر المخلوقين

بالخالق، وتوصل الناس ببعضهم في رباط الدين الإلهي، وتربّي النفوس، وتثير العقول، هي هذه الآيات، وعندما تكون تحت تصرف عبدة الدنيا تباع في مقابل المال والهوى.

قيمة هذه الآيات تساوي قيمة نفوس الناس التي هي أغلى من كل شيء، وتوضع كالبضاعة التافهة في سوق عبدة الدنيا على يد مثل هؤلاء الناس، وعندما تتحول آيات الله ودينه إلى بضاعة وآلات معيشة، يكون نتيجة هذا الأمر الجهل والظلم والتشتت، وتفقد ميزتها الأصلية، وتكون ـ بالنسبة إلى بعض الناس ـ سبب تنفّر وابتعاد. وفي هذه المعاملة، يكون الدين ونظام الأنبياء ـ في مقابل الأهواء ـ بشكل آخر، ويرتدّ الناس عنه، وتتضرر القابليات البشريّة أيضاً، وتزول المعلومات والادراكات الفطريّة. يجب أن يكونوا منتبهين إلى أنّهم يحصلون على أشياء تافهة وقليلة في مقابل فقدهم لهذه الثروات المعنوية [الطائلة]. إنّ الذين يضعون جواهر الآيات في معرض البيع والشراء أناس ضعفاء قد فقدوا شخصيّاتهم في مقابل الأقوياء وأهل الدنيا، ومهما ازاداد خوف أهل الدنيا في قلوبهم يغفلون عن الله وعقابه بصورة أكثر، ومهما ازداد التفكير في عقاب الله عندهم، يقل الخوف وفقدان الشخصيّة في مقابل مظاهر الشهوات وسلطة الدنيا لديهم. ولهذا السبب قال في الختام على سبيل الحصر: «وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ»، ومعنى التقوى ـ كما قيل ـ هو التخوف والحذر، وتختلف عن الرهبة.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ...﴾: لأنّ الحق هو الحقيقة الثابتة الواقعة، وهو بنفسه لا يخفى على العقول، ولكن عندما يمتزج بالباطل يمكن كتمانه وإخفاؤه عن انظار العامة. وصرف الاذهان عنه، ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «فَلَوْ أَنَّ الباطِلَ خَلَصَ من مِزاجِ الحَقّ لم يَخْفَ عَلَى المُرتادين، وَلَوْ أَنَّ الحقَّ خَلَصَ مِن لَبس الباطل، انقطعت عنه أَلسُنُ المعاندين، ولكن يؤخَذ من هذا ضِغْثٌ، ومن هذا ضِغْثٌ، فيُمزجان! فهنالِك يستولي الشيطان على أوليائِهِ، وينجوا الذين سبَقت لهم من الله الحسنى»[1].

---

١) نهج البلاغة (شرح الشيخ محمد عبده) ١ / ٩٩ استخرجت النص بدل الترجمة. (الترجمان).

يمكن إخفاء الحق بمزجه مع الباطل ولبسه، ويمكن كتمان الحق بإخفائه في لباس الباطل (بناءً على أنّ المقصود من «اللبس» هو الستر والاخفاء)، والاحتمال الآخر في الآية هو أنّه: لا تزينوا الباطل بلباس الحق، ولكن هذا الاحتمال لا يتفق ومعنى الكتمان.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ...﴾: بعد الأمر بثلاثة أمور: بتذكر النعمة، الوفاء بالعهد، والإيمان بما أنزل، وثلاثة نواهٍ: ألّا يكونوا أول كافر، الّا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ولا يلبسوا الحق بالباطل، أمر بالعمل بهذه الأمور الثلاث: إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، والركوع مع الراكعين. وكأنما هذه الأوامر الثلاثة هي الدعوة العملية لجميع الأنبياء: إقامة الصلاة إقامة القوى النفسيّة واستخدامها والصلة بالله (تراجع الآية الثالثة).

إيتاء الزكاة هو صلة النفوس عن طريق إعطاء المال في سبيل الله، وعلى اثر مثل هذه الرابطة المالية يرتبط الأفراد والطبقات مع بعضهم ويسلكون طريق الرشد والطهارة والاصلاح: «الزكاة: نموّ الزرع، الصلاح والنعمة، طهارة الأرض»، وحقيقة «الصلاة» وروحها هي التي تكون سبب مثل هذه الرابطة، رابطة الرحمة والخير مع الناس، وهذه الحقيقة كانت بصور مختلفة في شرائع جميع الأنبياء، وبمثل هذه الرابطة بين الله والناس يقفون صفّاً واحداً فيأتي الأمر الثالث: اركعوا مع الراكعين، كونوا في هذا الصفّ، وارتبطوا بهذا الحزب، ولا تنفصلوا عنهم. شعار هذا الحزب وعنوانه الخضوع الجماعي أمام الحق، أو المقصود من الركوع هو الصلاة: كونوا جميعاً في صفّ العبادة الجامع للمسلمين: لأن صورة الصلاة تظهر بالركوع، ويتضح بإنجاز الركوع بان الشخص في حال الصلاة، والركوع ركن مهمّ في الصلاة، ولهذا يقال لفصول الصلاة ركعات (لاقيامات ولا سجدات)، فالمصلّي بعدما ينصرف عن الغير والتذكر، بمجرد أن يدرك العظمة يُطأطئ برأسه أمامها. وكأنما هذه الجملة هي دعوة القرآن العامة؛ ليكون جميع الناس الذين يخضعون امام الله وأوامره صفّاً واحداً. وباتّساع معنى الركوع فأنّه يشمل جميع الموجودات من عالم العقول والنفوس والطبيعة (كالتسبيح: إنْ مِنْ شيء إلّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ): فالانسان يتناسق مع جميع العوالم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنّ جميع الموجودات مرتبطة بالخالق من جهة،

ويمدوّن المخلوقين ويخضعون أمام المبدأ ويطيعون أوامره من جهة أخرى.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ إِلاّ عَلَى الخَاشِعِيْنَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

معاني المفردات:

الهمزة : للتقريع والتقرير والتعجب.

البرّ: الاحسان، حب الخير، بالفتح: الصحراء، الفضاء الواسع [مقابل البحر]، وبالضمّ: القمح، النمو والسعة. إذاً بالكسر هو ذلك الإحسان وحب الخير الذي يكون بسبب سعة الصدر والهمّة العالية، يقال: فلان لا يميّز الهِرّ من البِرّ، أي أنّه لا يميز الذي يطرده ويسيء اليه من الذي يحسن اليه.

يقول المازني: الهِرّ القطّ، والبِرّ: الفأرة وأمثالها.

النسيان: زوال ما كان يعرفه عن الذاكرة، السهو حول المعلوم وغير المعلوم.

تتلون: من تَلا: عقَّبَ. التِلاوة: القراءة بصورة متتالية.

العقل: في الاصل الصدّ والكفّ، العقال، ما يعقل به ركبّة الجمل، والعقل في عرف الحكماء على نوعين: العقل النظري والعقل العملي.

الاستعانة: طلب المساعدة والعون.

صَبَرَ: «على وزن فعل» أقدم وجُرأ على، امتنع عن، منع الدابّة، وكفّ نفسه عن الرغائب النفسيّة.

الخشوع: الخضوع، يقال غالباً بالنسبة للقلب والباطن والعين، والخضوع يقال بالنسبة للجوارح والأعضاء.

الظن: حالة بين الشك والعلم، التصديق، العلم، مايمر في الذهن، ويسيطر على القلب،

مقابل اليقين.

الملاقاة: التواصل، المقابلة، الإتصال بـ اتصال الخطين.

الرجوع: العودة الى الحال والوضع الأوّل.

إنّ ظاهر هذه الآيات خطاب لجميع بني اسرائيل، وأغلب مواضيعها تعود لقادتهم الدينيين، ومفهوم الآيات له شمول وعموميّة. هذه الآية: «أتأمرون الناس...» جاءت بعد تلك الأوامر والنواهي تقريعاً وتوبيخاً لعلمائهم الذين كانت لهم مثل هذه الشخصيّة المزدوجة، وكأنّما هم موجودان: الأول: عقلٌ إيماني محبٌّ للخير، والآخر نفسٌ تابعةٌ للهوى، يدعون الناس بذاك للخير والصلاح، وينسون أنفسهم بطغيان الأهواء. مع العلم بأنّ تربية الدين هي من أجل إخضاع النفس لأوامر العقل الايماني، ثم دعوة الأخرين لما دعوا أنفسهم اليه، والطلب من الناس ما هم عليه، لا أنّهم يفكرون في خير الناس وشرّهم، ويزنون أعمالهم بميزان الدين، ويغفلون عن أنفسهم وزنة أعمالهم، ومالم يكن الشخص خبيراً وبصيراً بنفسه لم يكن خبيراً وبصيراً بأمور الآخرين:

تقدّمت بالجهل هذا عليك	مراحل والسبقُ قدتمَّ لي
فأنت بغيرك لا علم لك	وإني بنفسي لا علم لي[1]

والسرّ النفسيّ لمثل هذه الدعوة لم يكن سوى استعطاف الناس، وجعل أوامر الدين ونواهية آلةً للعيش. الانسان الباحث عن النفع، وتأتي حركته نحو كل عمل من الغرائز، ويبحث عن النفع وما يلائم الغرائز والشهوات من كل طريق، إنْ لم يجعله الإيمان والتربية الدينية بوضع أفضل يتخذ أحد طرق الحياة، وربّما كان أسهل الطرق لهذه الرغبات هو طريق جذب عواطف الناس الدينية، وهذا هو نفس بيع آيات الله بثمن الدنيا الذي يؤدي إلى الضرر النفسي والعقلي والحيويّ. بناءً على هذا فإنّ الواو في «وَتَنْسَوْنَ...» عاطفة، وكلا الموضوعين موضع تقريع: من أنّكم بهذا العمل والاخلاق ـ حبّ الدنيا، وبيع الآيات، ومزج الحق بالباطل ـ تدعون الناس الى الخير، وتنسون أنفسكم. واذا كانت هذه الواو

١) ترجمت البيت الفارسي. (الترجمان).

بمعنى «مع» أو «حاليّة» يكون التقريع من جهة «تَنْسَوْنَ»: من أنّكم تـدعون الآخـرين للخير مع أنكم ـ أو ـ بينما أنتم غافلون عن أنفسكم؛ لأنّ الأمر بالخير هو بنفسه عمل جيّد صالح ومقبول.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ...﴾: هذه الواو أيضاً تكون بمعنى «مع» أو حاليّة: إمّا أنكـم حال‌كونكم تقرأون الكتاب بصورة متتالية، ذلك الكـتاب الذي يـدعو الجـميع للـخير واصلاح النفس دائماً، ويوقظ الشعور الفطري. أو إنّكم تبادرون بتلاوة الكـتاب فـقط، فلماذا لا تتفهموه؟ بناء على العطف، مثل هذه التلاوة بدون تدبر وتعقل تكـون مـوضع تقريع. ويكون الكتاب مفعولاً مقدراً لـ«تَعْقِلونَ». بناءً على الاول (اذا كانت الواو بمعنى مع أو حالية) تكون «أَفَلا تَعْقِلُونَ» تقريعاً بالنسبة للأمـر بـالخير والغـفلة عـن النـفس. ومفعولها عامٌ، أي إنّ عملكم هذا ليس بعمل الناس الذين يـتعقلون الأمـور ويـفكرون بصورة صحيحة.

مثل هؤلاء الناس كالمريض الذي يبادر بمعالجة الآخرين، أو الجـائع الذي يـدعو الآخرين الى الشبع، أو صاحب المصباح الذي ينير الطريق للآخرين، وهو يتنكّب الطريق في الظلمات.

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَ...﴾: الاستعانة وطلب المساعدة في مقابل قوّة العدوّ وصفّه وهجومه. وإن كان في ظاهر هذه الآيات لم يبد ميدان حرب وجهاد، ولكن من خـلال المعاني والاشارات يشاهد ميدان حرب رهيبة، والحروب الخارجيّة شرارة وأثـر لهـذه الحروب الباطنيّة، وانتصارها واندحارها هما أثر ونتيجة للانتصار والاندحار في تـلك الحروب النفسيّة، الحرب الناشبة بين العقيدة والايمان [مـن جـهة] والأهـواء النـفسيّة والعصبيات وحبّ الجاه والظهور [من جهة أخرى]. تلك العقيدة والإيمان اللـذان هـما حصيلتنا الوراثة والتقليد، لا على أثر البرهان والفهم الصحيح.

لهذه العوامل النفسيّة قلاعٌ ومتارس محصنة وصفوف مجهزة في مـقابل مـثل هـذا الإيمان والعقيدة إلى حيث تسلم الميدان إلى حكم الإيمان وحكومته، وتخضع لأوامره

على أن تبقى قلاع الأهواء والشهوات على حالها. إنّ تذكر النعمة، والوفاء بـعهد اللـه، والخوف منه وحده، وابداء الحق كما هو، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكـاة، والركـوع مـع الراكعين، والعمل بما يعرف ويقوله للآخرين، وعدم الغفلة عن نفسه، هذه نماذج حكومة الإيمان التامّة على النفوس. الآمال والأهواء النفسيّة المتضادة تريد أن تأخذ بيدها أزمّة المراكز النفسيّة لهذه الأمور بصورة أكثر، لتذهب الأهواء بالنعم من الأذهان، والأمنيات تضعف العهود وتجعلها بلا أساس، والقلعة تدحر الارادة، وتملأ القلب بالخوف والهلع من أجل الدنيا... وشرط الانتصار وسببه في ميادين الحرب الخارجية هو الإنتصار في هذه الحرب النفسيّة الباطنيّة. والسلاح والجيش واسطة محدودة لايضمنان الظفر النـهائي[١] ومن أجل أن يسود الإيمان الفطري، أو الوراثي والتقليدي على هذه العوامـل النـفسيّة وينفذ أمره، يجب أن يأتيه المدد من «الصبْر والصلاة»: إذاً هذا الصبر لا يعني الاستسلام وعدم الأنين كما يظنه العامّة من الناس، ولاغضّ النظر عن الحوادث و(اللامبالاة). الصبر هو سلطة الارادة الإيمانيّة وسيطرتها على الانفعالات النفسيّة التـي مـصدرها الآمـال والأمنيات الخارجة عن النفس، وكلما كان الهدف ومنظر الذهن أسـمى، كـانت القـوّة والمقاومة بوجه العوامل النفسيّة أكثر، كما أنّ مقصد السالكين كلما كـان أبـعد، كـانت مصاعب الطريق أسهل.

فالصلاة تفتح عين العقل، وتجديد للعهد والاستمداد من المبدأ. هذه الصلاة التي تزيد الصبر طاقة، وتسود العوامل النفسيّة والانفعالات، ما أصعبها وأثقلها، (وبهذا البيان يتضح عود الضمير في «إنَّها» على الصلاة، والبحث عن موضع آخر أمر تافه) هذا الثقل عـلى الذين تحدّد مجال نظرتهم الذهنيّة، وقد أخذتهم الدنيا ومناظرها الى درجة أنهم فـقدوا شخصيتهم بالغرور. وتعطلت قابلياتهم الباطنية، فالذين لم يكونوا هكذا وهم خاشعون

---

١) ترك جمع من المسلمين في غزوة أحد مترس العقيدة والقيادة في مقابل الطـمع وحب المـال. فـفقدوا مترس ربيئتهم وكنانتهم، وأصيبوا بالاندحار. وربّما كان في هذا المورد حين قال رسول الله ﷺ :ـ«عليكم بالجهاد الاكبر، وهو جهادك مع نفسك التي بين جنبيك».

يكون الصبر والصلاة عليهم أمراً سهلاً وخفيفاً.

﴿الذينَ يَظُنُّونَ...﴾: يرى البعض الظن هنا بمعنى التصديق واليقين، ولم يلتفتوا إلى أنّ الظن في هذا المورد هو أبلغ من اليقين؛ لأنّ الظن بملاقاة الرب يؤدي الى الخشوع والقلق أيضاً، فكيف باليقين، كما أن كل قلق وأمل وتحرك وحماس يقوم من الظن. وهو تقريع بالنسبة للمخاطبين بهذه الآيات من أنهم لو كان لهم ظنّ بملاقاة الربّ، كان عليهم الا يكونوا كذلك، فكيف بهم وهم يعتبرون أنفسهم أهل تصديق ويقين. ويشير إلى أنّ الموضوع أسمى من اهتمام الانسان الفكري وادراكه الذهني؛ إذاً كلما شعّ من هذه الحقيقة على ذهن الانسان، لما لم يكن واقعه وكامله موجوداً فهو ظن من جهة الواقع، وعلائم ومقدمات لذلك الواقع.

ان مقدمة قابليات تكامل الموجودات واستيعاب الصورة النوعية العليا وعللها هي هذا الخشوع والاستعداد، والموجود الذي يتوقّف في نفس تلك الصورة والوجود الأول، لا يستحق تلقي صورة أكمل ويفقد التطوّر، ويغلق على نفسه بهذا التحجر أبواب إفاضة الكمال، والانسان أيضاً إذا لم يخشع بارادة واختيار أمام قدرة القهّار، لا تفتح بوجهه ابواب الخير والرحمة.

لم يكن اللقاء رؤية ـ كما يظن البعض ـ ولو نظرت شخصية من ذوي المناصب لم تقل: التقيت به وعندما ينفتح الباب بوجهك، وزال المانع ودخلت عليه، تقول: إلتقيت به حتى لو كنت أعمى.

إنّ خبر هذا اللقاء في جميع آيات القرآن أو في أغلبها مضاف إلى الربّ، لا الى الله، الذي هو عنوان لحقيقة المحيط الاعلى اللامتناهي، ولا أوصافه الأخرى. اذاً المقصود هو اللقاء والوصول إلى الربوبيّة الخاصّة وظهورها الكامل؛ لأن قابلية التربية والكمال في الانسان غير متناهية، وربوبيّة الله أيضاً غير متناهية، وما لم يكن الخشوع في كل مرتبة لا ينال الكمال والربوبية العليا.

والظن باللقاء ربما يتضمن التشبيه: كخشوع المستعد للمقابلة دائماً وتهيئة نفسه. اذاً

السمو وتفتح النظر هو الذي يزيل ستار الغرور وقصر النظر، وتظلل العظمة والقوّة على الفكر، وعندئذ يرى الانسان نفسه تافهاً وصغيراً، أو يفقد نفسه بالمرة أمامها.

يظهر هذا الادراك والشعور في حال الصلاة التـي هـي خشـوع البـاطن وخـضوع الجوارح، وكل مقدماتها ومقارناتها وأجزائها وأركانها من قبلة وطهارة، وتكبير وسكون، والاتجاه في جهة واحدة، والركوع والسجود، تمثل هذا الخشوع وجذب البـاطن، ثـم الصبر والاطمئنان والاستقرار.

جاء في الرواية: عندما كان رسول الله وأمير المـؤمنين ـ صـلوات اللـه عـليهما ـ يواجهان صعوبة أو أمراً مخوفاً، كانا يقفان للصلاة.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٨) وَاتَّقُواْ يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٩)﴾.

معاني المفردات:

الفضل: الزيادة في الخير، ما تبقى، التفوّق.

مجزي : به، وعليه، عنه: كافأ الشخص به، كان بمكانه، جعله غير محتاج.

الشفاعة: من الشفع: الضمّ، ضم فرد إلى فرد يناسبه. (الذي يشفع لمجرم يضم اعتبار نفسه لذلك المجرم، وكأنّما وهب له اعتباراً وماء وجه نفسه).

العدِل، بالكسر: المثل، القيمة، طرف الحمل والثقل، والعدل بالفتح: في مقابل الظلم، الاعتدال في الحياة، المماثل.

تكرّر الخطاب لبني اسرائيل والتذكير بالنعمة الخاصّة مرّتين، ليكون بداية بيان النعم وعناية الله الخاصّة بالنسبة لهم. ففي الخطاب الأول جاء التذكير بالنعم وطلب الوفـاء بالعهد، ذلك العهد الذي كان مصدر نعم الله الخاصّة، والآيات التي تلت الخطاب الاول

تفصيلٌ لذلك العهد الخاص المجمل وبيانه وهو الإيمان والإتّباع، وجاء في هذا الخطاب التذكير والإلتفات إلى النعم التي أدّت إلى تفضيل بني اسرائيل. والآيات التالية أيضاً تفصيل وبيان لنماذج من هذا التفضيل والطاف الله، والصفح في مقابل زَلَلِهم وتمرّدهم وكفرانهم النعم، إنّ الله فضَّل بني اسرائيل بنعمة الهداية في دنيا الضلال، والتوحيد في دنيا الشرك، ونور الإيمان في دنيا الجهل والظلام، والقوانين والشرائع في عالم الفوضى والتوحش، والارتباط في دنيا الانفصام [والانفصال].

هذه خلاصة بعثة الأنبياء ودعوتهم، الذين قام اكثرهم من بين بني اسرائيل. ولم يقدّر بنو اسرائيل هذا التفضيل: فبدّلوا التوحيد بالشرك، والإيمان بالكفر، وانشغلوا بالمراسيم والتشريفات التي تبعث على الغرور، بدلاً من العمل الصالح وتنفيذ أحكام الشريعة، وحوّلوا الدين الإلهيّ العام إلى امتيازات قوميّة، ومزجوها بأوهام الشعوب المجاورة والمعاشرة، وبادروا إلى تربية الآمال والامنيات التي لا أساس لها، بدلاً من التقوى والقلق من آلاثار و الأعمال واليوم الآخر، حتى أصبحت عقيدتهم العامّة هي أن شعوب الدنيا مهما كانوا فهم أهل جهنم وعذاب، ونحن مهما كنّا أهل جنة ونعيم، والأنبياء والعظماء الذين قاموا من بيننا هم الذين يشفعون لنا ويدافعون عنّا. هذه الأوهام والعقائد التي لا أساس لها هي نفس أوهام المصريّين وشعوب دنيا ذلك العصر الأخرى، والتي ظهرت بين بني اسرائيل بصورة أخرى. كان الإيمان الفطري بالبقاء مختلطاً بالرسوم والعادات المتداولة في الدنيا وأجهزة الأقوياء هو الذي صار مصدر مثل هذه الاوهام؛ ولذا كانوا يرفقون الاموات بنماذج من آلات القوة والدفاع: مثل جواهر الأبطال الثمينة، الأسلحة، والأصنام ليخلص الميّت المذنب نفسه في الدار الآخرة بما يقتضيه الحال من هذه الآلات، وإذا لم تنفع الجواهر والأموال والسلاح، يستشفع بالأصنام الصغيرة لدى الإلٰه العظيم.

نفت هذه الآية مثل هذه الأوهام نفياً باتاً، وفصلت حساب الآخرة عما هو متداول في الدنيا،: فالمذنب والمجرم في الدنيا يتوسّل أوّلاً باعتباره ضمان، فإن لم يؤثر ذلك،

يستشفع بشخص وجيه، ثم يجعل المال والفدية وسيلة، فإن لم تؤثر هذه الأمور، فإن تمكن استعان بقومه وجماعته.

﴿وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ..﴾: انتفت الشفاعة في الآية بصورة نهائية، لأنّ ما في الاصطلاح تدل النكرة في سياق النفي على العموم لاسيما في هذا المورد الذي هو في وصف اليوم: اي لا شفاعة أبداً، وكل شخص مسؤول عن نفسه وأعماله. وفي بعض الآيات جاءت الشفاعة المطلقة خاصّة بالله، مثل: ﴿مَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيْعٍ﴾، ﴿قُلْ لِلّهِ الشفاعَةُ جَمِيْعاً﴾.

وفي بعض الآيات جاءت الشفاعة لغير الله مشروطة بالاذن والرضا والشهادة والعهد: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلّا بِإِذنِهِ﴾، ﴿مَا مِنْ شَفِيْعٍ إلّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، ﴿لا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَنِ اَرْتَضَى﴾، ﴿إلّا مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ﴾، ﴿إلّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾، ﴿إلّا من أذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾، وسلب في هذه الآيات حقّ الشفاعة المطلقة من غير الله.

الشفاعة في الدنيا وفي نظر العرف العام هي أن الشفيع يحرّض الحاكم على العفو، ويغير ارادته حول المجرم. إذاً يتقدم السؤال: كيف يتغير رأي الحاكم العادل بواسطة الشفاعة؟ والحاكم الظالم المستبد هو الذي تتغيّر ارادته وحكمه كيفما تقتضي مصلحته، وعذاب المجرم في الآخرة لمّا كان موافقاً للعدل الإلهي، فالصفح عنه يخالف العدل. مع العلم بأنّ حكم الله وارادته هي نفس الحكمة وسنّته الحتميّة لا تقبل التغيير، كما تصرّح آيات من القرآن بعدم تغيير سنة الله وارادته. ثم إنّ فتح باب الشفاعة يضعف الدين والشريعة في نظر العامة، وتتغيّر الأحكام. وهذا يخالف حكمة بعثة الأنبياء وتشريع الشرائع، بل هو مصدر الاختلال في النظام، ويكون سبب أشاعة الذنب، كما يشاهد في بعض الشعوب المغرورة بهذه الأمنية، وربما كان ذنب مثل هؤلاء المغرورين ونقضهم للاحكام اكثر من الذين لا يسودهم الدين بل يسودهم الوجدان والقوانين، لأنّهم يحطّمون سدّ الوجدان وحدود الدين باستنادهم وأملهم بشفاعة الشافعين، ويلوثون أنفسهم بأيّ

ذنب كان، ويتخلفون عن أيّ اقدام نحو الخير والصلاح والاصلاح.

ومن جهة أخرى فإنّ الخيبة واليأس يدفعان المجرم والمذنب الى جرم وذنب أكثر، ولكن التوبة التي هي رجوع وانقلاب وتحوّل تام لم تكن هيّنة للجميع بالمرّة، إلّا أنْ يكون الرجاء بعون الله ومدده وبخلفائه ليعدّوا المذنب للتوبة شيئاً فشيئاً، ويصدّوه ـ بين الخوف والرجاء ـ من اليأس والاستسلام للشرّ والغرور والجموح عن الخير. إذاً أصل الشفاعة محدودة، والبشارة بها أصل من أصول الرحمة والتربية، والقرآن الكريم أيضاً نفاها بصورة مطلقة وفقا لهذا الأصل، ووعد بها في حدود الإذن والرضا، وروايات الشفاعة أيضاً جاءت مشروطة محدودة.

يجب أن يكون أصل الشفاعة مثل قوانين وأصول الجاذبية والحركة والسرعة مشمولة بشروط وحدود، فالجسم المجذوب إذا لم يكن ضمن حدود تأثير قوّة الجاذبية أو ضمن ميدان التشعشع المغناطيسيّ، لم تشمله جاذبية رحمة القوّة العليا، وبمجرّد أن يكون ضمن إطار قوّةالجاذبيّة ينجو من السقوط والإنحراف، إمّا أن يكون في مدار ومركز الجاذبيّة، أو يتّجه نحوها بسرعة تصاعديّة. كما أن جسم الإنسان كسائر الأجسام الاخرى يتبع القوانين والقوى العالميّة، والنفس الانسانيّة وباطنه أيضاً يجب أن تخضع لمثل هذه القوانين حسب تطابق العوالم: فلو أنّ الآثار الباقية من الإيمان والعمل الصالح تجعل النفس الانسانيّة الملوّثة داخل حدود جاذبية الحق العامة وأشعته، وان كانت مثقلة بالذنب والتلوّث، تنضم إليها قوى الخير العليا وتشفع لها، وتجتذبها لنفسها اكثر مما تستحق، وتطهرها من جِرم الذنب والظلام، واذا صدّ تكرار الذنب فطرة الانسان من الحركة نحو الخير والحق، وأبعده عن حدود جاذبيّته، لا تشمله الرحمة. وبهذا الميزان يمكن جمع جميع الآيات والروايات المختلفة الواردة في الشفاعة، والإطلاع على رأيها الجامع.

وتشير مجموع الروايات الواردة حول الشفاعة لهذا الميزان. كما ورد في «الكافي» عن الامام الصادقعليه السلام في رسالة بعثها لأصحابه: «... واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله

أحدٌ من خلقه، لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، ولا مَن دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه...»[1].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٥٠) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥١) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥٢) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٣)﴾.

معاني المفردات:

النجاء: العجلة، السبق، التكلم بهدوء، قطع الشجرة، والتخلص من شرّ.

آل : يقال إنّ الآل والأهل معناهما واحد، كما أنّ تصغير آل «أُهَيْلٌ»، وتستعمل لنسبة الفخر والشرف إلى الشخص، وأهل أعم منها، كما يقال: أهل المدينة، وأهل الفساد وأمثال ذلك. ولا تنسب آل لمثل هذه الاشياء، وربما كانت آل من آلَ بمعنى الفعل ولفظه، يعني رجع واتّصل.

فرعون: الاسم العام لملوك مصر، كما أنّه كانوا يقولون [لكل واحد من] ملوك الروم «قيصر»، ولملوك ايران «كسرى»، والترك «خاقان».

سَامَ: بالمعنى اللازم: ذهاب الأنعام الى المرعى، حوم الطير على شيء ما. متعدٍّ لمفعولٍ واحد: عرض المشتري البضاعة، وذكر ثمنها، ومتعدٍّ لمفعولين: التحريض على أمر صعب، و الإذلال.

السوء: القبيح، الشرّ.

البلاء: الامتحان بالخير والشرّ.

---

١) استخرجت نص الحديث من كتاب الكافي : ٨/١١. الترجمان.

واعد: القرار بين شخصين [أو أكثر]، والميعاد: زمان أو مكان الوعد.

موسى: يقال مركب من كلمتين قبطيتين فصارتا عَلَماً: مُو: ماء. سا: شجرة؛ لأن موسى إلتقط من الماء وبجانب شجرة.

العجل: ولد البقرة، ويمكن أن يكون من العجلة، وهي من صفات العجل.

العفو: من عفا الريح الأثر. إزالة اثار الذنب ولوازمه.

أعادت إلى الأذهان هذه الآيات الأدوار المليئة بالمصاعب والآلام والذلّ لبني اسرائيل حتى ظهور موسى، وخلاصهم وخروجهم من مصر، واجتيازهم البحر، وغرق الفرعونيّين، ورجوعهم إلى عبادة العجل، والعفو عنهم: تُعرَض في مفردات هذه الآيات وحملها قصص بني إسرائيل المليئة بالأحداث وأوضاعهم النفسية وتطوّراتهم المعنويّة، وحركات الصعود والهبوط، وتقدّمهم وتخلفهم، كاللوحات الفنيّة والصفحات الحيّة أمام أعين الناظرين بعد مضيّ قرون وقرون: إنّ جملة: «نَجّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرعَونَ»بوزن تفعيل (الذي يأتي للتدريج والتكثير) وحركات الفتحات والنسبة إلى جمع المتكلم «نا»، واتصال الفعل بـ«مِنْ آلِ» تصوّر لنا صفحةً من تاريخ بني اسرائيل: وكأنما ننظر عن كثب: كيف يسعون من أجل خلاصهم من سجون جهاز فرعون ومرتزقته، وتحت مخالب ظلمهم، فتكون آمالهم ومساعيهم ومجاهداتهم موضع عناية الله ولطفه: ويفصمون هذه القيود الواحد تلو الآخر بتقويّة معنويّاتهم وبعثة موسى، إلى أنْ يتخلصوا في النهاية «نَجَّيْناكُمْ».

وجملة «يَسُوْمُوْنكُمْ» هي شرح وجواب لكيفيّة ابتلائهم: وماذا كان يعمل الفرعونيون معهم حتى وصل إليهم مثل هذه الأمداد الإلهيّة لنجاتهم؟ انّ هذا التعبير «يَسُوْمُونَكُمْ...» يعبّر عن أنواع العذاب الذي كان يحيط بهم من كل جانب ومكان، ويشن عليهم غارته بدون قيد أو شرط، وكان في كل يوم يحوم على رؤوسهم نوع من البلاء، وفي كلّ مدّةٍ يسفر أمام عيونهم وجه موحش قبيح لعذاب جديد: إنّ كلمة «يَسُوْمُونَكُمْ» والتعبير بـ«سُوْءَ العذابِ» هنا يجعل السامع مهتّماً متسائلاً عن ماهيّة العذاب وكيفيّته، فيذكر للمثال

نوعاً من عذابهم الأليم ـ من باب بيان المصداق، وذكر الخاص بعد العام: «يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ...» وكان هذا العمل من أجل الحدّ عن ازدياد نسلهم، وابتلاء بقية الرجال بالنساء الأرامل، والوقوف على أوضاعهنّ المضطربة؛ لينحدروا ـ تلقائياً ـ لكل عمل وضيع. وهذا نموذج لاشدّ ذلّة وعذاب.

ثمّ يبيّن القرآن نتيجة عامّة ونهائيّة لهذه الابتلاءات والنجاة وذلك العذاب الأليم: الذي كان امتحاناً عظيماً من ناحية تربيتهم وقياس استعداد بقائهم، ومكافحتهم وصبرهم:

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

«أوّل شخص جاء إلى مصر من بني اسرائيل هو النبيّ يوسف بن يعقوب. (كما ذكر القرآن أيضاً قصة المجيء به الى مصر) ثم التحق به أبوه وإخوته، أبناء يعقوب الذين كانت لهم دماء طاهرة وابدان سالمة وكانوا مترعرعين في الصحراء، بمجرد أنْ واجهوا الراحة والارتياح في مصر ازداد نسلهم بحيث بلغ عددهم خلال أربعمائة سنة «منذ دخولهم الى مصر وخروجهم منها» ستمائة ألف نسمة: وازدياد هذه الأقليّة المتحدة المتعصبة القوية أقلقت فرعون، مما دفع به إلى سوقهم إلى الأعمال الشاقة كنحت الصخور وحملها لبناء الهياكل والقصور الفرعونيّة من أجل إذلالهم وإبادة نسلهم، ولما كان بنواسرائيل يعتبرون أنفسهم أحبّاء الله وطائفته، وكانوا يأملون النجاة دائماً، ويحافظون على عاداتهم وخصالهم وقوميتهم، لم تتمكن هذه الضغوط من الإطاحة بهم؛ لأنّ القوّة المعنوية والأمل يقويان الجسم ويجعلان النفس ثابتة بوجه الضغط والمشقّة، ولما رأى الفرعونيون هذا الصبر والثبات من بني اسرائيل، ولم يتمكنوا من إبادتهم من هذا الطريق، بادروا إلى ذبح ما يولد من أبنائهم، الى درجة أن القابلات كنّ مأمورات بخنق الوليد من بني اسرائيل بمجرد أن يفتح عينه للنور حالاً، أو يسلمنه بيد جلاوزة فرعون لذبحه (والمشهور عن سبب مجازر فرعون هذه من اليهود وهو تنبّؤ الكهنة والمنجمين ليس له سند صحيح، وما قيل يطابق أسلوب المستبدين والتاريخ، وأخلاق اليهود ونفسيّاتهم).

كانت كلمة «فرعون» لقب يلقب به جميع سلاطين مصر المستبدين، كما أن لقب

جميع ملوك ايران «كسرى»، وملوك الروم «قيصر»، وملوك الترك «خاقان». وهذه كانت الطريقة للملوك المعاصرين لبني اسرائيل وسياستهم معهم، وربّما كان القرآن لهذا السبب نسب هذا العذاب إلى آل فرعون، وبيّن ذلك بصيغة المضارع الدالّة على الاستمرار: «يَسُومُوْنَكُمْ». ويستفاد من التاريخ أنّ آخر فرعون ولد موسى في زمانه، وترعرع في قصره، ثم أنقذ بني اسرائيل هو «رعمسيس الثاني» الذي تسلم زمام الأمور بعد أبيه «سيتي الأوّل» سنة ١٢٨٨ قبل الميلاد، وعاش سبعاً وستين (٦٧) عاماً.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ...﴾: هذا بداية فصل آخر وصفحة أخرى من تاريخ بني اسرائيل وقد عرضها القرآن أمام عيونهم بعد الصفحة الأولى: يظهر في عبارات هذه الآية وحركات رجال بني اسرائيل ونسائهم وكبارهم وصغارهم خارجين من مصر خلف موسى بضجّة مشوبة بالقلق والسرور حتى يصلوا إلى ساحل البحر، أمامهم أمواج البحر، وخلفهم الفرعونيون المسارعون، يرون أنفسهم بين خطرين، متحيّرين، يبحثون عن محيصٍ، ماذا يعملون؟

يرجعون فيعتذروا من فرعون، يريدون أن يتمرّدوا على قائدهم موسى الذي جرّهم إلى هذا الطريق، فجأةً انفلق البحر أمامهم، وهجموا نحو الساحل الشرقي يتقدمهم موسى، ولم يمض الوقت حتى طلعوا من ذلك الجانب، فأسرع فرعون وجنودهم خلفهم، والأمواج أيضاً أسرعت نحوهم، وجرّتهم إلى قعر البحر! فبُهت بنو اسرئيل الواقفون على ساحل البحر ينظرون: أنّ سلطة فرعون وكبرياءه أنمحت كالفقاعة أمام سلطة التكوين السرمديّة، وخمد صوته واصوات جنوده في وسط دَوَرَان المياه. تعرض الآية حركات موسى وفرعون وأتباعهما وتلاطم البحر مع العوامل الباطنية والتغييرات النفسيّة: «إِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ» ونسبة الفعل إلى جمع المتكلم «نا» والباء السببيّة تشير إلى الأسباب والعلل الإلهية وصلتها بالعلل النفسيّة: عندما أبديتم ـ يا بني اسرائيل ـ استعداداً من أنفسكم، واتبعتم موسى، وأردتم الخلاص من قيود التعلق بمصر التي هي قيود عبوديتكم وذلتكم، واستيقظ فيكم الشعور بعزة التوحيد، سارع مددنا لنجاتكم، سهلت الصعوبات، واجتزتم

من بين أمواج البحر: «أَنْجَيْناكُمْ» بمعنى الفعل وصيغته (الذي جاء هنا من باب الإفعال بثلاث فتحات متتالية) «فلقنا بكم البحر وخلصناكم بإعلائكم، فجأة وأغرقنا الفرعونيّين، وجذبناهم إلى قعر البحر، وأنتم تنظرون في ساحل البحر للأمواج وإليهم».

يعتبر جميع المفسرين والمؤرخين الموافقين لما ينقله اليهود أنّ إنفلاق البحر وعبور بني اسرائيل من المعجزات وخوارق العادات، وقد أدركوا هذا المعنى أيضاً من ظواهر آيات القرآن.

قام أحد العلماء المسلمين (السير السيّد أحمد خان الهندي) بالمقارنة حول هذا الموضوع في الآيات من سورة البقرة، وطه والشعراء، وأخذ بنظر الاعتبار الوضع الجغرافي القديم لشمال البحر الاحمر، فيقول: إن موسى اجتاز ببني اسرائيل من المغرب ومن جهة شمال البحر الأحمر ـ الذي كان يومئذ بحراً قليل العمق ـ في حالة الجزر، وبمجرّد أن وصل فرعون الغافل بالجيش وعرباته الحربية إلى هناك وأراد الإجتياز بسرعة فاجأه المدُّ فاغرقهم جميعاً.

إذا كان هذا التبرير في هذا المورد صحيحاً، فخرق العادة الذي يجري على يد هؤلاء الرجال الإلهيّين، وجاء في القرآن لم يكن صحيحاً بمثل هذه التبريرات «وسيأتي بحث اكثر بمناسبة الآيات حول المعجزات».

﴿وَإِذْ وَاعَدْنا مُوسى...﴾ هذا أيضاً بداية فصل آخر وصفحة أخرى من تاريخ اليهود الذي يعرضه القرآن للناظر بعد نجاتهم وغرق فرعون: ومن هنا يتقدم بنواسرائيل نحو حياة جديدة، وقد انقطعت صلتهم بالماضي باجتيازهم البحر وغرق الفرعونيّين، وكان من الواجب حسب الأنظمة الإلهيّة أن يخطّط برنامج جديد ليدخلهم في نظام القانون. أعدّ موسى نفسه بأمر الهاميّ إلهيّ لاستيعاب القانون وتلقيه، وكان عليه ـ في وسط غوغاء بني اسرائيل وحججهم الواهية وطلباتهم المختلفة، و ابتلاءات المصير والجوع والعطش والسكن والتشتت ـ أن يتركهم لمدّة ويذهب إلى الجبل أو إلى غارٍ للعبادة والإتجاه الكامل لصفاء فكره وروحه ليكون قابلاً لتلقي أشعة نور الوحي. وقد ترك محيط الشرك

وعبادة البقر في مصر أثره في نفوس اليهود، بحيث كانت سلطة موسى وحده هي التي تتمكّن من جذبهم نحو العزّة والتوحيد، وجميع تلك الآيات والمعاجز لم تؤثر إلّا في حواسهم الظاهرة، وبمجرّد أن ابتعدت عنهم سلطة موسى القاهرة لعدّة أيّام، ونسِيَت تلك الآيات، عاد بهم إلى شركهم جاذبية أوهام مصر الرجعيّة، ورؤية القبائل التي تعبد البقر، وخداع السامريّ، وطار من رأسهم الاهتمام السطحي المبهم بالتوحيد، واتخذوا العجل إلٰها، وانغمسوا في أخسّ أنواع الشرك والظلام: «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ».

هذه القصّة تشير إلى أنّ المعاجز وخوارق العادات تتم من أجل إخضاع الذين ليس لهم حظٌ وافر من العقل والتفكير الصحيح، ولا يجد البرهان والدليل طريقه إلى نفوسهم الجامدة، والإتّباع والإيمان اللذان يحصلان عن طريق مشاهدة المعجزة واعتراف الحواس لم يكن لهما قيمة واقعيّة ولاثبات، وقيمته الوحيدة هي إزالة المانع من طريق النفوس التي لا قابليّة لها، لتصل الأصول العقليّة إلى النفوس المستعدّة.

كانت معاجز موسى عليه السلام المتتالية تدلّ علىٰ انحطاط اليهود العقليّ وجمودهم الفكريّ، ولم يخضعوا إلّا من هذا الطريق، أولئك الذين لم يشمّروا عن ساعدهم لأجل ضرب العدوّ، ولم يجدوا عزّة التوحيد بالعقل والتفكير المستقلّ، ولم يخرجوا بأنفسهم من دائرة الذل والشرك، واتبعوا سلطة المعاجز، وتخلّصوا من العدو المكبل الغريق، واجتازوا البحر المنفلق الممهّد بجاذبية القوّة الموسويّة، وبمجرّد أن واجهوا حياة الصحراء الصعبة المليئة بالعز، تمرّدوا على إمامهم، وتمنّوا الارتزاق من الفرعونيّين ولقمة العيش المصحوبة بسياط جلاوزة مصر «كما جاء صريحاً في التوراة ـ بمجرّد أن غاب الإمام لعدّة أيّام أطلع رأسه العجل الذهبي من بين نفوسهم الهاوية للذهب المتطبعة على البقر ومن بين مجتمعهم»[1].

---

١) التوراة: سفر الخروج، صحاح ٣٢: عندما رأت قبيلة اسرائيل أن نزول موسى من الجبل تأخّر، اجتمعوا حول هرون، وقالوا: قم واجعل لنا آلهة تتقدّمنا؛ لأنّ هذا الرجل (موسى) أخرجنا من أرض مصر، ولم نعلم ما الذي جرى عليه. قال هرون: أخرجوا جميع أقراط النساء والأطفال الذهبية من آذانهن. ففعلوا ذلك، فأخذها هرون وضربها بالمطرقة، فجعلها على شكل عجل، فقالوا: يا اسرائيل هذا هو إلهك الذي أخرجك

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ...﴾: ربّما كان التذكير بعبادة العجل للالتفات إلى نعمة العفو هذه التي هي مقدّمة للشكر، وهذا نفسه تفصيل موردٍ آخر لتلك النعمة، الشكر على إدراك النعمة ومعرفة واهبها، ثم حال الخضوع في النفوس، وبعدها إبداء المعرفة واستخدام النعمة في الطريق الذي يريده المنعم، بعد مشاهدة كل تلك الآيات وأولئك الآباء والأنبياء الذين كانوا أئمة عبادة الله، ينتج مثل هذا الشرك والضلال، بحيث ذهبت نفوسهم كلّها أدراج الرياح، وأظلمت عقولهم، وكانوا قد فقدوا قابليّة البقاء، وكان الواجب أن يفنوا جميعاً. كان هذا العفو من أجل أنّه ربّما يحصل بينهم أو بين أولادهم من فيه القابليّة (أو كما جاء في التوراة: إنّ موسى بتضرعه وتوسّله أدار غضب الله عنهم وخلّصهم من الفناء).

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوْسى اَلْكِتابَ وَاَلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ (٥٤) وَإِذْ قَالَ مُوْسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوْبُوْا إلى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إنّه هُوَ اَلتَّوَّابُ اَلرَّحِيمُ (٥٥) وَإِذْ قُلتُمْ يَامُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ اَلصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُوْنَ (٥٦) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ (٥٧)﴾

معاني المفردات:

الكتاب: المكتوب، الفريضة الواجبة، الحكم، التقدير.

الفرقان: البرهان، ما يفصل بين الحق والباطل أو بين شيئين.

باريء: من بَرَأ: شُفِيَ من المرض والتلوث والنقص، وطَهُرَ، بَرَء الكون: خلقه بصورة

= من مصر، عندئذ بنى هرون مذبحاً للعجل وصاح: غداً عيد الربّ، وعندما استيقظوا من النوم بكرة، دخّنوا البخور وقدّموا القرابين لسلامته، وجلسوا وانشغلوا بالأكل والشرب، ثم وقفوا وبادروا إلى اللعب...».
ماذا حدث حتى صار هرون الموحّد الداعي إلى التوحيد وشريك أخيه موسى في ابداء الآيات يصنع العجل فجأةً (بتصريح أصحاح التوراة السابق) ويبني المذبح ويدعو إلى عبادة العجل؟! فينظر أصحاب العقل والذكاء الحقائق التاريخية وصور الأنبياء العظام في آيات القرآن! ويقارنوها بما جاء في التوراة.

صحيحة وكاملة على أساس الفطرة.

الرؤية : الادراك بالعين.

الجهر: الواضح بلاخفاء، نسب الى العين، والمعاينة تنسب الى الناظر.

الصاعقة : النار النازلة من السماء بشدّة، الصوت الرهيب القاتل، الموت الفجائي، عدم الوعي.

البعث : الإثارة من النوم والموت وحالة السكون والسبات.

﴿وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الكِتَابَ وَالفُرقانَ...﴾: هذه الآية هي بداية تطوّر بني اسرائيل نحوحياة جديدة، ويرجع موسى إليهم من الميقات بالألواح التي كتبت فيها الأحكام، وهذه الألواح هي كتاب دوّنت فيه الأحكام وفرقان أيضاً، آيات وبيّنات تميّز بين الحق والباطل، والحلال والحرام، كان كتاباً وفرقاناً لأنه جاء بهؤلاء القوم من أسلوب وتفكير مشتّت نحو نظام إلهي وقانونيّ لتميّز عيون عقولهم الخير من الشر والجيّد من الرديء بنور الآيات وتعاليمها، ليسيروا في صراط الهدى المستقيم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوْسَى لِقَوْمِهِ...﴾: كان من الواجب حدوث انقلاب في مجتمع بني اسرائيل ونفوسهم من أجل أنْ تستعد نفوسهم جيّداً للهداية واستيعاب أحكام الكتاب، والانقلاب هو التوبة، التوبة من الشرك وعبادة العجل والرجوع إلى البارىء والفطرة الأولى لا تقبل إلّا بسفك الدم الفاسد والفصد الاجتماعي أمام البارىء، واذا كانت التوبة تقبل بصورة ظاهرة عند الله التوّاب، فمن ناحية الانقلاب الباطني وطهارة النفوس لابدّ من الخضوع لسفك الدماء الفاسدة، وقتل النفوس التي عجنت بالشرك وارتدّت عن الله تماماً.

﴿ذلِكُمْ خيرٌ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لأن الشرك والتقاليد الفاسدة عندما تمدّ جذورها في النفوس تؤدي بجذر القابلية والحركة نحو الخير إلى الجفاف. والذنوب الأخرى بمثابة الآفات التي تضرب ثمر الشجرة وأوراقها وقشرها ويبقى الرجاء في تجديد حياة الشجرة، لكن الشرك هو كالآفة التي تبيد لُبَّ الشجرة، وعليه يجب قطعها من الجذور،

لربّما تخضرّ من الجذور أغصان سليمة. بناءً على هذا فإنّ هذا الأمر لاينافي الآية السابقة: ﴿ثُمَّ عَفونَا عنكُمْ﴾.

يمكن أن يكون العفو بعد هذه التوبة بقرينة «ثُم»، وربما كان كما قيل: إنّ هذا الأمر كان شأنيّاً وتجريبيا، أي إنّ توبة مثل هذا الذنب هي قتل النفوس المشركة، أو أن الاستعداد والخضوع لقتل النفس أدّى إلى قبول توبتهم، وبغضّ النظر عمّا جاء في التوراة والأحاديث الاسلامية يبدو بعيداً أنّ بني أسرائيل قد قبلوا بمثل هذا التكليف، وأقدموا على الإنتحار، مع العلم بأنّهم كانوا يتمرّدون دائماً على تكاليف أخفّ من هذا، ويخلقون الأعذار للفرار منه، حتى قالوا لموسى: ﴿إذهَب أنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنَّا هـٰهُنَا قَاعِدُوْنَ﴾!

«يقول في التوراة: وقف موسى أمام المنطقة (منطقة سكنى اليهود الصحراوية) وقال: فليتقدم من كان لله، فاجتمع عليه جماعة من بني «لاوي»، فقال لهم: إنّ ربَّ اسرائيل يأمر بمايلي: يحمل كلّ شخص سيفه ويجتاز كل منطقة فيقتل أخاه وصديقه وقريبه. ففعل بنو لاوي، حتى قُتِل ثلاثة آلاف شخص من أفراد القبيلة...!»، وجاء في بعض الروايات: أظلتهم سحابة مظلمة فتطاحنوا فيما بينهم، فرفع موسى وهرون أيديهما للدعاء حتى قبلت توبتهم. وعدّ البعض عدد القتلى سبعين ألفاً! والاحتمال الآخر هو: اقتلوا النفس الجامحة ناحتة الصنم: «فَاقْتُلُواْ» والفاء للتفريع وبيان حدّ التوبة: عليكم التوبة حتى أن تقتلوا أنفسكم.

يقول القاضي البيضاوي: «فَاقْتُلواْ أنفُسَكُمْ» إتماماً لتوبتكم بالبخع وقطع الشهوات، كما قيل: «من لم يعذّب نفسه لم ينعّمها، ومن لم يقتلها لم يحبّها»[1].

وعرفاء السلف ـ بناء على أسلوبهم فسّروا مثل هذه الآيات بالعوالم المعنويّة والقوى النفسيّة أو أوّلوها، إنّ هذه الآيات الصريحة بنظرتها حول الهداية العامّة لا تليق بمثل هذه التفاسير والتأويل، وان كان تطبيق الآيات على القوى النفسيّة التي تكون الظواهر الطبيعية صورة ومظهراً من مظاهرها غير بعيد عن قوّة بلاغة القرآن: ان ظهور موسى

---

١) استخرجت نصّ قوله من تفسير البيضاوي: ١/١٥٤ الترجمان.

كالعقل الالهي الفطري الذي طلع في بلد النفس بالإلهام الالهي وتأييده؛ ليحرر القـوى والعواطف الانسانيّة من استبداد حكومة فرعون الغضب والشهوة، ويعبىء شيطان الغضب قوى النفس المنفعلة بوجه دعوة العقل، ولا يستسلم لحكـم الآيـات التـوحيديّة التـي يعرضها العقل، وتمرّ قوى الحق بقيادة العقل من جانب طوفان الأوهام والأهواء وإثارة الأمنيات والإرهاب، وتصل إلى ساحل أمان إشراف العـقل، ويـحكم عـلى المـبادىء الشرّيرة وقواتها الدفاعيّة، وتغرق. وان نفس القوى التابعة للعقل أيضاً تضعف وتتخلف بين الفترة والفترة عن مواكبة العقل الطليعي الكامل بتذكرها اللذائـذ وتـربية الأبـدان. وينصرف العقل الايماني لمدّة من الإشراف على النـفسيّات وادارة قـواهـا مـن أجـل الاتّصال بالمبدأ الأعلى وأخذ الأوامر والأحكام، فيجرّ مبدأ الوهـم القـوى إلى الرغـبة الطبيعيّة في عبادة العجل الذهبي الذي هو مظهر حبّ المال والنهم في الأكل، ويجعلها غافلة عن العبادة والإتجاه إلى الله، ويرجع العقل الكامل المجهّز بالأحكام والقوانين بعد أربعين ليلة (أو اربعين عاماً) لنجاة النفسيّات (وهذا هو السير من الحق وإلى الخلق) فأوّل حكمه التوبة والرجوع وقتل الأهواء النفسيّة وإبادة حركاتها).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ...﴾: عندما تمكّنت القوى المدركة من الخلاص من صنيعة الوهم ـ كالصنم والعجل ـ والحكم عليه وبطلانه، لا تتمكن بسرعة من التحرّر من تأثير الحواس الظاهرة، وإدراك المطلق بالعقل المطلق، وهي تـحاول أن تـصل إلى الحقيقة المطلقة اللامتناهية ضمن إطار الحواس الظاهرة.

ويبدو ترتيب هذه الآيات في ترتيب الوقائع: بعد أن جاء موسى بالألواح والأحكام، كُلِّفَ بنو اسرائيل بتنفيذ هذه الأحكام واحداً بعد واحد، وفي هذا المورد كانوا عندما طلبوا مثل هذا الطلب.

قيل : «ان اليهود تمرّدوا على موسى بعد وفاة هرون في صحراء سيناء أكثر من ذي قبل، وأخذوا يطلبون منه، فكانوا يقولون: إنّ نعم الله منحت لبني اسرائيل، لا لموسى وبني

هرون فقط، ولذا فإنّنا يجب أن نرى الله جهرةً، ونسمع منه الأحكام مباشرة[1]. وتفيد «لن» النفي التأبيدي، و«اللام» للاختصاص والانتفاع:ـ «لَنْ نُؤمِنَ لَكَ»، والمقصود من الإيمان هو اتّباع موسى والكتاب والفرقان، وكأنّما كانوا يتصوّرون أنّ إطاعة أحكام الكتاب هي إطاعة موسى، ولمّا كانوا لم يريدوا أن يستسلموا إلى موسى بصورة تامّة، قالوا بهذه اللهجة الشديدة: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهرةً» ونسمع منه مباشرة.

﴿فَأَخَذَتكُمُ الصَّاعِقَةُ...﴾: يبدو أن القصد من الصاعقة هو الصوت الرهيب المرافق للزلزلة والنار، ولازمها الموت وأو الإغماء، الصاعقة هي أثر تراكم الظرف أو المادة والضغط المتزايد عن حدّ القدرة ولربّما كانت الصاعقة (على جبل كان بنو اسرائيل أو شيوخهم جاثمين على سفحه) جواباً رهيباً لعامتهم لكيلا يطلبوا مثل هذا الطلب، وجواباً علميّاً لذوي الفكر والرأي. فأن تلك القدرة السرمديّة التي أبدعت مواد العالم وعناصره بهذا النظم الدقيق، ظهرت في مظهر المادة ضمن حدود معيّنة، ولو اتصلت الطاقة والقدرة إلى الصورة المادية أكثر ممّا هي عليه بقليل لانهارت كل الصور والاشكال، ولما بقي منها سوى الدخان والنار كالخلقة الأولى. إذاً كيف يتصور أن تظهر القدرة اللامتناهية في الصورة المتناهية؟!

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ...﴾: الموت مقابل الحياة، وهو كالحياة له معانٍ إضافيّة ومراتب، واستخدام الكلمة والاشارات القرآنيّة دليل على اختلاف معاني الموت والحياة، لأن العرف العام يفهم من كلمة «الموت» الفناء وانعدام الحياة الجسميّة، وبعض المفسّرين أيضاً أخذوا المعنى كلّما ذكرت هذه الكلمة في القرآن، وعلى فرض أنّ هذا التفسير صحيح في كل مكان، فلا يصح في الموارد ذات القرائن، وهنا لو كان بنو اسرائيل أو شيوخهم قد ماتوا جميعاً مع موسى، كان من المناسب أن يقال: «قَتَلَتْكُمْ» بدلاً

---

١) التوراة: اصحاح ١٩، سفر الخروج ـ جاء بقصة مفصّلة في هذا المورد كلها تعظيم لليهود إلى درجة أنّها تبيّن اقتراح المواجهة مع الله وسماع كلامه من قبل الله، ثم تقول: قال الله لموسى: والآن سوف أجيء إليك في وسط سحابة حتى تسمع القبيلة نفسها عندما أتكلم معك، ويؤمنوا بك إلى الابد، فقال موسى: إذهب إلى القبيلة وطهرهم خلال اليوم والغد...

«أخَــذَتْكُمْ»، ولو كـانوا مـيتين آن ذاك يـجب البـحث عـن مـخرج لجـملة: «وَأنْـتُمْ تَنْظُرُوْنَ».وكلمة البعث هي الإثارة والقيام، فلو كانوا ميتين، فكلمة «الإحياء» التي لهـا معنى خاص كانت من الأنسب، لاسيما في مقام المنّة. يقول في مجمع البيان «وقيل أنّهم سألوا بعد الإفاقة أنْ يبعثوا أنبياء»[1]. وجاء في سورة الاعراف بالنسبة لمـوسى: «فَـلَما أَفَاق»، من الإفَاقة [في مقابل الإغماء] «الرجفةُ» بدلاً مـن «الصَّـاعِقَة»، والرجـفة هـي الحركة الشديدة والزلزلة، والزلزلة بنفسها لا تقتل، ثم يقول: «قال ربِّ لَوْ شِئْتَ أهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإيّايَ». ولا تصرّح هذه الآية بموت الجميع، ثم أنّه أخبر عن حاله وحالهم معا، وكلمة «موتكم» بالإضافة إلى الضمير تشير إلى موت خاص لا الموت المطلق. وبناءً على ما قيل، فكأنما أصيب موسى وبنو اسرائيل بالإغماء والتكهرب على أثر الصاعقة والزلزلة [عندما كانوا] في سفح الجبل.

يقول بعض المفسرين الجدد: إنّ موسى أخذ بني اسرائيل بعد طلبهم هذا الى سفح جبل بركاني ـ والذي لا يزال موجوداً في تلك المنطقة ـ ليخافوا ويتركوا مثل هذا الطلب، ولكن هذا القول أيضاً يخالف ظاهر الآيات. «لَعلَّكُم تَشْكُرُونَ» تدلّ على أنّهم أثـيروا الحـياة جديدة، لتسيطر عظمة الله و قدرته على قلوبهم، ويدركوا الأحكام والأوامر ويعملوا بها، ويكونوا في مجال نور هداية الوحي والكتاب. ويقوموا بشكر هذه النعمة العظيمة كـما ينبغي بانجاز أحكام الكتاب وتنفيذها.

وظهور القدرة واشعاعها على قلوبهم كأنّما أعدّتهم لقبول حياة جديدة؛ لتثار قواهم المعنوية، ويسلكوا طريقاً جديداً وأسلوباً جديداً. أصبحت هذه الحادثة (أخذ الصاعقة) حداً فاصلاً بين الماضي والمستقبل ومنطلقاً لحياة أخرى. هكذا تتجلّى على الفكرة هذه الآية بدليل كلمات «ثُمَّ بَعَثْناكُمْ» و«بَعْدِ مَوْتِكُمْ» و«لَعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، والله أعلم.

---

١) استخرجت النص من مجمع البيان: ١١٥/١. الترجمان.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوى كُلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِنْ كَانواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٨) وَإِذْ قُلْنَا ٱدخُلُوا هـذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْث شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمحْسِنِيْنَ (٥٩) فَبَدَّلَ ٱلَّذِيْنَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيْلَ لَهُمْ فَأَنْزلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّماءِ بِمَا كانواْ يَفْسُقُونَ (٦٠)﴾.

معاني المفردات:

الغمام: السحاب الذي يغطي السماء، ويقال أيضاً للسحابة البيضاء، قطعة من السحاب، من الغم: الغشاء، الهم الذي يغمر القلب.

المنّ : الإحسان الىٰ من لا يستحقه، كل نعمة، الضعف، القوّة، القطع، النقض، يقال للمادة السائلة التي تجفّ على بعض الاشجار كالسكّر، مثل شجرة القزّ، النعمة المباحة.

السلوى: ما يؤدي إلى ارتياح البال، العسل، نوع من الطير.

القرية: مفرد القرى، [البُلَيْدة] يقال للمدينة أيضا، يقال ان «قرى» بمعنى التجمع والإتصال، (يراجع معنى كلمة رغداً والسجود في الآيتين ٢٣، ٢٤).

حِطّة : مصدر أو اسم مصدر من حطّ، الإنزال أو النازل، تناثر الذنب، إنزال الحمل على الأرض. نغفر: من الغفر: التغطية، الستر، الصفح عن الذنب وتغطيته تحت ستار الرحمة واللطف.

خطايا: جمع خطيئة: الذنب والزلة المتعمدة، خطأ: أوصل بدون قصد، أخطأ: أوصل بقصد.

المحسن : من الإحسان. عمل الخير للغير، إنجاز عمل الخير، أو انجاز عمل الخير بصورة أفضل.

الرِجز، بكسر الراء: الدَنَس، العذاب المهين. وبفتح الراء والجيم: صوت الرعد المتوالي، والسحاب المثقل بالماء [وأحد البحور الستة عشر، ويتكون من ست تفعيلات

«مستفعلن»].

﴿وظَلَّلنا عليكم...﴾ : هل كانت هذه النعم خاصة لبني اسرائيل المدللين ومن أجل منزلتهم العظيمة؟ الذين يعتبرون أنفسهم المنتجبين وشعب الله المختار؟ وهل أنّ السحابة كانت تظلهم طيلة أيام التيه في الصحراء، ويُقَدَّم لهم المن والسلوى؟ وهل أنهم لا زالوا المنتجبين من قبل الله وقرة عينه مع ذلك الضلال وعبادة العجل والمخالفات التي لم تكتمها التوراة وصرّح بها القرآن، ومع كون آبائهم أنبياء الله المنتجبين، ومشاهدتهم الجميع لكلّ تلك الآيات الآلهية؟ وهل أن ربّ هذه العوالم اللامتناهية ينظر الىٰ غير اللياقة المعنويّة والإيمان والعقيدة؟

إنّ الله العظيم لم يعقد ميثاقاً خاصاً مع أحد، ولا صلة قرابة أو صداقة له. ومع ما نعرفه من أنانيّة اليهود الذين يعتبرون أنفسهم قبيلة الله ومنتجبيه، فإن قلنا إنّها من الأساطير الاسرائيليّات التي أشيعت بين المسلمين، وأصبحت جزء من تفسير القرآن، لم نكن قلنا جزافاً مع ما لدينا من القرائن. إنّ كلمات هذه الآية وعباراتها لا تدلّ أبداً على أنّ سحابة كانت تظلهم كل يوم، وتقدم لهم طعام المن والسلوى أو الخبز والطير المشويّ، أو أنّ عموداً من النور كان يتقدمهم كلّ ليلة ويضيء لهم الطريق!

إنّ هذه الآية تبيّن ببلاغة خاصّة وتصوير فنّي حياتهم البدويّة فقط. إنّ صحراء سيناء (التي سُمي قسم منها بـ «التيه» بعد متاهة بني اسرائيل فيها أربعين سنة) لما كانت قريبة من البحر الابيض والبحر الاحمر والأنهار العظيمة ولم تكن جبال شاهقة بين الصحراء والبحر بحيث تتراكم السحب حواليها، فتكون السحب الخفيفة أو المشتّتة في حركة مستمرة على الصحراء، ولو كانت سحابة خاصّة مكلفة بأن تظلهم دائماً، كان تعبير «تظللكم غمامة» أجدر بذلك.

وبالنسبة لكلمتي «المن والسلوى» لو نغضّ النظر عن الأخبار التي تحولت إلى أحاديث اسلاميّة ولم تجر الدراسة حولها جيّداً، وعمّا جاء في التوراة، ونعيد الكلمتين إلى معناهما الأصليّ، نفهم من «المن» مطلق الإحسان والنعمة المباحة لمن لا يشكرون

ذلك، ومن «السلوى» ما يؤدي إلى السكون والتسلية. وكان التعبير عن إيـصال هـذين النوعين من الطعام إلى متناول اللأيدي (على حدّ تـعبير هـذه المـنقولات) بـ «بكـم» و«إليكم» أنسب من «عليكم»؛ لأنّ «عليكم» تفيد الاستعلاء وشـمول النـعم المـعنوية والظاهرية، مثل «هو الذي انزل السكينة على قلوب المؤمنين»، فاذا كان المقصود مـن «المن والسلوى» هو «الترنجبين»[1] والطير الخاص (والأول منهما كان ينزل على ورق نبات باسم «تمرسك»[2]، والثاني على اغصانه وحواليه)، لم يتضح أيضاً أنّهما خُـصِّصاً لبني اسرائيل؛ لأنه ـ كما ينقل عن بعض السيّاح ـ أنّهما لا يزالان يشـاهدان فـي تـلك الصحراوات حتى الآن.

وعنايه الله الخاصة بهم هي أنّه [تعالى] بعث اليهم موسى ليخلصهم من أفنية قصور المصريّين والفراعنة ومن بين غبار الألم والذل، ومن تحت سـياط الحكـام الجـائرين السفاكين، ومن أكل فُتات موائدهم وفضلاتها، وجعلهم في ظل لطف الغمام الذي هو ظل لطف الله، تحت ضوء الهداية في الفضاء المفتوح وعلى مائدة نعم الله غير الممنوعة، لربما يتغير ظاهرهم وباطنهم في مثل هذا المحيط، أو يتربّى ـ خلال هذه المدة ـ من أبـنائهم رجال أشدّاء أقوياء مؤمنين ذوي اخلاق طاهرة وأبدان سليمة وهمم قعساء، ليظهر منهم مجتمعاً ثابتاً قويّاً وحضارة عظيمة.

إذاً إنّ ما يبدو من تصريح هذه الآية والآيات المرتبطة بها أكثر من كلّ موضوع وقصة تاريخيّة مبهمة هو عرض دور الصعود من مصر إلى الحياة الصحراويّة قبل السكنى في

---

١) سمّاه الجوهري: «طرنجبين» فقال في تفسير المَن: المن كالطرنجبين. وقال ابن سيده في المخصّص: المن طل ينزل من السماء. ونقل ابن منظور في اللسان عن الزجاج قوله: وأهل التفسير يقولون: أن المن شيء كان يسقط على الشجر حُلوٌ يُشرب، ويُقال: إنّه الترنجبين. الترجمان.

٢) الكلمة فارسية، ولم نعثر على معناها العربيّ وقد جاء في ملحق لسان العرب طبعة دار لسان العرب ـ بيروت في المصطلحات العلمية والفنية: ١٣٠/٣ وهو يتكلّم عن مادة المنّ التي تتكون على ورق بعض الاشجار فقال: ومن هذه النباتات في سيناء ضرب من الطرفاء النيلية (Tamarix nilotica (L، ومنها الشيخ انتهىٰ. ولفظها الانجليزي يقارب كثير اللفظ الفارسي. فاللفظ الانجليزي تمريكس والفارسي تمرسك ممّا يذهب بالظن إلى انّها هي. الترجمان.

القرية أو المدينة.

الأمر «كُلواْ مِنْ طَيِّبَاتِ...» بدون ذكر الآمر كأنّه يشير إلى أنّه لم يكن عليكم وبينكم في مثل هذا المحيط الحرّ من يمن عليكم أو يشارككم، وإنّما كنتم تـتناولون بـمقتضى طبيعتكم ورغبتكم الاطعمة غير المشوبة بالذلّ والألم والمرض.

ويستشف من «ما ظَلَمُونا...» أنهم لم يتطبعوا على حياة العز، وكانوا يـتمنون دائـماً السكنى في القرية او المدينة، ويطالبون بها. ولكن موسى والقادة الإلهيون الآخرون كانوا لا يرون بني اسرائيل مـؤهلين ـ حـتى ذلك الحـين ـ للاسـتقرار وتأسـيس الحـضارة المقصودة، وكانوا يريدون أو كانوا مأمورين بأن تستمر حياتهم الصحراوية أكثر من هذا، لربّما يكونوا مستعدين بصورة أفضل، وكأن اليهود كانوا يتصوّرون ـ بقصر نظرهم ـ أنّ الله أو أنبياءه يستفيدون من إبقائهم في الوضع الصحراوي، بحيث لو استقروا في منطقةٍ مـا تزول تلك الفائدة! ولكن آثار تلك الحياة الحرّة وفائدتها، وعاقبة هذه الحياة المحدودة المحاطة بالجور كانت في صالحهم وضررهم: ﴿وَلكِنْ كَانواْ أَنْفُسَهُمْ يَظلِمُونَ﴾.

إنّهم تمرّدوا على أوامر الله والاصرار من أجل انتخاب السكن إلى درجة بحيث نزل اليهم هذا الأمر:ـ «وَإِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا هذِهِ آلقَرْيَةَ...» يقول البعض إنّ المقصود من هذه القرية هو «أريحا» الواقعة غربيّ نهر الأردن وشرقي بيت المقدس. ويقول البعض: إنّ «اريحا» هي نفسها بيت المقدس.

ومن جهة فإنّ سياق هذه الآيات يبدو في أن موسىعليه السلام كان حيّاً لمدّة بعد هذا الأمر وكان يعيش مع بني اسرائيل. ومن جهة أخرى فقد جاء في التاريخ أنّ وفاته كانت قبل الوصول إلى هاتين المدينتين. ولما لم يتبادر الى الذهن معنى المدينة من القـرية، (وان يقال للمدينة قريةً أحياناً) إذاً؛ ربّما كان المقصود هو إحدى القرى الواقعة في الطريق أو المناطق الصحراوية والتي كانت محدودة وقـبل الهـبوط إلى المـدينة [مـصر] والتـي اختاروها سكناً لهم (وقد ذكرت بعد ثلاث آيات). وأينما كانت هـذه القـرية لم تكـن مقصودة للقرآن، ولو كان أسمها ومحلها مقصودين للقرآن لبينهما. مع العلم بأنّ القرآن لم

يقصد أن تكون مثل هذه الجزئيّات موضع اهتمام، وعليه يجب أن لا تلفت انتباه المفسّر وتحرفه عن المقاصد الرئيسية.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً...﴾:

إنّ هذا الأمر كأمر «وَكلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما...» الذي صدر بعد سكنى آدم وزوجه في الجنة. وبعد ذلك الأمر، جاء النهي من أجل المحافظة على آدم وزوجه من الهبوط والظلم: «ولا تَقْرَبَا» وهنا أمران: «وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ...» وكلاهما بدايه تطوّر: فذلك من أوّل جنة فردية، وهذا من ثاني جنة فطريّة واجتماعية، وفي هذا التطوّر الثاني الذي تنفتح من جهة بوجه نفس الانسان ذات الأهواء أبواب الامنيات المختلفة كالجاه والمقام والشهوات والتنوّع في الأطعمة والألبسة والمنزل ـ مثل تلك الشجرة المنهيّة ـ بعد الحياة الصعبة في البادية، والدخول في مجتمع القرية: «ادخلوا هذه القرية» والتبوّء في المنطقة والتعلق بالمحل و المسكن. وهذه الحياة تثير الطباع الوضيعة، وتسهّل طرق الاعتداء على الحقوق والظلم وتنحط الروح على أثر ذلك، ويسقط الفرد والمجتمع من الحياة الفطريّة. وفي مثل هذه الحياة تكون قوى الانسان وإدراكاته كالإسفنج تلتقط الذنوب (كما يقول بعض الشخصيّات). إذاً فالذي يريد أن يحافظ على فطرته من السقوط في البيئة الاجتماعية عليه أن يكون كالجندي الذي أحاط به العدوّ واعياً مراقباً: يعي ويراقب الحق ويخضع في مقابله تماماً (وهذه هي حقيقة السجود: سُجداً) ونفض غبار الذنوب عن نفسه «حِطّةٌ».

ومن جهة أخرى بمجرد دخولهم إلى المجتمع واستقرارهم تتفتح أبواب العلاقات بين الأفراد والطبقات على شكل حقوق وحدود الواحدة تلو الآخرى بعد أن كانت مغلقة في الحياة الصحراوية، وان كانت الراحة والسرور ميسّرة في هذه الحياة بسبب تجزئة العمل وتقسيمه بالتعاون، إلّا أنّ بقاءها وسلامتها يكونان عندما يخضع الجميع في مقابل الحقوق والواجبات، ويطهرون أنفسهم من التلوث: «ادخلوا الباب...» ولو كان هناك بابٌ محسوس في البين لكان رمزاً لمثل هذه المعاني.

وذهب أغلب المفسرين بعضهم خلف بعض للبحث عن هذا «الباب» وطـرقوا هـذا الباب وذاك، وضلوا عن باب فهم هذه الآية.

ولو كان الألف واللام للعهد لكان ذلك الباب معهوداً لدى القارىء والسامع، ولما لم يكن معهوداً، إذاً، لا يجب البحث عن باب خاصٍ مصنوعٍ قرويّ.

وربما كان لكل فئة وطبقة وشعب باب يتجهون منه الى الحقوق العامّة، ويـخضعون أمامه، كمل نقل عن الإمام الباقرعليه السلام إنّه قال : «نحن باب حِطتكم». وماذا يكون لو قلنا أنهم بعد الإقامة في القرية وبداية تأسيس الحضارة والحياة الاجتماعية كان على كل فرد أو فئة منهم أن يتخذ لنفسه عملا ومهنة، ولكلٌ منهم باب يردها ويواجه حـقوقاً فـردية وعامة. وهذه الحقوق هي من قبل الله والحق المطلق، وعندما يكون الأفراد والفئات التي تشكل المجتمع يعرفون الحقّ المطلق وحقوق الآخرين، ويخضعون أمامها ويسجدون، تتوثق أواصر الصلة بينهم ويزداد نموّهم وتكاملهم، وتقل آفاتهم، ولما كانوا واعين دائماً من أجل نفض غبار الذنوب التي أثيرت من جرّاء المعاشرة والمجاورة، ويجلون أنفسهم عن التلوث وعقولهم من ظلمة آثارها، فان عناية الله تمحو آثار الزلّات والخطايا غير العمدية، كالأمراض البسيطة التي تجلوها مناعة الحياة نفسها: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ...﴾، وعندما يقومون بأعمال صالحة، أو أنهم مهما تقدموا بأعمال صالحة أكثر ووجهوا طريقتهم نحو الصلاح بصورة أكثر يزيد الله في طاقتهم وقوتهم (حسب مـعنى الإحسان والمحسن): «وَسَنَزِيدُ ٱلمحْسِنِينَ».

إذاً فالمقصود من السجود هنا يجب ألّا يكون بمعنى وضع الجبهة على التراب؛ لأنّ هذا التصوّر لا يتلاءم مع الدخول في الباب ولا تحصل منه نتيجة. وليس المـقصود التـلفظ بكلمة «حِطّةٌ» فقط، كالورد الذي يجري على اللسان دون الانتباه إلى معناه وحقيقته. بل يجب أن تكون هذه الكلمة شعارا يعلن من الشعور والوعي الباطني. كما يـقول مـجمع البيان: يقول أكثر أهل العلم: معناه حطّ عنّا ذنوبنا وهو أمر بالإستغفار. وقال عكرمة: أمروا

أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنّها تحطّ الذنوب»[١].

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيْلَ لَهُمْ...﴾: إنّ أولئك الذين تمرّدوا في مقابل الحق، واتخذوا الظلم طريقاً لهم بدّلواْ الشعار والقول الذي قيل لهم، وأصبح قولهم و شعارهم مثل عامة المجتمعات البشرية الخبز والبطن والشهوات الوضيعة.

ولو كانت الأقوال في هذاالمجال مرتكزة على قاعدة قويّة، يجب أن يكون المقصود هو تبديل القول والإلتفات لمثل هذه الأمور، وإلّا، فانّ لفظ «حطّة» ليست لغة عبرية أو سريانية ولا بدلها «حنطة» كذلك. يقول البعض: إنّهم بدّلوها بـ «حطا سمقانا» أي القمح الأحمر!

يفيد تعبير هذه الآية تغيير اهتمام بني اسرائيل وأسلوبهم والسبب والنتيجة، لا أنهم تركوا الأمر أو أوّلوه. ولو كان المقصود نفس التلفظ بكلمة «حطّة» فلماذا تركوا التلفظ أو تكرار هذا اللفظ السهل؟ وكيف أدى ترك كلمة الى استحقاقهم مثل العذاب!؟:

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ...﴾ فالاسم الظاهر «الذين ظلموا» بدلاً من الضمير «عَلَيْهِمْ» يفيد اختصاص العذاب بالظالمين، وسببه والقاعدة العامة. وبيّن أنّ نوع العذاب هو «الرجز» وأنّه من السماء. اذاً لم يكن عذاباً يبيدهم فجأة، ولم يجد التاريخ أيضاً مثل هذا العذاب على بني اسرائيل في هذه الحقبة من الزمان، ويستفاد من كلمة «الرجز» النكبة وضعف القوى الجسميّة والنفسيّة والذلّ، والنسبة الى السماء لربما كانت من ناحية الهيمنة واحاطة العذاب ونسبته الى قوانين العالم العامة. فإنّ شياع الظلم يسبب التشتت والفوضى والخروج عن الحدود: «بما كانُوا يَفْسُقُونَ» الفسق الدائم هو الذي يؤدي الى مثل هذا العذاب.

﴿وَإذْ استَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضرِبْ بِعَصَاكَ ٱلحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشرَبُوا مِن رِزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَواْ فِي

١) استخرجت نص قوله من مجمع البيان: ١/١١٩ الترجمان.

الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوْسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَ قِثَّائِهَا وَفُوْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ إهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَة وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرونَ بِآيات اللهِ وَ يَقْتُلُوْنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ بِغَيْرِ الحَقّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

معاني المفردات:

الاستسقاء: طلب السقي، الارتواء.

انفجرت: من فجر الماء: فتح الماء طريقه وجرى، باب الانفعال للقبول.

عين ينبوع، محل السقوط، مخزن الماء.

لا تَعْثَواْ: من العثاء: شدّة الفساد، الجموح في الفساد واللامبالاة.

طعام: الغذاء المناسب مع ذوق الآكل، من الطعم، التذوّق.

واحد: العدد الأوّل، على نسق واحد.

أُدْعُ: الأمر من الدعاء: الطلب، المطالبة، وإذا كان من الأعلى فهو أمر.

البقل: الخضراوات الغذائية التي تنبت من البذر.

فوم: [هو ما يعرف عند العامّة بـ] الثّوم، القمح، الحمّص، كل حبٍّ يُصنع منه خبز.

قِثّاء: بضمّ القاف وكسرها: الخيار، خيار شَنْبَر، [ويسمى باللهجة العراقية: العطروزي»].

البصل: [أشهر من أن يعرّف].

مصر: الفاصل بين شيئين، الحد بين منطقتين المدينة، الناحية، المدينة المعروفة.

بَاء: عاد عليه وانقطع عن الغير، أعاده عليه، اعترف بالحق والذنب، ابتلى بالغضب.

النبيّون: جمع نبيّ، مشتق من النبأ: المخبر المباغت، وقرأها بعضهم نبيئاً بهمزة الأصل.

﴿وَإِذِ ٱستَسْقَى...﴾: إذا كان ترادف الآيات مطابقاً لترتيب حوادث حياة اليهود بعد

الخروج من مصر، كان هذا الإستسقاء وجريان العيون بعد الدخول الى القرية التي أشارت إليها الآية السابقة والإقامة فيها. لا عندما كانوا في الحياة الصحراوية. آخر الآية حيث تقول: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مفسدينَ﴾ دليل على إقامتهم واستقرارهم وبداية حياتهم. وهنا كانوا يحتاجون ـ لاستمرار حياتهم والحيوانات التي كانت لهم، أو الزراعة التي بدأوها ـ إلى الماء؛ ليستفيد منه القبائل الإثنتا عشرة بدون أن يتزاحموا. وكانوا يشربون من ماء المطر والآبار في السنوات التي يعيشون في الصحراء، ويتنقلون من منطقة إلى منطقة، ويحملون الماء معهم. ويبدو أنّ هذه الآية تقصّ قصّةً في مورد خاص، لا أنّهم عندما يواجهون عدم الماء في كلّ مكان يخرج لهم النبي موسى بعصاه الماء[1].

بناء على هذا فإنّ موضع الإستسقاء يجب أن يكون في نهاية الحياة الصحراوية، وفي منطقة معدّة لسكناهم واستقرارهم، بحيث كانت هناك قرية أو أخبية بساكنيها، وأنّها أصبحت قريةً بعد وصول اليهود إليها.

وذهب البعض في تفسير هذه الآية وراء الحجر والعصا، وأنّها أيّةُ عصاً كانت، والالف واللام في «الحجر» تشير إلى أي حجر. فالآية تدل على عصاً بيد موسى وحجر أمام عينيه، وربما كان الحجر (كما تقول التوراة) صخرةً من جبل ينفجر الماء منها، وإذا كانت

---

١) تقول التوراة في سفر الخروج باب ١٧: ثم ارتحل بنو اسرئيل من صحراء سيناء بامر الرب، وأقاموا في «رفيدم»، ولم يكن هناك ماءٌ للقبيلة فوثبوا علي موسى... وقالوا: لماذا أخرجتنا من مصر، هل أردت أن تقتلنا وأولادنا جميعاً من العطش؟! فتضرّع موسى إلى الله وقال: إلّهي ماذا أصنع مع هؤلاء الناس، سرعان ما يرجمونني. فقال الرب: خذ الشيوخ بالعصا التي ضربت بها النهر وتقدّم، وأنا أقف هنا أمامك على الصخرة في «حوريب»، فاضرب الصخرة يخرج منها الماء... ودعا اسم الموضع «مسه ومريبه» من أجل عنف بني أسرائيل...
جاء في قاموس الكتاب المقدس: «رفيدم أحد منازل بني اسرائيل، لا يبعد كثيراً عن جبل سيناء، ولما كان أستخراج الماء من الصخرة على سبيل الإعجاز لأولئك المحتجين المتمرّدين، يعتقد البعض أن هذه الواقعة حدثت في وادي «فاران»، ويرى البعض كانت في وادي الشيخ... ويناسب وادي فاران مجتمع بني اسرائيل بصورة جيّدةوهو الموضع الذي يدعى بـ«حصى الخطّاطين»، ويناسب موضع الصخرة المذكورة تماماً...»
تقول في هذا الباب: حاربت قبائل العمالقة بني اسرائيل في «رفيديم».

قدرة تأثير العصا فقط دون استعداد أخرجت الماء كانت جملة «أفجرت» أكثر مناسبة من «انفجرت»؛ لأنّ باب الإنفعال يفيد تقبّل الأثر والاستعداد. وجاء في سورة الأعراف عبارة «أنبجست»، والإنبجاس هو فوران الماء قليلاً قليلاً. بناء على هذا فالماء ازداد تدريجياً[١].

ولما كان أوّل وسائل الحياه بعد الاستقرار في الأرض هو الماء، فتقسم من بداية الأمر بصورة عادلة بين أسباط بني اسرائيل الإثني عشر وفي مناطقهم، لكيلا يسبّب التعلق بالملكيّة والعصبيات العائلية الاختلاف والنزاع بينهم، ولأجل أن يحافظوا على وحدة قواهم في مقابل الأعداء الذين كانوا يواجهونهم. وكل ما كان فإنّ أوامر آخر الآية هي المقصودة بصورة أكثر: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الارضِ مُفْسِدِينَ﴾. هذا الأمر ـ بدون ذكر الآمر ـ يعني أنّه من باطن العالم والأرض والسماء وظاهرها للجميع والى الأبد: فيد القدرة وعصاها وعوامل الطبيعة تفجر الأحجار دائماً، وتجري المياه من سفح الجبال، ليشرب عامة المخلوقات التي تعيش في الارض وعلى شواطيء الأنهار، ولتتحد قواهم للعمل وجعل الثروات الطبيعيّة في متناول اليد، والتعايش معاً. وهذا هو نداء الحق المرتفع من ضمائر المصلحين الاخيار وألسنتهم الصادقة، ولكن ضوضاء الطمع والجشع تمنع من وصول هذا النداء إلى الآذان وأن يستقر في القلوب، وبتنفيذه يصبح وجه الأرض كالجنة!

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ...﴾: الرغبة في تنوع الطعام، الملل من الحياة

١) يقول المحقق الهندي السيّد أحمد خان، واخذ ضرب العصا كالضرب في الأرض والحجر بمعنى سلوك الطريق الجبلي الصخري، يقول: «بحث موسى وسعى في الجبل حتى وجد العيون». يقول: «وهذا يطابق ماجاء في التوراة في الباب ١٥، الآية ٢٧ من سفر الخروج: ثم جاء بنو اسرائيل نحو «إيلم» وكان هنا اثنتا عشرة عيناً وسبعون نخلة فنزلوا على هذا الماء». وهذه الينابيع الجبلية في منطقة إيلام التي وجدها موسى بضرب العصا، قد اندثرت الآن على أثر تطوّرات الطبقات الأرضية، ولكن بالقرب منها قد حفروا ما يقرب من سبعين بئراً ذكرى لتلك الينابيع أشتهرت بـ «عيون موسى». وفي هذه المنطقة تنمو شجرة «الطرفاء النيلية» التي يتجمع «المنّ» على أوراقها.
إنّ تبرير هذا المحقق وأن كان يوافق هذا الباب من التوراة، ولكنه لا يتطابق وظاهر الآية، والباب السابع عشر من التوراة المذكور سابقاً.

في الصحراء، سوء الطبع والاحتجاجات التافهة، كلّ هذه الأمور دفعتهم إلى مثل هذا القول. واليهود مع كلّ ما رأوا من الآيات من موسى، وسمعوا من الوعود التي شاهدوا بعضها، وعليهم أن يصلوا الى البعض الآخر مثل احتلال المدن وتأسيس دولة مستقلة قويّة بعد الرحلة والتنقل في الصحراء، مع هذا كانوا يتمرّدون على هذا النبي العظيم مع اطاعته ومسايرته، بل كانوا يسيئون الظنّ به، كما كانوا يقولون: أخرجتنا من مصر لتقتلنا من كثرة الجوع والعطش!

وكانوا يعيشون دائماً في حال شكّ وريب، ويبحثون كل يوم عن حجّة وعذر، كانوا يثورون على موسى تارةً، ويطلبون منه إلها خاصاً تارة أخرى، وتارة كانوا يطالبونه بالرجوع الى مصر.

حرف «لن» في هذه الآية والآية السابقة: «لن نُؤْمِنَ لكَ» يدلّ على حججهم الواهية وتعنتهم. وفي الحقيقة كانت الحكمة الالهيّة وقصد موسى والعظماء هو هذا، وهو أن يباد هؤلاء القوم المتطبعين على الذلّة وضعف الارادة والعجز، خلال مدة حياتهم في الصحراء، ويحل محلّهم أولاد أقوياء ذووطموح وهمم عالية. واحتمال أن يكون بنو اسرائيل قد ضاقوا ذرعاً من البطالة في الصحراء لأنّهم كانوا قد اعتادوا الزراعة والعمل في مصر، فتقدموا بمثل هذا الطلب غير صحيح؛ لأنّهم كانوا في مصر يجبرون على العمل والزراعة بقوّة السياط، والآية أيضاً تقول عن لسانهم: ﴿فادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرضُ!﴾ وهذا التعبير يدلّ على تراخيهم وطفيليتهم، لكونهم عالة وطفيليين إمّا على الناس أو على موسى وإله موسى؛ لينبت لهم من محاصيل الأرض ما يرغبون بدون تعب. هذه الخضروات والحبوب «مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا...» التي طلبوا إنباتها من الله والنبي كانت نموذجاً من محاصيل الأرض ومطالبتهم بالتفنن والتنوع في الطعام؛ لأنّ بني اسرائيل كانوا يتمتعون في أيّام حياتهم الصحراويّة وبعد أن استقروا لمدة في القرية بالأطعمة البسيطة الصحراوية الطبيعية وما تدرّ عليهم أبقارهم وأغنامهم (التي كانت معهم كما يحدّث

التاريخ)، ولكن هذه الأطعمة كانت بسيطة وعلى نسق واحد. ومثل هذه الأطعمة الحيوانيّة عندما تتركب مع انواع المحاصيل الزراعيّة، تظهر انواع من المروقات، ويبدأ التنوع والتفنن. والإتساع في التنوع وذلك بدون كدّ وتعب إنما يتهيّأ في حياة المدن المرفّهة.

يفتح هذا الطلب صفحة جديدة في حياة بني اسرائيل، وأنّهم يميلون إلى المدينة بعد الانتقال من الحياة الصحراوية والاقامة في القرية. وهذا ـ في الحقيقة ـ نموذج ومثال من التطوّرات الاجتماعيّة يتمثل في قصة حياة اليهود في القرآن.

إن التحوّل من الحياة البدوية (الصحراوية) إذا كان يبدأ من المبادىء الإيمانية والأسس الأخلاقيّة، وتتقوّم عناصره وأسسه الأولى من أشخاص مؤمنين ذوي مسؤولية وجدانيّة وطبع إنساني، ويوجّهون من قبل تعاليم قادة مفكرين مجتهدين، تكون النتيجة التنسيق الفكري والتقدم العقلي واستفادة الأشخاص والطبقات وإفادتهم، وإعمال قواهم النفسيّة، وتكون الثروات الطبيعيّة في متناول اليد وهذه هي المدنيّة الصحيحة والمدينة الفاضلة أو الإلهيّة:

«سمّيت يثرب بعد هجرة الرسول الكريمﷺ وأصحابه باسم «المدينة»[1] وأصبحت الهجرة إليها واجبة بالنسبة إلى الذين كانوا يعيشون في صحراء الكفر والشرك ومدنه[والرجوع عن الهجرة]. سمي رجوعاً إلى الجاهلية والتعرّب بعد الهجرة، وأصبح مذموماً منهياً عنه. روي عن الرسول الكريمﷺ أنه كان يدعو الله: إلهي ثبت هجرة أصحابي وأمضها، ولا تردّهم على الأعقاب[2].

ولو بدأ التمسك بالمدينة والاجتماع فيه من مبادئ الشهوات وتأمين اللذائذ، فهو

---

١) لم يكن تسمية يثرب بالمدينة تسميّة تعيينية؛ بل تعيّنيّة لأنها أخذت توصف بمدينة الرسول بعد هجرة الرسول الاعظمﷺ إليها مع أصحابه، ثم حذف المضاف إليه على مرور الأيام واكتفي بالمضاف فقط أي بلفظ «المدينة» الى درجة بحيث يتبادر الذهن إليها بمجرد صدور اللفظ شريطة أن تكون مصحوبة بأل العهديّة. الترجمان.

٢) لم اعثر على النصّ العربي للحديث. الترجمان.

ملازم لانحدار القوى المعنويّة والعقليّة والجسميّة وسقوطها من محيط الحـياة الفـطرية البدويّة؛ لأنّ حياه الصحراء وعاء طبيعيّ يحافظ على العقل الفطريّ والنفسيّات والجسم من الآفات من كل ناحية، وينمي القوى الفطريّة. فالعقل الفطريّ في الصحراء يواجه نظام التكوين، ويتغذى الجسم من النور والهواء والأغذية الطبيعية. ولا تحدّده حدود القوانين وقيوده، وكل فرد أو قبيلة منتبهة دائماً إلى العدوّ وتملك نفسها وتدافع عن حقوقها. ولم يكن فرد الصحراء وقبائلها كالمدنيين المساكين عالة وطُفيليّين على الآخرين. ولا طريق للطباع السيئة المسرية والأمراض الناتجة عن التفنّن [في الأطعمة] والنهم الشائعة فـي المدن، لا طريق لها في حرم الصحراء. ولذا فإنّ مـثل هـؤلاء النـاس يـتقبلون التـربية والتهذيب والهداية أكثر من غيرهم. كما أنّ أتباع الأنبياء والمصلحين والمدافعين عـن الحرمات انطلقوا من بين هؤلاء. ولكن المدنيّين الذين اجتمعوا مع بعضهم للتفنن والنهم والكسل، ويدعون مثل هذا التجمع مدنيةٍ، تكون أجسامهم وأرواحهم ضعيفة وعاجزة، ويستخدمون قواهم العقليّة وتفكيرهم في الحيلة وتـدبير المـعاش وطـرقه، ولذا فـإنّ الألباب تخلو من الإدراكات الفطرية، وتخيم عليها الأفكار الشيطانيّة وتمنع عنها النور، فيتخلفون عن إدراك غاية الحياة السامية وتمييز الخير والصلاح، وتتراخى الإرادة فـي مقابل القوانين وعنف الحكومات المستلزمة لمثل هذه الحياة.

إنّ مثل هؤلاء المدنيّين يقعون دائماً في معرض التقليد والمحاكاة، ويتهيجون بإثارة الطمع والجشع وهيجان العواطف ويخمدون، ويتبعون كلّ صوت، ويرقصون كل يوم على قرع كلّ طبل، لأنّهم يعيشون تحت سيطرة القوانين والبوليس، ولا قوّة لهم للدفاع، ولا يفكرون بالعدوّ، ويضطجعون دائماً في فراش الراحة وعدم المبالاة. وكلما ضعفت قـوّة إرادة هؤلاء المدنيّين ومقاومتهم وضعف جسمهم بصورة أكثر، ازدادت عليهم سـلاسل الرقيّة والعبوديّة على شكل قوانين في صالح الطغمة الحاكمة. إلى أن يخلو باطنهم مـن قابلية الخير وروح العزّ والشرف والخصال الانسانية الأخرى.فينقلبون إلى أخسّاء أشباه الانسان، وجهلة أشـباه العـلماء، ومـرضى أشباه الاصـحّاء، وأرقـاء أشـباه السـادة،

ومحكومين كالحاكمين، بأبدان مرضى ونفوس ذليلة سائبة. ومثل هؤلاء الناس هم عبيد كل قويّ، وأعداء كل ضعيف، ولقمة كلّ صيّاد، وسخريّة كلّ مكّار. والبيئة التي تتألف من مثل هؤلاء لا تنتج سوى العجز والحيرة والذل، و تنسدّ بوجوههم أبواب الخير والسعادة، وتنفتح أبواب الشر والفساد.

نعم؛ إنّ الاسراع في الوصول إلى الشهوات الكاذبة، والاقبال على التنوع والتفنّن يؤديان إلى مثل هذه البيئة. قال اليهود: «لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعَامٍ وَاحِدٍ...» فقال ذلك النبي العظيم الذي يفكر بالخير وينظر الى العواقب:

﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ...﴾: الهمزة للانكار والتعجب، و«الذي» الموصوف بـ «أدنى» تدلّ على البيئة والحياة الوضيعة الشريرة التي تبدأ من التنوع في الأطعمة والشهوات. «الذي» الموصوف بـ «الَّذِي هُوَ خَيْرٌ» يعيد الى الاذهان بيئة الحياة البسيطة المجيدة السابقة التي هي مصدر كل خيرٍ.

وهذه من بلاغة القرآن الخاصّة أن جعل الخير مقابل الأدنى اللذين يفهم من كلّ منهما وصف صريح و صفة متقابلة مع الأخرى: إثارة الشر من الأدنى، ومن الخير الرفعة والتفضيل.

﴿إِهْبِطُواْ مِصْراً...﴾: إنّ هذا الهبوط هو صورة أخرى من هبوط آدم: «اِهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...» (الآية ٣٥). كان هبوط آدم فردياً ومن جنة العقل والفطرة النبوية وبسبب التقرب من الشجرة، الى مهبط التضادّ والعداء، وهذا هبوط اجتماعيّ (في مثال قصّة اليهود) وهبوط محيط فطريّ بدويّ بسبب الاهتمام بالتنوع في الطعام، الى مهبط الذلة ومسكنة المجتمع المنحدر المتمرّد من أحكام الله المبتلى بغضب الله.

وبعد هبوط آدم وذريته بشّر الربّ الحكيم بأن يبعث هداةً للإنقاذ وإضاءة طريق الصعود ـ فالذين يتبعونهم ينجون من حزن الإنحدار وخوفه: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

إنّ استذكار قصص اليهود بعد قصّة آدم تحقيق لهذه البشارة، وصعد بنو اسرائيل باتّباع

هداية موسى من مهبط خوف مصر وحزنها، وعادوا الى جنّة الأمان والفطرة والحريّة، إلى أن اجتذبتهم جاذبية الشهوات إلى الأسفل مرة ثانية، وتمرّدوا على الهدى، فابتلوا بالهبوط في المدينة والمجتمع الشريّر. والمقصود من «مصر» هنا التي جاءت نكرة ومنونة هو المدينة والمجتمع الواسع، لا البلد المعروف كما يظن البعض؛ لأنه من المسلم أنّ بني أسرائيل لم يعودوا الى مصر بعد ذلك ولاهم كانوا قد وصلوا الى بيت المقدس حين نزول هذا الأمر «اهبطوا»؛ لأنّهم لم يكونوا يقربوا منه بعدُ. والتعبير عن المدنية والمجتمع الكبير بمصر ربّما كان من جهة الشبه اللفظيّ للتذكر بحياة بني اسرائيل الذليلة في مصر حيث سوف يواجهون مثل هذه الحياة مرة ثانية نتيجة طلباتهم وجزعهم:

﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ...﴾: كل ما تريدونه موجود في المدينة بدون تقوى، وباب الشهوات والتنوع في الأطعمة والتفنن في الحياة مفتوح؟ ويرافق ذلك الذّلة والمسكنة وحقد المخلوق وغضب الله. وكلما أنفتح المجال أمام الأمنيات الخداعة أكثر توثقت قيود رقية المال الذي هو آلة الأمنيات ورقيّة الأقوياء والحاكمين بصورة اكثر على النفوس وخمدت شعلة هداية العقل وحرارة الغيرة والرجولة والهمة أكثر فأكثر، وترسخت طباع النفاق والرياء والكذب والتملق في النفوس أكثر من كل وقت.

فالذلة تحيط كالخيمة بمثل هؤلاء الناس من كل جانب. أو تبقى في نفوسهم كالنقش الثابت، وتتحول الى ملكات وأخلاق: «ضُرِبتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ...» كما أنّه لا يستيقظ الشعور بالعزّة والرفعة في مثل هؤلاء الناس ابداً، فيصبحون كالماء الراكد مورداً لكل وارد ومكانا لنمو أنواع [جراثيم] الأمراض وانتشارها: «والمسكنة». وتغلق بوجوههم أبواب الخير؟ وتفتح أبواب الشرّ، إلى درجة بحيث أينما اتجهوا يواجهون الغضب الإلهي الذي يبدو من عيون الناس وقلوبهم وألسنتهم، وهم أيضاً غاضبون على أنفسهم ـ بحكم الضمير ـ وبريئون من أنفسهم. وعندما تلتهب شرارة هذا الغضب من باطن المجرم وغير المجرم تحوّل وجه البيئة والفضاء إلى حالة الغضب أيضاً.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ بالنظر إلى هذا البيان ينكشف الستر عن أسرار كلمة «باءُوا» وتنكير «بِغَضَبٍ» و«من» النشئية والابتدائيّة في «من اللهِ» الى حدٍّ ما.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُواْ يَكْفُرونَ بِآيات اللهِ...﴾: لمّا اتبعوا الشهوات انطفأنور عقلهم في مجرى أهوائها؛ لأنهم ابتلوا بالملكات والعادات السيئة، وصدأت صفحة فطرتهم. وعلى اثر هذا التغيير صار الكفر بآيات الله طريقتهم وحرفتهم الدائميّة. وأصبحوا يواجهون الذلّة والمسكنة نتيجة الكفر بالآيات الجليّة في العالم، التي تشع من وجود الأنبياء وألسنتهم؛ لأن الإيمان بالآيات الربوبيّة هو الذي ينير الفطرة ويلهب العقول ويقوّم الإرادات في طريق الخير والعمل: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ...» بيان لسبب الذلة والمسكنة. وتفيد «كانوا» تغيير الفطرة، و«يَكْفُرُونَ» الاستمرار في الكفر.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّيْنَ بِغَيْرِ ٱلحَقِّ...﴾: وعلى أثر انغماسهم في الشهوات وكفرهم بالآيات يقتلون الأنبياء العظام الذين يسارعون الى مساعدتهم ووعيهم لأنهم يعارضون أهواءهم وشهواتهم بغير حقٍ (كما أنهم يقتلون العقل والضمير اللذين هما نبيان باطنيان) وان لم يقتلوهم في الظاهر يخمدوا دعوتهم وصوتهم دائماً. ﴿ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يمكن أن تعود «ذلك» على الكفر وقتل الأنبياء: وسببه التمرّد و التطبع على الظلم، أو تعود على جميع الأمر الامور المارّة.

وعاد سياق الآية من جملة ضُرِبَتْ عَلَيْهِم...» من الخطاب الى الغيبة: لأنهم أعرضواعن الله وأوامره واتجهوا نحو الشهوات الوضيعة، فأعرض الله وجه الخطاب عنهم أيضاً، وودّع قصّة ذلّتهم ومسكنتهم والغضب عليهم، وكفرهم بالآيات، وقتلهم الأنبياء وتمردّهم واعتدائهم صفحات التاريخ بالخبر عن الماضي المحقق الوقوع. وهذا من معجزات بلاغة القرآن وتمثيله وتصويره!

﴿إِنّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَ ٱلصَّابِئِيْنَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱليَوْمِ الآخِرِ وَعمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّوْرَ خُذُوْا ما آتيناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاْذكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٤) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِنْ بَعْدِ ذلكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِيْنَ (٦٥) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُوْنُوا قِرَدةً خاسِئِيْنَ (٦٦) فَجَعَلْنَاها نَكالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَما خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِيْنَ (٦٧) ﴾.

معاني المفردات:

هادوا: صاروا يهوداً. قيل: إنّها من هَادَ (تاب وعاد) لأنّ اليهود تابوا من عبادة العجل، أو من هاد بمعنى مَالَ، لأنهم أعرضوا عن أوامر موسى؛ لأنّ كلمة «يهود» لغة عبريّة؛ إذاً لا يمكن البحث عن مادّتها في اللغة العربيّة، ومعناها بالعبريّة الثناء، وهو اسم الابن الرابع ليعقوب؛ لأنّ أمّه حين ولادته كانت تثني على الله، وكان أقوى أسباط إسرائيل أبناء يهوذا، وأفضل مناطق فلسطين بعد فتحها بقيادة يوشع وقعت بأيديهم، وأضحت مدينة يهودية المركز الديني والمحافظة على ناموس موسى وأحكامه، واستمرت سلطنة سبط يهوذا بعد خراب دولة اسرائيل خمسا وثلاثين ومائة سنة (١٣٥)، ولذا دُعي جميع الاسباط باسم اليهود بعد رجوع بني اسرائيل من اسر بابل يهود اسم جمع واحده يهودي كالزنج والزنجي.

النصارى: أتباع دين عيسى عليه السلام. قال البعض الكلمة من «نصر» وجمع نصران. على وزن «فعلان» جاءت للمبالغة مثل غضبان وعطشان: الغضوب بشدة، والذي أصابه العطش الشديد، ويراها البعض جمع نَصَرِي بفتح الصاد وكسر الراء، مثل مَهَارى جمع مَهَرِيّ. ونَقْلُ القرآن عن أصحاب المسيح يؤيد أشتقاق نصارى من نَصَرَ: «نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ» لأنّ تلامذة المسيح والمسيحيّين الأوائل نصروا عيسى ودينه بالصبر والاستقامة. ولكن الظاهر أن النصرانيّ ينسب الى مدينة «الناصرة» على غير قياس، والتي كانت محل نشأة المسيح في الصغر ومسكن أمّه. ولذا قالوا لعيسى ناصريّاً، وأصبحت هذه المدينة محل الاسقف الأعظم ومزاراً للمسيحيين.

الصابئين : جمع صابئي، من صَبَأ «خرج وترك دينه» لأنّ الصابئين تركوا دين التوحيد، ومالوا إلى الشرك وعبادة النجوم. وربّما كان من الأصل أسماً للجماعة المتمسكين بهذا الدين.

قيل ان هؤلاء كانوا يؤمنون ببعض الأنبياء والمعاد، وكانوا يعتقدون بتأثير الروحانيين وتدبير النجوم لأمور العالم، وكان يقيم أكثرهم في نواحي الموصل وبابل[1]. ويعتبرهم جمع من الفقهاء في حكم أهل الكتاب، بناءٌ على هذا أخذ الفعل الماضي «صَبأ» من الصابئين ثم صار عربياً، أي أتخذ ديناً آخر.

ويرى بعض المحققين أن الصابئة كانوا يعبدون الملائكة، في مقابل «الحنفاء» الذين يدعون بفطرة التوحيد، وكانوا يعتقدون بأنه لما لم يمكن معرفة الله كما هو والوصول الى كنه ذاته، يجب التقرب اليه والتشبه بالوسائط الروحانيين، وهؤلاء الروحانيون هم أسمى من المادة و عوارضها، وظهروا في هياكل النجوم القدسيّة، ويدبرون أمور العالم.

الطور: الجبل، أو هو جبل خاص.

السبت : [أول يوم من الأسبوع بالترتيب الاسلامي، يأتي بعد الجمعة] الراحة والانقطاع عن العمل.

القِرَدَة: جمع القرد.

خاسئين: جمع خاسىء، المطرود، المبعّد الذي يمنع من التقرب الى الناس، عين خاسئة: العين المتعبة العاجزة عن النظر.

النكال: من النكول: الخوف، التقهقر، الخوف من العمل، النِكل بكسر النون: الغُل القوي، والقيد، واللجام.

استنتاج وربط:

تُستنتج هذه القواعد الاجتماعية الثابتة العامّة وتلخص من الآية السابقة: إن اتباع

---

١) ويعيش الآن كثير منهم في المناطق الجنوبيّة من العراق كالناصرية والبصرة ويمتهن اكثرهم الصياغة. الترجمان.

اللذائذ والشهوات النفسية الكاذبة تؤدي إلى الإعراض عن إتباع المصلحين والأنبياء وتؤدي الى مهبط المدينة والمجتمع، المعدّ فيه وسائل إشباع اللذائذ والشهوات الكاذبة، وعندما يرجع شعاع العقل والفطرة في هذا المهبط عن الاتجاه الى الحق، يتجه نحو الإنطفاء. وتحيط الذلّة والمسكنة بالجميع على أثر التنوع في الطعام وازدياد الأمراض وعجز الجسم ورخاوة القوى النفسية، وبالتالي تنفصم عرى الفضيلة والتقوى، ويظهر الاعتداء على الحدود والحقوق، وتؤخذ الصرامة في القوانين من أجل التحديد. ومن أجل تنفيذها يمتد ظلّ شؤم من الطبقة الحاكمة والجهاز البوليسي على رؤوس الجميع. وتعجز النفوس وتذل اكثر فاكثر بين قيود القوانين الصعبة وتحت ظل الحاكمين المظلم. في هذا المحيط، يقتل الأنبياء والمصلحون وأتباعهم الحقيقيون الذين يريدون أن ينيروا العقول ويحطموا القيود ويأخذون بيد هؤلاء المساكين، ويطردون و يسجنون باسم الإخلال بالأمن والنظام ومخالفة المصالح، بواسطة سلطة الحاكمين ومساعدة نفس هؤلاء الجماهير المستضعفة. وفي مثل هذه البيئة التي تنحدر فيها الفطرة والفضائل النفسية وتمسخ، سوف ينحدر النظام الإلهي والدين الذي يتقبله العقل الفطري ويمسخ أيضاً، ويتبدل النظام الفطري الإلهي بالألقاب والنسب والامتيازات والعصبيات القومية في إطار المعاهدات و امتيازات الحضارة المنحدرة. وهذه الألقاب والأنساب ترافقها الأعمال التي لا روح فيها تعتبر ظناً أنّها الوسيلة للتفضيل في الدنيا والفلاح في الآخرة، كما ظنّ ـ اليهود ـ بعد الهبوط في المدينة، وتشكيل المجتمع، وتأسيس هياكل العبادة، وتنفيذ المراسيم، وظهور الطبقة الممتازة وتجار الدين (الكهنة والحاخامات)، ظنوا أنهم أفضل من الجميع بالالقاب والأنساب وانجاز المراسيم والتقاليد وأن الدنيا والآخرة خاصة لهم. ويواجه أتباع جميع الأنبياء هذا الغرور والانحدار الديني الى حدّ ما، وهذه الآية:

﴿إنّ الَّذينَ آمَنوا والَّذينَ...﴾: تعلن نظام الله وطريق الفلاح لجميع مخلوقات الله في كل زمان ومكان من أفق أسمى من النظرات القاصرة؛ ذلك النظام الواسع الشامل

للجميع كرحمة الله، ويهدم جدران العصبيات والامتيازات التي تحدّد نظر لطف الله ودعوة الأنبياء. وهذه الآية توضح بصراحة لا تقبل التأويل والتقييد بأن شرط الفوز والفلاح هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. ولما كان في مقام بيان قاعدة عامّة ومواجهاً لأفكار اليهود الغرورة، فلو كان البيان يحتاج إلى قيد أو شرط لكان من الواجب بيانه بصراحة.

ومن الواضح أن المقصود من «الذين آمنوا» مثل «الذين هادوا» هم الذين دخلوا في الحوزة الاسلامية، وآمنوا إيماناً نسبياً ظاهرياً، وارتبطوا بالاسلام. والمقصود من «مَنْ آمَنَ باللهِ» هو الايمان الحقيقي النابع من القلب والباطن، ويشع على النفس، ويصدقه العقل الفطري، ويخلص من ظلمات الشرك، مثل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ...» الإيمان الذي يخضع النفس أمام عظمة الله والقلق من الآخرة، ويكون مصدراً للعمل الصالح، وهذا الايمان العقليّ والوجداني يختلف عن النسبة الى النظم والتقاليد والعادات ونسّاج الخيال والغرور والامنيات الذين اختاروا في نسائجهم. وهؤلاء ينظرون نظام العالم الواسع من نوافذ خيوط نسيجهم، مع أن الإيمان بالحق يحرّر من كل قيد وخيط وهمي، ويسمو بالعقل الى الافق الاعلى: ﴿لَيسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَاني أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءً يُجزَ بِهِ﴾ إنّ الحق غير مرتبط بالأمنيات ولابما ينسجه أهل الكتاب كلّ من يعمل عملاً سيئاً يرى جزاءه. أعاد القرآن الى الاذهان دائماً القانون العام والسنّة العامة للفوز والجزاء لكيلا يواجه أتباعه أمنيات الماضين من الملل والنحل ما كانت تنسجه أخيلتهم!

إنّ هذه الأديان الأربعة: «الاسلام، اليهوديّة، النصرانيّة، والصابئية، المذكوره في الآية هيالنموذج الكامل للأديان الحقّة أو المعروفة التي ظهرت في الشرق الأوسط ومهد الأنبياء. تتمكن أكثر النفوس ذات القابليّة في محيط دعوة هؤلاء وتهذيبهم من الإيمان بتوحيد المبدأ والدار الآخرة، وتمييز العمل الصالح تمييزاً جيّداً، وإلّا فمقصود الآية كليٌّ و عامٌ ولا يختصّ بأتباع هذه الأديان. ويُفهم من سياق الآية ووجهة نظرها كون هذه

الأديان مجالاً [للايمان والعمل الصالح]: فقد ذكر في البداية هذه الأديان الأربعة، وجاء بـ«مَنْ آمَنَ....» بصورة مطلقة وبدون قيد بـ«مِنهم» أو «من الذين آمنوا». وفي بيئة هذه الأديان يكون الارتباط والعادات والتقاليد والمراسيم والغرور سبباً لانحدار وضياع أصل الإيمان الباطنيّ بالله والآخرة والعمل الصالح، ويعتبر كل من ينتسب الى دين من الأديان نفسه الفائز فقط ويحكم على الآخرين بالعذاب. والنموذج التام لهذا الغرور اليهود الذين خاطبتهم الآيات.

إذاً فالمفهوم المخالف للآية هو: إنّ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً واقعياً ولا يعملون عملاً صالحاً ليس لهم مكافأة عند الله ولا أمان لهم ولا راحة. والانتساب الى الدين والأنبياء وحده لا يرفع من مقام أحد وعمله عند الله، ولا يزيل القلق والخوف.

الأنبياء هم الطلائع نحو الايمان والعمل الصالح، ويدعون الآخرين لهذه المبادىء، ويقودونهم وراءهم لذلك الإتجاه، لا باتجاه أنفسهم. والذين يتبعونهم بحقٍّ ويصلون الى درجة الإيمان والعمل الصالح هم الفائزون يقيناً. فالذين يسمعون دعوة الأنبياء ولهم قابليّة التحقيق ويقصرون عن ذلك، لما كانوا لم يتخلصوا من الدواعي النفسيّة والتقاليد سوف لا يفوزون ولا يفلحون. والذين سمعوا دعوة الأنبياء ولهم قابلية التحقيق أو هم قاصرون عن ذلك يعذورن. ولو آمن هؤلاء بهداية العقل الفطري ونهجوا طريق الصلاح يؤجرون. وهذه الهداية نادرة في غير محيط الدعوة الدينيّة وتهذيبها وان كانت غير مستحيلة، كما أن الأزهار والثمار النضرة والمطعمة بصورة عامّة تنمو في المجال المعدّ لها وتحت إشراف البستاني الخبير بظروف التنميّة، ولو أن نبتة وردٍ أو شجرة مثمرة نبتت عن طريق الصدفة في الصحراء، لا يغض نظره البستاني عنها، ولا يبيدها، بل ينقلها الى الروض والبستان. إذاً يقسّم المكلفون من ناحية الإيمان والأصول كالأحكام والفروع الى الصائب والقاصر والمقصّر، ولكل منهم حكم.

﴿مَنْ آمَنَ باللهِ وَ...﴾: الإيمان بالله (كما فسّر في الآية الثانية) والإعراض عن جواذب الدنيا والمتغيرات وما سوى الله، والالتحاق بالحقيقة الثابتة الأبديّة، والدخول

في محيط الأمان الإلهي، والإيمان بالآخرة فتح المجال أمام نظرة العقل. فالشرائع والاحكام تؤدي ـ بمقتضى تكامل البشر العقليّ ـ الى ايجاد الظروف والمحيط [المناسب] لتطوّر النفس وفتح المجال أمام نظرة العقل. أو هي كالسفن المختلفة التي توصل الإنسان الى ساحل النجاة، وتخلصه من أمواج الحزن والخوف. وكلّما كان ما يقهر الأمواج أمتن في الصنع وأدق من قبل الشريعة كان يبعث على أطمئنان أكثر للوصول. وفي خلال ذلك لو تمكن السبّاح أن يوصل نفسه الى ساحل الأمان بقوته الشخصيّة وبواسطة قطعة من الألواح، فهو لاحق بالفائزين ونجا من الخوف والرعب.

«وَعمِلَ صَالِحاً...» مجيء المفعول نكرة «صالحاً» يفيد الإجمال والعموم: أي كل عمل صالح كثيرٍ أو قليلٍ، كبير أو صغير نابع من الإيمان: «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

يستفاد من لام الملكية والاختصاص وإضافة الأجر الى ضمير الجمع أن لكل شخص أجراً خاصّاً بمقدار إيمانه وعمله الصالح، وذلك عند المقام الربوبيّ الخاص «عند ربهم» المضاف إلى الجميع، ولا يضيع شيء لديه ولا يقلّ منه.

﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هم يَحْزَنُونَ﴾: إنّ هذه الآيات التي قصّت سرَّ الهبوط الاجتماعيّ وطريق الصعود في قصّة بني اسرائيل، هي متناسقة ومطابقة لآيات هبوط آدم وطريق صعوده: ففي تلك الآيات جاءت بشارة الفوز والفلاح بشرط اتباع الهدى، وفي هذه الآيات بشرط الإيمان، وكلاالهبوطين انتهيا [بهبوب] نسيم الاطمئنان والخلاص من الحزن والخوف.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّوْرَ...﴾ إنّ جملة «وَرَفَعْنَا» يبدو أنّها عطف تفسيري على «إِذْ أَخَذْنَا» أظهرنا العهد والميثاق المبرم بشكل رفع الطور فوق رؤوسهم.

ولو لم يكن عطفا تفسيرياً، فالرفع يكون من أجل إبرام ميثاق منفصل أُخِذَ منهم. وجملة «خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ» بدون واو أو فاء رابطة وبدون كلمة قلنا تفسير لـ «إِذْ أَخَذْنَا» و«رَفَعْنَا» إنّ رفع الطور كان يعلن لهم بأن حافظوا بكل قوة على الاحكام والأوامر التي أعطيناكم إيّاها. (وهذه القوّة فسّرت عن الامام الصادق عليه السلام بقوّة القلوب والأبدان).

فالأحكام والأوامر الدينيّة وسيلة للمحافظة على الإيمان القلبيّ وتقويته، إنّ الانشغال بإنجاز الأوامر يظهر بصورة العادة أحياناً فيكون نفسه ستاراً من الغرور يحجب العقل والفطريات، ويصبح مقدمة ووسيلة مقصودةً بذاتها. فالآية السابقة دلّت كالميزان والقاعدة على المقصود والغاية، إنّ الاستخفاف بالشرائع والأحكام يصدّ عن الوصول الى القصد أحيانا، كالراكبين في سفينة نجاة، لو نسوا غاية سفرهم، وانشغلوا بالسفينة وتعلقوا بها، فالغفلة والأمواج وحركات البحر المختلفة تنحرف بهم [عن القصد]، واذا لم يبادروا إلى تقوية السفينة وسدّ منافذها لا يصلون الى الساحل أيضاً.

إنّ الذي يحافظ على الأحكام والأوامر الإلهية ويضمن تنفيذها قبل كل شيء هو الإيمان بالاحكام وبمن جاء بها والشعور بالمسؤوليّة الباطنيّة بالنسبة لها، ثمّ التفكير والقلق من عواقب ترك الأحكام. وما ينقله القرآن والتوراة من حالات اليهود ونفسيّاتهم شاهد على أنّهم لم يكن لهم ايمان صلب برسالة أنبيائهم وأحكامها، ولم يستيقظ فيهم الشعور بالمسؤولية، لم يكن لهم عقل يفكر بالعواقب ولا ضمير مستيقظ ولا أذن صاغية. وفي مثل هذه الألباب الجامدة والأفكار القاصرة لم يكن للوعظ والتفكير بالعاقبة أثر ثابت دائمي أيضاً.

ومثل هؤلاء الناس يمكن سوقهم إلى الخضوع والاستسلام لمدة محدودة عن طريق الحسّ الظاهر وعرض نتيجة الإعراض عن الأحكام، ويجب إيجاد رعبٍ ومنظرٍ رهيب في قلوبهم وأمام عيونهم الى درجة بحيث يبقى دائماً في ذاكرتهم. كما يعتقد علماء الاجتماع والتربية بأن من الواجب عرض عواقب الذنب والزلل على شكل محسوس ومرئي بالنسبة للسواد العام القاصر الفكر.

إنّ عرض الجبل البركانيّ المتزلزل فوق رأس اليهود كأنّه تمثيلٌ رهيبٌ لعاقبة الاستخفاف بالأحكام وتركها ليستخدموا كلّ طاقاتهم لحفظ الأحكام وتنفيذها بتركيز هذا المشهد الرهيب في ذاكرتهم: «خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» إنّ التنكير والتنوين يدلّان على أنّه يجب استخدام كلّ طاقتكم للمحافظة على الأوامر الإلهية والدفاع عنها في مقابل طغيان الشهوات والجشع والتهديد. وقراء تهاجزءً جزءً، واذكروا وأنجزوا: «وَاذْكُرُوا ما

فيْهِ».

يتمكن القانون الإلّهيّ من أن يحفظ نفوس الفرد والعلاقات الجمعيّة ضمن حـدوده: «لعلكم تتقون».

ان نظام الشريعة صورة من نظام التكوين وكلاهما ناتجان عن مبدأ واحدٍ. إنّ القدرة التي أرست الجبل على الأرض وربطت الأرض بالعالم الكبير، هي التي أرسلت الأحكام، وأوكلت حفظها وتنفيذها الى اختيار الانسان المختار. ولو حدث ضعف أو خلل في نظام الكون أو الشريعة، لا يستقر الجبل على الأرض ولا حجر على حجر، ولا يبقى النـظام الاجتماعي قائماً.

وظاهر الآية هو ان الجبل أو قسماً منه ـ بذلك الجسم الماديّ ـ ارتفع على رأس اليهود.

يحتمل بعض المحققين والشخصيّات أنّ صورة الجبل غير المادية التي لها قيام بالعلة الفاعلية، تمثلت فوق رؤوسهم عن طريق الحسّ الباطني. والبعض الآخر يقول: أخذهم موسى الى سفح جبل بركانيّ من أجل إخضاعهم، والذي يقف الى جانب الجبل أو الجدار يقال: الجبل فوق رأسه. وجاء بالآية: «وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ» من سورة الأعراف كشاهد لتبرير ما يدعيه؛ لأن معنى «النتق» التحريك والهزّ؛ لأنّه اذا كان المقصود القلع والرفع من المكان كان الواجب ان يقال: قلعنا.

وعلى كل حال كان، كان القصد إرعاب اليهود لا إلا كراه، كما يقول البعض؛ لأنّه لا إكراه في الشريعة.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ...﴾ أعرضوا أيضاً مع ذلك الميثاق المبرم المشهود الرهيب عن أخذ الاحكام بقوّة وانجازها. وشملهم ـ أيضاً ـ فضل اللـه ورحمته، ولم يبتلهم بعذاب أليم، وارسل الأنبياء والموجهين لربّما تتهيّأ نفوسهم حسب السنّة الإلّهيّة ويفهمون الأحكام على ضوء الإيمان والفطنة ويطبقونها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوا۟ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ...): تكشف هذه الآية الستار عن حادثة عجيبة حجبها تاريخ اسرائيل، وذلك بجملة مؤكدة بـ«لَقَدْ» و«عَلِمْتُمْ»؛ لأنّ اللام

للتأكيد والقسم، وقد للتحقيق. والعلم يعطى بالنسبة للاوضاع والأحوال، لا للشخص، يقال: «عرفه، وعلم حاله وأوصافه»، والتعبير هنا بعلمتم (والمعلومون هم الأشخاص) بدلاً من عرفتم، يشير الى معرفة هؤلاء القوم مع أحوالهم وأوضاعهم.

لم يجر ذكر هذه الحادثة مثل كثير من الحوادث التي ذكرها القرآن، في التوراة التي جاءت كلّها في مناقب بني اسرائيل. وما ذكرها القرآن والتوراة معاً من الحوادث، يختلف تعبير القرآن في بيان كيفيتها عن أقوال التوراة اختلافاً كبيراً. وهذا بنفسه شاهدٌ واضح على أنّ القرآن نابع من ينبوع آخر. والذي يلفت النظر هو أنّ اليهود مع ما يبديه علماؤهم وعامتهم من اهتمام ومراقبة عن كثب لآيات القرآن لاسيما فيما نزل بحقهم، لم يسمع [حتّى الآن] عنهم أنّهم كذبوا هذه المواضيع والقصص القرآنيّة. و الروايات التي جاءت باعتبارها شرحاً وتفسيراً للقرآن فلما جاءت حول قصص اليهود في تفسير مثل هذه الآيات. واذا يوجد شيء فهو غامضٌ ومجملٌ! وهذا يشهد على دسّ أكثر هذه الروايات من قبل اليهود.

والآن ننظر الى موضوع الآية العام والخاص: إنّ عطلة السبت ـ من وجهة نظر التوراة ـ أمر واجب بل هي من شعائر اليهود ونواميسهم، وهي أهمّ من الفرائض الأخرى عندهم.

يقولون: إنّ الله أنهى بناء العالم يوم السبت وبادر الى الإستراحة. وخرج بنو اسرائيل في مثل هذا اليوم من مصر وتخلصوا من المصريّين. وعلى اليهود في مثل هذا اليوم أن ينصرفوا عن كلّ عمل، ويبادرون إلى إقامة شعائرهم. إنّ جماعة منهم كانوا يمتهنون صيد السمك ويقطنون على السواحل لم يحترموا هذا الشعار والناموس، وتحيّلوا من أجل الإعراض عن أداء هذه الفريضة. عندما رأى هؤلاء السواحل تخلو يوم السبت» وتُطوى الشباك ويكثر السمك، كانوا يعملون حياضاً صغيرة قبل يوم، وينصبون الشباك وعندما تقع الأسماك فيها يوم السبت يسدّون طريقها فيصيدونها في اليوم التالي.

فكما أنّ التقاعس في المحافظة على الأحكام وتنفيذها يذهب بالدين، وقد عرضت عاقبة ذلك الآية السابقة، فالمكر والاحتيال في الأحكام باسم الدين يغيّرها ويمسخها

أيضاً.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: الفاء تفريعيّة، والأمر «كونوا» يدل على سرعة إنجاز الفعل وتأثير ذلك الذنب في بروز هذا الأمر. وهذا الأمر ظاهر في التكوين: إنّ ذلك الاعتداء على حرمان شعائر الدين أعدّهم لينقلبوا قردة بأمر تكويني.

ان تكرار كلّ فعل بصورة مستمرة يترك أثراً في تكوين النفسيات حتى تكون على شكل ملكات وطباع راسخة تتناسب وذلك الفعل. فالتفات العامل إلى اختلاف العمل مع العقيدة الأصليّة يؤدي إلى نوع من التضاد النفسي والتغيير ومسخ فطرياته، وتترسخ تلك الطباع أكثر فأكثر. وعندما يتغلب كل واحدٍ من الطباع والملكات على النفسيّات تظهر آثاره على الوجه أيضاً، كما إنّ غلبة الغضب أو الشهوة أو الطباع الأخرى على نفس الانسان سرعان ما تبدو في وجهه، وتظهره كالحيوان الذى هو مظهر لذلك الطبع. كما تظهر الطباع الثابتة في هيكل الصورة والعين والحاجب والفم والأسنان وملامح الوجه وكيفية الشعر دائماً؛ لأنّ الوحدة الحيّوية الأولى «الجين» لدى الجميع أو أغلب الحيوانات لم تتميّز ظاهراً عن بعضها في البداية، وامتيازها الوحيد هو آثار وراثة الغرائز الحيوانيّة أو الملكات الانسانيّة. ولهذا كلّما تقدمت التراكيب الحيّوية تظهر الغرائز بصوره أكثر، وتتميّز الصور الظاهرية أكثر حتى تظهر بصورة تركيب جسمي خاص، وتبدو الآلات والوسائل والجوارح المختلفة كالأسنان و المخالب في الحيوانات المفترسة والمنقار والجناح في الطيور.

إنّ الشعور بالتقليد في ارقى الحيوانات كالقرد وأطفال الإنسان، بداية تطوّر وتحرر من الغرائز المحدودة وظهور نوع من التفكير فيتساقط ـ بعد ذلك ـ التركيب النفسي الخاصّ السابق. وظهور العقل والتدبير يميّز مصدر الأعمال ونتائجها، ليأخذ طريقه بتفكير حرّ. وهنا يجب أن تقوم التربية والتعليم الصحيحان والإيمان بقيادة طفل الإنسان المستعد لكيلا يبقى على حدّ التقليد الأعمى الخاطىء. واذا بقي في مرحلة التقليد وترسخ فيه هذا الطبع، يتوقف، ويطرد بعيداً عن كلّ خير وكمال، ويصبير آلة وألعوبة: «قِرَدَةً خَاسِئِينَ».

بالنظر الى سرّ الحياة هذا يجب الإعتراف بأنّ تغلب الملكات الوضيعة تؤدّي الى التوقف والمسخ النفسيّ، وتهييء المتوقف للمسخ الظاهريّ. ثم يتغلب الباطن على الظاهر بتصرف مبادىء العالم الفعّالة التي تمنح دائماً المواد المستعدة صوراً متناسبة بإذن الله (كما يشاهد في جميع الحيوانات بالتدريج).

ولو ستر الله الرحمن في هذا العالم، ففي العالم الآخر تغيّر الملكات الصور الظاهرية بحسب الموازين النفسيّة والإشارات القرآنية وصريح الروايات الصحيحة.

أيُّهَا الخـارِقُ ثـوب اليـوسفين ذئباً استيقظت من نوم سنين[1]

يقول البعض (كمجاهد) : مسخ باطنهم. وهذا الرأي يخالف ظاهر الآية؛ لأنّ تاريخ اليهود لم يؤيد هذه الحادثة، ولكن ظاهر الآية الستين (٦٠) من سورة المائدة تؤيد هذا المسخ الباطني ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مثوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيْرَ وَعَبَدَ الطَّاغوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْلَ﴾ (سوف يأتي تفسيرها في محلّها).

واحتمل البعض هذا التعبير للإهانة والتقريع، كما تقول: «عندما اتخذت السخرية حِرفةً لك إذاً كن قرداً إلى الأخير».

وهذان الاحتمالان لا يتلاءمان مع آخر الآية؛ لأنّ المسخ الباطني والتقريع لا يوجبان عبرة الآخرين وثباتهم. إلّا أن تكون النظرة الى صفة «خاسئين»: هؤلاء أشباه القردة عندما طردوا من قبل الناس أو جماعة أخرى من بني اسرائيل، صاروا عبرة لمن كانوا في ذلك العصر والذين أتوا بعدهم.

أولئك الذين سمت بهم وقدمتهم التربية والشعائر الدينية، ولما وصلوا الى مرحلة التكامل هذه لا تتمكن التربية غير الدينية والشعائر القوميّة أن تقيمهم، لأنهم عندما يتركون شعائر الدين ونواميسه يفقدون وحدتهم وقدرتهم ومعنويّاتهم بصورة تامّة، ويكونون لعبة وسخرية للآخرين، ولا يتمكنون من تقرير مصيرهم، ويطردون من مسرح

---

١) ترجمت البيت الفارسي ببيت عربيّ. الترجمان.

الحياة: «كُونُواْ قِرَدَة خاسئينَ...».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَومِهِ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحوا بَقَرَة قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِيْنَ (٦٨) قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِي قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافعَلُوْا مَا تُؤْمرون (٦٩) قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّـهُ يَـقُوْلُ إِنَّـهَا بَـقَرَةٌ صَـفْرآءُ فَـاقِعٌ لَـوْنُهَا تَسُـرُّ النَّاظِرِيْنَ (٧٠) قَالُواْ ادعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِي إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَا إِنْ شَاءَ اللهُ لمهْتَدُوْنَ (٧١) قَالَ إِنَّهُ يَقُوْلُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيْرُ الأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيْهَا قَالُواْ الآنَ جِئتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كادُوا يَفْعَلُوْنَ (٧٢)﴾.

معاني المفردات:

البقرة : بتاء التأنيث مؤنث البقر، والمذكر يقال له ثوراً مثل: الرجل والمـرأة: الجـمل والناقة، ويؤخذ اسمي المؤنث والمذكر من لفظين. وهنا لما كانت تاء البقرة للإفراد تطلق على المذكر والمؤنث في كل السنين من عمرهما.

هُزُواً: (تراجع الآية رقم١٤).

العوذ: الاستجارة واللجوء لدى شخص قدير على الدفاع [عن اللاجىء].

يُبَيّن: من بَيَّنَ بالتشديد: فَصَل وفَارَق، كل شيء يكون أوضح في العـين والتـعريف العقلي، وينفصل عن مثيله ويَبِين.

فارض: من الفرض: الفصل عن شيء، اجتناب عمل، التفتح، والحيوان الفارض هـو الذي يعفى عن العمل لعجزه، أو التي تتفتح ضلوعها ويتسع بطنها على أثر الولادة.

بِكر: بداية كل شيء، الوليد الأوّل.

عوان: بين الشيخوخة والشباب. عوان الحرب: وسطها.

بين : بالمعنى الظرفي: وسط، وبالمعنى المصدريّ: فرق. وجاءت هنا بالمعنى الظرفي.

ذَلُول: من الذلّ، ذلّلها الركب، العجز.

تثير : من الإثارة: تقليب الشيء.

الحرث: إعداد الأرض للزراعة، بثر البذور، المزرعة.

مُسَلّمة : من السلامة: سالمة من كل مرضٍ أو عيب أو نقصٍ أو كسرٍ.

شِيةَ: من الوشي: الخال، كل لون يختلف عن لون الجسم العام.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ...﴾: الإضافة الاختصاصيّة الى الضمير «قومه» تعلن عن حبّ موسى الخاص وإرادته الخير بالنسبة لقومه. ونسبة الأمر الى الله للمنع عن الشُبهة والشك، والتعبير بصيغة المضارع «يَأمُرُ» أكثر تأكيداً من الماضي، ويشير الى استمرار هذا الأمر. ولكن بني اسرائيل بتلك الروح الجامدة والشك في كل أمر، وبلهجة حادّة قالوا: «أتتّخِذُنَا هُزُواً؟» فقال موسى بلهجة هادئة كثيرة المعنى: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ ٱلجَاهِلِيْنَ﴾. إنّ نسبة الهزو والسخرية بالآخرين الى رجل إلّهي ونبي موجه أفضع من كل فضيع وغير لائق. وجعل الآخرين العوبة هو فعل الناس الأخساء الوضيعين، وهؤلاء هم الذين يجعلون من الآخرين لُعبَة لأهوائهم، ولا يعرفون قيمتهم ولا قيمة الآخرين. والأنبياء العظام الذين يعرفون قيمة الطاقات البشريّة المعنويّة غايتهم الوحيدة في مقام التعليم تعريف هذه القابليات، ويرفعون بالأوامر التي يصدرونها هذه القيمة و الشخصيّة، ويحافظون عليها من الانحدار. فالظاهر من الجاهل في هذه الآية هو الجاهل بالمقام الإنساني «وإلّا فكل شخص لا يكون عالماً مطلقاً أمام أسرار العالم، وعظمة خالقه، ومثل خاتم النبيّين ﷺ كان ماموراً بأن يقول: رَبِّ زِدْني عِلماً». ولما كان الاستهزاء نتيجة لمثل هذا الجهل وهو بذاته ذنب عظيم، استعاذ موسى في الإجابة على هذه التهمة لا أنه استغفر أو تبرّأ منها، لأنّ الاستعاذة تكون حول مصيبة أو ذنب لا تكفي التوبة والاستغفار لدفعها أو رفعها.

وبعد هذه الإجابة بادر بنو اسرائيل ـ بدلاً من أن يدركوا أنّ الأمر موضع الجدّ ويجب تنفيذه بلا تريث ـ إلى طرح الأسئلة التافهة عن أوصاف البقرة وخصوصيّاتها، وصعّبوا

الأمر على أنفسهم بهذه الأسئلة الهزيلة؛ لأن مورد الأمر في البداية كان نكرةً «بقرةً» ولم تكن هنالك إشارة الى قيد أو صفة لها. إذاً لو كانوا يذبحونها في أيّ وقت لكانوا أبرءوا ذمّتهم من التكليف. ولكنهم سألوا أوّلا عن ماهيّة البقرة بعبارة ظهر فيها الشك والاستخفاف والأنانيّة: «أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ؟» تكرّرت «لنا» وهذا ما يدل على أنانيّتهم وغرورهم الأحمق، وقالوا :رَبَّكَ» بدلاً من ربّنا، و«ماهي» بدلاً من ماصفتها، وكأنّما لم يبيّن المقصود أوّلاً، والآن يجب أن يعيّن بطلب منهم. وفي الاجابة على هذا السؤال تعيّن سِنّها فقط. ثم قال «بعد هذا الوصف القصير» بحال وعظ وأمر؛ «فَافْعَلُواْ ما تُؤمرونَ»؛ وفي المرّة الثانية سألوا عن لونها، ثلاث مرّات، وكأنّما احتاروا عمّا يسئلون، ولكن بناء على طبيعتهم الاستحجاجيّة اللجوجة، وأنّهم ربّما يتمكّنون من تعجيز النبي من الاجابة ويخلّصون أنفسهم من التكليف، يسألون أيضاً عن ماهيّتها: «ماهي»، وعندما انتبهوا الى أنّ لجاجتهم وعدم حيائهم تجاوزا الحدّ يقولون بلهجة الاعتذار والاعتراف بضلالهم: «إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا...» وفي هذه المرّة بدت أوصاف البقرة المأمورين بذبحها أكثر، وموضوع التكليف أضيق تحديداً، وإنجازه أصعب.

إنّ عامة المفسرين حاولوا معرفة سبب هذا الحكم (ذبح البقرة) بتقليد بعضهم البعض، فبحث البعض عن القاتل المجهول وسبب القتل، ونسج البعض قصصاً من أجل تهيئة سعادة الشخص الذي كان يجني مثل هذه البقرة فباعها بثمن غالٍ، وكلها أخبار إسرائيلية، وليس لها سند إسلامي صحيح. إنّ ظاهر هذه الآية بقرينة الآيات الأخرى التي تدور حول اليهود والبقرة، هو أنّ الأمر كان أمراً مستقلاً، ولم يكن مقدمة لموضوع الآية التالية. ومجرّد كون هذه السورة المحتوية على حقائق ومواضيع كثيرة سُميت باسم «البقرة» هو دليل على أهمية هذه القصّة والحكم.

لما كان بنو اسرائيل محكومين من قبل المصريين لسنوات طويلة، فقد سيطرت عليهم خرافات المصريّين ومعتقداتهم شاءوا أم أبوا، حالهم حال الأقوام المحكومة المستضعفة الأخرى. وكانت البقرة إحدى مقدّسات المصريّين ـ ويذهب الظن إلى أنّ احترام البقرة

وتقديسها في مصر كالهند كان شائعاً بين طبقة الفلاحين وأصحاب الدواجن بصورة اكثر؛ ولما كان بنو اسرائيل مختلطين بهذه الطبقة التي تشكّل اكثرية الشعب في تلك البلاد أثر فيهم تقديس البقرة وعبادتها تدريجيّاً الى درجة بحيث نسيَ أكثرهم عقيدة التوحيد التي كانت عقيدة آبائهم. ولما كان تقديس البقرة في أوساط هذه الطبقات (مثل البقرة آبيس)[1] لم تشتهر هذه العقيدة في التاريخ اشتهار آلهة الطبقات الحاكمة في مصر. وربّما كانوا بعد خروجهم من مصر وحياتهم المديدة في الصحراء ومعاشرتهم للقبائل التي تعبد البقر قد تأثروا بذلك أيضاً. وفي أي مكان وعن أي طريق كان، كان لتقديس البقرة والعجل جذور في نفوسهم، واحتلّ حبّها قلوبهم، كما تشير الآية ٨٨ في هذه السورة الى ذلك:

﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ...﴾[2]. بناء على هذا، فإن اتّخاذ العجل بعد أيّام من غياب موسى لم يكن غفلة أو إغفالاً أو حادثاً فجائياً، بل كان منشأه علاقتهم بمثل هذه العبادة وجاذبتهم الباطنية نحوها. وبنو اسرائيل الذين لم يكن لهم شعور إدراك التوحيد الخالص، فكان لابد من أن يتخذوا لهم معبوداً محدوداً ومحسوساً، ولما كانت العصبية القوميّة وتعاليم الأنبياء وذم الآلهة الأخر تمنعهم من تقديس آلهة الآخرين وعبادتها، فاضطروا الى الإتجاه نحو هذا المعبود العالمي الجميل الحيّ المنتج العامل

---

١) عن كتاب «لاروس قرن بيستم»: آبيس، أو : هابي: بقرة مقدّسة كانت تعبد في «ممفيس». كانت «هابي» تجسماً لإله «فِتاح» بكسر الفاء، ورمزاً لطاقة الطبيعة الخلاقة. ويجب أن تكون لهذه البقرة علامات : هلال في ناصيتها، خنفسانة تحت اللسان، نسر على الظهر، كانت محفوظة في معبد طيلة حياتها. وعندما تموت تتحوّل الى «آزيرس» أو «ازار هابي» ولهذا كان اليونانيون والروميون يدعون آلهة المصريّين بأسماء: «آسارابيس»، «هاسارابيس»، و«سرابيس». وكانوا يدعون مقبرة الـ«آبيس»ـات «سرابئوم» وكان يطلق اسم «هابي» على إله النيل، والأرواح الأربعة التي كانت تراقب ظروف الاحشاء المحنطة أيضاً.

عن كتاب «بتي لاروس» : آبيس، أو: هابي: هي البقرة المقدسة لدى المصريّين القدماء، وكانت تتألف من أكمل آلهة الصور الحيوانية، ويجب أن تكون بها علامات من «ازيرس» و«فتاح»، على ناصيتها بقعة بيضاء كالهلال، وعلى الظهر شكل النسر أو العقاب، وتحت اللسان شكل الخنفسانة، وكان الكهنة يغرقونها في حفرة ماء كبيرة بعد مدة باعتبارها قرباناً للشمس، ثم كانوا يحنطون جسدها ويعبدونها.

٢) الآية ٩٣ من سورة البقرة (على الصحيح). الترجمان.

والمؤثر في الحياة.

لأن تقديس غير الله وحبّه إلى حدّ العبادة، يخفي شعور عبادة الله الفطري ويجعله نائماً دائماً. وأوّل ما كان يقدم عليه الأنبياء من إصلاح لإيقاظ الشعور والضمير البشري هو الكفاح المنطقي والعملي مع الأصنام والطواغيت، وازالتها عن طريق تقدّم العقل البشري، والطريق الوحيد لاستعادة نشاط القابليات العقليّة اللامتناهية وإحياء القوى المعنوية وفتح ينبوع عواطف الخير، هو الإقبال وتوجيه النفس نحو المبدأ اللامتناهي في قدرة كلّ كمال وفعليّته، وبمجرد أن يملأ الموجود المحدود المحسوس أو غير المحسوس عقل الانسان وشعوره من ناحية الحبّ والتقديس، لا يشع عليه نور تلك الحقيقة الأزليّة، وتنقشع تلك الأشعة من وراء قشر الشرك السميك.من جهة أخرى لمّا كانت عبادة غير الحق المطلق والالتفات إليه تجمد القوى العقلية، وتبخّر ينابيع عواطف الخير، فعابد الصنم أو البقرة أو الطاغوت (الشخص المتعنت الأنانيّ) لا يتمكن من إدراك قيمة الانسان الواقعية، وأغلى شيء في رأي عابد الصنم هو ما يعبده، ويعتبر نفسه مسؤولاً أمامه فقط. ولا يجد في ضميره شعوراً بالمسؤولية أمام القوانين العامّة والأحكام والحقوق والحدود. ولما كان الخوف و التهديد لا يبقى لهما أثر ثابت. فذانك أيضاً لا يمكن أن يكونا مؤثرين في الإلتزام بالحقوق والحدود. وبمجرد أن يرتفع الخوف والتهديد منه يعتدي (كما أعادت الى الأذهان الآيات السابقة في قصّة رفع الطور والمسخ) ويبيد النفوس المحترمة من أجل الوصول إلى أقلّ أمنياته الرذيلة (والتي تشير اليها الآية التالية).

وبالنظر الى هذه الحقيقة؛ كان أمر مجتمع اليهود العام لذبح البقرة، وعقد حفلة باسم ذبح البقرة (أو عيد الدم) أمراً خاصّاً: بحيث كان من الواجب على الجميع أن يجعلوا بقرة في الوسط ويشتركون في شرائها وذبحها. ولم تكن هذه البقرة للأضحيّة أو البيع، بل كان القصد إزالة ذكر تقديسها وعبادتها من الأفكار بهذا العمل، ويبقى أثر هذا الإجتماع العام في نفوس الكبار والصغار. هذا أسلوب الأنبياء العظام وأوّل خطوة لإصلاح النفوس وإحيائها، كما أنّ إبراهيم الخليل ـ أوّل من نادى بالحرّية ـ وخاتم الأنبياء ﷺ آخر من أتمّ

طريق السعادة كان لهما مثل هذا اليوم التاريخي في كسر الأصنام، وموسى أيضاً حطّم العجل الذهبي وأحرقه وَنَسَفَ رماده في اليمّ نسفاً. ولكن صورها الأصليّة كانت تعيش بينهم دائماً، وتمكن حبّها من قلوبهم، وكان آثار عبادتها وتقديسها واضحة في أعمالهم وإنحرافهم.

إن حدوث القتل الذي هزّ جميع بني اسرائيل، وأحدث ضجّة، وكأنّه أتاح الفرصة لموسى من أجل أن يُعلن هذا الأمر، مع العلم بأنّ تنفيذه كان ثقيلاً جداً على اليهود، وكانت الأسئلة والاعتراضات المختلفة كلها لهذا السبب، عسى أنّ يتوقف إنجازه.

﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً...﴾: يمكن أن يكون التعبير بالفعل المضارع «يَأْمُرُكُمْ» مشيراً الى أن هذا الأمر لا يكون لمرّة واحدة. فظاهر هذه الآيات والضمائر والإشارات هو أن أمر البقرة في الواقع كان معيّناً وكانت هي موصوفة بهذه الصفات:ـ بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك، صفراء فاقع لونها، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث، لا شية فيها. ولكن المأمور به الأوّل كان نكرة ومطلقاً، ولو أنجز ذلك بنو اسرائيل، لكانوا قد أنجزوا التكليف. إذاً لم يكن الحكم الأوّل منسوخاً، ولا جاء البيان متأخراً عن وقت الحاجة.

إنّ جميع الأحكام بأنفسها أو باعتبارها موضوعات لو كان لها واقعيّة، لما كان إدراك الواقع والعمل به صعباً، نفس هذه الصعوبة تؤدي الى تعطيلها. ولذا فإنّ الناس مكلفون بالظاهر فقط، وكلّما يزداد البحث في كلّ حكم وموضوع وتتفتح طرق الاحتمالات، يتقرب ذهن الانسان الى فهم الحكم الواقعي أكثر، ويبتعد المكلف عن التنفيذ والعمل بصورة أكثر: «وما كادوا يفعلون».

جاء في الرواية: لو كان بنو اسرائيل قد ذبحوا أيّة بقرة كانت لكانوا أدّوا ما عليهم من التكليف، ولكنهم استصعبوا الأمر، فصعّب الله عليهم. وهذا تذكير ودرس آخر تقدّمه هذه الآيات، وبذلك بيان خاص وصلةٍ بالآيات السابقة: فكما أنّ التقاعس عن الأوامر

وتأويل الأحكام يؤدي الى التعطيل، فكذلك الأسئلة التافهة، وفتح طرق الاحتمالات[1]

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيْهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٣) فَقُلْنَا اضْرِبُوْهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيِي اللهُ ٱلْمَوْتى وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلانْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنَ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٥) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلَامَ اللهِ ثمّ يُحَرِّفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦)﴾.

معاني المفردات:

النفس: الروح، الدم، الجسد، الشخص، الذات، الحقيقة، واذا كان القصد منها الروح فتأنيثها مجازيّ.

إدّارأ: من تَدَارَأَ «باب تفاعل»: دفع عن نفسه بشدّة ونسبها لغيره. وأدغمت التاء في الدّال، وبُدِئت بهمزة الوصل.

تكتمون: مضارع المخاطب من الكتمان: إخفاء الرأي والعقيدة التي يجب إظهارها فلا يبرزها. إذاً هي أخصّ من الإخفاء والستر، ومثلها.

---

١) يروي صاحب مجمع البيان في تفسير: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسأَلُواْ عَنْ أشياءَ إنْ تُبدَ لَكُمْ تَسَؤْكم...» عن ابن عباس: خطب رسول الله ﷺ فقال: ان الله كتب عليكم الحجّ. فقام عكاشة بن محصن، وقيل سُراقة بن مالك، فقال: أفي كلّ عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه، حتى عاد مرتين أو ثلاثاً. فقال رسول الله: ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». (استخرجت النصّ من مجمع البيان: ٢ / ٢٥٠. الترجمان.).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام (نهج البلاغة): إنّ الله كتب عليكم أحكاماً عليكم الّا تتركوها، وقرّر لكم حدوداً فلا تتعدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تهتكوها، وسكت عن أشياء لصالحكم لا عن نسيان فلا تتكلّفوها.

ملاحظة : جاء المؤلف رحمه الله بترجمة نص قول الامام عليه السلام الفارسية، وبذلت وقتاً كبيراً لاستخراجه فلم أفلح. الترجمان.

الآيات: جمع الآية العلامة، الصفة الخاصة، قسم من الكتاب السماويّ.

قست: إظْلَمّتْ بشدّة، النقد نُبِذَ. من القسوة الشدّة والصلابة.

يتفجر: مضارع تفعّل من الفجر: شقّ الطريق بالضغط، والخروج المتتالي، والإتضاح.

يشَّقّق: مدغم يتشقق من الشق: الفتق، فتح الطريق.

الطمع : النظر الى شيء لا يحصل بسهولة والتعلّق به.

التحريف: من الحرف، الجانب، الطرف: جعل الشيء جانباً، والميل به عن موضعه.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً...﴾: إنّ ما تذكر به هذه الآية وتخبر عنه بصراحة هو أنّ اليهود قتلوا شخصاً محترماً، ثم أخذت كل قبيلة تبرّىء نفسها باتهامها غيرها بالقتل، وأنهم أخذوا يتخاصمون فيما بينهم للعثور على القاتل وسبب القتل.

يستفاد الحصر والثبوت من الجملة الاسميّة: «والله مخرجٌ»، والذي يكشف الستر عن هذا السِرّ هو الله.. ويجب أن يكشف عن هذا السرّ من قبل الله فقط.

لماذا نسب القتل للجميع: «قَتَلْتُمْ؟»، كما أنّ القرآن أوعز النعم والذنوب وخصال قوم اليهود إلى يهود عصره، فجعلهم موضع خطابه وعتابه. وهذا إما أن يكون من ناحية الوحدة القوميّة، بحيث تنسب سجايا الأفراد والطبقات القوميّة وأعمالهم الى الجميع. وإمّا أنّ يكون مثل قوم اليهود المتشابهين في الأسلوب والأطباع والنفسيات الخاصّة بهم، فإنّ الاجيال اللاحقة تتّبع أعمال الأجيال السابقة منهم وتقرّها.

ان أغلب المفسرين يعتبرون هذه الآية مقدّمة لسابقتها: إنّهم (بنو اسرائيل) طالبوا موسى بتطبيق العدالة حول معرفة القاتل والحكم عليه. فقال موسى «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تَذْبَحُوا بَقرةً...» وعندما تصوّروا هذه الاجابة لا تلائم مطالبتهم بالعدالة، قالوا: «اتَتَّخِذُنَا هُزُواً؟».

وعلى هذا الانطباع، كان يجدر بهذه الآية أنْ تتقدّم لتطابق الواقع. وإذا لم يكن لانطباع المفسرين سند صحيح، فإنّ تقديم الأمر بذبح البقرة هو بنفسه موضوع مستقلّ ومهمّ، وهو بنفس الوقت يشير إلى القاتل الواقعي ومصدر كلّ جناية وشرّ؛ لأنّ الفطرة

الانسانيّة تكره الجور وما لايستساغ بقدر ما ترغب للحق والعدل والخير. وان الاعتداء على الحقوق وقتل النفس والظلم من العوارض النفسية، ويجب البحث عن أسبابها من الخارج كالأمراض الجسميّة، وإنّ المصلح الاجتماعي البصير كالطبيب ؛ يجب أن يعرف جذور الإنحراف وأسبابه ثم يبادر إلى العلاج.

وبالقدر الذي يكون الالتفات إلى الحق المطلق، مصدر خير وعدل وكمال، تكون عبادة غير الله مصدر نقص وشرٍ وفسادٍ؛ لأنّ حقيقة العبادة هي تقرب العابد الى المعبود والتشبه به، الذي تعتبره كاملاً مطلقاً ويظن بأنّ كمال نفسه في عبادته. إنّ عبادة الجماد تؤدي الى الجمود، وعبادة الحيوان تزيد الحيوانيّة، وعبادة كل موجود تؤدي بالعابد الى حدّ ذلك، والعبادة المطلقة تحرّر من كل قيد، وتحلّق بالعابد نحو كلّ كمال.

إذاً، فالعبادة على كل حال هي المصدر والجذر الفكري والنفسي لكلّ خير وشر، وهذا سرُّ: ﴿قُوْلوا: لا إلَه إلاّ الله تُفلِحُوا﴾، وأنّ الايمان والإعلان بهذه الحقيقة يؤدي الى الفوز و الفلاح المطلق، ويحرّر من كل حدّ وقيد. إنّ عبادة الحيوان هي عبادة الشهوات الحيوانيّة، سواءٌ كان على صورة دابّة عجماء، أو شبه إنسان مستبد محكوم من قبل شهواته وأهوائه. وعلى كل حال، فإنّ مثل هذه العبادة تحطّم حدود الوجدانيّات والفطريّات وتسبب كل أنواع الظلم. إذاً فالقاتل الظالم والسارق الجاني في الحقيقة هو ذلك المعبود بغير حق وعبادته، لا الانسان الذي تردعه فطرته الخيّرة وحبّه للحق عن كل ذنب وجناية إنْ أمدّها الإيمان بقوّته، ولم تنحرف.

وكان الأنبياء بالحق يكسرون الأصنام التي كانت مظاهر للشهوات والأهواء البشرية ويقتلونها من أجل إصلاح النفوس، وكانوا أيضاً يحطّمون الشهوات النفسية الطاغية بالدعوة الى التوحيد وحكومة الإيمان والفطرة الانسانيّة.

ان في الدنيا التي تحدّد الحكومة وعبادة الأصنام والكهنة والمستبدّون من عبدة الأهواء وانظمتهم وقوانينهم قابليات الجماهير العلميّة والعمليّة، وخيمت بظلمتها على البواطن وانحرفت بالفطرة، وأودت بالشعور الانساني الى السبات، ويفتحون طرق الشرّ

والفساد من كل جانب من أجل استمرار سلطتهم، في مثل هذه الدنيا يصنع رؤساء المجتمع ودعاة الإصلاح نظاماً عن غفلة أو للإغفال.

والمقننون يضعون القانون والحدّ والمادة دائماً للذين يباشرون الجرم وآلاته، ويوسعون من السجون لتحديد الجرائم، ويحدّون السيف، ويبرمون الحبل ويلهبون الرصاص لرؤوس المجرمين (لا المسببين الأصليّين) وأعناقهم وأدمغتهم. وعلماء الأخلاق يؤسّسون المدارس الاخلاقيّة الواحدة تلو الأخرى. ويجعل الوعّاظ والناصحون الذنب في عنق الأشخاص دائماً، ويبادرون الى نصحهم ووعظهم. والمرشدون الموجّهون يصدّرون أوامرهم بالرياضات النفسيّة. وهؤلاء جميعاً إمّا أنّهم لا يريدون فَهمَ السبب الأصلي والعلة الرئيسيّة للجرائم والإنحرافات، أو لم يتمكنوا من فهمها، وإنارة الفِطرة وإعادة العقول الى الحق، وإزالة الأصنام عن الطريق بقيادة الأنبياء العظماء وأسلوبهم والمصلحين الخبراء: والجماعة الذين ابتلوا بالبيئة المظلمة المحدودة يحاولون جميعاً في البحث عن طريق الخلاص والخروج، وفي هذه المحاولة والحركات المختلفة يصطدمون ويزدحمون مع بعضهم، من يكون المجرم ياهل ترى في هذا الوسط، وما هو طريق الخروج وسبب التزاحم؟ هل يتمكن هؤلاء من تعيين حاكم، ووضع قانون، ومعرفة المزاحم والمجرم؟ إلّا أن يوصل الرجل الخبير بالمحيط العارف بالجهاز، نفسه بمفتاح الكهرباء، وينير الفضاء، ويخلّص الجميع من الحيرة، ويدلّهم على طريق الخروج، ويصدّ المنحرفين عن الانحرافات، ويسوقهم بنور الهداية في الصراط المستقيم.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا...﴾: إن عود الضمير المذكر في «آضربوه» يعود على المقتول المستفاد من «قتلتم»، وباء «ببعضها» سببيّة، والضمير يعود على البقرة: اضربوا المقتول ببعض البقرة، واختلفوا في هذا البعض بين: الرجل، واللسان، والدم والعظم، وهذا رأي عامّة مفسّري القرآن القدماء، ثم استنتجوا بالنظر الى: «كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتى...» وانضمام الروايات أنّ: المقتول آحتيا بعد ذلك، وعَرَّفَ قاتِلَه؛ بناءً على هذا يجب أن تقدّر جملة مثل: «فَضُرِب به وأحيي». وبرّر بعض أصحاب الرأي هذا الرأي بمايلي: كما أن سرّ

الحياة يظهر في عالم الطبيعة من المواد التي تكمن فيها قابليّة الحياة عندما تصطدم ببعضها، وتبحث عن طريق الحياة وتكشف عن أسرارها، يمكن أن تظهر الحياة من مواجهة الانسان مع البقرة المذبوحة التي تكمن فيها مادّة الحياة ويريد الله أن تبدو هذه لحقيقة بصورة محسوسة لأنظار بني اسرائيل. ويعتبر البعض الآخر هذا الأمر دالّاً على علم الأرواح وإحضارها الذي اكتشفت أسراره الآن. ولكن هذه التبريرات تكون صحيحة فيما إذا كان المقتول قد احتيا بعد ضربه ببعض البقرة، وأنّ الآية تبيّن كشف سرّ الحياة والدلالة على إحياء الموتى. مع العلم بأنّ الآية لا تصرّح بحياة المقتول، ولاسياقها يشير الى البعث و المعاد. يقول المحقّق المصري (في تفسير المنار): ان الآية لا تفيد إحياء المقتول حتى بصورة مجملة كما في التوراة، وكان هذا الأمر لإزالة الاختلافات والخصومة حول المقتول الذي يجهل قاتله، وان آية «كَذٰلِكَ يُحيِ اللهُ المَوْتى» تفيد حفظ النفوس التي كانت معرضة للهلاك بسبب الاختلاف، مثل: مَنْ أحْيا نَفْساً فَكَأنَّمَا أحْيا الناسَ جَمِيْعاً» و«لَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ».

جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التثنية في التوراة: عندما يوجد في المنطقة التي وهبها لك ربك قتيلٌ مُرمى بين الحقول، ولا يعرف قاتله، يخرج شيوخك وقضاتك، ويقيسون المساكن التي تحيط بالقتيل، فيأتي شيوخ المنطقة التي هي أقرب الى ذلك المكان بعجل لم يحرث ولم يسق الحرث معهم إلى وادٍ دائم الجريان لا نبت فيه ولا زرع، ويكسرون عنق هذا العجل، ثم يتقدّم كهنة بني لاوي، لأنّ الله اختارهم لخدمته ولطلب البركة باسم الربّ، ويجب أن تفصل كل خصومة وضربة حسب قولهم، ويذهب جميع الشيوخ إلى قرب المحل، ويغسلون أيديهم على العجل المكسور العنق في الوادي، ويقولون بصراحة: إنّ أيدينا لم تسفك هذا الدم، ولم تره عيوننا، فاغفر يا ربّ لقبيلتك اسرائيل التي ضحيت بها، ولا تجعل دماً بريئاً بين قبيلتك، وعندئذ يكون ذلك الدم مورد عفو، ويرتفع من البين دم البريء...

ويقول المحقق الآخر (السيّد الهندي) الذي أعاد ضمير «ببعضها» على «النفس»

لاعلى «البقرة»: أن هذا التذكير قصّة منفصلة ولاصلة لها بالآية السابقة التي تأمر بذبح البقرة. وأمر الآية هو: اضربوا القتيل ببعضه. وكان هذا التدبير سائداً لكشف القاتل والمجرم؛ ليجتمع المتهمون بالقتل، ويمسكون عضواً من اعضاء القتيل ويضربونه به، فمن الطبيعي يقدم غير القاتل بجرأة ويأخذ العضو ويضربه، وكان القاتل يعرف بسبب استيلاء الخوف والرعب والشك عليه كما قيل: «الخائن خائف».

والآن عندما نريد أن نتحرّر من قيد تقليد غير المعصوم من الماضين بالنظر في نفس الآيات؛ يجدر بنا أن ندقّق في سياق الآيات والتعابير بصورة أكثر: «الضرب» ـ كما مر في معاني المفردات ـ له معان كثيرة ومختلفة بلحاظ النسبة الى نوع الفاعل والمفعول، بواسطة أو بدون واسطة، والحروف الجارّة، مثلاً: «ضَرَبَ في الأرض» أي مشى وسار فيها. «ضَرَبَ بالأرض» أي وقف عليها. «ضربه بالعصا» أي ضربه بواسطة العصا: «ضَرَبَ العَدَدَ بالعدد والرقم بالحساب» أي مزج هذا العدد بذاك العدد وجعل الرقم بذلك الحساب.

ولما لم يكن لضمير «اَضْرِبُوهُ» عود صريح، إعادوه على القتيل المستفاد من «قَتَلْتُمْ» مع العلم بأنّ المصدر يبادر الى الذهن بسرعة من الفعل: إذاً، قلنا: اجعلوا القتل بسبب البقرة أو على حسابها: كالعالم الاجتماعي أو الطبيب الذي يعرّف «المسكر» هو كسبب للشر والجناية أو المرض، فيقول: إنّ هذه الجريمة أو المرض بعض جرائمه أو واحدٌ منه، ويجب ان يجعل بحسابه.

وهذا هو لطف الله الذي يهب حياة جديدة للنفوس والمجتمعات بصورة مستمرة عن طريق عرض مصدر الذنوب والجرائم وأصلها، والأمر بازالتها، ويحافظ على النفوس والحقوق من الهلاك والضياع: «كَذٰلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتىٰ».

إنّ مثل هذا الأمر وفتح طريق الخير والصلاح هو من آيات الله، الذي بتنفيذه تتفتح عيون الجميع وتكون مبصرة الى الأبد لمشاهدة آيات الله: «وَيُرِيْكُمْ آياتِهِ...».

وتتخلّص ثروات العقل من التقليد والجمود باتباع هذا الإحياء والإبصار، وينفتح طريق التفكير والتعقل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». إنّ الأفعال المضارعة: «يُحيي، يَرىٰ، تعقِلُونَ»

لمّا كانت تدلّ على استمراريّة الفعل فلا تختصّ بقومٍ أو زمان. وبهذا البيان تشاهد صلة هذه الآية بالآيتين السابقة واللاحقة.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ...﴾: إنّ كلمة القساوة تفيد الشدّة والظلمة وعدم القابلية والنبذ. القسي والقاسي: هو الشيء الذي صلب واشتدّ في نفسه كما أنّه فقد قابليّة قبول الحركة والحياة. «ارض قاسية»: أرضٌ لا تنبت، و«حجارةٌ قاسيَةٌ» حجارة صلبة لا تلين لشيء. «قلب قاس» ضمير جامد سلب منه الشعور والعواطف والحياة المعنويّة. والقساوة صفة عارضة على موجودٍ يتقبلها بنفسه.

إنّ قلب الانسان وضميره مستعد للإدراك اللامحدود، وجهاز الحركة وشبكة الأعصاب والعضلات مستعدة للحركة الدائمة. وكل منهما يتعب ويعجز، ذلك من عدم الخبر، وهذه من عدم الحركة. إنّ الشعور الذاتي بالكمال والعلاقات والحاجات تدفع الحواس والجسم الى العمل.

فالذهن يظهر الصور الملتقطة من الصفحات الداخليّة ويصنفها، وطاقة التفكير والتعقل تستنتج من تجارب الوهم والخيال نتائج علميّة وعامّة.

والذي يجمد هذه الحركة والحياة الفيّاضة المستمرة، ويعطل القوى الانسانية النشطة الخلاقة هو الغرور والفرح بما يملكه من ذخائر داخلية وخارجيّة. والأنبياء العظام حاولوا بواسطة عرض الآيات، وفتح المجال أمام العيون والعقول، وتحطيم الغرور والتقاليد أن يوقظوا القابليات الراقدة، ويثيروا الأفكار[الراكدة]، ويجلوا أصداء الطباع الرذيلة، ويخلّصوا الانسان من موت الضمائر وجمودها وقساوتها.

وقد عرض موسى عليه السلام كل تلك الآيات في مظاهرها المحسوسة ليتحطّم العدوّ، ويخلّص المحبّ التابع من السكون الباطني والذل، وبالتالي أحرق العجل المعبود، وذبح البقرة المحبوبة. عجباً! بعد كلّ هذه الآيات والتدابير، أو ذبح البقرة والاحياء (بناء على الاحتمالين المشار اليهما ـ مِنْ بَعْدِ ذلك ـ) قست قلوبهم، كأي شيء؟:

﴿فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾: ولهذا فإنّ تلك القلوب كالحجارة، لا كالتراب

الدقيق الذي له جاذبيّة وميل للحياة والنموّ والاستسلام الى الحق. ولذا لا يرجى منها الإخضرار والنضارة أبداً[1].

هل أنّ تلك القلوب هي كالحجارة من كل ناحية؟ اذا كانت كلمة «أو» للشك والترديد فهي بالنسبة للمخاطب: تتمكن من أن تعتبر تلك القلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة. ويمكن أن تكون للتقسيم: انّ قلوب بعضهم ـ أو في المرتبة الأولى ـ كالحجارة، والبعض الآخر ـ أو في المرتبة الثانية ـ أشدّ قسوةً منها ويبدو أنّ «أو» هنا جاءت بمعنى «بل» أي للإضراب: إنّ تلك القلوب كالحجارة، بل أشدّ قسوة منها.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ...﴾: وإنْ كان الحجر لا ينبت شيئاً، ولكن الأنهار تنبع من الصخور الجبليّة مع كلّ قساوتها وتجري. وان لم تنبع الانهار من قلب الصخور تتفسر نتيجة تأثير عوامل الطبيعة، ويجري الماء من خلالها: «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ...».

إحدى هذه العوامل الماء والرطوبة التي تنفذ خلال الصخور، وعندما تجمد المياه [في الشتاء] يتمدّد الماء المنجمد فيكسر الصخور «لأنّ الماء بخلاف الاجسام الأخرى يتمدّد في البرد، ولو لم يكن هذا القانون الإستثنائي الخاص بالماء لكان الثلج في الشتاء يملأ السواقي والحياض حسب قانون الوزن الخاصّ، ولم ينفتح طريق خروج الماء من الجبال في الصيف كما ينبغي!!» والعامل الآخر من عوامل تفسير الصخور هو حركات الأرض الباطنيّة المستمرّة.

إنّ هذه القلوب أقسى من الصخر الصلب، لا تتقبّل الحقّ ولا تملك حياة معنويّة وكمالاً عقلياً. لا ينبع من داخلها الخير والعطف، ولا يجد الوعظ والحكمة والعبرة طريقها عن طريق السمع والبصر الى ضميرهم المتحجر الميّت، ولا تخضع أمام عظمة الآيات

1) فمتى يخضرّ صخرٌ في الربيع / كن تراباً تُنبت الورد البديع
كنت صخراً جارحاً منذ زمان / كن تراباً مدةً للإمتحان
ملاحظة: ترجمتهما من الفارسيّة. الترجمان

المحسوسة وقوتها.

مع العلم بأنّ الصخور الجبليّة الشاهقة تهبط من خشية الله وقدرته: «وان مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ...».

يقول أحد علماء الطبيعة: عندما تكونت الجبال بحسب قوانين التكوين، وطلعت من وسط البر والبحر وتماسكت، وتباهت بنفسها سلّطت الطبيعة التي تعادي التكبّر والأنانية ـ عواملها عليها وحدّت من كبريائها وأخضعتها، من الزلازل الأرضية إلى البراكين الباطنية، والأمطار الخارجية حتى الحشرات الدقيقة!

والقرآن بهذا التشبيه والتمثيل «المعروف لدى الأذهان بمشاهدة الآيات السابقة من انفجار الماء من الحجر ورفع الجبل فوق رؤوس بني اسرائيل» عرض درجات قساوة تلك القلوب وأقسامها. والوجه المشترك بين هذه القلوب والحجارة هو التماوت والجمود وفقد قابليّة الكمال والتكامل، وبمقايستها مع الحجارة والفرق بينها يشير الى ثلاثة أقسام أو ثلاث درجات:

١ ـ ما أكثر ما ينبع الماء من باطن الصخور ويجري النهر ولكن هذه القلوب القاسيّة لا تنبع من الباطن.

٢ ـ يتشقق الصخر نتيجة تأثير عوامل التكوين ويخرج منه الماء، ولكن المواعظ والعبر لا تجد طريقاً لقلوب هؤلاء، ولا تنضح خيراً.

و«تَفَجرَّ» تتناسب مع الأنهار بإزالة الموانع والجري الغزير: و«تَشَّقَّقُ» تتناسب مع خروج الماء وإنْ قَلَّ.

٣ ـ تخضع الصخور من خشية الله وتنهار، ولكن قلوب هؤلاء لا تخضع أمام عظمة الله وآياته.

ولم تكن قساوة قلوب أناس الى هذا الحد من ناحية جبلّتهم. وإنّما هي آثار الأعمال التي تزيل القابليّة من القلوب القابلة وتمسخها، وسوف تكون النيران نتائج أعمال هؤلاء

التي تزيل القابليّة من القلوب القابلة وتمسخها، وسوف تكون النيران نتائج أعمال هؤلاء القساوة: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولا يستسلم أصحاب هذه القلوب إلى أيّ حق وإن كان في مصلحتهم نتيجة للقساوة، ويجب الّا يُرتجى خضوعهم واستسلامهم:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ...﴾: إنّ أمل المسلمين وطمعهم في إيـمان اليهود وأنّهم ربّما يميلون الى دعوتهم كان في محلّه. لأنّ الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة العربية لاسيّما حوالي يثرب من المطّلعين على الكتب السماويّة هم اليهود فقط. والطوائف اليهوديّة كانوا محصورين بين المشركين، وكانوا يعيشون حالة الخوف والرجاء بانتظار الفرج، وكانوا يتنبؤون بين الفينة والفينة بظهور نبيّ منقذ إلى أن قام رسول الله من بين هؤلاء العرب وصدّق أنبياء بني اسرائيل العظام وقبلتهم وكتابهم وأثبت ذلك.

كان المسلمون يأملون في مسارعة هؤلاء الى الايمان، أو لا يقومون بمخالفة. ولكن اليهود لم يتمسّكوا، ولا أوضحوا ما كـانوا يـخفونه فـي قـلوبهم مـن أسـرار المـاضين وأخبارهم، والتي كانت تؤيّد التوحيد والهداية إلى طريق الأنبياء الماضين. وهذا أيضاً شاهد آخر على أن قلوب هؤلاء أقسى من الحجر. وكان جماعة من هؤلاء يسمعون كلام الله من ألسنة أنبيائهم ويحرّفونه لأتباعهم حسب أهوائهم.

إنّ هؤلاء القساة عبدة المال والهوى كانوا يـحرفون كـلّ تـلك الآيـات المشـهودة المحسوسة لفظاً ومعنىً لاتباعهم، فكيف تطمعون في أن يؤمنوا لصالحكم ـ أنتم المسلمين ـ بآيات لها صلة بالقلب والعقل: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِـنْهُمْ يَسْـمَعُونَ كَـلَامَ اللـهِ ثُـمَّ يُحَرِّفُونَهُ...﴾.

وكان هؤلاء يحرّفون كلام الله عن علم وتفكير، لا عن طريق الجهل والخطأ: ﴿مِنْ بَعْدِما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِذا لَقُواْ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٧) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٨) وَمِنْهُمْ أُمِيُّوْنَ لا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتابَ إِلّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيْهِمْ ثُمَّ يَقُوْلُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيْلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيْهِمْ وَوَيْلٌ لهم مِمَّا يَكْسِبُونَ (٨٠) وَقالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلّا أَيَّاماً مَعْدُوْدَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُوْلُوْنَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨١) بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ (٨٢) وَٱلَّذِيْنَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ ٱلجَنَّةِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ (٨٣)﴾

معاني المفردات:

الحديث : ما هو حادث. الخبر الجديد، [قول المعصومعليه السلام].

الفتح : في المقابل الغلق، التعليم، القضاء.

المحاجّة : المجادلة والمناظرة، لأنّ كلا من الطرفين يأتي بالحجّة (الدليل) لإثبات ما يدّعيه. من الحجّ بمعنى القصد.

الأميّ: الذي لا يعرف القراءة والكتابة، المنسوب إلى الأمّ، الجاهل من الولادة، أو المنسوب الى الأمّة، لأنّه كعامّة الناس.

الأماني : جمع الأمنية: الكذب، الأمنيات المصطنعة، وتأتي بمعنى القراءة والتلاوة أيضاً.

الوَيْل : الشرّ والهلاك، الهم والنحيب. كلمة تقال عند مواجهة الهلاك والمصيبة ولا أمل نجاة منهما.

الكسب : العمل من أجل الانتفاع أو دفع الضرر، ويتم عن طريق الأعضاء.

المسّ : كاللمس: الوصول الى ظاهر شيءٍ، وتأتي بمعنى لمس الشعور أيضاً.

الخطيئة: الذنب، الضلال، الانحراف عن الطريق.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾: هذا أيضاً نموذج من قساوتهم أو حيرتهم، بحيث احتاروا بين الجمود على التقاليد والعقائد القديمة وبين الهداية الجديدة، فلا يتمكنون من التخلص نهائياً من هذه التقاليد ويميلون إلى الحق، ومن جهة أخرى إنّهم قلقون من أنْ تتقدّم الهداية الجديدة وتبعثر الوضع القديم فيتخلفون ويصبحون ذيليّين. وفي وسط هذه الحيرة يظهرون إيمانهم عند مواجهة المؤمنين للمصلحة: «وإذا لقوا...». ولكن جاذبيتهم النفسية كانت الى جانب تلك التقاليد والأوضاع القديمة وإلى زملائهم في الدين: «وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...» إنّ هذه الحيرة والتذبذب والإنجذاب بين القديم والجديد يخصّ عامة جماهيرهم، وأمّا القادة والرؤساء الدينيّون الذين كانوا يرون الدين آلةً لسلطتهم ونفوذهم ومنزلتهم، لم يواجهوا مثل هذه الحيرة، وكانوا يؤنّبون أتباعهم عندما كانوا يُظهرون ما يعلمون من الدين للمسلمين ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾!! بناءً على هذا يعود الضمير في «قالوا إنّا» إلى الفئة الأولى، وضمير «قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ» الى الفئة الثانية. والمقصود من «مَا فَتَحَ اللهُ» هو الشريعة والأحكام فيما اذا كان الفتح يعني مقابل الغلق، واذا كان بمعنى الأمر والحكم فالمقصود منه العهود والأوامر التنبوءات. فكانوا يبرّرون تأنيبهم لأتباعهم بأنّ المسلمين لو علموا بما يعلمون هم لانطلقت ألسنة احتجاجهم: «ليحاجوكم به عند ربكم» بمحضر الكتاب وحكم الله، أو في يوم القيامة.

وقول القرآن هذا عن لسان اليهود يفيد أنّهم كانوا يظنّون بأنّ الله وعلمه محدود، ولم يعرفوا كونه محيطاً بباطن جميع الموجودات وظاهرها.

وكانوا يظنّون بان الله يعلم ما يقال وما يظهر فقط. هؤلاء المغرورون الذين كان يرون حسب تخيلاتهم بأنّ أبواب أسرار الدين فتحت بوجههم فقط، كانوا يتصورون كشف هذه الأسرار للمسلمين من عدم العقل وعدم التفكير بالعواقب «أفلا يعقلون».

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: لماذا لا يستخدم هؤلاء عقولهم في طريق العلم؟ ليعلموا أنّ الواضح والخفيّ سيّان عند الله؛ لأنّ الله يحيط إحاطةً

علميّة بالتحريفات التزويرية التي أوردوها في كلامه، لأنّه عالم بنفاقهم وازدواجيّتهم في سيرتهم مع المسلمين، وما يخفونه من معلوماتهم على المسلمين، وسوف يخزيهم في الدنيا ويحاسبهم في الآخرة. وأنّ الله يعلم حجّة المسلمين سواء أخفاها اليهود أم أظهروها. لذا فإن الآية ببيانها إحاطة الله العلمية تتضمن تهديدهم وتقريعهم والردّ عليهم حول التحريف والنفاق والكتمان والاحتجاج الوارد في الآيتين السابقتين.

وهذا نوع من البلاغة في اتساع القصد والتطبيق الخاصّ بالقرآن.

ثمّ يبيّن كلّ ما ورد حول الأتباع العوامّ والقادة المنحرفين بصورة غامضة في هذه الآية، يبيّن في الآية التالية كيفيّة إدراك كل من الفئتين وسيرتهم بالنسبة للدين كلاً على حدة.

﴿ومنهم أميون...﴾ إنّ هذه الفئة التي لم تدرس، ولهم أفكار طفوليّة كالطفل الطفيلي على أمّه لا يظنون الكتاب الذي هو أحكام الحياة وأسلوب التقدم نحو السعادة (أو من الكتاب، بناء على تقدير «من») سوى الغرور والفتن والأمنيات التافهة.

يظن هؤلاء ـ بتعاليمهم وإيحاءاتهم الغرورة ـ أنهم صفوة الله، وأن قومهم أفضل من الجميع وسوف يكونون في الآخرة موضع شفاعة أنبيائهم. ولم يكن هذا الذمّ لأنّهم أميون، وإنما لأنهم لم يهتدوا بهدي الكتاب إلى واجباتهم ومسؤولياتهم، ولم يتعرفوا على رموز التربية ومقاصد الكتاب، ولا اتبعوا علماءهم الربانيين وقلدوهم. والآية التالية تشير إلى المسؤولين عن هؤلاء العوامّ المعتمدين على الأمنيات والمذنبين الكبار.

إنّ مثل ابتلاء العامة هذا بالأمنيات والآمال والتفاخر بالماضين وآثارهم البارزة هو من نتائج انحدار الشعوب و ذلّتهم وضعف قواهم العقليّة والجسميّة، ويظنون مثل هذه «الأمنية» الوسيلة الوحيدة لسعادتهم في الدنيا و نجاتهم في الآخرة، فتطيب قلوبهم بذلك ويغفلون عن قوانين الحياة العامّة ـ إلى درجة بحيث يسمع المسلمون هذه الآيات وتاريخ السلف ويغفلون عن انطباقها على أنفسهم، ويرمون بنظرتهم إلى الماضين فقط ـ روي عن الرسول ﷺ: أيّها المسلمون ستسلكون اثار من قبلكم شبراً شبراً وذرعاً ذرعاً.

وقد نبذت الآية مثل هذه الأمنيات و الأفكار التي لا أساس لها، ويعتبر علماء المسلمين الكبار التحقيق في الأصول والاستدلال عليها واجباً على الجميع وفي الفروع واجباً على ذوي القابليات. وكان المسلمون في القرون الاسلامية الأولى لا يقبلون العقيده الا بالبرهان، والعمل إلّا عن الرواية والقرآن، والتقليد إلّا في الفروع غير المنصوص عليها، وذلك من الرواة الثقاة. جاء في كتاب الصافي حديث في تفسير هذه الآية يبيّن وجهة نظر الآية حول التقليد الحق والباطل، وشرح «الأماني»، وانطباق الآية على عوام المسلمين، ومعيار معرفة العلماء المحقين والمبطلين. والحديث: «قال رجل للصادقعليه‌السلام: فإذا كان هؤلاء العوامّ من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم، لا سبيل لهم الى غيره، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم، وهل عوام اليهود إلّا كعوامّنا يقلّدون علماءهم. فإنْ لم يجز لأولئك القبول من علمائهم، لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم؟! فقالعليه‌السلام: بين علمائنا و عوامّنا وبين عوامّ اليهود وعلمائهم فرقٌ من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث استووا فإنّ الله قد ذمّ عوامّنا بتقليدهم علماءهم، كما قد ذمّ عوامّهم. وأمّا من حيث افترقوا فلا. قال: بيّن لي ذلك يا بن رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله. قال: إنّ عوامّ اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وبأكل الحرام، والرشا، و بتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصّب الشديد، الذي يفارقون به أديانهم، وأنّهم اذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه، وأعطوا مالا يستحقّه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم الى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق، ويجوز أن يصدّق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله، فلذلك ذمّهم لمّا قلّدوا من عرفوا ومن قد علموا أنّه لا يجوز قبول خبَرِه، ولا تصديقه في حكايته، لا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله إذ كانت دلائله أوضح من أن يخفى، وأشهر من أن لا يظهر لهم، وكذلك عوامّ أمّتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة، والتكالب على حطام الدنيا

وحرامها، وإهلاك من يتعصبون عليه، وان كان لاصلاح أمره مستحقّاً، وبـالترفق بـالبرّ والإحسان على من تعصّبوا له، وإن كان للإذلال والإهانة مستحقّاً. فمن قلّد من عوامّنا مثل هؤلاء الفقهاء، فهم مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم، فامّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فـللعوام أنْ يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا في بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإنّ من يركب من القبائح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامّة فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولا كرامة لهم»[1].

أخذ البعض معنى «الأماني» من «التمنّي» بمعنى القراءة والتـلاوة: لا يـعرفون مـن الكتاب شيئاً إلّا ما يُقرأ عليهم، أو: لا يعرفون شيئاً سوى التلاوة والقراءة الظاهرية (وقد سبق المسلمون الجميع في هذين المجالين أيضاً!)؛ لأنّ أفكارهم وأذهانهم لا تتقدّم نحو البرهان والدليل والنتائج القاطعة، و محاصرة في نسيج أمـنياتهم وأوهـامهم، وتـطيب قلوبهم بالتلاوة والقراءة فقط، اذاً يذهبون وراء الظن دائماً: وَإِنْ هُمْ إلّا يَظُنُّونَ».

وحمل الفعل على الذات يفيد الحصر، أي أنّ وجودهم لاشيء سوى الوهم والظن؛ لأن الإنسان تفكير، وما سوى ذلك عروق وجذور ليس إلّا.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ...﴾:

إنّ هذه الآية التي بدأت وانتهت بكلمة «وَيْلٌ» المتكرّرة: «الويل: الموت، الذل، قِصَرُ اليد وقطعها من كل خير ووسيلة نجاة» تدلّ مع «فاء التفريع» على أنّ مثير ذلك الغرور «الأماني» في نفوس الأميّين، وإيقاءهم بين الظن والوهم، هو ذلك النسيج والأمل وإثارة الأمنية التي كانت تكتب باسم دين الله وكتابه، وتجمّد الأميّين البسطاء كالصم العمي بين الأوهام والتخيّلات التي لا تتلاءم مع الدين والقوانين الإلهية والبرهان والدليل، وهؤلاء العوامّ موضع تأنيب؛ لأنّهم لم يأخذوا الكتاب والأوامر وموازينه بنظر الاعتبار ويقلدون تقليداً أعمى، ولكن الأكثر (أو الجميع) يقع ذنب جهلهم على عاتق الذين أبدوا أنفسهم بأعتبارهم عالمين بأسرار الشريعة، ويعرضون ما يكتبونه لصالح شهواتهم باعتباره كتاب

---

١) استخرجت النصّ الكامل للحديث من تفسير الصافي : ٣٦ . (الترجمان).

الله، إذاً فسبب ذلك هو غرور هذه الكتابات العاميّة القاطعة الطريق عن صراط الدين المستقيم، الكتابات التي يكتبونها بأيديهم؛ «بِأَيْدِيهِم تكرّر هذا القيد في هذه الآية». تلك الأيدي التي شمّر عنها حبّ الربح والأنانية وخداع العوام، ويكتبون الأهواء المضلة بصورة دور الدين، ولو كان الذي دفع يد الكاتب للكتابة هو إرادة الحق، والتفكير للحق، وبأمر المولى، وأسمى من تدخّل الهوى، فهي يد الله، وليس عليه «وَيْلٌ» بحسب المفهوم المخالف لهذه الآية، بل يكون خطأ صواباً أيضاً.

إنّ وصف الأئمة الهداة عليهم السلام وتعريفهم للفقهاء الذين على العامّة أن يقلّدوهم، هو في الحقيقة شرح لمفهوم هذه الآية المخالف الذي يستفاد من قيد «بِأَيْدِيهِمْ». وينصبّ وصف الأئمة لمثل هؤلاء الفقهاء أكثر ما يكون على التقوى وصيانة النفس، وحفظ الدين، والتمرّد على الهوى، وإطاعة أمر المولى. ومن حيث الإختصاص العلمي لم يأت أكثر من وصف الفقيه وراوي الحديث: «أمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، ومطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه...».

إنّ الذين يكتبون كتاباً بأيديهم بدافع الهوى واتباعاً للشهوات في مقابل الثمن الدنيويّ، وينسبونه الى الله، صوابهم خطأ، واتّباعهم وبال للعقول والأخلاق والمجتمع. إذاً فالدعاء عليهم بالهلاك والويل وقصر اليد عن كلّ خير ممّا كتبوا وكسبوا: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً...﴾: هذا نموذج واضح من غرور عوامّ اليهود وأمانيهم حول يوم الجزاء ومجازاة الأعمال السيئة والتي هي نتيجة تلك الكتب المزيّفة ذات الغرور، أو أنّه موجز من أفكارهم الجوفاء: إنّ هؤلاء المخدوعين المغرورين يتصوّرون أنّ نار جزاء الأعمال محرّمة عليهم وعلى قبيلتهم أيّةً كانت ومهما فعلت إلى الأبد: «لن، تفيد النفي والتأبيد»، لن تمسّهم النار سوى أيّام معدودة (عدد أيّام عبادتهم العجل، أو سبعة أيّام تكوين العالم)، «تمسّ جلود أبدانهم، وربّما لا تؤلمهم أيضاً!». إنّ هذا أقصى غاية الغرور والأنانيّة، ومصدر كلّ ذنب وجناية، إن لم يكن هذا كذب وافتراء

وغرورفما هو إذاً؟ هل أخذوا من الله والأنبياء عهداً خاصّاً أو عامّاً: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾؟ أو أنّهم ينسبون شيئاً إلى الله لا علم لهم به لا عن الدليل والبرهان، ولا عن طريق الوحي والكتاب: ﴿أَمْ تَقُوْلُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟ «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيْئَتُهُ...﴾ جاء الحرف «بَلىٰ» لتصديق هذه الحقيقة وإثباتها وإزالة ذلك الوهم. صرّحت هذه الآية بقانون الجزاء العام و آثار العمل، وسِرّ الخلود في جهنم بهذه العبارة الجامعة البليغة: فكسب السيئة عمل من أعمال الجوارح الناتج عن النيّة والقصد بالتكرار والاصرار، يترك في النفس آثاراً ثابتة، وتتحوّل الى عادة وحالة وملكة، الى درجة بحيث تستوعب الضمير والوجدان، وتسيطر على الجوارح، وتخرج من محيط الهداية والالتفات الى الحق. ويسهل ـ بعد ذلك ـ كل ارتكاب ذنب وشرّ بدون معارضة الضمير، حتى يواجه مثل هؤلاء الشرك و الكفر المعنويّ (يختلف الكفر الظاهري والعنوانيّ عن الكفر المعنويّ)، مورد الآية هم اليهود، والمقصود عامٌ، وشاملٌ للجميع وإنْ كانوا موحّدين ومسلمين في الظاهر.

جاء في تفسير الإمام عليه السلام: «السيّئة المحيطة به أنْ تخرجه عن جملة دين الله، وتنزعه من ولاية الله، وتؤمنه من سخط الله، وهي الشرك بالله، والكفر به وبنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، وولاية علي عليه السلام وخلفائه، وكل واحدة من هذه سيئة، تحيط به، أي تحيط بأعماله فتبطلها و تمحقها»[١].

يرى بعض الحكماء المحقّقين والمتكلمين الاسلاميين أنّ الخلود في جهنم لا يتلاءم والأصول العقليّة المسلّمة. ويعتبر البعض الخلود خاصّاً بالمشركين، ويعتبر المعتزلة أهل الكبائر مخلدين في النار.

و إنّ هذه الفئة من المحقّقين يقولون: إنّ تكوين العالم من مبدأ الخير و باتّجاه الخير والكمال والصلاح، والانسان المستعد للكمال والساعي نحو الكمال، وفطرته مجبولة على الخير لا يمكث إلى الأبد في جهنم التي هي محيطٌ بعيدٌ عن الحقّ والخير، لأنّ البعد

١) استخرجت النصّ من كتاب تفسير الصافي : ص ٣٧. (الترجمان).

عن الحق والخير قسر، والقسر لا يدوم أبداً وآثار الذنب عرض، والعرض زائل بين حين وآخر. والأبدية في جهنم لا تتلاءم أيضاً مع سعة الرحمة وشمولها، وهكذا فإنّ العذاب غير المحدود في مقابل الذنب المحدود مخالف للعدل. فبناء على هذه الموازين والأصول المسلمة لدى هؤلاء المحقّقين، يعتبرون الآيات الدالّة على الخلود والعذاب الأبدي بمعنى الازمنة الطويلة. إنّهم غافلون عن هذه الحقيقة: وإنْ كان قابلية الخير والكمال غالبة في اكثر النفوس، ولكن النفوس جميعاً كانت في بداية الفطرة في موضع وسط الخير والشر والكمال والنقص. وهذه القابليّة والقوّة تنتقل إلى الفعليّة بالاختيار والكسب في إحدى الجهتين، وعندما تتغلب الطباع والملكات الوراثيّة والاكتسابية والخصال الحيوانيّة على النفوس، تغيّر الصورة الفطرية والباطنية تغييراً تامّاً، وتخرجها من محيط جاذبيّة الخير والرحمة، ثم تكون تلك الصورة والمحيط الذي أوجدها الشخص بالكسب والاختيار أمراً طبيعيّاً بالنسبة له، ولا يكون البقاء في هذا المحيط بصورة قسريّة بعد ذلك حتى لا يدوم. وأيضاً ان آثار الأعراض في النفوس القابلة عند ما تتحوّل إلى جوهر لا تزول. فيكونون كالحيوان أو أخسّ منه فاقدين قابلية استقبال الرحمة، ولذا فإنّهم لا تشملهم الرحمة الواسعة كسائر الموجودات الفاقدة للقابلية والاستعداد، وكما أنّ الحيوان محكوم من قبل غرائزه، فإنّ هؤلاء أيضاً محكومون إلى الأبد من قبل طباعهم المكتسبة، فيكون محيط العذاب محيطاً لطبعهم الطبيعي، كما نشاهد في الدنيا هذه الطبيعة الثانوية والانقلاب النفسي في نفوس جماعة معدودة. «وقد جاء هذا المضمون في الأحاديث: إنّ أصحاب جهنم عندما يذكرون الله، أو تكون ذرّة من حب الخير في قلوبهم، ينجون في النهاية».

بناءً على هذا، ووفقاً لآيات القرآن الحكيم الصريحة إنّ الخلود في العذاب لا يكون غير متلائم مع أصول التكوين والخير والكمال والرحمة والعدل. وهو موافق لقوانين التكوين ونواميسه وجبلّة الانسان المتأثرة وتكامل النفوس في الجهة التي يختارها الشخص، تلك النفوس التي اكتسبت «السيئة» بالاختيار وبصورة مستمرة، واعتبرها

كمالاً لوجوده، فصارت اثار المكتسبات ملازمة ومرافقة ذاتية لهم ولا تنفكّ عنهم، وأصبحوا سيّئين باكتساب «السيّئة»، لأنّ ملازم السيئة ـ أو صورتها الباطنيّة ـ النار وجهنم التي يلازمونها ويرافقونها ويخلّدون فيها: ﴿أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ﴾.

وفي مقابل هؤلاء، النفوس الايمانيّة النيّرة الساعية في طريق العمل الصالح: ﴿أُولئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾. وبين هاتين الفئتين أكثريّة لا هي مجذوبة من البداية ومتجهة نحو الجنّة، ولا مخلّدة في جهنم الى الأبد ومتجهة نحوها.

وهاتان الآيتان مثل آية: «إنّ الَّذِينَ آمَنُوْاْ...» تعبّران عن القانون الكليّ العام للكسب والعمل ونتائجه وآثاره الباقية.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إسرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلّا اللهَ وَبالوالِدَيْنِ إحْسَاناً وَذِي ٱلقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِين وَقُوْلُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيْمُواْ ٱلصَّلاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلّا قَلِيْلا مِنْكُمْ وأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٤) وَإذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَكُم لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ منْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُم وَتُخْرِجُونَ فَرِيْقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإثْمِ وَٱلعُدْوانِ وَإنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارى تُفَادُوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤمِنُوْنَ بِبَعْضِ ٱلكِتَابِ وَتَكْفُرُوْنَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إلّا خِزْيٌ فِي الحَيَاة ٱلدُّنْيَا وَيَومَ ٱلقِيَامَة يُرَدُّوْنَ إلى أَشَدّ ٱلعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦) أُولئِكَ الَّذِينَ ٱشتَرَوُاْ ٱلحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُوْنَ (٨٧)﴾.

معاني المفردات:

لا تعبدون: نفيٌ بمعنى النهي، يقولون: لمّا كان خبراً عن عدم الوقوع يكون اكثر تأكيداً

من النهي.

القربى: بالمعنى المصدري: القرب، القرابة، ويأتي بمعنى الوصف التفصيليّ: الأقرب.

اليتامى: جمع اليتيم واليتيمة، من اليتم: العجز، التقصير في العمل، التراخي، الاجتناب، فقد الأب قبل البلوغ. اليتيم: الذي لا أبَ له (بالنسبة للانسان)، وما لا أمّ له.

المساكين: جمع المسكين: ضعيف الحال، من السكون، وكأن الفقر صدّه عن الحركة.

حُسْنَاً: صفة لـ قولاً، القول الذي يترك أثراً حَسَناً، ويرشد ويوجّه، تقرأ مثل حسنى، بفتح الحاء والسين.

توليتم: من تولى: أخذ بزمام العمل، اتخذ فلاناً بالإشراف والولاية. أعرض عن الشيء.

معرضون: من الإعراض، الالتفات كليّاً إلى الجهة المخالفة بحيث لا يعود.

تسفكون: من السفك: الجري، الإهدار، يقال في الموارد التي يجري فيها الدم أو الماء هدراً وبدون سبب.

انفس: جمع نفس: الحقيقة، الوجود ويقال من النفاسة: القيّم، الثمن، لأن الإنسان أنفس من كل شيء.

ديار: جمع دار: محل السكنى والاستقرار.

أقررتم: من الأقرار: الاعتراف القولي أو العمليّ.

تظاهرون: مخفّف تتظاهرون: من الظهر: مواجهة الظهر للظهر، التعاون، القيام علناً، المظاهرة.

إثم: العمل القبيح الذي يوجب التأنيب.

العدوان: الاعتداء والتجاوز عن الحد، الظلم.

أسارى: جمع أسير. على وزن كسالى، من حيث شبه الاستكانة، وإلّا فجمعه أسرى، مثل فعيل وفعلى، ولذا قرأ البعض «أسرى». والأسير من الأسارة: قطعة السير من الجلد.

تفادوهم: من التفادي: دفع المال في مقابل إطلاق سراح الأسير. والفدية المال

المدفوع لتحرير الأسير.

الخزي: الذلة والاستكانة، الفضيحة المخجلة، الابتلاء.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ...﴾: بعد بيان تلك النعم التي أنعمها على اليهود وسيطرة تلك الانحرافات والجمود العقائدي والفكري والنفسي عليهم، وتلك الموازين الجامعة للحق والصواب، وتلك الأحكام الرشيدة للتخلّص من الشرك والغرور، وتأسيس شعب مستقيم ثابت، وذلك النوع من عرض نتيجة نكث العهد والميثاق. بادر حينئذ إلى توعية المسلمين بأن لا يأملوا بإيمان اليهود القلبي بدعوة الاسلام ـ مع هذا الغرور والأنانية التي لهم ـ ولابصفاء قلوبهم مع المسلمين، ولا بوفائهم للعهود والمواثيق. وكذلك إيضاح انحراف عوامّهم الفكري، وانحراف خواصّهم، وبيان القانون العام في الابتلاء بالعذاب، والفوز من العقاب الأبديّ.

بعد هذه المواضيع، يبيّن الآن حكم الدين الإلهيّ الجامع حول العقيدة والعمل وصلة الأفراد والطبقات. ويعرض القرآن بوجهه عن خطاب اليهود في مثل هذه الموارد، وكأنهم قد فقدوا بأساليبهم السيئة قابليّة الخطاب، ويخبر عنهم فقط. والميثاق الذي أعاده إلى الأذهان بصورة مجملة: «وَإِذْ أَخَذْنَا مَيْثَاقَكُمْ...» يفصّل الآن حوله. وكأنّ تلك الأحكام والتذكير كانت من أجل إعداد النفوس لمثل هذا التطوّر العقائدي والاجتماعي ليتجه الوجه الانساني تماماً عن عبادة غير المبدأ المطلق إلى عبادته والتوجّه إليه. ويرتبط الأفراد والطبقات مع بعضهم من هذا الارتباط الباطنيّ مع الحق، فيصير نظام المجتمع البشري كنظام العالم العام: ذلك النظام العالمي المتصل بمبدأ القدرة، ويقوّم بعضهم بعضاً وينشطون بواسطة فيض الجاذبيّات والنور والحرارة؛ لأنّ رابطة الايمان بالله المعنويّة والإحسان إلى الناس في نظام الحياة البشريّة، هي الصورة الكاملة لرابطة ذلك الجذب والانجذاب والالتقاط والبث لدى الكرات والذرّات، والإحسان والرحمة لذلك الشعاع المنبعث عن الايمان الخالص المستقيم الذي يجعل الأسرة متماسكة فيما بينها كمنظومة المجتمع الصغيرة.

يكون طائعاً لإرادة الله، ويخضع أمامه فقط، وتجري في عروق أعضائه روح الإحسان والتعاون العامّ، ليحافظ الجميع على حياة أفراد المجتمع ويقوّمونهم.

إنّ هذا الميثاق هو النتيجة المتمّمة لمثل هذا الهيكل الاجتماعي الحيّ، والذي صار دم كل فردٍ دماً للجميع، ويجري في قلب الجميع وعروقهم، ويهب الحياة لكلّ الأعضاء اذاً لو سفك دم شخص واحد سفكت دماء الجميع: «لا تسفكون دماءكم». وبهذا التركيب الإجتماعيّ تتّحد نفس كل فرد وتتصل بنفوس الآخرين، ولو حرمت نفسٌ أو طردت، فكأنّما حُرِمَ الجميع وطردوا وضاعوا: «ولا تخرجون أنفسكم...».

ان هذا القرآن هو الذي يوجّه النفوس نحو مثل هذا الهيكل الحيّ والتركيب الإجتماعيّ، ويوقظ الشعور بالتعاون والتكاتف بهذه الصورة.

استقر بنواسرائيل لمدّة على اساس هذه المواثيق، وشاهدوا بأنفسهم آثار هذا التركيب الإجتماعي ووحدة النفوس وحراستها وبركاته: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ﴾ فأقرّوا واستقرّوا على هذه المواثيق، وشهدوا بأنفسهم على ذلك. واذا كان المقصود هو المشاهدة، فله مفعول مقدّر كالآثار و النتائج.

وبعد هذا، لم تمكث العهود والمواثيق والشهود طويلاً حتى ظهرت بين الطبقات و أسباطهم الاختلافات الناتجة عن التعصّب القبليّ والشهوات والأحقاد. وكل فئة كانت تأخذ بزمام السلطه والقوّة، كانت تستسيغ كل أنواع الظلم بالنسبة للفئات الأخر، فكانوا يقتلون البعض ظلماً و عدواناً، ويخرجون البعض الآخر من ديارهم و أوطانهم: «ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُوْنَ أَنْفُسَكُمْ...». إنّ تأكيد، هؤلاء إشارة تأنيب لأولئك الذين كانوا شاهدين على تلك المواثيق وأقرّوها. وكانت كلّ فئة تهاجم الفئة الأخرى بالتحيّز و التحزب الناتج من الإعتداء على الحقوق وحبّ التفوّق والظلم.

﴿تَظاهَرُوْنَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَٱلعُدْوَانِ﴾:

إنقسم بنواسرائيل الى فئتين بعد سليمان ـ ٩٧٤ قبل الميلاد ـ الفئة الشماليّة عشرة أسباط، والفئة الجنوبيّة سبطان، وانفصلوا عن بعضهم، ووقفوا وجهاً لوجه للمخاصمة.

وكانت كلّ فئة تستمدّ العون من البلدان المجاورة وتبادر الى قتل جماهيرها وإخراجهم ونهبهم. وعلى أثر هذه الاختلافات والاستعانة بالشعوب من عبدة الأصنام واتّصالهم بهم ـ كالفينيقيّين و المصريين ـ شاعت عقائدهم وتقاليدهم بين اليهود، ونسيت عهود التوراة ونواميسها، وبمجرّد أن ضعفت عقائدهم الدينيّة وقواهم الاجتماعيّة هاجمتهم الشعوب الأخرى من كل صوب، فصاروا أرقاء للأجانب: كما اضطرّ ملك اسرائيل أن يطلب العون من فرعون مصر في مقابل سلطة «نينوا»، ونتيجة لذلك هاجم «سرجون الثاني» بجيشه فلسطين عام ٨٢٢ ق. م، وهدّم بيت المقدس، وأسر عشرة أسباط بني اسرائيل، وغار «نبوخذ نصّر» عام ٥٦٨ ق. م. أورشليم وهدّمها وقتل الكثير، وأخذ سبعين ألفاً من اليهود إلى بابل الى أن اطلق سراحهم «كوروش» ملك ايران بعد سبعين عاماً، ووزّع مصادر الدسائس والأنانية والربا هذه في ايران و بعض البلدان المجاورة!!

وكان يشعر هؤلاء بإراقتهم دم كل فرد أو جماعة منهم وإخراجهم من ديارهم بأنّهم يسفكون دم هيكلهم الاجتماعي، وينقصون أعضاء أنفسهم، ويتجهون بشعبهم الى الضعف والفناء؛ لأنّ نفس هؤلاء الذين كانوا يقتلونهم ويخرجونهم من ديارهم لو كان الأجانب يأسرونهم لكانوا يفادونهم بكل ثمن كان ليطلقوا سراحهم:

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ...﴾ ولكنهم لم يراعوا حرمة الدين بحقّهم، فكانوا يخرجونهم بالإهانة والإذلال، ويرتكبون هذا الحرام الفطري والقانونيّ: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

انّ هذه الآية: «ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ...» تشير ـ بناءً على بعض الروايات ـ وتتنبّأ بالمعاملة التي عامل بها المسلمون آل بيت الرسول ﷺ وسيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام وأباذر الغفاريّ كما قال الرسول الكريم ﷺ: سوف تسيرون بسيرة من كان قبلكم[1]، وترك المسلمون بعد مدة حبل الوحدة والتعاون والمواثيق الإلّهية. وسيطرت العصبيّة والشهوات

---

١) لم أعثر على نص الحديث ـ رغم البحث ـ فاضطررت الى ترجمته عن الفارسيّة. (الترجمان).

و مواريث الجاهليّة على التوحيد والتعاليم الاسلاميّة، وفي النتيجة ظهرت الاختلافات و الحروب الداخلية والحكومات المستبدّة بقناع اسلاميّ، وعلى أثر ذلك نفي وقتل رجال الحقّ الذين كانوا ملجأ وكهفاً فكريّا و مترساً وثباتاً للأمة الاسلاميّة مثل أبي ذر وسيد الشهداء الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل بيته وأصحابه على يد هؤلاء المسلمين أنفسهم، أولئك الرجال المحترمون الذين لو كان الأجانب الروم أو عبدة الأصنام يأسرونهم، لكان المسلمون ينتفضون ويبذلون الأرواح والأموال من أجل اطلاق سراحهم!!

وعندما انقطع حبل صلة المواثيق، وعطلت الأحكام التي قوّمت أمّة التوحيد، بقي من الدين الأعمال الشخصيّة والمراسيم والأوراد فقط، وزالت تلك القوّة والطاقة الاجتماعيّة والعلاقات. وهنا يجب إلقاء النظرة المشوبة بالتعجّب والتأثر والتأنيب على مثل هذا الدين الممسوخ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟! هل تتقبّلون الأحكام الشخصيّة بأرواحكم، وتعملون بها، وتغضون النظر عن الأحكام العامّة والمواثيق الحيويّة، وتتركونها؟ وتعطيل مثل هذه الأحكام وترك العمل بها كفرٌ من وجهة نظر القرآن: «وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...».

ثم استفسر عن نتيجة هذا الأسلوب كقانون عامّ؛ لأنّ الذهن الفطري والتجربة والتحقيق الاجتماعيّ يمكن أن يجيب على هذا الاستفسار: «فَماجزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ»؟ ويجيب العلم والتجربة عل ذلك. إنّ كل شعب تقطع حبل وحدته وتعاونه يستكين و يهون، والشعب الذي تكون رابطته التوحيد والمواثيق الدينيّة، ولم يحافظ عليها، فالروابط الأخرى التي اجتازها وهي أخسّ من تلك لا تتمكن من وصل بعضه ببعض، لذا يتّجه جميعاً نحو الانحدار الاجتماعي والذلّة.

﴿إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا...﴾: وهذا هو السبب الرئيسيّ في انحدار بني اسرائيل والمسلمين وذلّتهم، فحتى متى يعتبرون؟!

ولا تنتهي عاقبة هذه الإستكانة والذلّة في هذه الدنيا، ويجب أن يجيب على العاقبة النهائية المشؤومة الخطرة لهذه الذلّة الله فقط منفصلاً عن جواب ذلك الاستفسار: ﴿وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشدِّ ٱلعَذَابِ...﴾، يتضح أنّ الذلّة في الدنيا ترتبط بأشدّ العذاب في الآخرة ونهاية مسيرة الإنسان. ذلك اليوم الذي تنكشف فيه السرائر، وتقوم النفوس معتمدة على الملكات والأعمال: «يَوْمَ القيامة»؛ لأنّ الذلّة تؤدي الى اختلال القوى النفسيّة وزوال الفضائل، وكل ذنب يصدر عنه العذاب يؤدي الى الذلّة ومحكومية النفس في مقابل الشهوات وزوال الشخصيّة. إذاً فالناس الأذلّاء يجب أن يواجهوا أشدّ العذاب: ﴿رَبَّنَا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ...﴾ (آل عمران).

لمّا كان الأشخاص والشعوب الأذلّاء لا يتمكنون من القيام بالواجب والحق، ويحرمون من كسب الفضائل، وتسحق حقوقهم ونفوسهم تحت وطأة الظالمين، فسوف يكونون يوم القيامة أيضاً تحت وطأة أصحاب جهنّم الآخرين وفي أسفل دركٍ من الجحيم: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذَابِ...﴾.

الذُلُّ يُخِلُّ بالجَنَانِ والظُلْمُ يؤدّي لِلهَوانِ[1]

هذه نتيجة الحياة الذليلة من جهة الحقيقة والواقع. فالذين لا يدركون عِلّيّة المقدمات وسببيّتها من أجل إدراك النتائج، غافلون عن الإرادة الحكيمة التي أوجدت هذه الصلات وتحافظ عليها، ولكن الله الحكيم بصيرٌ وليس بغافل: ﴿وَمَا اللهُ بِغافلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَواْ ٱلحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ...﴾: إنّ هؤلاء بَدلوا بإرادتهم واختيارهم هذه الحياة الدنيئة والتي كلها لهيب وعذاب بالحياة الفضلى العزيزة والجنة البهيجة، فكيف يزول عنهم العذاب أو يخفف عنهم، أو ينتفض شخص لمساعدتهم.

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُوْنَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسى ٱلكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُسُل وَآتَيْنَا عِيْسَى ٱبنَ مَرْيَمَ ٱلبَيِّنَاتِ وَأيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُس أفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أنْفُسُكُمُ ٱستَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيْلاً ما

١) ترجمت البيت الفارسي ببيت عربيّ (الترجمان).

يُؤمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندْ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِـنْ قَـبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَروا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوْا كَـفَرواْ بِـهِ فَـلَعْنَةُ اللـهِ عَـلَى اَلكَافِرِيْنَ ﴿٩٠﴾ بِئسَما اَشتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنْزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَب عَلَى غَضَبٍ وَللكَافِرِينَ عَـذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾ وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَاً وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ اَلحقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَـدْ جَـاءَكُمْ مُوسَى بِالبَـيِّنَاتِ ثُـمَّ اتَّخَـذْتُمُ العِـجْلَ مِـنْ بَـعدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

معاني المفردات:

ولقد: اللام للقسم، وقد للتحقيق، تفيد لزوم إتيان الكتاب.

الكتاب : مجموع القوانين والأحكام، من جهة ثبوتها ووجوبها على الناس، مع العلم بأنّها مسطورة في قلوب الأنبياء.

قفيناه: أتينا به بعد ذلك بصورة متوالية. من القفاء: من ورائه، أوفي اثره.

البيّنات: جمع البيّنة: البرهان الواضح، مميّز الحق من الباطل، من «البَين» الفصل.

أيّدناه: آتيناه القوّة وأثبتناه، من أيد، وآد (فعل ماضٍ، مثل: ديم ودام): صار قويّاً: واليد من هذه المادة.

الروح: مبدأ الحياة ومادّتها، الأثر والقوة.

تَهوَى : من الهوى ـ المقصورة ـ الرغبات والحركات النفسيّة.

غُلْفٌ : ـ بسكون اللام ـ جمع اغلف (مثل حُمْرٌ، جمع أحمر) ما يكـون فـي غشـاء وغلاف. الذي لم يختن، القلب الذي لا يدرك ولا يفهم، قرىء بضمّ اللام أيضاً وهو جمع غلاف (مثل : مُثُلٌ جمع مثال): الغشاء والجلد الذي يغطي.

اللعن: الطرد و التبعيد.

البغي: التمرّد على الحق، الظلم، الحقد، التعقيب.
مهين: يورد الاهانة والذلّة، اسم فاعل من الإهانة.
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ...﴾: الكتاب هو مجموع القوانين والأحكام أو اصولها الثابتة التي لا تتغير كقوانين العالم العامّة.
ان العهد والميثاق الذي أشير اليه في الآيات السابقة بصورة مجملة ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيْثَاقِهِ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ يجب أن يكون لهذا الكتاب الذي بيّن ذلك في الآية السابقة بالتفصيل.
الكتاب الذي تكون أصوله وفروعه موزداً لهذه المواثيق هو نفس ظهور إرادة الله التشريعيّة، والذي يكون تطبيقه وتحقّقه مقوّماً لأرقى نظام اجتماعي انسانيّ.
والذي يوجد وحدة تركيب مثل هذا النظام ويحافظ عليه، عبادةالله والخضوع أمام قوانينه وأحكامه، والصور الاجتماعية الأخرى وتركيباتها هي طريق ومقدمة لهذا التركيب الإلّهيّ، كما أنّ التركيبات والصور المعدنيّة والنباتيّة والحيوانيّة واقعة في طرق التكامل نحو الصورة الإنسانيّة.
وكان الأنبياء قبل موسى يدعون الى ذلك النظام الإلّهيّ الراقي، ويعدون النفوس لذلك. وكان الأنبياء الذين تلوا موسى يسعون لتحقيقه وتطبيقه وترسيخه: «وَقفينا من بعده بالرسل...».
وفي الفترة بين موسى وعيسى، اختفت هذه الأصول والأنظمة خلف ستار الغرور بالأوهام والمراسيم، واختفى دين موسى عن الأنظار، إلى ان ظهر عيسى الذي كان بنفسه وأقواله وأفعاله مظهراً ومبينا «بيّنه» للحق، وأيده الله بروح القدس بوجه شدّة اليهود والغرور والأوهام الراسخة في نفوسهم.
إنّ نسبة عيسى الى مريم ربّما تشير الى غلبة الملكوت فيه، وسرّ ظهور البيّنات منه. وروح القدس مبدأ وطاقة أسمى من الإمتزاج بالطبيعة، ملهم العلم والهدى، ويسمو بالنفوس المؤهلة عن التلوث، والمتقدم بالعقول الساميّة نحو الكمال، يمكن أن يكون

روح القدس ـ هنا المرتبة العليا لكمال عيسى الروحيّ، والتي تسيطر على المراتب السفلى والأرواح الأخرى كروح الشهوة وروح الغضب و...، وتؤيد روح التقوى وروح الإيمان وروح العصمة لمّا كان روح القدس مرتبة نفسيّة عليا، فهو مرآة انعكاس الشعاع والحسيّ لذلك المبدأ الخارجيّ، والمؤيّد من قبلِهِ، و هو يؤيد القوى النفسيّة ويضبطها ويكمّلها. إذاً نسبة التأييد لكل واحدٍ تأييد للآخر.

التأييد بروح القدس من امتيازات المسيح، وصورة من صور تكامل النبوّة، ويفيد بأن المسيح لم يكن هو روح القدس ولافي عرضه (كما يظنّ النصارى) ولا ملازمٌ أو مرافق له، وإنّما روح القدس هو الدورة النهائية الكاملة للنبوّة، وسر الخاتميّة: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ، نَزَلَ بِهِ الرُّوْحُ الأَمِيْنُ، عَلَّمَهُ شَدِيْدُ القُوى...».

تعرض هذه الآية بتعبيراتها وإشاراتها أدوار تكامل النبوّة ووحدة غايتها واستمراريتها. ويبين آخر الآية خلال مخاطبة اليهود ، سبب الخلاف مع الأنبياء والتمرّد على دعوتهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوى أَنْفُسُكُمْ...﴾ أهواء النفس التي تثار من قبل الغرائز والشهوات تعارض ـ دائماً ـ أحكام الدين وأوامره؛ لأنّ الدين الإلٓهي يريد سيادة القانون والخير العام على طغيان الأهواء، ونظرة الحق على النظرة الفردية والأنانيّة، وإنقاذ النفس الانسانيّة من مضيق هذه الأفكار القاصرة، وفتح المجال أمام نظرته؛ لأنّ أكثر الأشخاص محكومون لغرائزهم الحيوانيّة والعوامل الوراثيّة و ما يعقبها، ولا يخضعون تماماً لسيادة العقل والإيمان والقوانين الناتجة عنهما! لهذا فإنّ عامّة الناس هم أول من يكذّب دعاة الدين، وعندما تشتدّ هذه المعارضة، واصطدمت باستبداد المستبدين و امتيازاتهم وشهواتهم العابثة، يقتلونهم: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيْقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقاً تَقْتُلُونَ﴾.

إنّ هذه العلل النفسيّة وعلل الجهاز الباطنيّ هي المعارض والمانع من ظهور الدين التام بكلّ أحكامه وقوانينه ـ إلّا في فترة زمنيّة قصيرة وبين أشخاص يُعدّون بالأصابع ـ بحيث ينبري جماعة فيتمرّدون تماماً على الدين وأحكامه ويقومون بالكفاح العلميّ والعمليّ،

ويتفلسفون من أجل تحرير شهواتهم اللامشروعة، وعـقائدهم وتـقاليدهم المـوروثة، وأفكارهم اللّادينيّة.

وآخرون ينشغلون بتلك الاحاسيس والعواطف القلبية وفي محيط المعبد، ويجنبونه عن محيط الحياة والمعارضة مع الهوى. عندئذ تظلّل سيادة الحق التـامّة وهـي الديـن الإلّهي على محيط الحياة، لكي تسود العقول المؤمنة الصالحة على الغرائز النفسية لدى أكثر الأشخاص، أو يتجلّى مثل هذا الاستعداد لدى الجميع؟ إنّ هذا التطور والانـقلاب النفسيّ أو الطفرة من الغرائز الحيوانيّة قد شرع به الأنبياء السابقون في نفوس قـلّة مـن الناس المستعدّين له، وقد أكمل الاسلام بدعوته للـتوحيد وتأيـيد العـقل والفـضائل الانسانيّة واحكامه وأوامره مبادىء هذا التطوّر والانقلاب وقوانـينه. ويـتقدّم تكـامل العقول والأفكار الانسانيّة نحو هذا التطوّر. وأول وَصْفٍ وَصَف به أمير المؤمنين عليه السلام مصلح آخر الزمان، والحاكم بالحق، والقائم بالعدل كما يلي:

«يعطف الهَوىَ على الهُدى».

﴿وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ...﴾: بعد مجيء ذلك الكتاب والأنبياء المتوالين و تلك البيّنات والتأييدات، أبعدهم ـ آن ذاك ـ ذلك التمرّد والتكذيب والنزاع وقتل الأنبياء عن قابليّة الخطاب. وربّما كان هذا هو سرّ العدول من الخطاب إلى الغياب في هذه الآيات و الآيات الأخرىٰ. يقدّمون العذر بمحضر الضمير البشري والتاريخ الانساني، فيقولون: قلوبنا مغلفة ـ بحيث لا تجد أقوال الدعاة إليها سبيلاً، فلا تميّز بين الحق والباطل. أو إنّ قلوبنا كنوز مغشّاة عن العلوم والمعارف. «وبناءً على المعنى الاول يعود ضمير «قالوا» على عـوامّ اليهود، ويخبر عن اختلاقهم الأعذار. وبالمعنى الثاني يعود على الخـواصّ وهـو بـيان لغرورهم». ويأتون بمثل هذا العذر ليجنبوا أنفسهم عن كل مسؤوليّة وتقريع، وينسبون كلّ ما يعملون وعلى أيّة حال يكونون إلى الخالق والخلقة، غروراً منهم ليفضّلوا أنفسهم عن الرضوخ للدين، ويتصورون أنّ الدين مختصّ بعوامّ الناس. ولم يكن التكـوين مـصدر تغشيّة تلك القلوب؛ لأنّ الله أودع الهداية في جبلّة كل كائن حيّ كلّ بما تقتضيه حياته.

بل مصدره حجاب الكفر الذي اختاروه بإرادتهم، كما خيّم على فطرتهم، وأبعدهم عن التقاط أمواج الهداية. والغرور بالأفكار القوميّة وحبّ التفوّق يكون أيضاً مصدر كفر بعض المغرورين: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾. وفي هذا المجال النفسيّ يتمسك بعض هؤلاء بالايمان: ﴿فَقَلِيلاً ما يُؤمِنُونَ﴾.

يكون هذا المعنى على أنّ المقصود من «مَا» هم الأشخاص، الذين ابتعدوا عن العقل والتفكير الصحيح؛ واطلقت «ما» عليهم وهي لغير العاقل. او تكون «ما» موصوفة متعلّقة بالإيمان المطلوب: يؤمنون بقليل ممّا يجب أن يؤمنوا به، ويمكن أنْ تكون «ما» نافية: لا يؤمن حتى القليل منهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ...﴾ والآن وقد جاءهم كتاب من قبل الله حيّاً و حيويّاً: الكتاب الذي يأتي الناس بنفسه يجب أنْ يكون كذلك. كتاب فوق العقول والأفكار البشريّة. «التنوين في كتاب يدلّ على التعظيم والتفضيل». ومصدر ذلك الكتاب صفات الله العليا: «مِنْ عِنْدِ اللهِ»، الكتاب الذي يصدق أحقيّة الانبياء الماضين وصِدقَهم، وهو دليل إثباتهم.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾: يمكن أن تشير «ما» ـ مع ما بها من أبهام ـ الى كتب الماضين وقوانينهم ومطاليبهم وما كانوا يتوقّعونه في الباطن والفطرة. والحقيقة لو لم يكن القرآن وتصديقه و دعوته العقليّة والفطريّة، لما كان ـ الى الأبد ـ دليل صدق للأنبياء الماضين وكتبهم الباقية. كان اليهود في تلك الحقبة من الزمن مشتّتين معذبين، لاسيما الذين كانوا يعيشون في ضواحي يثرب في حالة الخوف تحت ضغط عبدة الأصنام، كانوا دائماً ينظرون إلى الأفق الواضح ليظهر مثل هذا الكتاب وينهض نبيّ من الأنبياء. وكانوا يمنّون أنفسهم بانتظار مثل هذا اليوم، وكانوا ـ خلال مجاذباتهم ونزاعهم مع المشركين والاندحارات التي كانوا يتحملونها منهم ـ يعدون أنفسهم بالنصر والفتح، ويوعدون الأعداء بالاندحار والهوان. ولم يكن هذا الانتظار للفتح وانتصار الحق مقتصراً على اليهود، بل كان جميع الناس الذين يعرفون الدين الألهي ـ في تلك الفترة التي فصلت بين

الأنبياء، واختلاف الأديان، وتشتّت الناس وظلمة العالم ـ يترقّبون ظهور دين حنيف:

﴿وَكَانُواْ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

إنّ هذا الانتظار والأمل ـ لاسيّما بالنسبة الى اليهود ـ كان ولا يزال محوراً لاستنادهم، وقواماً لدينهم، وعموداً لفقرات حياتهم الدينيّة والقوميّة.

إنّ ما أدّى ويؤدي بهؤلاء القوم إلى الثبات بوجه المصائب والتشتّت وهجوم الحوادث عليهم، والتشريد والتعذيب الذي أصابهم من قبل البابليّين والروم والنصارى هـو هـذا الإنتظار والأمل بالمستقبل. كما أنّ الإيمان بظهور حكومة الحق والمستقبل الوضّاء من مقوّمات حياة المسلمين الدينيّة والاجتماعيّة.

وبهذا الإنتظار والنظر الى الأفق الواضح يكون الكفر والظلم والفساد بمثابة سحب سوداء لابدّ وأنّ تنقشع إنْ عاجلاً أو آجلاً، وكلّ شعب له مثل هذه العقيدة عليه أن لا يندحر نفسيّاً ويتقاعس في جهاده مع الباطل والظلم، وأكثر المسلمين ـ لاسيّما الشيعة ـ لم يستفيدوا من هذا السند المعنوي كاليهود، بل الانحراف في الفهم أدّى إلى أنسحابهم من ميدان جهاد الحياة، وعاشوا اتكاليّين.

وعندما جاء هذا الكتاب بالبراهين وأدلة الحق من أجل انقاذ الدعاة الى الله والمنتظرين طلوع الفجر الصادق، ثم إنقاذ الشعوب المظلومة الجاهلة في العالم، كفروا به وأعرضوا عنه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ...﴾. إنّ تكرار «جاء» لتأكيد الفعل وتثبيته، وملء الفراغ بين الشرط والجزاء: بمجرّد أن جاءهم ما كانوا يعرفونه بالأوصاف وذلك الانتظار، والعلائم الصادقة والتنبّؤات، كفروا به. يمكن أن تكون «ما» نافية: لم يعرفوه وأبدوْا تجاهلهم.. إنّ هؤلاء الذين كفروا بالكتاب الذي كان ظلّ رحمة الله وعدله مع علمهم به، وحرموا أنفسهم والعالم منه، وسدّوا أبواب السعادة بوجه أنفسهم والآخرين، هل يستحقون سوى لعنة الله والناس؟!

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: إذا كانت هذه الجملة خبريّة فهي تخبر عن بعد الرحمة والخير الى الأبد.

تفيد «لمّا» في ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ...﴾ أنّ اليهود وأهل الكتاب بل والرأي العام كانوا بانتظار مثل هذ الكتاب: الكتاب الذي يهدي الجميع نحو الصراط المستقيم ومقاصد الحياة وأهدافها، وجاء بقوانين الحقّ والعدل للجميع. كتاب أسمى من لون المحيط والزمان والطبقيّة، وهو من عند الله، وهو للجميع كالحياة والنور والهواء والينابيع الطبيعيّة، «ومثل هذه المعاني تتداعى في الذهن من تنوين كتاب، ومن عبارة «من عند الله». الكتاب الذي يصدّق اصول دعوة الانبياء الماضين وكتبهم ويثبتها، تلك الأصول التي أخفتها عن الانظار الأوهام المثيرة للاختلاف، وأطفأت نورها وأشعّتها الاهواء والغرور، فأصبحت بدل المحبوبيّة توجب الكراهة، وبدل الحركة تؤديّ الى الاستكانة: «مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ» مصدّقاً لأمور من قبيل كتب الأنبياء وأوامرهم الموجودة لدى اليهود وأهل الكتاب. وتفيد «ما» إبهام تلك الحقائق وامتزاجها بالأباطيل، كذلك يصدّق ويثبت المطاليب البشريّة الفطرية والصحيحة التي ترافق جبلّته وتلازمها.

وكان هؤلاء بانتظار مثل هذا الكتاب قبل مجيئه؛ ليؤيد دعوتهم الدينيّة، بعد تلك الاندحارات الدينية، وذلك التشتّت والهوان، الذي كان يتحمله اليهود من الأوس والخزرج وسائر العرب والناس، وينقذهم من التشتّت والذل. وكان يهود ضواحي يثرب عندما يندحرون من قبل المشركين، وتنهب أموالهم، وتسفك دماؤهم يُمنّون أنفسهم بمجيء نبيّ وكتاب، ويهددون أعداءهم بذلك. ويقال إنّ سبب سبق أهل يثرب إلى الاسلام واعتناقه هو تلك التنبؤات من قبل اليهود الذين كانوا معهم في حالة كرّ وفرّ.

﴿وَكَانُواْ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُواْ...﴾ بعد ذلك الانتظار، ومجيء مثل هذا الكتاب وتلك الوعود بالانتصار، فبمجرد أن جاء هذا البرهان الحقّ وهذا النبيّ والكتاب الذي كانوا يعرفونه كفروا به: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَاعَرَفُواْ كَفَرُوْاْ بِهِ...﴾ بمجرّد أن جاءهم ماكانوا يعرفونه ـ بناءً على أنّ «ما» موصولة أو موصوفة: أو بمجرّد أن جاء لم يعرفوه فكفروا به ـ بناءً على أنّ «ما» نافية وهي جملة جواب «لمّا». ومثل هؤلاء الناس الكفرة يجب أن يطردوا من قبل الله والناس، وتقصر أيديهم عن نيل كل خير وسعادة:ـ

﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى ٱلْكَافِرِيْنَ﴾: لاسيّما اليهود، الذين كفروا بهذا الكتاب ومن جاء به، ولم يكن لهم أيّ عذر وموضع شبهة، وقد تمّت حجّة الله عليهم، لأنّه الكتاب المنتظر المصدق لما معهم، يحمل أدلّة الهيّة، ومن عند الله، الكتاب الذي كانوا يتوقّعون أنّه يقوّيهم وينصرهم.

ثم يبدي القرآن بالتمثيل ضرر كفرهم النهائي الذي لا ينجبر، والسبب النفسي لهذا الكفر:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ...﴾: قاموا بصفقة سيّئة وضارّة جدّاً بالرأسمال النفسيّ ذلك الذي حملوا معهم الى سوق الحياة، بدلاً من ن يجلب اليهم رأسمال طلب الحقّ والكمال وعزّة النفس والشرف الفطريّ الربح من كلّ جانب، وينبت منه المعرفة والفضيلة، ويجلو الظلمات عن عقولهم الفطريّة، جلبوا على أنفسهم الكفر وسَترِ الحق، والإعراض عنه، وفساد القابليات، والإثم. فنبت في مجال مثل هذه النفوس جذور الحق وسوء الظن والغرور والشرّ.

مع العلم بأنّ البائع كالمشتري يتطلب بضاعة الكفر بالرأسمال النفسيّ الثابت، جاء وصف الإشتراءبالنسبة لهم. إنّ هذا الكفر «بِما انْزَل اللهُ» وهذه الصفقة الخاسرة لم تكن سبباً ومصدراً إلّا لقصر النظر والغرور والحسد. ونتيجةً لقصر النظر هذا والغرور كانوا يتصورون أن الله قد وجّه لطفه اليهم والى قبيلتهم فقط، وعليه أن يختار الأنبياء من بينهم. وكان الحسد على أن لا يقوم نبيٌّ من غير سلالة اسرائيل. كانوا يتصوّرون فضل الله المستمر وارادته الحكيمة محدودة هكذا.

﴿بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾: أصبحوا يواجهون غضب الله والناس عليهم من كل جانب بسبب غضبهم الذي كان يغلي من حسدهم وحقدهم، وأغلقت بوجوههم أبواب الرحمة والخير، وطردوا من محيط علاقات المجتمع الحسنة، وأعرض عنهم شعوب العالم:ـ

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ...﴾: كما أنّ كل فضيلة وخير وثواب يؤدي إلى فضيلة

وخير أسمى، فإنّ كل ذنب وطبيعة سيّئة تؤدي إلى شرّ أكثر وطبيعة أسوأ. كالمرض الذي يسري الى عضو من الأعضاء فإنه يسري الى سائر الأعضاء أيضاً، ويؤدي الى مرض آخر. فإنّ التخطي في مزال الاقدام يتّجه بصاحبه نحو الهوّة. والانحراف القليل يؤدي الى انحراف أكثر[1].

واليهود جعلوا أنفسهم بطبع الحسد وسوء الظن بالنسبة الى الحق وحقوق الناس، في الطرف المقابل للخير وخدمة المجتمع دائماً. وكلّما اكثروا عداءهم وفتنهم وحربهم والعبث برؤوس المال بالنسبة للمسلمين وشعوب العالم، اشعلوا نيران الغضب عليهم بصورة أكثر، وطردوا من قلوب الناس وقافلة المجتمع أكثر فأكثر. كما أنّهم اليوم اتّخذوا من المستعمرين وأصحاب رؤوس الأموال آلةً للحرب والفتنة، والمستعمرون يستخدمونهم لاغراضهم وتقدّمها، ويمدّونهم بالقوّة، وليس لهم ـ سوى هذا ـ شخصيّة ومكانة اجتماعيّة أخرى في العالم.

الباء في «بغضبٍ» يمكن أن تكون سببيّة: أصبحوا بسبب غضب على غضب، فالغضب الأول سببٌ لنوع آخر من الغضب. واذا كانت ـ الباء ـ للتلبّس، فالغضب الثاني هو مصدر الغضب الأول: «واجهوا غضباً نتيجة لغضب».

إن سوء سيرتهم وغضبهم وحقدهم هذا أصبح ـ بحق ـ مصدر غضب الله والناس عليهم، حتى طردوا نهائيّاً عن محيط الخير والإيمان، وواجهوا ظلمة الكفر وستر الحق، وللكافرين بالحق واتباعه عذاب مهين في الدنيا والآخرة:

﴿وللكافرين عذاب مهين﴾: جاء الاسم الظاهر «للكافرين» بدلاً من الضمير «لهم»

---

١) القصة التي حدثت هذه الأيام، تشاهد دائماً في حياة الفرد والأسرة والمجتمع: قامت امرأة بدافع الحسد و سوء الظن بأنّ زوجها قد تزوج ثانية، في منتصف الليل، فأعمت عيني زوجها بواسطة «الأسيد» وبعمى رجل طبيب مثقف ذي تجربة، معروف بالتقوى، أودت بحياتها الى الظلمات، وسلطت الذلّ والهوان على نفسها وعلى أطفالها، ولم يؤدّ العلاج في الداخل والخارج وصرف الأموال الى نتيجة، الى أن سقط ذات يوم من مكان عال الى الارض بسبب العمى، ومات بعد أيام. وهذا نموذج من الحسد والغضب الذي يجرّ وراءه الغضب والظلمات.

للتصريح والتعميم، ليعلم أن هذا العذاب يشمل صفة الكفر، ولا يقتصر على اليهود.

واليهود محصورون في مضيق الغرور وعدم التفكير بالعواقب، والحسد الى درجة بحيث عندما يقال لهم: آمنوا بما أنزل الله، ولا تجعلوا الظروف والأمكنة والاشخاص مقياساً للحقّ، يقولون لقصر نظرتهم ـ نؤمن بحق يتلاءم وأفكارنا وصبغة قبيلتنا وقومنا!:

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ إذاً يكفرون بغير ذلك ولو كان حقا ومن عند الله.

﴿وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾: فاذا كانوا أتباعاً للحق، فإنّ «ماوراءه» الذي هو ما أنزل الله، حقٌّ أيضاً، وكل دليل يثبت أحقية ما أنزل اليهم، هو دليل لهذا «ماوراءه» أيضاً، وهو حق يثبت حقا نيتهم أيضاً.

جملة «وهو الحق» حاليّة. يقولون: إنّ الجملة الحاليّة تفيد تقدّم المضمون: ومع أنّ القرآن كان حقاً مصدّقاً كفروا به. وهذا الإدعاء أيضاً لا يصدق على تاريخ اليهود وأعمالهم التي كلها قتل وتعذيب للأنبياء الماضين:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِيْنَ﴾: الفعل المضارع «تقتلون» يصوّر فعلهم المستمرّ. اذاً مصدر كفر اليهود هو الغرور والعصبية، وقبل ذلك أهواء النفس التي أشير اليها في الآية السابعة والثمانين (٨٧). وإلّا فموسى الذي أنقذهم بتلك الآيات الواضحة من غضب الفراعنة وذلّهم لماذا اتجهوا نحو العجل بمجرد أن افتقدوا موسى من بينهم؟!

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّنَاتِ...﴾: هناك أبهام وايجاز بليغ في عبارة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ﴾ أي اتخذتم العجل للعبادة والقيادة والحبّ. وكذلك الحال في كلمة «من بعده» أي بعد موسى، بعد وفاته، بعد غيبته.

اتخذ بنواسرائيل العجل الاصطناعيّ للعبادة بعد الخروج من مصر وبعد غيبة موسى، وانقسمت دولة اليهود بعد موسى وانقراض ملك سليمان بسنوات الى قسمين جنوبيّ وشماليّ، اتخذ السبطان الجنوبيّان «رحبعام» ملكاً عليهم وجعلوا أورشليم عاصمة لهم.

واتخذ الأسباط العشرة الشماليّون «يربعام» وعاصمتهم «شحيم». وشاعت عبادة العجل الذهبيّ بين الأسباط العشرة الشماليّين مرة ثانية. وأقاموا له المعابد.

تقول التوراة، باب الملوك، اصحاح ١٢: «استشار الملك «يربعام» وصنع عجلين ذهبيّين وقال لهم: إنّ الطريق بعيدٌ عليكم وصعب لتصعدوا نحو أورشليم. والآن هذا هو آلهكم: وهو الذي أنقذكم من أرض مصر، وجعل أحد العجلين في «بيت أيل» والآخر في «دان» وبنى بيتاً «مرتفعا» وأرسل اليه كهنة من أطراف القبيلة...».

تقول في الأخبار. نصاح ١١: «أقام يربعام لنفسه كهنة للبخورات والسخال الوحشية والعجول التي صنعها».

وتفيد نفس هذه الاخبار المنقولة من التوراة وتاريخ اليهود المتقطّعة، أن حبّ العجل الذهبيّ كان له جذور ثابتة في نفوس اليهود: «وَأُشْربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، الآية ٩٣».

﴿وَإذْ أخَذْنَا مِيْثَاقكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّوْرَ خُذُوْا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاْسمَعُوْا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ في قُلُوْبِهِمْ العِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأمُرُكُمْ بِهِ إيمانكُمْ إنَ كُنْتُمْ مُؤمِنِيْنَ (٩٤) قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمْ ٱلدَّارُ ٱلآخِرةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمنوا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (٩٥) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيْهِمْ وَاللهُ عَلِيْمٌ بِالظَّالِمِيْنَ (٩٦) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلى حَيَاةٍومِنَ الَّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدُّ أحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ ألفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أنْ يُعمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٧) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ فإنَّه نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِيْنَ (٩٨) مَنْ كانَ عَدُوّاً لِلهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَالَ فَإنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلكَافِرِيْنَ (٩٩) وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُبِهَا إلَّا ٱلفَاسِقُونَ (١٠٠) أوَ كُلَّمَا عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ بَلْ أكْثَرَهُمْ لا يُؤمِنُوْنَ (١٠١)﴾.

معاني المفردات:

الإشراب: إلارواء، التحريض على الشرب، إيصال الماء الى جـذور الزرع، إحـلال الحبّ في القلب، وجاء بمعنى الإختلاط أيضاً. يقولون: الأبيض المشرّب بالحمرة.

خالصة: قاعل مؤنث، أو مصدر مثل عافية: الخلاص، الطاهر بدون شريك، الخلاص من التعب والألم.

تجد: مضارع الوجد: الحصول، الاستلام، الاستغناء عن الشيء، الغضب على شخصٍ ما، الحزن لأجل شخصٍ ما.

أحرص: أفعل التفضيل من الحرص: التعلّق الشديد بشيءٍ، سلخ الجلد تماماً، عصر الثوب وتمزيقه.

يَودُّ: من الودّ: الحبّ، العشق، الامنية، المحبب.

يعمّر: من عمر (بفتح العين وضمّها وسكون الميم أو ضمها) الدار سكنها. سكن الدار، العبوديّة لله، مدّ الحياة التي خلالها يكون البدن سالماً وعامراً، إطالة الحياة.

ألف: ناتج ضرب ١٠٠ × ١٠، الأنس، الصداقة، الإكرام.

مزحزح: من زحزح: أبعد، أزال، قلع الشيء من مكانه بالهزّ المتوالي ونقله.

جبريل: (بفتح وكسر الجيم وكسر الراء) مع الألف والهمزة وبـدونهما، دخـيل غـير عربي) اسم ملك الوحي والإلهام والكشف، الطاقة المكمّلة للقابليّات، يقال ان الكـلمة مركبة من «جبر، أيل» أي قوّة الله.

ميكال: مثل جبريل غير عربي، وله عدة قراءات.

اذن: الرخصة، العلم، الإباحة، اذن الله علمه وتشريعه وتقديره.

نبذ: رمي اليد، كما أن لَفَظَ رمي من الفم، ونفث رمي من الصدر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ...﴾:

تعيد هذه الآية الى الأذهان موضوع أخذ الميثاق ورفع الطور مرة ثانية، وكانت الآية

الثالثة والستّون (٦٣) قد بينت نعم الله على اليهود وزللهم وتمرّدهم، وهذه الآيـة تـردّ عليهم حينما قالوا: نؤمن بما أنزل علينا وبأنبيائنا فقط. وفسّرت تلك الآية رفع الطور بأخذ الكتاب والشريعة بقوة، والتذكير بما جاء فيه، وهذه الآية تأمر بالمحافظة عليه و السمع والطاعة له.

ان اليهود المدعين بالايمان بأنبياء قبيلتهم وأحكامهم، فلماذا قتلوا أنبياء الله؟ ولماذا اتخذوا العجل معبوداً وقائداً بعد موسى الذي جاء بكل تلك الآيات لانقاذهم وقيادتهم؟ (وقد تكررت عبادتهم للعجل لهذا السبب). إذاً لماذا تمردوا ونقضوا ذلك الميثاق الذي أخذ منهم بشكل رفع الجبل في تلك الحالة التي قالوا فيها من الخوف: سمعنا وأطعنا. قالوا باللسان أو في نفوسهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنا﴾، كان كل هذا بسبب انعدام القـابليّة وزوال الهداية عن نفوسهم وعقولهم التي فسدت؛ ولا يقبلون إلا ما يتلاءم وأهواءهم النـفسيّة، ومثل هذا العجل وكل مظهر ماديّ خدّاع يملأ قلوبهم ويشبعها بحيث لم يبق فيها مكان لنفوذ الخير والحق: ﴿وَأُشْرِبُوْا في قُلُوبِهِم العِجْلَ بِكُـفْرِهِمْ...﴾: خـلت قـلوبهم مـن الحقائق بسبب اختيارهم الكفر فحل فيها العجل، ويجب أن يكون المقصود من العجل حبُّه والتعلّق به الذي ملأ قلوبهم، ولكن جاء «العجل» بدلاً من ذلك، وذلك بـالإشراب ليتبيّن وضعهم النفسيّ بهذا التعبير، وكأن اهتمامهم المستمر وحبهم للعجل نفذ الى قلوبهم كالماء أو السائل، واستوعب ذهنهم وباطنهم استيعاباً تـامّاً. ومـع هـذه الانـحرافـات، وسلوكهم مع الأنبياء، وتمرّدهم على أوامرهم، ومع هذه القلوب التي اسـتوعبها ظـلام الشرك والحسد والأنانيّة، لازالوا يدّعون الايمان، ويعتبرون أنفسهم أفضل أهل الايمان، مع العلم بأن الايمان والعقيدة الطاهرة الصحيحة هي مصدر الفضائل النـفسيّة والآمـرة بالخير. إذاً فإنّ هؤلاء إما أن يكونوا عديمي الايمان أو أنّ لهم ايماناً مزيجاً بالأوهام التي صنعها الخيال والتعصب:ـ

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾:ـ وهؤلاء بهذا الأسلوب وهذه الأعمال التي يرتكبونها يتصوّرون أنفسهم. بأنّهم شعب الله المختار، والمرحومون فـي

الدار الآخرة. بل يعتبرون الجنّة خاصّة لهم، إذاً لماذا يتهالكون على الدنيا وعلائقها ويفرون من الموت وفكرته الى هذا الحدّ. فإذا كانوا صادقين كان من الواجب عليهم أن يكونوا بانتظار الموت وأنْ يتمنّوه أكثر من غيرهم.

﴿قُلْ إنْ كانت لكُمْ الدَّار الآخرة عند اللهِ...﴾.

ومع كل هذه الذنوب و ما سودوه من صفحات حياتهم لا يتمنون الموت أبداً، ولا يفكرون به: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمت أَيْدِيْهِمْ...﴾: انّ نسبة الفعل «قَدَّمَتْ» إلى «أيْدي» نظراً الى الأعمال المؤثرة التي تتمّ غالباً بواسطة اليد.

ومع كلّ هذا الإدعاء بأنّهم المختازون من قبل الله والخصوصية في تلك الدار الآخرة، لا أنّهم لم يتمنوا الموت فحسب، بل لو أنّ شخصاً فتش جميع الشعوب والقبائل لوجد هؤلاء أحرص الناس على الحياة في كل حال. وتعبير ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ يفيد البحث والحصول المؤكد الحتميّ، ويفيد تنكير «على حياة» أيّ نوع من الحياة وإن كانت فخرية ورذيلة. وحتى أنّهم أحرص على الدنيا من المشركين والذين لا إيمان لهم بالمبدأ والمعاد. الى درجة حيث يودّ بعضهم أن يعيش الف سنة.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ...﴾: يبدو أنّ الواو عاطفة على «أحرص». وكلمة «يَوَدّ» تفيد حرصهم الشديد، واعتبر البعض الواو استئنافيةً، يعني: إن بعض المشركين أيضاً يودون أن يعمروا الف سنة. وهذا التركيب خلاف ظاهر الآية وسياقها.

يستفاد من هذه الآية حول اليهود هذان الموضوعان الكليّان:

١ ـ إنّ الأثر النفسي للإيمان بالآخرة والإيمان برحمة الله الشاملة الكاملة هو أن يوجّه المؤمن وجهه نحو عالم البقاء، وأن لا يخاف من الموت لاسيما في سبيل الواجب، وأن تضعف فيه بنور حبّ الدنيا، حتى تنقطع في النهاية ويهيئ نفسه للحياة الآخرة هادئا مطمئنا؛ لأنّ الإعراض بالوجه الباطنيّ نحو البقاء وتسهيل العبور من مضيق هذا العالم الى تلك الدار هو الأصل الثاني لدعوة الأنبياء، ومفتاح السعادة، وطريق التضحية الصالح

الوحيد، وسرّ التكامل العام. وهل الإنسان بهذه الإمنيات الطويلة والعمر القصير يتمكن من تمهيد طرق الحياة المشكلة، وتحلية المرارات إلّا عن طريق الإيمان الراسخ بالبقاء؟

٢ ـ إنّ الناس على فرق ثلاث بالنسبة للموت وحب الدنيا: الفرقة الأولى: هم المؤمنون بالآخرة الراجون رحمة الله وقد أعدّوا أنفسهم لذلك، كالانبياء والقادة الالهيّين، والذين تَربَّوا على أيديهم، وبعض الفلاسفة المحقّقين الالهيّين.

الثانية: المشركون بالله الذين لا يعتقدون بالآخرة، وهؤلاء لمّا كانوا يعتبرون الموت فناء ومؤدّياً الى التخلص من الاتعاب والآلام ومشاكل الحياة، يتصوّرون أنفسهم في قبضة الموت ـ تارة من أجل التخلّص، وأخرى بحسب غريزة التضحيّة ـ فيغضّون النظر عن الحياة وعلائقها بالتلقين والتحريض، كاكثر الأشخاص الذين يضحّون أنفسهم في سبيل المذهب والوطن والحريّة.

الثالثة : المؤمنون بالأديان وإيمانهم الوجداني الضعيف، ـ وغير المنطقي أحياناً ـ ممزوج بالغرور والآمال العاميّة المستندة الى الوسطاء. وهؤلاء لما كانوا قلقين ـ بذلك الغرور ـ من مكافأة الآخرة وعذابها، ويواجهون الازدواج النفسيّ والإضطراب، فهم أكثر تعلّقاً بالحياة من المشركين واللادينيّين، ويهربون من التضحية في سبيل الخير والحق.

كاليهود الذين بحث عنهم القرآن وجاء بهم مثلاً، وأكثر المسيحيين والمسلمين اليوم، هذه الفرقة سقطت أوّلاً عن مقام تربية الدين السامي، ثم عن فطرة التضحية!

انّ العلامة الواضحة للايمان بالآخرة وفتح نافذة البقاء بوجه الانسان الذي يفيض باطنه بحبّ البقاء هي هذه السماحة والتضحية التي كان المسيحيّون والمسلمون الأوائل نموذجاً وشاهداً لها، وكان أولئك بالإستناد إلى هذا الايمان تقدموا بدعوتهم بتلك السرعة. وبهروا سكّان العالم. والسبب المهمّ في ذلّة المسلمين وتخلّفهم هو أنّهم لم يمتلكوا السماح والتضحية بمقدار ما يمتلكه المشركون، وذلك للغرور وضعف العقيدة الصريحة، ويتمنون مثل هذه الحياة على كل حال وكلّ وضع ومهما كثرت: «لو يعمر الف سنةٍ»، وذكر الف سنة، ربما كان بسبب أنّ الألف كان آخر رقم يعد بحيث تتركب منه

الأرقام الاخرى. «وكان الإيرانيون القدامى في مصافحات اعيادهم القومية يقولون: عش ألف سنة، كما انهم اليوم بعد ما قصرت الأعمار والهمم يقولون:

مائة سنة كهذه السنين!».

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾ لم يكن حقد اليهود وعداءهم مع شخص هذا النبي وعنوانه القوميّ والعربي، لأنّهم لم يكونوا معه على خصومة سابقة من هذا اللحاظ. إذاً بدأت خصومتهم مع رسالته ودعوته؛ والتي لم تكن من عنده. فإنّ هذه الرسالة والوحي كانا من مبادىء أسمى، وهي التي تتقدّم بالنفوس المستعدّة نحو الخير والكمال، وتلهم كلّ مستعدٍ الحقّ والحكم حسب استعداده. إنّ المبدأ الملهم النازل بالوحي (الذي كان يشار إليه باللغة العبرية باسم جبرائيل) يضيء بعض القلوب بنور الوحي والالهام حسب إرادة الله ومشيئته الحكيمة وبإذنه. إذاً فعداوة اليهود ـ في الحقيقة ـ مع مثل هذه المبادئ ومبدأ المبادئ.

إنّ جواب «من» الموصول المتضمن للشرط ربّما لم يذكر لأنّه مهمّ وشامل، لكي يفكّر كلُّ شخص بجواب حسب فهمه وإدراكه، مثل: «من كَانَ عَدُواً لجبريْلَ، فليمت بِعدِائِهِ، فليعادِ إنْ تمكّن، لايتمكّن أن يقاومه، ما أعجزه وأخسّه، فالله وجبرئيل يعاديانه أيضاً». ويمكن أن تكون «من» استفهاميّة: من الذي يعادي جبرئيل؟!

يعود ضمير «إنّه» على جبريل، و«نزّله» على القرآن: فهو جبرئيل الذي نزّل القرآن على قلبك.

ويمكن أن يعود ضمير «إنّه» على الله. أيْ إنّ جبرئيل وسيط واذا كان لكم عداء معه فإنّ هذا العداء لم يكن في محلّه؛ لأنّ القرآن ليس منه وانّما هو من عند الله. ويمكن أن يعود ضمير «نزَّلَهُ» على جبريل: نزَّلَ الله جبرئيل «ملك الوحي» على قلبك، فلم يكن لك اختيار من نفسك.

وجاء «قلبك» بَدَلاً من قلبي، لربّما أن تكون هذه الجملة من القول والاتجاه المطلق لشخص الرسول؛ لأنّ قلبه عند نزول الوحي كان يمتلأ بالنور ويفيض بالوحي، ولم يكن له

طلب وجوديّ وقلبيّ!

وبهذا البيان لاحاجة لنقل الأقوال والبحث عن سابقة خصومة اليهود لجبرئيل، موضوع عام أنّ العداء مع هذه الرسالة عداء مع كلّ نواميس العالم الكليّة العامّة، لاعداء مع شخص أو شعب. يقول المفسّرون: لمّا سمع بعض زعماء اليهود من الرسول الكريم أنّ جبرئيل هو الذي ينزّل القرآن، وجدوا حجّة أخرى وقالوا: لو كان غير جبرئيل ينزّله لقبلنا؛ ولمّا كان لنا مع جبرئيل سابق عداء، لم نقبل. كانوا يقولون: إنّ تخريب بيت المقدس وتشريد اليهود، وتسلّط الأعداء علينا، كلّ ذلك جرى بواسطة جبرئيل.

وكأنّ الخراب والتشريد الذي كان نتيجة أعمالهم وأخلاقهم، وكان الأنبياء العظام يحذرون اليهود منها قبل وقوعها، وأنّها من قبل ملك الوحي الذي كانوا يدعونه جبرئيل باللغة العربية، لهذا كان اسم جبرئيل يتداعى بذكريات الماضي والمصائب فجعلوا هذا الأمر حجة لعدم قبول الدعوة الاسلامية.

إنّ عداء اليهود مع هذه الرسالة هو عداء مع مبادىء الوحي، وعوامل الوجود، وجهاز التكوين، وعداء مع رسالتهم ونبوّتهم. لأنّ هذه الرسالة مصدّقة لرسالة أنبياء بني اسرائيل ومبيّنة لها، وتنير طرق الهداية وتفتح أبواب الخير والبشرى بحيث تتطلبها كلّ روح ايمانيّة وكل طالب خير.

﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرى لِلمؤْمِنِيْنَ﴾: إنّ القرآن وإن كان متأخراً من حيث الظهور في هذا العالم، ولكنّه بحسب المراتب كان نزولها [تلك الكتب والصحف] بمثابة مقدمة لظهور القرآن وكمال الوحي: «بين يديه». إذاً فالعداء مع هذه الرسالة عداء مع الحق وجميع مبادىء الحقّ: «من كان عدواً للهِ وَملائكته ورسله...».

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيات بَيِّنَاتٍ﴾: إنّا أنزلنا آيات بيناتٍ من مقام الربوبيّة السامي. ولما كانت هذه الآيات هي البينة فلم تحتج الى دليل وبيان، كالنور الذي هو ضياء في نفسه ومضيء. فالقران باعجازه الفطري والعقلي وبيانه الحقائق والبراهين وربط مبادئه بنتائجه بيان ومبيّن. والفطرة المنحرفة هي ـ فقط ـ التي خرجت عن حدود الإدراك

الصحيح ونظرة الحق وكفرت بذلك نتيجة للعصبية والتقاليد الهوجاء والأوهام والشرك الوراثي.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الفاسِقُوْنَ﴾. ونتيجة لهذا الفسق وانحراف الفطرة لم يتبع اليهود وأهل الكتاب أيّ دين إلهي، ولم يثبتوا على أي عهد وميثاق:

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوْا عهداً انَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنهُمْ...﴾ بل أكثرهم لم يتمسكوا بدعوة الأنبياء قبل أن يبرموا عهداً.

﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾. إنّ هذه الآية خطاب لطف وتسليّة للرسول الكريم: لا تيأس من حجج أهل الكتاب وعنادهم ولا تتألّم! هذه آيات بيّنات! والذين كفروا قد خرجوا من حدود الفطرة ولذا قد اتخذوا موضعاً معاكساً لجهة إشعاع هذه الآيات، وكانت طريقتهم نقض العهد ونبذ المواثيق دائماً.

﴿وَلَمّا جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيْقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَاتَّبعواْ مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِيْنَ عَلى مُلكِ سُلَيمانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ ٱلشَّيَاطِيْنَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى ٱلمَلَكَيْن بِبَابِلَ هَارُوْتَ وَما رُوْتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقُوْلا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر فَيَتَعَلَّمُوْنَ مِنْهمَا مَا يُفَرِّقُوْنَ بِهِ بَينَ ٱلمرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَ يَتَعَلَّمُوْنَ مَا يَضُرُّهُم وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِموا لَمَنْ ٱشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الآخرةِ مِن خَلاقٍ وَلَبِئسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوكانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٣) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوكانوا يَعْلَمُوْنَ (١٠٤)﴾.

معاني المفردات:

اتبعوا: من الإتّباع: السير في الخلف. التابع: السائر في الخلف.

تتلوا: تقتفي، تتبع، تعرض وتفوّض، تقرأ الكتاب على التوالي.

شياطين: (تراجع الآية ١٦).

مُلك : الثروة، وما يكون تحت التصرّف، السلطة، السلطنة.

سليمان: كلمة عبريّة، ويقول البعض: من سلم: من السلامة والخير. أحد أولاد داود الأربعة وخليفته.

السحر: العمل الدقيق، طلاء الفضة بالذهب، جعل الباطل حقّاً، اختطاف العقل، وإعراض الوجه عن الشيء وإبعاده عنه، الخداع، وبفتح السين: الرئة، انتفخ سَحرُه: انتفخت رئته، كناية عن الاستيحاش، وكأنّما السحر يجلب انتباه العين والأذن بحيث يحتبس النفس في صدر المسحور.

بابل : مدينة ، أو بلد معروف بين دجلة والفرات، عاصمة الكلدانيّين [آثار بابل مشهورة اليوم شمال مدينة الحلّة في العراق].

هاروت وماروت: اسمان غير عربيّين علمان، ويمكن أن يكونا كناية او استعارة.

فتنة: امتحان. الفتّانه: حجر يختبرون به الذهب والفضة.

المرء: الانسان، الرجل، بلحاظ الخصال الحميدة، مؤنثه مرأة. مراءة: الهناء. المروءة. الفتوّة والسمو.

إذْن: رخصة، إعلام، إباحة، أمر. وعندما ينسب الى الله يأتي بمعنى السنن والأوامر الإلٓهيّة.

خَلَاقٌ: النصيب الكثير من الخير.

المثوبة: الثواب. ومثوبة بفتح الواو. رجوع فائدة العمل، ردّ الفعل، مكافأة الخير والشر، وتقال للخير بصورة أكثر.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُوْلٌ...﴾: إنّ أولئك الذين كانت عيونهم قد تفتحت بنور الوحي، ووجدوا عزّتهم وتماسكهم بكتاب الله ودينه، بمجرّد أن جاء النبيّ اليهم ليركّز قاعدة دعوة كتب الماضين، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم لحسدهم وحقدهم على النبيّ الخاتم ودينه.

وغضّ النظر عن الكتاب وطردُهُ من الذاكرة يبدي بصورة محسوسة النبذ الى الوراء. الكتاب المنسوب والمضاف الى الله الجامع للصلاح والسعادة وأسمى من الأشخاص والظروف «كتاب الله» يشمل القرآن وكتب الماضين [السماوية]؛ لأنّ هذه الكتب ـ في الحقيقة ـ صدرت من مبدأ واحد ومتصلة ببعضها؛ فالكتب السالفة مبشرة بالقرآن ومهيئة لمجيئه، والقرآن مكمّلها ومصدّقها. فاذا كانوا قد نبذوا مواضيع كتبهم وبشائرها فقد نبذوا القرآن أيضاً. واذا لم يتقبلوا القرآن فقد نبذوا كتبهم. الى أيّ شيء اتّجهوا عندما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؟ وما الذي يبحثون عنه؟ يبحثون عن السحر والخرافات والأوهام:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ...﴾ إنّ هؤلاء الذين نبذوا العهود وكتاب الله وراء ظهورهم دائماً، اتبعوا ما كانت الشياطين تتلوها للإضرار بملك سليمان: وما كانوا يشيعونه ويروّجونه من الأوهام وكتابات السحر والطلاسم كان يضعف أساس وسلطة ملك سليمان الذي كان مرتكزاً على قاعدة الايمان والحكمة وعدل النبوّة.

والمقصود من الشياطين الأشخاص المتصفون بصفة الشياطين، أوهم الشياطين الخبثاء، وهؤلاء هم الذين يحاولون بإيحاءاتهم وأعمالهم الشيطانيّة أو أقوالهم الماكرة الخدّاعة أن يعرضوا دعوة الأنبياء بصورة قبيحة وغير صحيحة ﴿وكذلك جَعلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غروراً﴾[1] إنّ هذا المعنى يظهر من «عَلَى» في «على مُلكِ سُلَيْمانَ» اكثر من الاحتمالات الأخرى وهو: ان سلطة سليمان واتساع ملكه لم يكن لهما نظير في منطقة فلسطين وتاريخ بني اسرائيل، بحيث كانت بعض الدول المجاورة للمملكة السليمانيّة قد عقدت المعاهدات معها وتعطيها الجزية؛ وقد خضع الناس المتوحّشون والقبائل العنيدة أمام السلطة السليمانيّة، واستخدم السائبون والمتمرّدون المتحركون. وقد أقبل الاخصائيون الفنانون الذين كانت موادهم الانشائية الأخشاب القوية والصخور، على عاصمة سليمان من كل جانب لبناء الهيكل وإكمال والمسجد الذي أسّسه داود وبناء القصور، وكانت

---

١) الانعام / ١١٢.

الحروب والاضطرابات المستمرة على عهد داود قدزالت على عهد سليمان، وساد الأمن والسلام. وكان هذا الملك والسلطة نتيجة تعاليم خلفاء موسى وجهدهم، وتضحيات القادة المؤمنين، وحكمة داود وسليمان وتدبيرهما وعدلهما. ومحيط الأمن والعدل والعمل هذا، قد استقطب الطوائف المختلفة بعقائدهم وأوهامهم. فشاعت الأوهام وخرافات السحر والطلسمات بالتدريج بين بني اسرائيل، وفي بلاط سليمان وبين نساء حرمه اللاتي كنّ من قوميّات مختلفة، وكان التنافس جارياً بينهن. الى درجة بحيث كانوا يظنون أنّ سلطة سليمان الفريدة التي لم يسبق لها مثيل كانت بسبب الطلسم والخاتم وسحر سليمان وتعليمات الجنّ.

حتّى أنّهم كانوا يقولون: إنّ ميزة ذلك الخاتم والتختّم به هو سبب الحصول على الملك وتسخير الجنّ؛ لأنّ التعليل، أي البحث عن العلّة، ونسبة كل حادث الى علّة، من مميّزات الإنسان، لهذا فإنّ الأشخاص الذين لم يتحلّوا بالعقل والفكر الصائب القوي أو المتقوي بالحكمة والإيمان لم يتمكنوا من إدراك علل الحوادث كما هي. فهؤلاء يتصوّرون بوهمهم وفكرتهم القاصرة عللاً وأسباباً وهميّة غير حقيقية للحوادث الطبيعيّة أو الاجتماعيّة والحوادث الأخرى، ويسردون قصصاً حولها. وكلما انتقلت هذه القصص والأوهام من طبقة الى أخرى، ومن الماضي الى المستقبل، تترسخ في الاذهان بصورة أكثر، وتأخذلها طابعاً حقيقيّاً، كما كان ولا يزال هذا الأمر بين عامة الناس الذين تقصر أفكارهم عن درك الحوادث الطبيعيّة والتقدّم والانحدار والحوادث الأخرى. والذين يبتلون بمثل هذه الأفكار، ولايتمكنون من دراسة علل الحوادث دراسة صحيحة وفهمها، يبقون دائماً في أوهامهم، ويضلّون عن طريق الرشد، فيكونون أذلّاء خاسئين لأشخاص قد اخذوا بزمام العلل وتقدموا. ان السحر الحلال والسحر الباطل والطلسم والخاتم المعجز الذي كان لسليمان هو الإيمان والحكمة التي أودعها في قلبه. إنّ سليمان بحكمته ونظرته الثاقبة قد حصل على مفتاح إدارة الجن والإنس والحيوانات ولغة حاجتهم، وسخرهم جميعاً بالتدبير وقوّة الحكمة. وقد تكرّرت هذه الحقيقة في كتاب الملوك وأخبار الأيام في

التوراة في الإصحاح الثالث، الفقرة الخامسة تقول: ظهر الربّ في النوم لسليمان وقال: أطلب ماذا تريد أن أعطيك! فقال سليمان: انت عاملت عبدك داود أبي برحمة عظيمة، كما سار أمامك بأمانة وحسن نيّة واستقامة قلب، واحتفظت له بهذه الرحمة العظيمة، ووهبت له ولدا ليخلفه على كرسيّه، والآن أيضاً اليوم يا إلهي! يارب! وهبت لعبدك الملك بمكان أبي داود، وأنا شاب يافع، لا أعرف مورد الفعل ومصدره، وأنا عبدك بين قبيلتك، تلك القبيلة التي أخترتها، وكثّرتها أكثر من ذي قبل. فهب لي قلبا واعيا لأحكم في قبيلتك، وأميّز بين الخير والشرّ.. فحسن هذا الكلام في نظر الرب.. فقال: أنت طلبت مثل هذا الطلب، ولم تطلب لنفسك شيئاً.. سأمنحك قلباً حكيماً مميّزاً لكيلا يكون من قبلك مثلك.. فاذا سلكت طريقي وحافظت على وصاياي وفرائضي كما سلك أبوك داود سأطيل في عمرك. ثم استيقظ سليمان من نومه..»

فكما أنّ علم سليمان وحكمته وعدله ووزراءه وأركان دولته ركّزوا ملكه بين البلدان وشعوب ذلك العصر وأثبتوها، ووسّعوا دائرة نفوذها، أفرغ شيوع أوهام السحرة وأنسجة الخيال ـ كالأرضة ـ العقول والأفكار أوّلاً، وأزال لبّ الحكمة والتعقل، ثمّ ضعّف ملك سليمان وقاعدة عرشه التي كانت ثابتة على التفكير والحكمة وأزالها، وأفرغ تحت عصا قدرته «منسئته» حتى انهار ذلك الملك بعد مدّة، وتلاشى ذلك المجتمع الملتحم المتقدّم.

يمكن أن يكون «ماتتلوا» بقرينة «على» الأكاذيب والافتراءات التي نُسبت الى سليمان عند أتساع سلطته وملكه أو يمكن أن يكون المقصود الأوهام السحريّة والافتراءات والأكاذيب أو الاساطير وأناشيد الأصنام.

كتب في التوراة الباب الحادي عشر الملوك: «وعند شيخوخة سليمان رغّبه نساؤه للإتباع من الآلهة الأجنبية.. فذهب سليمان خلف «عشتاروث» آلهة الفينيقيّين «الصيدونيّين»، و«ملكوم» صنم العمونيّين، وأصبح سليمان في نظر الله شريراً، ولم يتّبع الله اتباعاً تاماً كأبيه داود. ثم بنى سليمان مكاناً عالياً مقابل أورشليم لأجل «كموش» رجس المؤابيّين، ومن أجل «مُولُك» رجس بني عمون..».

وسلوكهما أو المعلومات التي يحصلون عليها منها ـ من إغواء الكهنة والسحرة الذين كانوا يلعبون بعقول الناس وأفكارهم ويسخرونهم، وكان بعضهم يتّجه نحو الشر والضلال أيضاً.

يمكن أن يدعى هذان الاثنان ملكين في رأي أولئك الناس وعرفهم، وكانا يظهران أنفسهما بصورة شخصين خيّرين، وكانا يقولان هذه الجملة «نحن فتنة فلا تكفر» لجلب الانظار وخداع الناس؛ ليعتبرهم الناس خيّرين خادمين وأن أساطيرهم ونسائج خيالهم حقائق. كما أن سحرة عصرنا ينسبون سحرهم إلى سليمان ودانيال وبعض أئمة الاسلام. لو كان في نظر القرآن أن يفصل عن ماهيّة «ما أنزل»، ومن هما «الملكين» لبيّن ذلك. وكأنما نظر القرآن أن يوجّه الأنظار إلى المصدر الآخر للأوهام المضلّة التي انتشرت من بابل عاصمة الكلدانيين القدماء، ومنطقة تلك الحضارة الغامضة، بواسطة شخصين استخرجا هذه الأسرار من بين جدران السحرة والكهنة المحدودة، وبثوها بين الشعوب لاسيما اليهود، واليهود بدورهم انتشروا في كل مكان ونشروا هذه الأوهام معهم.

كانت دولة الكلدانيين تقع بين دجلة والفرات في ثغر الخليج الفارسي. إنّ صلة هذه المنطقة الخصبة عن طريق البر والبحر بمراكز العلم والحضارة يومئذ من الشرق والغرب كالهند، ايران، مصر، اليونان، وفلسطين سبب تقدم الكلدانيين من كل جانب. فالسهل الواسع الذي يشبه الوادي وسماؤه المشعّ المفتوح لفت أنظار أذكياءالكلدانيين إلى مدارات الكواكب وأوجها وحضيضها وقربها وبعدها وأوضاعها الأخرى إلى الحدّ الذي كانت الآلات العلميّة يومئذ تجيز لهم ذلك، ولهذا السبب كان الكلدانيون يعتقدون بتأثير الكواكب الروحانيّ في جميع شئون الحياة. وعبدوا تماثيلها وصورها، وقد نهض ابراهيم الخليل من بين هؤلاء داعياً الى التوحيد ولفت الانظار الى ربوبيّة الله، إنّ هؤلاء الذين كانوا قد تعرفوا اكثر من الآخرين بأثر مقارنات الكواكب وقربها وبعدها، والخسوف والكسوف، وانعكاسات الأشعة الكونيّة في الفضاء والأرض و أمزجتها، كانوا يتنبؤون بهذه الأمور، وكانوا يتفوهون أحياناً عن طريق الحدس بأمور كالحرب والسلم والمجاعة بحسب تأثير هذه التقلبات والاوضاع في النفوس والأخلاق وإن هذه التنبّؤات التي كان

بعضها يجري وفق حساب دقيق وبعضها من الحدس والتخمين قد لفتت أنظار الجماهير تجاه أصحاب هذه الآراء والمتنبئين إلى درجة أنهم كانوا يظنون بأنّهم ذوو قدرة خارقة ومؤثرة في الخير والشر، ومراجع لحلّ المشاكل. واستغل بعض المحتالين هذا الاعتقاد من قبل العوام، فراجت سوق السحرة والكهنة.

يقول المحققون في تاريخ الحضارات القديمة: أثمرت الفلسفة وعلم الهيئة من بلد الكلدانيين، وبدأت من الكلدانيين، ومنهم تسرّبت الى فينيقيا وفارس والهند ومصر والعرب واليونان. يقولون: أنّ أوّل عالم مشهور كلدانيّ هو «زرواستره» والذي كان يعيش على عهد «نمرود»، وبعده «بيلوس» وكان معلّم علم الهيئة والفلك في (٢٣٠ ق.م) الذي ألّف هذا العلم بدقة وسهولة للعامة. وإحاطته وقدرته العلميّة وتنبّؤاته عن الحوادث الكونيّة هي التي جعلته بعد موته في مصاف الآلهة، فصنعوا له تمثالاً كبيراً على قبره ببابل. وبعد هؤلاء العلماء والفلاسفة الأوائل، راج السحر والشعوذة والاحتيال ومعرفة الكواكب والتنبّؤ بالسعد والنحس وحلّ الزيج بين الكلدانيين والبابليين إلى درجة بحيث كانت بابل تدعى بهذا الاسم: «السحر البابليّ، بابل السحر»، ولذا انقرضت قدرة حضارتهم وعلمهم ومجتمعهم بعد الضعف.

يقول «البيرماليه» في كتاب «ملل شرق ويونان»: «كان الكلدانيّون يحترمون الأموات، ويحبّون هذا العمل كثيراً؛ لأنهم كانوا يعتقدون بأنّ الأرواح تتمكّن من الرجوع إلى الأرض وتؤذي الأحياء... وبغض النظر عن هذا كانوا يعتقدون بأنّ عددا من الجنّ المسيئين والشياطين المخفيّين يتربصون على الأرض ويؤذون الناس. وكانوا يرسمون الشياطين بصورة قبيحة، ويجعلون لهم جسم انسان ورأس وأطراف حيوان. كتاب آشوريّ يصف الشياطين كما يلي: هناك يعوون، هنا يتربصون، هم طفيليّات كبيرة تطلّعت الى السماء، مهيبة جداً، عواؤهم يعمّ المدينة،ينتشر نسلهم من التراب... وأهالي كلدة يتذرّعون بالسحرة والكهنة لأجل أن يحرسوا أنفسهم من أعدائهم المخفيّين. وكان السحرة أناساً مقتدرين مرهوبين؛ لأنّ هذه القوة كانت فيهم بحيث ينزعون السلاسل من

أعناق الشياطين، ويجعلون طالع النحس في اعناق الناس. وكان طريق طرد الشياطين الأذكار والأوراد، ورشّ الماء المتبرّك، وتفوير الأعشاب السحريّة. وكانوا يحافظون على أنفسهم من شر الشيطان بواسطة أشرطة من القماش تخاط فيها الصور المتبرّكة باليد، الطلاسم والتعويذات التي تسبب سعادة الحظ. إن أهالي كلدة قد أشاعوا استعمال الطلاسم والتعويذات والاعشاب السحريّة والأوراق التي كانت تستعمل من أجل دفع شؤم الحظ، في جميع أنحاء العالم يومئذٍ... وقد مضى أنّ الكلدانيين قد جعلوا مكان آلهتهم في أهم كواكب السماء أي الشمس والقمر والسيارات، وبصورة عامّة فإن في سماء كلدة كوكب ذو شعاع خارق، وسكّان هذه المنطقة يعتبرون كل كوكب مظهراً لاحد صفات الربوبيّة، ويتصوّرونها أنّها مفسّر وترجمان لارادة الله، وكانوا يظنون بأنّهم اذا رصدوا الكواكب يتمكنون من التعرف على المشيئة الالهية، وحدس حركاتهم من أنّه ماذا سيحدث في الأرض ولذا كان الكهنة يتفوّهون بالغيب أيضاً، وكانت لهم اليد الطولى لاسيّما في التنبّؤ عن مستقبل الناس. وفي رأيهم أنّ طالع كل شخص متعلّق بالمكان الذي كانت عليه الكواكب بالنسبة الى بعضها حين ولادته. بناء على هذا كلّ من يولد من الممكن أن يكون كوكبه صالحاً أو سيئاً. إنّ هذا النوع من التفوه بالغيب قد سمّاه اليونانيون «تقرير مصير الولادة»، ويسمون التدقيق المتخذ لغرض اكتشاف اوضاع المستقبل في حال الكواكب «علم الاحكام».

اذاً كان علم الأحكام فرعاً من التنبّؤ بالغيب وكان لكهنة كلدة طرق أخرىٰ للتفوّه بالغيب منها تعبير الرؤيا، والطريق الأخر كيفية القلب والباطن، لاسيما عندما يمتحن أمعاء حيوانات الأضحية وأحشائها لاسيما أكبادها. والآخر الأشكال التي تكون عليها قطرة السمن حينما تقطر في الماء.».

إن «مَا» في «ما أنزلَ» ـ باحتمال ضعيف ـ تكون نافيةً ومعطوفة على «ما كفر سليمان» أي لم يكفر سليمان... ولم ينزل على الملكين. ويمكن أيضاً تفسير «ما يعلمان من أحدٍ...» بمثل هذا التفسير: ولم يعلّما أحداً حتى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر!

﴿فَيَتَعَلَّمونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُوْنَ بِهِ بَيْنَ المرءِ وَزَوْجِهِ﴾: كان الملكان يعلّمان ما كانا تعلماه من رموز السحر والتنبّؤات والتأثيرات النفسية و... للاختبار ويقظة العقول والنفوس من أساطير الكهنة والسحرة، ولكن أصحاب الأفكار السيئة كانوا يستخدمون ما يتعلمونه منهما في طريق تسخير النفوس والتفرقة وقطع علاقات الحياة والعلاقات الاجتماعيّة، وتركوا ما كان مفيداً. وكانوا يبثون هذه الأساطير المفرقة في كل جهة:

﴿فَيتّعلمون﴾: كأنّما تشير إلى هذه التعاليم من بابل بواسطة هذين، وربّما كانت تلك التجريبيّات والانطباعات من قبل رموزاً فقط بين الكهنة والسحرة. وإنّ «ما يفرقون...» إشارة الى سوء استغلال الناس من هذه التعاليم، والتفرقة بين المرء وزوجه نموذج من عملهم الدنيء وقطع العلاقة والاخلال في الحياة الزوجية.

وان كان تعليم هؤلاء السحرة وأعمالهم لها مثل هذه الآثار، ولكن هذه الأعمال وآثارها لم تكن خارقة للعادة ومخالفة لقوانين الخلقة والطبيعة كما كان يظن العوام الجهلة، بل كان معلولاً للقوانين والنواميس الآلهية وذا صلة بها:

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أحَد إلاّ بِإذْن اللهِ﴾: إنّ هذا البيان إلفات الأنظار إلى علل هذه الآثار وأسبابها الخفيّة ليكتشف الإنسان بالتفكير والتأمل مثل هذه العلل ويحرّر نفسه من أوهام الكهنة والسحرة وعبوديتهم، وهو أيضاً تذكير بعلّة العلل ومسبّب الأسباب والتوحيد في الفعل والمشيئة، والذي هو غرض القرآن السامي. وبعد بيان الأثر التافه لهذه التعاليم واستنادها لتلك الأسباب والعلل العاديّة، يعيد الى الأذهان الوضع العقلي والنفسي لهؤلاء الناس السفلة (اليهود، أو البابليّين، أو عامّة الأمم الوضيعة)، الذين كانوا يتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم بدلاً من تعلّم العلوم المفيدة في تقدم الحياة وتقوية العقول والطباع الانسانية:

﴿وَيَتَعَلَّمُوْنَ مَا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ...﴾: إنّ دراسة أحوال الشعوب وحياة الأشخاص الذين يعقبون الموضوعات والمعلومات التي لا تتلاءم مع سنن الحياة توضّح هذه الحقيقة جيّداً: بأنّ الذين يبحثون عن هذه الأشياء ويشترونها لم يتمتعوا بالحياة

الفضلى التي تضم القوة والعزة والكمال، ويعيشون دائماً اذلّاء خاسئين خانعين. إن مثل هؤلاء الاشقياءكيف يمكنهم حلّ طالع سعد الآخرين؟ وكيف يتوقع الناس منهم مثل هذا الأمر:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ في الآخرة مِنْ خَلاقٍ﴾: إنّ لام التوكيد، وقد التي تفيد التحقيق و«علموا» التي تعود على جميع المتعلمين وأتباعهم، ولام جواب القسم، كلّها تؤكد بشدّة على إضرار الاتباع من السحر والسحرة. وإذا كان المقصود من «في الآخرة» هو يوم القيامة، فكيف جاء القرآن بعلم عامّة أولئك الناس المحقق شاهداً على الموضوع، وكيف كان لأولئك الناس من عبدة الأوهام وأصحاب الفكر القاصر علم تحقيقي بضرر هؤلاء المشتريين وعدم نصيبهم في الآخرة؟!

إنّ تخلف أتباع الأوهام واللاعبين بالعقول عن ركب الحياة، وعدم تمتعهم بالسعادة، معلوم ومحسوس، والذي يخفى عليهم الأضرار المعنوية وزوال رؤوس الأموال النفسيّة:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَو كانُوا يَعْلَمُونَ﴾: لمّا كان هذا الضرر النفسي مهماً جداً وغير معروف لدى الجميع، بدأ بتأكيد «لبئس» وختم بـ «لو» التي تأتي للشرط الممتنع! إذاً فالعلم الأول «وَلَقدْ علموا» يعود الى الضرر المحسوس، والعلم الثاني يعود الى الضرر الباطني المعقول، ولامجال لتوهم المنافاة.

ولو أنّهم اتبعوا هداية الأنبياء بدلاً من اتباع سحر السحرة وكهانة الكهنة، ونوروا العقول بنور الايمان، ونظموا حياتهم بالتقوى، لاتجهت نحوهم الخيرات من قبل الله ومن كل جانب، ولكان نفعهم المحقق اكثر مما كانوا يتوقعونه بأخيلتهم من هذه الأباطيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ وَاتَّقُواْ لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوْا يَعْلَمُونَ﴾ إنّ «لو» في بداية هذه الآية وختامها إشارة أيضاً إلى أنّ أفكارهم القاصرة لا تصل إلى هذه الحقيقة، ولا تستحق التمتّع بالإيمان والتقوى.

إنّ اشارات هذه الآية الطويلة «واَتَّبَعُواْ...» ومفرداتها وقراءاتها وتراكيبها لها قدرة المعاني والاحتمالات الكثيرة والعجيبة: كما أنّ للسحر والشعوذة وتأثيراتها النفسيّة التي

تقصدها الآية تفرّعات كثيرة، وللمحققين حول حقيّة هذه الفنون وبطلانها آراء مختلفة، ودرسوا الجذور العلميّة والنفسيّة لبعضها إلى حدٍّ ما، وبقي بعض اسرارها مجهولة. وقد عدّ البعض التراكيب والاحتمالات القريبة لظواهر هذه الآية والبعيدة عنها والأساطير التي حيكت حول كيفية هذه القصص أكثر من مليون!! ربّما يكون النفع الأكثر من المواضيع التربويّة والهدايتيّة من هذه الآية كموضوعها العلميّ للأجيال القادمّة.

إنّ هذه الآية تعكس باشاراتها وكلماتها القصيرة وبيانها الجامع في ذهن السامع أو القارئ مواضيع وصوراً، وتمرّ بسرعة منها واحداً واحداً: تعرض اليهود الذين اتبعوا هداية الأنبياء ودعوتهم، والسنن الإلٓهيّة، وحكموا الشياطين بتدبيرهم، أصبحوا بعد مدّة أتباع وساوسهم وايحاءاتهم، ونبذوا كتاب الله وسننه وراء ظهورهم. تعرض أواخر ملك سليمان: الذي انفتح الميدان فيه للسحرة وأصحاب الأساطير المضلّين، الى درجة بحيث يريدون أن يلوّثوا أذيال سليمان الطاهرة، ويحجبون وجه نبوّته. ثم تُبرِّئ سليمان بجملة قصيرة «وما كفر سليمان» وتعرض وجه نبوته. ثم تعرض بـ «وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِحْرَ...» كفر الشياطين وحجب أساطيرهم المظلمة وسحرهم. وربّما كان هؤلاء يجمعون الناس جماعات جماعات حول أنفسهم في كل زاوية ومكان، ويلهونهم بضلالاتهم. من أين وكيف شاع السحر والأسطورة في بلد الإيمان والهُدى والحكومة السليمانيّة؟، وعبارة «وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الملكينِ...» تبيّن مصدره، وتعرض زاوية من مدينة بابل العظيمة الغامضة بكهنتها وسحرتها. في هذه المدينة، تلوح للناظر من جهة البنايات والتماثيل العظيمة الفخمة والجنائن المعلّقة[١] وتلوح للناظر الكهنة والسحرة الذين كانوا

---

١) يكتب المؤرخ الشهير هيرودوتس: «أقيمت مدينة بابل على سطح واسع ممهّد مربّع الشكل يبلغ طول كل ضلع مائة وعشرين فرسخاً ومحيطها أربعمائة وثمانين فرسخاً (ربما كان ميلاً) وكان يحيط بهذه المسافة خليج عميق مليء بالماء دائماً، وبعد الخليج أقيم جدار لهذه المدينة يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة وخمساً وثلاثين قدماً، وقطره مائة قدم، وفيه مائتان وخمسون برجاً ومائة باب برونزي، وأغلب هذا السور بني بالآجر، ويقسم نهر الفرات هذه المدينة إلى قسمين، وعلى جانبي النهر أقيم الجدار ليمنع الأعداء، له أبواب برونزيّة أيضاً تنزل الى النهر. ومن أبنيّة هذه المدينة العظيمة قصر الملوك الذي شيّد على مكان دائري ويحيطه سورمتين، ومن عماراتها العظيمة أيضاً تمثال «بيل» وتوجد هناك تماثيل وآلات ذهبيّة جميلة جدّاً، وكانت

يسخرون الناس بالأوهام، ومن جهة أخرى، فإن من مستلزمات هذه الاوهام والمجتمعات إشاعة مراكز الفساد، وازدياد النساء والبنات البغايا، ومحالّ اللهو والطرب التي كان السحرة يُلهون الناس بها[١]. وفي هذا الوسط رجلان ملكوتيان الصفة بوجه منير وعمامة بيضاء وثياب كتانيّة طويلة وشعر مدهن[٢] قاموا بهداية جميع الناس وتعليمهم، ليحطموا ـ مثل سقراط الحكيم ـ طلسم الأوهام، وينقذوا الناس من أساطير الكهنة المتفقين مع الطبقات الحاكمة، ومن التلوث بالفحشاء. وربّما كان القرآن قد دعاهما ملكين لهذا السبب، لأنهما لم يكونا نبيّين من قبل الله، ولا يجنبون أنفسهم كجميع الفلاسفة من المسؤوليّة لإنقاذ الناس، ولاهم كعامّة الناس المسخرين بالأوهام.

إذا فهذا الاسم «مَلَك» أنسب من كل أسم لهما. كانا يبيّنان للجميع رموز السحر والشعوذة والكهانة التي كانت مقتصرة على الكهنة وخاصّة بهم، ويزيلون الستار عن الأوهام. وبهذا السبب ومن هنا أشيعت هذه الرموز بين أناس تلك المنطقة الى أن تسرّت إلى وسط اليهود ومحيط ملك سليمان المستعدّ.

وهذه الآية التي هي كالشهاب الثاقب لطرد الأوهام وإيحاءات الشياطين، أحاطتها الأوهام والنسائج الاسرائيليّة التي ظهر بعضها بصورة الروايات الاسلاميّة، وأخفت حقيقتها الواضحة إلى درجة بحيث تصرف الأذهان عن هدف هَدي القرآن وتربيته.

ولمّا كانت هذه الأوهام تصرف النفوس دائماً عن الإدراك الصحيح المنطقي للحوادث وأصول التكوين والنظر الواقعي والعمل اللائق، فكل شعب أبتلي بمثل هذه الأباطيل فإنه

= فيها الجنائن المعلّقة، والتي كانت ترتفع عن سطح الأرض بمقدار خمس وسبعين قدماً، وقد غرسوا فيها من جميع الأشجار والنباتات ذوات المناظر البديعة. ويبلغ قطر أشجارها الضخمة اثني عشر قدماً. وقد عُفي آثار جميع هذه البنايات. الأول: هو أنّ العرب يسمونها بابل ولا يستبعد أن تكون بقايا تمثال «بيل». الثاني: قصر «نبوخذ نصر» الشهير... الثالث: هو برج نمرود، وهو بقايا التمثال الذي كانوا يقدسونه من أجل ألوهة «بيو»، ودعاه بعض السيّاح برج بابل جهلاً. ومع أن جميع الدول الذين تسلطوا على الكلدانيين سعوا في خرابها، وأنّ اسكندر الكبير كلف عشرة آلاف عامل بهدمها، لم يتمكنوا حتى الآن من محو معالمها» مقتبس من «قاموس كتاب مقدس» ترجمة وتأليف المستر هاكس.

١) هذا ما ذكره المؤرخون حول أواخر أيام حضارة بابل.

٢) هكذا وصف المؤرخون أعيان بابل وعلماءها. «تاريخ كتاب مقدس لغت بابل».

يسلك طريق الانقراض والهوان، وهذا هو علّة العلل لا نقراض الحضارات مثل: كـلدة، والروم ومصر وملك سليمان. والعلل الأخرى مثل الابتلاء باستبداد الحكومات واللـهو بالفحشاء من مستلزمات هذا وآثاره. ومادامت منطقة الغرب محكومة لأجهزة السـحر والكهانة والشعوذة، لم تتمكن من فتح أعينها ودراسة أسرار الخلقة و قوانين الحياة: ان ديكارت الذي كان رجلا موحداً وآراؤه من اكثر الآراء تأثيراً في مصادر الثورة الفكريّة والعلميّة في أوربّا، يقول حول نفسه: «كنت أعتبر نفسي مطلّعاً على قدر التعليمات الخبيثة وقيمتها الى درجة أني لم أنخدع بمواعيد الكيمياويّين، وأخبار المـنجّمين، وأكـاذيب السـحرة، وأحابيل وافتراءات الذين يـدعون اكثر مما يعلمون. نقلاً عن «سـير حكمت در أوربا».

مع أنّ هذه الآية قد حكمت ثلاث مرّات بالكفر بصراحة منطوق العـقيدة ومـفهومها والعمل بهذه الأوهام: «وما كفر سليمان»، و«ولكن الشياطين كفروا»، «فلا تكفر» مع أنّ فقهاء الاسلام والإماميّة المحترمين يعتبرون السحر وأحكامه حراماً ويعتبرون من أحل ذلك كافرا ودمه مباحاً «كما أن فقيه الشيعة العظيم الشيخ مرتضى الأنصاري ـ أعلى الله مقامه ـ نقل روايات العلماء وفتاواهم وأعطى رأيه بالمسألة» مع كل هذا فإن المسلمين اليوم مبتلون أكثر من جميع الشعوب الأخرى بالسحر والكهانة!!

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُواْ لا تَقُولُواْ راعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنا وَاسْمَعُواْ وَلِلكافِرِينَ عَذَابٌ أَليمٌ (١٠٥) مَا يَوَد الَّذِينَ كَفَرواْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا ٱلْمُشْرِكينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَالله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو ٱلفَضْلِ العَظِيمِ (١٠٦) مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَاأَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ (١٠٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيّ ولا نصِيرٍ (١٠٨) أَمْ تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَسأَلُوا رسُولَكُم كَمَا سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلكُفْرَ بِالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيْلِ (١٠٩) وَدَّ كَثِيْرٌ مِنْ أَهلِ الكِتابِ لَو يَرُدُّونَكُمْ

مِنْ بَعدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلحَقُّ فَـٱعْفُواْ وَٱصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللهُ بِأَمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ ﴿١١٠﴾».

معاني المفردات:

راعنا: من الرعي: الانطلاق وإطلاق الغنم في المرعى، الإشراف على الضعفاء، المراعاة: النظر، الإطلاق، تقدير الحال، وضع شيء موضع النفس، الإصغاء، الترحّم.

انظرنا: من النظر: النظر بتأمّل، الدراسة والتفكير، التقدير والقياس، القضاء بالعدل بين الناس، البصيرة، الاستدلال. في هذا الموضوع الرأي، مجال التفكير.

الفضل: الإحسان الكثير بدون سبب، الإكثار بلا حدّ من قبل المحسن، أو في مجال الإحسان.

النسخ: إزالة الشيء أو إبطاله ووضع شيء آخر في محلّه. نسخت الشمس الظلّ، ونسخ الشيب الشباب. رفعه وحلّ ومحلّه، وتناسخ الأرواح والقرون بهذا المعنى.

ننسها: من النسي: النسيان، التناسي. من نسأ: التوكيل، والتأجيل.

ولي: صديق، مساعد، مشرف، حاكم، حليف.

سواء: بين حدّين، الطريق أو الخط المستقيم.

الحسد: طبع نفسيّ: تمنّي زوال نعمة الغير. الغِبطة: التمني لأن يكون له كما للغير من النعم.

العفو: إزالة الأثر، الصفح عن الذنب، غض النظر عن السوء.

الصفح: اعراض صفحة الوجه عن الشخص، غض النظر عن الشيء.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَقُولُوا راعنا﴾: إنّ هذه الآية أوّل خطاب للمؤمنين في هذه السورة وأول حكم موجه لهم.

هذا الخطاب تقريع مقارن بالفعل الماضي «آمنوا» دالّ على السبق الى الايمان والثبات عليه، وقد جاء بعد دراسة انحرافات اليهود عن أصول دعوة الأنبياء وأوامرهم،

تلك الانحرافات في العقيدة والأخلاق التي أدّت بهم إلى إتّباع السحر والشعوذة وعلم النجوم والأوهام الأخرى. إنّ مصدر هذه الانحرافات هي نفسيّات اليهود الذين كانوا يريدون دائماً أن يلائموا بين الدين الالهيّ ورغباتهم النفسيّة وأمنياتهم الماديّة، ولهذا حوّلوا التوحيد الخالص إلى شرك عبادة العجل، وظنوا أن الدار الآخرة والسعادة والفلاح الذي هو حصيلة الإيمان الطاهر الجيّد لأنفسهم مهما كانوا، وبدلوا و أوّلوا كلّ حكم وقانون بأهوائهم، ونبذوا وراء ظهورهم من الحق والكتاب كلّ ما لم يكن ملائماً مع أهوائهم ورغباتهم النفسيّة، وبالتالي أظهروا أوهامهم على شكل دين. وقد عرض القرآن إلى هنا زوايا انحرافهم وخصالهم النفسيّة مهما كانت في صور وبيان مختلف.

والآن يوقظ وينبّه في هذا الخطاب أشخاصاً قد جعلوا أنفسهم في معرض أشعّة الإيمان، واستراحوا بجاذبة الإيمان من جواذب الأهواء، وسموا عن الشهوات المحرّفة، لكيلا تتكرّر تحّركات المسلمين ورغباتهم النفسية كاليهود وتنحرف بهم. لكيلا تظهر رغبتهم بصورة طلب «رَاعِنَا» الذي هو طلب ملائمة الدين مع الظروف النفسيّة، ومراعاة رغباتها!

إنّ معنى «مراعاة» كما قيل في معاني المفردات ، هو تقدير الحال، واطلاق الغنم في المرعىٰ، والإطلاق والإشراف، نفهم من هذه الكلمة والأمر «رَاعِنَا» أنّ المؤمنين عليهم ألّا يطلبوا من الشارع المقدّس تطبيق أحكام الدين وأوامره مع مصالحهم وشهواتهم، والذي يجب أن يطلبونه هو: النظر في مصلحتهم الواقعيّة وعاقبة أمرهم، لكي تتحقّق بمثل هذه النظرة سعادتهم وسعادة المجتمع، وإن كان مثل هذه النظرة لا تتلاءم وأمنيات الفرد أو الجماعة ومصالحهم أو اللذائذ والشهوات العامّة.

وهل يمكن أنْ يتقدّم أحد بمثل هذا الطلب إلى مُصلح ينظر واقع المجتمع، او مُقَنِّن عاديّ،أو طبيب حاذق بأن: راعنا وراع حالنا ومصالحنا؟! فكيف بالأنبياء الذين عليهم أنْ ينظروا ـ بأمر الله ـ إلى صلاح الدنيا والآخرة، والمادّة والمعنى، والفرد والمجتمع، والحال والمستقبل. إنّ المريض الذي يطلب من الطبيب المعالج أن يراعي حاله ومايشتهيه في

العلاج والدواء، قد غضّ النظر عن سلامته ونجاته النهائيّة، واستخفّ بالطبيب، وظنّه تابعاً لرغباته، وتجوز إهانته. ربما كان مصدر قول المفسّرين بأنّ كلمة «رَاعِنَا» كانت من قول اليهود، وكانت إهانةً بالنسبة للنبي، هو هذا.

إنّ المريض الذي يريد سلامة نفسه ويؤمن بالطبيب يجب أن يقول: أنظر وآمُرْ، وأنا أسمع وأعمل بأمرك:

﴿وَقُوْلُوا ٱنظُرْنا وَٱسْمَعُوا...﴾: إنّ هذا الأمر لوكان لشخص عاقل يفكّر بالصلاح، حول سؤال محترم من الطبيب الذي لم يكن مصونا من الخطأ في التعيين لكـان حـقّاً، وعلى السائل أن يسمع ويطيع أمره ويستسلم لعلاجه، اذاً كيف يمكن طلب المراعاة من الأنبياء الذين هم أطبّاء النفوس والمجتمع ويستدلوّن بالوحي، ومعصومون مـن الخـطأ والزلل لكي يلائمون دين الله مع رغبات الناس وعاداتهم.

وكما يطابق القوانين الطبيعيّة وعامّة القوىٰ ومواد العالم مع الحكمة، وينظّم الجميع، ويتقدّم بها نحو غاية التكوين السامية، فالأحكام التشريعيّة التي هي والقوانين التكوينيّة من مبدءٍ واحد، هي من أجل تسليم العناصر البشرية والقوى الانسانيّة وتـطبيقها مـع الحكمة والمصلحة والحق، لاتطبيق الحق مع الأهواء والتقاليد البشريّة: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلحَقُّ أَهْوَاءَ هُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّماواتُ وَٱلأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ﴾[١]

إنّ طلب المراعاة هذا وتطبيق دين الحياة الواقعيّ مع الشهوات والتقاليد والأهواء التي تشكّل أوضاع المجتمعات الفوضويّة، وأحوالها، إمّا أن يكون ناتجاً عن فكر القاصرين عقليّا والمحكومين للشهوت الذين يريدون اتباع الدين مرافقا لتأمـين الشـهوات غـير المشروعة، وإمّا ان يكون من إيحاءات الشياطين الذين يريدونأن يلوّثوا دين الله، ويزيلوا اثر هدايته وتربيته وفائدتهما. كما أنّ اليهود لوّثـوا ديـن الله وضـلّوا بـاتّباع إيـحاءات الشياطين.

هل يتمكّن المريض من أن يطلب من الطبيب مثل هذا الطلب، أو يزيد أو ينقص من

---

١) المؤمنون: ٧١.

أوامره حسب مايشتهي؟ ولوغضّ النظر عن أمر الطبيب، أو نقّص أو زاد فيه حسب مايشتهي، هل هذا شيء سوى أنّه اشترى الألم والتعب بروحه وراح لاستقبال الموت!!:

﴿وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾: وبعد الخطاب لمن اتصفوا بالإيمان، يخوف في هذه الآية المتّصفين بالكفر، ولا يكن المقصود هو الكفر بالله وبأصل الدين، فالانسان الذي يريد أن يخفي الأحكام والشريعة بأهوائه ويغضّ النظر عنها فهو كافر بقدر عمله. وهكذا في القرآن عندما يعلن عن خطر الكفر وعاقبته في كل مورد وبعد بيان كل حقيقة، يقصد حدّاً من الكفر، وإخفاء حقيقة او أحكام الشريعة التي قد ذكرت قبل ذلك.

نعم يمكن قول «راعنا» الیٰ الطبيب أو المشرّع الذي لم يميّز العاقبة ومدّة المرض والصلاح، ويريد أن يرضىٰ عنه المريض المتألّم والجمهور الغبيّ لمدّة من الوقت، وكذلك إلى الحاكم المستبدّ الذي يتّبع أهواءه وأهواء الناس، فإنّ المستبدين والحاكمين الأنانيّين ربّما كانوا لهذا السبب يسمّون الناس «رعيّة»، لأنهم في رأيهم كالغنم يجب مراعاة مائهم وعشبهم.

ولكن يجب أن لايقال: «رَاعِنَا» الیٰ الأنبياء والمشرعين الإلّهيّين الذين هم محكومون بحكم الحق والخير المطلق وأولياء الناس. ويجب أن يكون لسان طلبهم: «انظرنا»، ليأتوا ببصيرتهم النافذة وعون الله بقوانين ويعطون أحكاماً ليُحافظوا اوّلاعلى الثروات المعنوية والقابليات الانسانيّة من الآفات، ويطلقوا العقول من قيد الغرائز الحيوانيّة والتفكير المنحرف، ثم يؤمّنون حقوق حياة الأفراد والطبقات ومصالحهم القانونيّة. ولو أصاب الخلل محفظة الدين (كخلل اليهود وانحرافهم) لأبادت وساوسُ الشياطين و السحرة والكهنة بالتعاون مع الذين يريدون استغلال القوى البشريّة لصالحهم، العقولَ والنفسيّات أوّلا، والثروات والمنافع الأخرى بعد ذلك.

إذاً اِنّ هذا الأمر «عدم قول راعنا» والأمر بقول انظرنا والسمع والعمل هو واجب المؤمنين الدائميّ. ربّما كان هذا الأمر الذي هو يعم جميع القوانين والأحكام قد جاء قبل كلّ حكم وأمر في هذه الآيات لكي تُدرَك أصول الأحكام التي تأتي بعد ذلك في القرآن،

وما يشرّعة الرسولﷺ بالقول والعمل، وما يستنبطه الفقهاء الربانيوّن من هذه الأصول، وتُطبّق بدون زيادة ونقيصة وتدخّل هَوَى أومصلحة شخصيّة، وربّما كان لأجل الشمول والتعميم عندمالم يُذكر مخاطَب راعنا وانظرنا.

كلّ ما قيل هو حقيقة تشعّ في مرآة الذهن الصافية من نور الآية وبالنظر الى صلتها المتينة مع الآيات السابقة واللاحقة، ولو أنّ الذهن اهتمّ أوّلا بالتأويلات والتبريرات لهذه الآية وأمثالها، لايحصل على المفهوم والحاصل من ناحية الهداية التي هي شأن القرآن الحكيم الخاصّ، ويتكسّر نور هداية القرآن بين الأمواج المختلفة التي تظهر في الذهن من الآراء!

إن المفسّرين السابقين ومحقّقي العصر بتقليدهم من بعضهم يعتبرون هذه الآية نازلةً في مورد محدود غير معيّن وعَبَرُوا عنها، أو قاموا بتحقيق قاصر حولها: كان المسلمون الاوائل يقولون لرسول اللهﷺ: راعنا. لماذا كانوا يقولون؟ لأن رسولّ الله كان يتلو الآياتالنازلة بسرعة، ولم يتمكّن المسلمون من استيعابها جيّداً. لماذا نهى القرآن الكريم عن قول هذه الكلمة وأمر بقول كلمة أخرى؟ يقولون: إنّ قول هذه الكلمة شاعت على لسان المسلمين كالشعار، ولمّا كان معناها قبيحا في اللغة العبرية «مثل: اسمع، لن تسمع» فاستغلّ اليهود هذه الكلمة، وكانوا يتفوّهون بها في مقام التعريض وذمّه ﷺ، لهذا جاء النهي عن قول هذه الكلمة، والأمر بقول «انْظُرنَا» بدلا منها.

كيف تكون هذه التبريرات صحيحة مع العلم بأنّ «انظرنا» لم تكن مرادفة لـ«راعنا»! ولم يشاهد في التاريخ الاسلامي أنّ هذه الكلمة كانت شائعة بين المسلمين في الصدر الأوّل، فكيف بأنْ تكون قد أصبحت شعاراً ورمزاً! ولو كان شخص أو أشخاص تفوّهوا بهذه الكلمة، وقصد بعض اليهود الحاقدين البذيئي اللسان معناها العبريّ القبيح، فأيّة قيمة لها حتى يخاطب القران المسلمين بالتقريع وبوصف الايمان، وينهى عنها الى الأبد، ويأمر بكلمة لاتشابهها، ويأمر بالسمع؟ ويخوّف المُعرِضَ عن ذلك النهي والأمر بالعذاب الأليم ويصفه بالكفر!؟ ولو كان لمثل هذا التبرير والتطبيق وردت رواية موثّقة أو تاريخ واضح

لم يكن ذلك أكثر من بيان شأن النزول، ولا يمكن تحديد الآية وهداية القرآن بمثل هذا التبرير.

ومهما يكن فإنّه أمر عام لجميع المؤمنين لِيُعِدّوا أنفسهم لتلقّي الخير أكثر من ذي قبل، ويُبْدُوا هذا الاعداد بقولهم «أُنظُرنا»، ويجعلوا أنفسهم في حمى الهداية والأوامر دائماً، ليزداد فَوَرَانُ الخيرات لهم من ينابيع الشريعة اللامتناهية وتجري خيراتها وتنفذ أحكامها. ولو غضّوا النظر عن رحمة الله وخيره، واهتمّوا بمراعاة حال أنفسهم، فإنّ كيد المشركين والكافرين من أهل الكتاب. وإيحاءاتهم السيّئة لهم بالمرصاد:

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلاَ ٱلْمُشْرِكِيْنَ...﴾ إنّ آفة الهيكل الاسلاميّ الحيّ القائم بروح الإيمان بالتوحيد، والذي نال الصيانة بين الأحكام والشريعة المتينة، المشركون والكافرون من أهل الكتاب.

كلما كان الموجود أكثر حيويّةً وأكثر قوة في جذبه ودفعه كانت آفته أكثر. وأثر الآفة هو أن تجمّد الحركة الحيويّة للكائن الحّي، وتسلب استقلاله، وتذيبه في نفسها، وكان هذا رأي كفّار أهل الكتاب والمشركين بالنسبة للمجتمع الإسلامي ولازالو كذلك. ولو بادر المسلمون إلى رعاية مصالحهم وأهوائهم وشهواتهم الخاصّة بهم، ولم يحددوا أنفسهم في أطار القرآن والأحكام والقوانين الصادرة عنه، يحاول الكفرة الذين يرون الحدّ الاسلاميّ وسدّه واستقلاله مانعاً من أهوائهم وظلمهم أنْ يضعّفوا قواعد استقلال المسلمين الإيماني، وأن يجدوا لهم منفذاً في الحدود الإلٰهيّة، وأنْ يسدّوا باب كل خير بوجه المسلمين:

﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبّكُمْ...﴾: جاءت «مِنْ خَيْرٍ» للشمول والتعميم، ﴿مِنْ رَبّكُمْ﴾: تخبر بمصدر الربوبية والتربيّة وتفضيل الخير: كلّ خير يطهّر العقول من الشرك، والنفوسَ من رذائل الجاهليّة، ثمّ يتقدّم مع سنن الفطرة ونظام الحق نحو الصلاح والكمال، ويحافظ على الحقوق في إطار التقوىٰ بالدين والقوانين المتقنة، ويفتح أبواب الخير الماديّ والمعنويّ بوجه الجميع، ويسدّ أبواب الشهوات الجهنميّة والظلم.

وهذه لاتتلاءم مع أمزجة الكفر والكافرين. ولذا فإنّ نيران حقدهم وحسدهم تشتعل ويجهّزون كل نوع من دعايات السوء وآلات الخداع وقواهم الشيطانيّة، ليلوّثوا توحيد المسلمين بأوهام شركهم، ويلوّثوا عقائدهم الطاهرة تحت نقاب حبّ الخير، وينحرفوا بهم، وليشِلّوا الأحكام الإلّهيّة من التنفيذ.

وكلّما ابتعد المسلمون عن مبادئ الاسلام الأولى، يُشاهَد تنبّؤ القرآن هذا أكثر فاكثر، كما أنّنا نشاهد اليوم ـ بدون ستار ـ أنّ المشركين الماديّين في هذا العصر الذين هم صورة أخرى من عبدة الأصنام الجاهليّين، واولئك الثلّة من اليهود والمسيحيّين الذين اتّخذوا دين الأنبياء آلة لتقدّمهم وسلطتهم السياسيّة والاقتصاديّة على الشعوب، كيف استخدموا قواهم الفكريّة ودسائس دعايا تهم من أجل انحراف المسلمين عن عقائدهم الفطريّة والمنطقيّة الاسلامية، ولم يتوقفوا من أي نوع من السعي والافتراء[1].

---

١) كان المسيحيّون يوم طلوع الاسلام قد جعلوا دين المسيح وسيلة لاستعباد الجهاهير، وجعلته حكومة الروم القوّية وسيلة لاستعمار الشعوب، واتّخذ اليهود دين موسى وسيله لافضليّة اسرائيل و القوميّة الاسرائيليّة، ولهذا قاموا بالعداء مع الدعوة الاسلاميّة التي هي دعوة للاستسلام إلى رب جميع الناس (لاآله اسرائيل، ولا الآله الذى يكون المسيح ابنه الوحيد، و لا الإلّه الذي يدافع عن الظالمين) واليوم أيضا هذا هو سرّ عداوتهم مع أصول الاسلام وفروعه المُتقنة الفطرية، مع العلم بأنّ هؤلاء يشاهدون بأمّ أعينهم أنّ جماعات من الناس في البلدان التي كانت لقرون طويلة ترزح تحت سلطة الكنائس، يخرجون من دين المسيح، ويسخرون بأجهزة المسيحيّة. فلماذا ينسبون إلى هذا الحدّ طاقاتهم الدعائيّة المختلفة وعواطفهم السخيّة! الإنسانية والمسيحيّة إلى الآخرين؟! مع كلّ تلك المحاسبات في الاقتصاد والحسّاسيّة والتبات حول الذي كان سبباً لكلّ هذه الحروب، فلماذا هذه الميزانيّات الباهضة من أجل إيفاد المبشّرين بالتجهيزات الكاملة إلى الخارج؟ هؤلاء يريدون أن يعرّفوا المسيح إلى العالم وإلى المسلمين بينماهم لم يعرفوه ولا يلتزمون با صول دعوته وفروعها، ألم يعرف المسلمون المسيح ببيان القرآن البليغ أفضل ممّا في الإنجيل واكثر تعقّلا؟ أي شيء أثبت من القرآن وأمتن لشخصيّة المسيح؟ ولماذا يتعاونون مع اليهود الذين أجازوا كل تهمة للمسيح، وقدّموا ذلك الرجل الحقّ ونبيّ الله الىٰ القتل مع اللصوص وقطّاع الطرق ـ على حدّ تعبيرهم ـ ضدّ المسلمين ؟ يقول الأذكياء المطّلعون على وضع الاستعمار و تعاونهم مع الأجهزة المسيحيّة: اكثر هذه الأجهزة هي عملاء للاستعمار من حيث يعلمون أولا يعلمون، إنّهم يسلكون الطريق تحت نقاب ممثلي المسيح المسالم ومنجي البشريّة،بين الشعوب ليتعرّفوا على ثراوتهم الطبيعيّة وأحوالهم النفسية، ليشرفوا على الأطفال اليتامىٰ الذين فقدوا أولياءهم والمساكين ذوي الأماني الذين لا ملجأ لهم، فيتخذوا منهم آلات لأعمالهم ولدولهم باسم الرسالة الآلّهيّة والعواطف الانسانية. مع ان دراسة السنوات

ولوأنّ أهل الإيمان أنفسهم لم يرجعوا عن طلب الخير ومجرىٰ رحمة الله، لايتمكن عداء الكفرة من إبعادهم عن شمول رحمة الله الخاصة والتي هي مصدر كل خير:

﴿وَاللّهُ يختَصُّ بِرَحْمتِهِ مَنْ يَشَاءُ....﴾: هذه الرحمة الخاصة من مصدر الفضل العام التي تشمل كل نفس مستعدّة:

﴿واللهُ ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الفضل العام موجد قانون الحياة العام ومنظّمه، يتجلىٰ في نفوس طاهرة فيكون مصدر الرحمة الخاصّة والشريعة، وينسخ شريعة ويأت بأكمل وأفضل منها بمكانها:

﴿مَانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أوْنُنْسِهَانَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أوْمِثْلِهَا...﴾: النسخ في الاصطلاح أخذ صورة عن موضعها الأوّل ووضعها في موضع مناسب آخر، أو إحلال صورةٍ أخرى محلّها. ولذا يقال لتغيير مكان الأرواح تناسخاً، ولتصوير الكتابة استنساخاً.

إنّ تعبير «مِنْ آيَةٍ» يَدُلّ على الشمول والعموم، لأنّنا عندما نرفع «ننسها» كلّ آية صغيرة أو كبيرةٍ، تكوينيّة أو تشريعيّة من كتاب الوجود والقانونيّ أو الأفكار والخواطر، نأت بأفضل منها: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا» فالناسخ يجب أن يكون خيراً من المنسوخ من كل

الماضية قد أثبتت، وقد ثبت في التقريرات المرفوعة أنهم لم يتمكنوا بكل تلك الجهود والمصارف والادعية والاناشيد والاشراف على المرضى والأمور الأخرىٰ من قلب المسلمين إلى مسيحيّين سوى عدد قليل من المغفّلين في جميع البلدان الاسلاميّة، فيثبّتونهم ويحرّضونهم على غسل التعميد.

إذاً فلماذا هذا السعي المتزايد يوميّاً؟ ويتّضح من بعض الاعترافات ونتيجة أعمالهم المشهودة، أنّهم لا يأملون بأن يكون المسلمون مسيحيين، وغايتهم الوحيدة هي إنهيار سدود مقاومة العقائد الاسلاميّة، كما أن هذه الدول الاستعمارية تحاول تحطيم السدود الاخلاقية لدى المسلمين بإشاعة الفحشاء [والخلاعة]، وليفتحوا طريق الخيانة والجاسوسيّة، وقد نجحوا الىٰ حدٍّ ما في الطريق الذى سلكوه لهذه الغاية. ولما كان القرآن قد مدح المؤمنين من أهل الكتاب لاسيما المسيحيّين، ولو لم تكن هذه القرائن والشواهد المحسوسة، لكنّا راغبين في أن ننظر إلى الأجهزة المسيحيّة متفائلين، ونقف معهم صفّاً واحداً بوجه اللادينيّة والفوضويّة ونشوب نيران الحروب، ولكنْ، هل أنّ الوضع العامّ وتشكيلات اليهود والنصارىٰ يوجد فيها أقلّ دليل على أنّهم يرفعون خطوة في سبيل الله وخير الانسان وصلاحه؟!

إن كتاب «التبشير والاستعمار» تأليف الدكتور محمد الخالدي والدكتور عمر فروخ، اثنان من المحققين المعاصرين البيروتيّين اجتهدا لعشر سنوات في جمع المعلومات والوثائق، واستندا الىٰ اكثر من مائة كتاب أجنبي واعترافات الأجهزة التبشيريّة، يثبت هذا الكتاب بوضوح تعاون المبشرين المسيحيّين مع الدول الاستعمارية ووحدة أهدافهم.

الجهات أو يكون خيراً منه من جهة ومن جهة مثلة: «اَوْ مِثلهَا»، اذا كان الناسخ والمنسوخ متشابهان من لحاظ الظاهر والنظرة السطحيّة، وفي الواقع يجب أن يكون الناسخ أكمل وأفضل من المنسوخ، أو كانا متشابهين من لحاظ الواقع والمصلحة، ومن لحاظ الظاهر يكون الناسخ أفضل واكثر تناسباً. وكلّ ماكان يجب أن لايكون الناسخ والمنسوخ متشابهين من جميع اللحاظ. وإلاّفالنسخ بدون داعٍ وسبب لايتوافق والحكمة.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: هذه القدرة المشهودة التي أخذت جميع الموجود تحت قبضة تدبيرها، وتتصرف دائما في عناصر السماوات والأرض وموادّها:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَٱلأَرضِ﴾: إنّ تلك القدرة النافذة وهذ التصرّف الملكيّ المشهودين لأهل الرأي تُعِدُّ مظاهر العالَم والأنواع لأدوار الآيات، وبعد نسخ كلّ آية، تبدو آية أخرى من مبدأ الفيض والفضل العظيم: «وَاللهُ ذُو ٱلفَضْلِ ٱلعَظِيمِ» (الآية السابقة)، وتظهر بشكل قانون تكاملٍ في جميع أنحاء الوجود، وتنتهي بواسطة ولاية الله وتدبيره الخاص الى ظاهرة الانسان المتكامل، ليجعله اكثر تكاملا، ويساعده بالتكامل بوجه عوامل التضادّ:

﴿وَمَالَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ وَلِيّ وَلاَنَصِيْرٍ﴾: يتقدّم ذلك الفضل والقدرة والتدبير غير المحدود بجوهر العالم بصورة مستمرة. إنّ هذا التقدّم والتكامل الجوهريّ. في صفحة المادة، كالسبورة، يرسم نقوشاً ويمحو حتّى يبدع النقش الأفضل الذي هو أثر التكامل الجوهريّ، وهذه هي صفات المُلك والقدرة الإلهيّة التي تظهر في مظاهر تغيير العادات والتقاليد البشريّة ونسخ بعض الشرائع السماويّة. إذاً فالتوقّف في التكامل والحركة الجوهريّة وتحديد تغيير آيات الوجود والشريعة الصوري، توقف وتحديد في الصفات والذات، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذٰلِكَ عُلُوّاً كَبِيرا.

إنّ آية النسخ هذه ـ بشمول «مِنْ آيَة» وقرينة ذكر الصفات التي تبيّن قدرة الله وملِكيّتة العامّة ـ تعلن حكم النسخ في جميع آيات الوجود وآيات التشريع والنبوّة أيضاً. بالنظر الى هذا الموضوع فإنّ هذه الآية: «مَانَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...» هي قضيّة كليّة وشرطيّة

(بناءً على أنّ «ما» لاتكون نافية) وإنّ آيات الوجود بمظاهرها المختلفة، وآيات الشرايع والنبوة، والآيات القرآنية كلّها صغرى ومصاديق لها التي تظهر بصورة قياس الشكل المنطقي الأوّل. وإنّ العلم الفطريّ والشهوديّ بالقدرة والتصرف «أَلَمْ تَعْلَمْ...» هو مادّة البرهان والصغرى الحمليّة والكبرى الشرطية: «هذه آية من الآيات. كل آية تُنسَخُ تأتي آية أفضل منها أومثلها من إحدى الجهات بمكانها. إذاً عندما تُنسخُ آيةٌ تأتي بمكانها اَفضل منها أو مثلها من إحدى الجهات».

أخذ أكثر المفسّرين هذه الآية «مَانَنْسَخْ...» بصورة قضيّة حمليّة محقّقة الوقوع ومحدودة بالآيات القرآنية، ولهذا اقتصروا الموضوع على نسخ الآيات القرآنية، ثم توصّلوا بالبحث إلى أقسام نسخ الآيات القرآنية: نسخ تلاوة آية بآية أخرى. نسخ الحكم والتلاوة. نسخ الحكم وبقاء التلاوة. مع العلم لامِثالَ ولامورِدَ في القرآن إلّا لنسخ الحكم، وكلّ ما نقل لا اساس له، ولايتلاءم مع شأن القرآن. والنسخ الكلّي للحكم من كل جهة ورتبة أيضاً لا دليل ولا مورد له في القرآن. والأمثلة التي جاءوا بها لنسخ الحكم لاتدلّ إلاعلى النسخ الزماني والرتبيّ. والنسخ بهذا المعنى مع الأخذ بنظر الاعتبار الخصوصيّات والظروف والحيثيّات يفتح ابواب الإجتهاد والاستنباط بوجه أصحاب الرأي، ويطابق شمول آية النسخ وأبديّة القرآن الكريم.

وأخذوا آيات القبلة كأحد موارد النسخ، مع العلم بأنّ آيات تغيير القبلة ليس لها حكم المنسوخ القرآنيّ، وكان الأمر بالقبلة الأولىٰ حسب سنة رسول الله. والمورد الآخر هو الأمر بالعفو والصفح وعدم الوقوف بوجه الكفّار (العفو والصفح ـ في الآية التالية) باعتبار ظروف الزمان ووضع المسلمين، ونسخت بآيات القتال والجهاد بتغيير الظروف وقوّة المسلمين وهجوم الكفّار.

مع انّ هٰذين الحكمين يمكن تطبيقهما دائماً وفي كلّ محيط اسلاميّ: أو الأمر بالصبر وتقوية الحالة الايمانية والتبليغ والدعوة، أو تقوية الصفّ والجهاد والثبات.

كذلك عندما نتأمل في جميع الآيات التي يحتمل فيها النسخ لايمكن فهم النسخ منها

اكثر من النسخ بحسب الجهات والحيثيّات.

وعلى كل حال ومهما كان فانّ هذه الآيه لهاصلة بالآية السابقة واللاحقة وهي تعني نسخ بعض احكام الشرايع الماضية وآيات النبوّة، وتبيّن أنّ جمود أهل الكتاب لاسيما اليهود وتعصّبهم على بقاء آياتهم وأحكام شريعتهم ليس بصحيح، لأنّ قدرة اللـه غـير محصورة وتصرّفه غير محدود، اذاً كلّ آية وكلّ حكم شرعيّ يرتفع يأتي بأفضل وابلغ منه بمكانه.

وهذا من ناحية جمود كفرة أهل الكتاب وانانيّتهم، الذين يتصوّرون النـظام الالهـيّ المتكامل جامداً، وهذا من تعصّب اليهود العنصريّ بحيث حصروا أنبياء الله وآياته بين قومهم وقبيلتهم، ولايقبلون ديناً مهما كان أفضل وبرهانه أوضح، سوى دينهم. إنّ هؤلاء الكفرة القاصري الفكر الذي يعتبرون أنفسهم أتباع دين الله، يقبلون تلك الأحكام والدين الذي بين قبيلتهم وحافظاً لافضليّتهم القوميّة، ولهذا السبب يعادون الاسلام، وينتقدونه، ويحاولون خداع المسلمين الجدد الذين لم يتصلّب ايمانهم بعدُ، ويُلقون الشكوك والشُبَه في قلوبهم حول أحكام الاسلام ونسخ بعض الأحكام (مثل تغيير القبلة) يحرضوهم على التساؤلات بدلاً من التعبّد والتسليم إلى الحقّ:

﴿أَمْ تُرِيْدُوْنَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُوْلَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ...﴾: لمّا كان الحرف «أم» على الأكثر عاطفاً يفصل حكم جملةٍ بعدَ جملةٍ استفهاميةٍ سابقةٍ، وهنا يـجب أن تفصل جملة الاستفهام السابقة من الآيات الماضية، كهذا المضمون: أنتم ـ المؤمنين بهذا الدين ـ بعد علمكم بانحراف اليهود، وبعد الأمر بعدم قول «أَنْظُرْنَا ـ وَآسمَعُوا»، وبعد بيان عداء كفرة أهل الكتاب والمشركين معكم أنتم ـ المؤمنين ـ وعدم رغبتهم في وصـول الخير اليكم، وبعد بيان سر نسخ الشرائع وعلّته، هل بعد كل هذا تسـلمون لهـذا الديـن وأحكامه جميعاً؟ أم تريدون أن تسألوا كما سُئِلَ موسى؟

لمّا كان غرض الآية إنكار الطلبات التافهة من الرسول، لم يُلتَفت الىٰ الطالب واسمه، وجاء فعل «سُئِل» للمجهول: «كَمَا سُئِلَ مُوسىٰ».

والخلاصة إنّ المؤمنين بهذا الدين بجب أن لايكونوا كاليهود، ويجب أن لايصبغوا الدين الاسلام الخالد العام الواسع بصبغة التعصّب القوميّ والرغبات الشخصيّة، وأن لايسألوا من نبيّهم أشياء تتطابق مع الأفكار الباقية والطبائع المترسّبة من الجاهليّة، كما كان اليهود يطلبون من موسى أحيانا النظر الىٰ الله حتى يظهر أمام أعينهم وبين قبيلتهم، وكانوا يقولون: «أرِنَا اللّهَ جَهْرَةً». وكانوا يحتجّون أمام أمر موسى وحكمه، مثل قصة ذبح البقرة، وكانوا تارة يطلبون منه المعاجز التي لامحلّ لها. إنّ مثل هذه الطَّلِبات كالتي مصدرها مطابقة دين الله مع رغباتهم النفسيّة هي بداية تبديل الإيمان بالكفر، وزاوية الانحراف من خطّ القيادة الوسط:

﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيْلِ﴾: كلّما ازداد هذا الانحراف يتبعد الشخص من إشعاع نور الهداية بصورة أكثر، وضلاله يزداد، وينفتح طريق شكوك أهل الكتاب وشبهاتهم أكثر، حتى يتمكّن الكافرون المتقنّعون بقناع الخير من إعادتكم أنتم ـ المؤمنين ـ إلى الكفر المطلق:

﴿وَدَّكَثِيْرٌ مِنْ أُهلِ اَلِكتَاب لَوْ يَرُدُّونَكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كفّاراً﴾: يستفاد من كلمة «وَدّ» التي تتضمّن معنى الحب والتعلّق والأمنية أنّ أهل الكتاب كانوا يحاولون معرفة طرق إعادة المؤمنين عن الإيمان. ويستفاد من «لَوْ» التي تفيد الامتناع، والإيمان المضاف «إيمانِكُمْ» الذي يفيد ثبات الإيمان، أنّه لاأثر ـ بثبات الإيمان ـ لمحاولتهم من أجل إعادة المؤمنين عن الايمان الىٰ الكفر. ويستفاد من «كُفَّاراً» التي هي حال للضمير المتّصل بالفعل، أنّهم يريدون أن يعودوا عن الإيمان الىٰ درجة بحيث يصبحوا كافرين بدون أن يلتفتوا الىٰ قصدِهم. واذا كان القصد الإتّجاه نحو الكفر فقط، كان الأنسب [أن يقول] إلى الكفر.

إنّ هذه الآية بهذا البيان الدقيق الاعجازيّ، يتنبّأ بأسلوب أهل الكتاب المسيحيين واليهود: وأنّهم يخطّطون أيّة برامج، ويستخدمون أيّة دسائس، حتى يجرّوكم انتم ـ المسلمين ـ وراءهم، ويضعفون قوّة الاستقلال الايماني التي أدّت إلى أفضليّتكم. إنّ هذا

الودّ والتعلّق من قبلهم من أجل إعادة المسلمين لم يكن من ناحية إيمانهم بأفضليّة دينهم، ولا من أجل المحافظة على معتقداتهم، والّالكان من الواجب الاعادة الىٰ دينهم لاالكفر، ولامن ناحية الاعتقاد بأنّ هذا الدين على غير حق، وإنّما مصدر ذلك هو الأنانية ودافع الحسد الذي يغلي في نفوسهم، الحسد الذي صوروه بصورة التعلّق بالدين في خيالهم:

﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بعد مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلحَقُّ...﴾: «حَسَداً»: مفعول لأجله للفعل وَدَّ. «مِنْ عِنْدِ»: ظرف، ويعرض مصدر هذا الحسد، والذي هو ظرفهم النفسيّ. «مِنْ بَعْدِ»: ظرف «وَدَّ» او «يَرُدّوا». إنّ هذا التعلّق والمحاولة لإعادتكم لم تكن من ناحية الخطأ في تمييز الحق، لأنّ الحقَّ واضح لهم من كل جانب.

وعلى اهل الحق المحاصَرين من قبل هؤلاء الحاسدين من هداة الفتنة أن لايقوموا بمعارضتهم، وينشغلوا بردّ سهام شبهاتهم وافتراءاتهم، لأن قوى أهل الحق المعنوية والاجتماعية لازالت غير مستعدّة، فالمعارضة معهم تزيد في شراستهم وتسلّطهم، وأيضاً تصرف أهل الحق عن تحكيم قواهم، ويجب أن لايفقدوا شخصيّتهم أمامهم، ويفكّروا بقوتهم وخططهم الخفيّة، ويجب أن يغضّوا النظر عن آثار عداوتهم النفسيّة والاجتماعية، وأنْ يعرضواعنهم:

﴿فَٱعفُوا وَٱصفَحُوا﴾: لمّا كان معنى «العفو» اللغوي مطلق المَلْ ومحو الأثر، والعفو عن الذنب والإساءة إزالة آثار ذلك من الفكر. «الصفح»:الإعراض وعدم الالتفات. والعفو والصفح يليق بالأشخاص الكبار ذوي القدرة الذين يتمكنون من تلافي الأثر السيّئ أو عدم التأثّربه. والرجال المؤيّدون بالإيمان لما كانوا ذوي قدرة معنوية في كل حال يليق بهم أن يؤمروا بالعفو، وذلك عندما كانوا يُعَدّون بالأصابع، والأعداء كثيرين، وذلك الأمر بالعفو العام لا عن الجماعة القريبين الذين يرونهم رأي العين، لأنّ جميع الناس ـ سوىٰ رجال الحقّ والإيمان ـ المحكومين للأهواء والمقيدين بالبنود النفسيّة والشرك لايحقّ لهم العفو عن الآخرين.

وحقّ العفو العام هو للذين تخلّصوا من القيود ويحكمون أنفسهم والمقيّدين. ولم يكن

هذا العفو والصفح حكم أهل الإيمان الدائم، هو إلى أن يصحو المعفوُّعنهم، ويكفّوا عن الكيد للمسلمين واذاهم، ويُعدّ المسلمون أنفسهم لتأييد الله وإمداده:

﴿حَتّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ...﴾: يأتي الله بتأييده المطابق للسنن وامره، لا أنّه يأمر ويحكم فقط، لأنّه إذا كان هذا قصد الآية يجب أنْ يُعَبَّر بـ«يأمركم». إذاً فالأمر هنا أمر يأتي مع إمداد الله وعلى أثر اللياقة والجدارة.

يعتبر المفسّرون نفس آية الأمر بالعفو هذه أحد موارد نسخ حكم القرآن الواضح. يقولون: إنّ آيات الجهاد رفعت حكم العفو هذا. ولكنّ ـ كما قيل وكما هو مشهود ـ صريح آية العفو هذه هو الحكم الموقّت المشروط بعصر ضعف المسلمين المعنوي والظاهري. وفي النهاية تريد الآية بالإحالة إلى قدرة الله غير المحدودة ـ أن تطمئن قلوب المسلمين المضطربة:

﴿إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيْر﴾: تلك القدرة التي تمنح القوّة لكلّ موجود مستعدٍّ ذي حقّ ـ وإن كان ضعيفا في الظاهر ـ ويحطّم كل قوّة لاتستند إلى الحقّ وأصل الحياة، تمنح القوة والأفضلية إلى قِلّةٍ من الناس المستندين إلى الحق والايمان، ويشتّت الكثرة من الناس الفاقدين للحياة المعنويّة، لَرُبّما تظهر عناصرهم المشتّتة المستعدّة بصورة مفيدة أفضل وذلك بالجاذبيّة الحيويّة.

﴿وَأَقِيْمُوا ٱلصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَمَاتُقَدِّمُو لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إنَّ اللهَ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١١) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلجَنَّةَ إلامَنْ كَانَ هُوْداً أو نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (١١٢) بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌفَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبّه وَلاخَوْفٌعَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ (١١٣) وَقَالَتِ ٱليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارىٰ لَيْسَتِ ٱليَهُودُ عَلَىَ شَيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلقِيَامَة فِيْما كَانُوا فِيْهِ يختَلِفُونَ (١١٤) وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيْهَا ٱسمُهُ وَسَعَى فِي

خَرَابِهَا أولئك مَاكَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِيْنَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَهُمْ فِـي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ .

معاني المفردات:

الزكاة: المال المنتخب، الطهارة، المال المنتخب الطاهر الذي يُعطىٰ لتطهير الأموال. من التزكية: التطهير، الإنماء، الإصلاح.

الخير: مقابل الشر، المنتخب، الكامل، المال.

تجد: مصدره وجْد «بفتح الواو وضمّها» والوجـود والوجـدان: الاسـتلام، التكـوّن، الاستيلاء على شيء بعد فقدانه. الجنّة، هود، نصارى، أماني (يرجع إلى الآيات السابقة).

البرهان: الدليل، الدليل الواضح الايجابيّ.

بَلىٰ: الجواب إلايجابي للاستفهام الصريح أو المقدّر والانكاريّ.

أسلم: أعاد شيئاً إلى آخر. وهب، أعطاه بيده إتّجه باخلاص.

الوجه: اول عضو واضح يواجَه، وجه كل شيء، كلّ مايُتّجه نحوه، صاحب الشرف .

القيامة: مصدر مجرّد كالعيادة: القيام، نوع من القيام، يوم حشر الناس.

ثَمَّ، بفتح الثاء: ظرف مكان، إسم إشارة للبعيد.

﴿وَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاة...﴾: إنّ هذا هو الحكم الثالث والاخـير بـعد أوّل خطاب لأهل الايمان، والحكم الأوّل: ﴿لاتَقُوْلُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انـظُرْنَا﴾ ، والثـاني: «فَاْعفُوْا وَآصفَحُوا» وكل منهما مركبٌ من حكمين يعود إلى كيفيّة الصلة بالآخرين: الأول: حول واجب أهل الايمان بالنسبة الىٰ الهادي والشارع. الثاني: حـول واجـبهم بـالنسبة للمخالفين في حال الضعف. الثالث: واجبهم بالنسبة لأنفسهم وفيما بينهم فالواجب الأوّل من أجل بناء الاشخاص المؤمنين الطاهرين الراشدين، وهذا البناء يجب أن يَتمَّ تـحت إشراف الرسول. والواجب الثاني الذي يجب أن يَتمَّ في المرحلة الثـانية، وهـي عـندما تتحرّك وِحدات الإيمان الأولى في حال رشدها وتواجه الموانع والعقبات. وفـي هـذه

الحال واجبهم أن يغضّوا النظر عن معارضة دسائس الأعداء، ويسعوا في تقوية قدرتهم المعنويّة والإجتماعيّة. وإقامة الصلاة تكون عندما تترابط هذه الوحدات. وقيام الصلاة هو قيام الروح الإيمانية والقوىٰ المعنويّة والجوارح من أجل توثيق الصلة، الصلة بالحق والاستعداد من أجل القيام بالواجبات التي تكون للقائم بالحق. الصلاة مرآة كل الواجبات التي يجب أنْ تؤدّىٰ بصورة مختلفة في الحال أو المستقبل، وهذه التمارين المتلاحقة التي توثّق روح الصلة والإطاعة وتجعلها نشطة، وتسود الدوافع المخالفة، وتُثار في سبيل الجهاد بموانع الهمم. هي في المحيط الواضح وصف لموجز هذه الصلة بالله بحيث تزول الفواصل، وتتآلف القلوب، و تزول أفكار الأنانيّة التي هي سبب التشتّت. (تراجع الآية الثانية في معنى إقامة الصلاة).

الزكاة: تقيم الرابطة الاجتماعيّة والاقتصاديّة في نور الإيمان وتوثّقها، وتوقظ حِسَّ الخير والرحمة وتجعله فيّاضاً، وتعِدّ المؤمنين للجهاد والصفح عن الدنيا وقطع العلاقات، في طريق تقدّم الحق وأداء الحكم.

إنّ صفّ الصلاة بقيامها وركوعها وسجودها وذكرها وتكبيرها وتسبيحها التي يجب أن تؤدّى في فصول الليل والنهار وخلال السعي والعمل الدنيويّ. والزكاة التي هي بذل المال من مبدإ الإيمان وقصد القربة، هي مقدمة الاستعداد لأداء واجبٍ جهاديّ ثقيل الذي يجده المجتمع الموحّد أمامه وبهذا الاستعداد يتمكّن من انتظار امر الله، وأن يكون مشمولاً لقدرة الله اللامتناهية، التي أعلن عنها في نهاية الآية السابقة.

إنّ مثل هذا المجتمع مهما كان صغيراً وضعيفا في نظر قاصري النظر ؟ وتريد الأفكار الشيطانيّة الإخلالَ به، والألسن البذيئة تهزأ بأمله في المستقبل، كما كانت سيرة أهل الكتاب والمشركين وأقوالهم هكذا مع المسلمينَ الأوائل، لازال هذا المجتمع حيّاً فهو كالبذرة الصغيرة الحيّة، سوف تشملها القدرة، وتكون لها ميزة الجذب والدفع والنمو والإنتاج، وستهظم في نفسها كالعناصر المشتتة. والبذور الخيّرة التي تنثر من قبل مثل هؤلاء الأشخاص، وإن كانت تختفي في الهواء وتحت التربة عن نظرهم ونظر الآخرين،

تظهر بالتالي وتبدي آثارها:

﴿وَمَاتُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ...﴾: إنّ هذه الآية أخبرت عن بقاء وظهور واستلام عمل الخير بدلاً من الأمر به، وبهذا الخير ضمنت استلام كل خير: «مِن خيرٍ» وإنْ كان ضئيلاً في النظر «وذلك نفس الخير لامكافأته»، لانّ أكثر الكفّ عن عمل الخير يكون بسبب القلق من ضياعه وزواله.

﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: اذا كان ذلك الخير يخفىٰ عن كلّ عين فإنّه لايخفى عن عين الله.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هوداً أوِنَصَارىٰ﴾: منذ الآيات التي بدأت بأوّل خطاب الى بني اسرائيل حتى أوّل خطاب الىٰ المؤمنين، ثمّ بيّن أفكار أهل الكتاب السيّئة والذين هم اليهود والنصارى والمشركين بالعنوان العام، واشار الىٰ الخطط التـي سيخطّطونها بضرر المسلمين. وكذلك بيّن في هذه الآيات التصوّرات المشـركة للـيهود والنصارىٰ، وكذلك أنانيّة كلّ منهما بصورة منفصلة. إنّ وضع ترتيب الآيات يطابق وضع المسلمين مع اليهود والنصارى والمشركين. لأنّ إلاسلام في بداية ثباته وتركّزه في يثرب (وكان بعد ذلك حيث سمّيت يثرب بالمدينة: مدينة الرسول، أو مدينة الاسـلام) واجـه مقاومة اليهود ونقضهم، الذين كانوا أوّل جماعة من أهل الكتاب وأتباع الدين إلالهيّ في الظاهر. وبعدا قتدار الاسلام واتّساعه، تناسق المشركون ايضاً مع اليـهود فـي مـخالفة إلاسلام. ثم التحق بهم جماعة من المسحيّين في جزيرة العرب وخارجهاو وقفُوا صـفّاً واحداً مع اليهود والمشركين بوجه دعوة الاسلام. وفي مقابل صفوف هذه الجـماعات، أصدرت الآية السابقة الى المسلمين حكم العفو والصفح وإقامة الصلاة وإيـتاء الزكـاة والقيام بكل عمل خير. وفي هذه الآية تبيّن أفكارها تبن الجماعتين من أهل الكـتاب الوهميّة عن لسانهم واقوالهم. لأنّ هذه الأفكار لاتستمدّ من الحق ولاترتكز على الواقع. وبكلّ مانظّموه.من صفوف، لايتمكنون من منع تقدّم الحقّ المرتكز على السنن الإلهيّة. ودينهم المصطنع أمانيّ لاتنطبق مع الواقع:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ...﴾: لم تكن هذه سوى أمانيّ مصطنعة، والتي يظنون على أثرها أنّ السعادة والفوز النهائي ـ الذي تبحث عنه الفطرة الانسانيّة وبَشَّرَ به الأنـبياء ـ مـقتصر عليهم ومجيء الأَمَانِّي» بصيغة الجمع يشير إلىٰ جميع أمنياتهم التي جُمِعَت فـي كـلمة «أَمَانِي»، لأنّ مصدر مثل هذه الأماني هي الدوافع النفسيّة الفردية والقوميّة، ولاتصحّ مع واقع الدين الإلّهيّ الذي يقوده الدليل الفطريّ الواضح «البُرْهَانُ»:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ..﴾: طلب البرهان من أشخاص يعتقدون بأنّهم صـادقون وإن كانواخاطئين بادّعائهم، لامن أشخاص يريدون أن يخدعوا أنفسهم والآخرين:

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ إنّ تلك الحقيقة الكليّة العامّة الصادقة في كلّ مـورد، والتـي يثبتهاالبرهان الفطريّ المشهود هي:

﴿بَلىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌفَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾: الوجه هـو الذي يُبدي الآثار والإنفعالات المنبعثة عن النفس. من هذا الوجه عندما ينعطف الوجه الباطن إلى كلّ جهة يوجّه نحوها الوجه الظاهر. وعندئذٍ يتحرّر الوجه الباطن من أُلعوبة الأهواء والإتّجاه إليها، فيستسلم لإرادة الله ويتوجّهإليه، واينما يتوجّه ففي سبيل الله ومن أجل رضاه، إلى حيث تأخذ الانفعالات النفسية ـ كالحب والغضب، والودّ والعداء، والراحـة والابتلاء، التي تظهر آثارها في الوجه ـ أثرها من مبدأ الحق، لامن التأثير والتأثّر النفسيّ. ولمّاعادت وجهة النفس نحو الله تكون فكرة إلانسان مصدر الإحسان بواسطة الجوارح والأعضاء ((فعل الصلاح أو الإصلاح)). تفيد الجملة الإسميّة «وَهُـوَ مُـحْسِنٌ» الثـبات والاستقامة في إلاحسان والذي هو أثر إسلام الوجه المباشر وهذا هو الانقلاب النفسيّ.

وهذه الآية أوّل آيه تعنون حقيقة الاسلام العـامّة بـعد بـيان أمـاني أهـل الكـتاب المحدودة، وكأنّما الضمائر المفردة المتّصلة «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» تعني مكافأة المسـلم والمحسن بحسب الاسلام والاحسان ومقدارهما وكيفيّتهما، ولكنّ زوال الخوف والحزن يعنى الشمول: ﴿وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾: تنفي النكرة المـنفيّة «لاَخَـوْفٌ» الخوف المطلق أو الخوف بالنسبة إلى الاسلام والإحسان. وكلمة «عَلَيْهِمْ» تـدل عـلى

الأفضليّة والشمول: أيّ نوع من الخوف، أو لا يشملهم ايّ قلق حول مكافأة الإسلام والإحسان، ولاتنسدّ نافذة الإطمئنان نهائيّاً عليهم. ويفيد تكرار ضمير الجمع «هم» وتقديمه على الفعل التأكيد والإختصاص، ويفيد فعل «يَحْزَنُونَ» الإستمرار.

إنّ آثار الاسلام والإحسان الباعثة على الأمل، والهدوء الناتج منهما، والتخلّص من دوافع الحزن والخوف الدائم كل ذلك فتح نوافذ الجنة بوجه المحسن المسلم ويثبت هذه الحقيقة، وينفي إدّعاء أهل الكتاب الذي لادليل له. نفس هؤلاء أهل الكتاب (المنتسبون للكتاب أو قرّاؤه) الذين يتصوّرون الفردوس الأعلى خاصّاً لهم، يعتبر بعضهم دين البعض الآخر وعقائدهم بلا أساس، وكلّ جماعة تعتبر الجماعة الأخرىٰ على غير حق:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: مع العلم بأنّهم من أهل الكتاب ويتلون الكتاب:

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ...﴾: إنّ هذه الجملة حال لفاعل «قَالَتْ»، أو فاعل «قَالُوا» و«قَالَتْ» في الآية السابقة وهذه الآية: فهم هكذا قالوا بينما يقرأون الكتاب! فإذا كانت تلاوة الكتاب نفسها أو التعرّف على علوم العصر يؤدّي إلى الهداية، فلماذا يختلفون فيما بينهم بهذه الصورة، وتعتبر كل جماعة الجماعة الاخرى أنّها ليست على شيء؟! وَلماذا يواجهون تلك الأمنيات التي لا أساس لها وتلك الأفكار التي لابرهان لها ومثل هذا الإختلاف؟ وهم الذي لم يجدوا الطريق فأيّ أملٍ للآخرين بقيادتهم؟

يتّضح أن ذلك اليوم مثل هذا اليوم أيضا أنّ بعض الناس الذين لم يدرسوا شيئا كانوا يعوّلون على رأي أهل الكتاب «علماء اليهود والنصارىٰ» أو الدارسين، من أجل قبول الدعوة الإسلاميّة، مع العلم بأنّ هؤلاء ضالّون أيضاً في ضلالهم هذا وأفكارهم الجوفاء كالجماهير العوام. ﴿كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ لايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ...﴾: لأنّ علمهم المحدود الباعث على الغرور كالسراج ذي النور الخافت في الصحراء المظلمة الذي إنْ أنار جانباً يحجب نور الكواكب المشعّة. وهؤلاء بتلاوتهم الكتاب ومعرفة ظواهره واحكامه الفرعيّة ظلّوا محجوبيين من النظر والعلم بأهداف الكتاب وأصوله. وهذه الاختلافات الناتجة من

الأفكار ذات الغرور قدمدّت جذورها في قلوب هذه الجماعة العلماء العوامّ بحيث لا يؤثّر فيها الحقّ والبرهان.

وذلك اليوم الذي يطلع فيه الحق من خلف ستار الأوهام، وتتلملم أذيال الباطل السوداء، ويقوم الناس بالحق، في ذلك اليوم تتّضح حدود الحق والباطل كلّها، ويحكم الله بين الحقّ والباطل حكماً نهائيّاً:

﴿فَا للّهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيْهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: هذه الاختلافات هي التي تحجب دين الله عن الأنظار، والمساجد والمعابد التي شُيّدت باسم الله ولذكر الله، جعلتها هذه الأنانيّات والنظرات القاصرة على شكل قواعد للجماعات والتكتّلات، بحيث تسعى كلّ جماعة لهدم مساجد الجماعة الأخرى، ليفضّلوا شعائرهم، ويعلوا أسماءَهم وعناوينهم.

وهذه المحاولة لهدم المساجد، وصبغها بالصبغة القوميّة والجماعية وبشعارها، وإطفاء ذكر الله فيها من أعظم أنواع الظلم.

﴿وَمَنْ أظْلَمَ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يذكرَ فِيْهَا اَسمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾؟

هل الموضوع غير هذا؟ وهو أن تكون الغرائز والقوى الحيوانيّة في الإنسان مصدراً لكل ظلمٍ واعتداء؟ والمحيط الوحيد الذي يحدّد هذه الغرائز، ويوقظ الوجدان الباحث عن الحق والعدل، ويجعله نشِطاً هو ذلك المحيط الذي قام باسم الله والحق والعدل، وسُمّيَ باسم المسجد الذي هو موضع السجود لِلهِ، وإخضاع الجموح. وإذا وجدت الأنانيّة وحبّ الامتياز والصور والأفكار الناتجة عنها طريقها إلى حرم المساجد تهدّم صورة المسجد الإلّهيّة ومعناه، وتبعد ظاهره عن الجمال. وعندما تتهدّم المساجد لا يبقى سدّ ولاحدّ لجموح الغرائز ويُفسَح المجال أمام كلّ ظلم. فالذين، يمنعون الآخرين من المساجد ويخصّونها بأنفسهم، ويطفئون نور الفطرة الإلّهيّ، ويرفعون ذكرَ غير الله، هم أظلم من كلّ ظالم.

يرَىَ بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نزلت في حدوث موضوع «الحديبية» ومنع

المشركين العرب رسولَ الله واصحابه من الدخول إلى مكّة. وإن كانت بداية الآية تنطبق مع هذه القصّة، ولكن آخرها: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ لا يتلاءم مع سبب النزول هذا، لأنّ المشركين العرب لم يسعوا في هدم الكعبة أبداً، بل كانوا يحافظون عليها وعلى عِمارتها. إلّا أنْ يكون المقصود الهدم المعنوي ومن ناحية ذكر الله فقط.

ويقول البعض: تشير إلى انهدام بيت المقدس (سبعين عاماً بعد المسيح) على يد جيش «تيطس» الروميّ، الذي هدّم المدينة وهيكل سليمان تماماً، وأحرق كل آثار اليهود ونسخ التوراة. ويقال إنّ المسيحيّين الذين طردهم اليهود كان لهم اليد في تحريض الروم لهدم بيت المقدس. ويقول البعض (كالطبريّ في تفسيره): تشير الآية إلى هجوم نبوخذ نصّر البابلي وغارته الذي تعاون معه المسيحيّون. مع العلم بأنّ غارة نبوخذ نصّر ومجزرته في بيت المقدس كانت قبل المسيح بثلاثين وستمائة عام (٦٣٠ ق م). وربّما التبس الأمر بهجوم الروم على أورشليم الذي تكرّر.

على كل حال، لايمكن اعتبار الآية أنها تعني واقعة خاصة، وليس هنالك أيّة قرينة لمثل هذا التطبيق. وهي بيان حقيقة كلية عامّة وشاملة للحوادث الماضية، مثل انهدام بيت المقدس، والحال (عصر نزول الآية) مثل منع المشركين في قضيّة الحديبية، والمستقبل مثل تهديم المساجد من قبل الصليبيّين والقرامطة، وكذلك تزييف المساجد والمعابد اليوم، والتي هي كلّها ناتجة عن اختلاف المنتسبين للاديان وتضادّهم المشؤوم، حيث اتّخذوا المساجد والمعابد مَترَساً لإظهار اختلافاتهم وتحقيق مصالحهم وأهوائهم[١].

---

١) إنّ السبب المهم في تزييف المساجد والمعابد وتقاعس الناس عن الدين هو جعل دين الله ودعوة الأنبياء على شكل الأفكار التي لا أساس لها، والأمنيات التي لابرهان عليها، والنفي والإثبات و التضاد، فاليهود والنصارى وقفوا في البداية كلٌّ بوجه الآخر، واعتبروا دين الطرف الآخر ومعابدهم بلاأساس وعلى غير الحق، ثم صاروا صفاً واحداً أمام الدين ودعوته.

واصبحت النتيجة أنّ أكثر الناس هربوا عن الدين ولم يؤمنوا بأيّ دين، إلى حيث كانوا صفّا مرصوصاً ضد جميع الأديان. على أثر تقدّم العلم، وارتفاع مستوى العقول عن المواضيع المحدودة والمصطنعة من قبل مؤيّدي الأديان ومناقضاتهم وما يفرضونه. فلماذا لم يفكّر أهل الكتاب فيما اذا ضعفت قاعدة الدعوة الاسلامية والقرآن في الأفكار، لم تبق حجة لموسى وعيسى والكتب المنسوبة إليهما، بل لم يبق تاريخ واضح عنهما. والآن يهدّد خطر الإلحاد الأديانَ لاسيّما المسيحيّة إلى درجة بحيث أقدم البابا في هذه الأيام

وينبغي لمنزلة المساجد وحماية مؤسّسيها ومؤيّديها أن يدخلوا المساجد خائفين من خشية الله والمسؤوليّة بالنسبة للمساجد، ليحرّضوا الآخرين على الخشوع:

﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: لانّهم يتطاولون على اللهِ والناس، ويجعلون المساجد قاعدة لفرض آرائهم، ومَترساً لحرب عقائدهم وآرائهم الخاصّة، أو يخرجون المساجد من صورتها الأصليّة، ويَخونونها، ولمّا لم يؤدّوا واجب حراستها أصبحوا ـ في الحقيقة ـ أجانب عنها ومطرودين منها، وعليهم أن لا يدخلوها الاّ في حال الخوف والقلق. أو أنّهم لمّا اوجدوا للناس مانعا باطنيّا في المساجد باختلافهم وسعوا في خرابها، وانحرفوا بها عن وضعها الأوّل، أضعفوا قاعدتهم الوحيدة، وفتحوا طريق الظفر لغيرهم، الىٰ درجة بحيث لا يتمكنون من الدخول إلى المساجد التي هي محل الأمن والهدوء إلّا خائفين قلقين. كما أنّ اليهود كانوا يدخلون المسجد خائفين بعد فتح بيت المقدس على أيدي الروم والبابليّين. وكذلك كان المشركون بعد فتح مكّة، والمسلمون بعد انتصار المسيحيّين عليهم في الأندلس، والمسيحيّون بعد فتح بيت المقدس على يد المسلمين، وهكذا... فهذه الاحتمالات مناسبة وفي محلّها، والاحتمال الأوّل أنسب مع تعبير الآية وأسلوبها.

فالجماعات الذين تقوم علاقاتهم على أساس الدين، وقاعدة قوّتهم المسجد، بمجرّد أن يضعف أساس قاعدتهم ومركزيّتها وتتزلزل، تعود قوّتهم الىٰ الضعف وعزّتهم الىٰ الذلّ، ولهم اكثر من الهوان في الدنيا عذاب أعظم في المستقبل:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

= على عقد أعظم مؤتمر مسيحيّ وأهمّه، ودعا جميع المذاهب المسيحيّة إليه. كتبت مجلة «اكسبرس» الأسبوعيّة حول سبب عقد هذا المؤتمر فتقول: يتزايد عدد الذين ينكمشون عن المسيحيّة يوماً بعد يوم، لاسيما في فرنسا. وقد بدأ هذا الانكماش منذ القرن التاسع عشر، والآن وان كان ثمانون بالمائة منهم قداغتسلوا غسل التعميد، ولكن أربعا وثلاثين بالمائة منهم مؤمنون ويقومون بالأعمال الدينيّة. والمسيحيون الملتزمون في المدن الكبار أقل من القرى والأرياف، ويذهب إلى الكنيسة اثنان بالمائة في المناطق العماليّة في شمال فرنسا والضواحي واحد بالمائة فقط!!

فالذين يمنعون المساجد واسم الله عن غيرهم، ويقتصرون بها على أنفسهم، يشبهون أناساً يقضون أيّامهم في أعماق الوادي، ولم يخطوا خطوةً واحدة عنه، ولمّا كانوا يرون أشعّة الشمس دائماً على جدرانهم ومحالّهم، يظنون أنّ الشمس تشع عليهم وتختصّ بهم فقط، مع العلم بأنّ:

﴿وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾: وكلّ مكان هو موضع إشعاع نور الله، وأنّ سلطته وتصرّفه ومالكيّته واضحة في صغير العالم وكبيره. ولمّا كان متصرّفا في الجميع، إذاً فهو موجد الجهات ومبرّرها وليس له جهة. ولمّا لم تكن له جهة، فكلّ شخص عندما يكون في أيّ جهة ويوجّه قلبه نحو غيره، فهو معرض عنه متّجه اليه:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾:إنّ نور الكواكب هذا الذي هو انعكاس من نور وجوده عمّ ظاهر الموجودات وباطنها، ولم يستوعبه أيّ شيءٍ ولايُحدِّدُه: ﴿إنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ﴾[1]

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالأرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيْعُ السَّماوَاتِ وَالأرْضِ وإذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِيْنَ لايَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أوْتَأتِيْنَا آيَةٌكَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ

١) إنّ القصّة التي جاء بها أحد الكتّاب باسم «قهوة سوراة» تبيّن محدوديّة رأي اصحاب المذاهب: قيل: كانت مقهى سوراة في أحد الموانيء الهنديّة، وكان أصحاب المذاهب والملل المختلفة يتردّدون عليها. ويجتمعون للبحث والمناقشة. وفي ذات ليلة كان قد اجتمع العالم الايراني المتحيّر، وعابد الصنم، والبرهميّ، واليهوديّ، والقسيس الكاثوليك، والبور تستانت، والمسلم السنيّ، والشيعيّ والإسماعيليّ وقداحتدم الجدال بينهم، وكان كل منهم يحاول أن يقتصر بالله والحقيقة على دينه وأنبيائه وزعمائه، إلى أن دعوا الحكيم الصينيّ ليحكم بينهم، فقال: إنّ مثل المتحيّر في وجود الله كالذي يريد ان يعرف حقيقة نور الشمس، فحدّق النظر فيها إلى أن عَمِي، فكان يظنّ بعد ذلك أنّه لاوجود للشمس، وكلّ منكم يشبه أشخاصاً يعيشون في جزيرة أو وادٍ في أطراف الأرض، ولم يخرجوا من هناك أبداً، لذافهم يتصوّرون أنّ الشمس تشرق على جبلهم ومنطقتهم، وتغرب عنهم فقط! مع العلم بأنّ أشعّة الشمس ليست محدودة بزاوية من زوايا الأرض، ولا الأرض جميعاً. هذه الشمس لاتشعّ على جميع الأرض فحسب بل الكواكب السيارة الأخرىٰ. وفي كل مكان مشرق ومغرب، وكل شيء يكون في معرض أشعة الشمس، ويتّجه نحوها يكون موضع أشعّتها: «ولِلّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِبُ فأينَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ».

مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قد بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا ارْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيْراً وَنَذِيراً وَلاتُسْأَلُ عَنْ أَصحَابِ الجَحِيْمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَنَصِيْرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْبِهِ فَأُوْلَئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

معاني المفردات:

سبحان: يُرجَع إلى الآية ٣٠.

قانت: من القنوت، الاتّصال، الإطاعة، القيام بالأمر، التسليم، السكوت عن الكلام.

بديع: وصف ذاتي بمعنى مُبدع (بكسر الدال): الخالق بلامثال سابق وبلامادّة ومدّة. وبمعنى مُبدَع (بفتح الدال): الخلق بلامثيل. كما أنّ الخلق والتقدير والتصوير والانشاء هو نوع من الإيجاد حسب المثال والسابقة وعلى شيء آخر.

قَضَى: قدّر العمل وأحكمه، أمَرَّهُ، أنهاه، وصل إلى قصده، حَكَمَ، فصل الحقّ.

يوقنون: من يقن: اتَّضح وثبت، أيقن، علم به عن دليل، زال شكّه.

الجحيم: فعيل من جحم: أشعل النار، فتح العين، امتنع عن شيء.

ملّة: الطريقة والأسلوب، الدين ، مِن ملّ: خاط الثوب، ألقى شيئاً في النار لاجل الاصلاح، واجه الألم والحزن.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾: يقول اولئك الاشخاص (من اليهود والنصارى والمشركين) الذين حدّدوا وجود الله الذي لاحدّ له وفوق اللانهاية في أفكارهم وأوهامهم: اتّخذ الله لنفسه ولداً (يقول النصارى اتّخذ عيسى، وبعض اليهود عزيراً، وبعض المشركين الملائكة) اتّخاذ الولد: تقبّل الولد وإثبات علاقة البنوّة وجعله تحت اشرافه. لاأنّه أولد من نفسه.

ونتج هذا الظن من وهمهم وقياسهم، وهو فوق الخيال والقياس والوهم والظن، وكلّما

يدخل في الأفكار، هو منزّه عنه وأعلى منه: «سُبْحَانَهُ!» نعم! هو المالك بالحقّ والمتصرّف في كلّ شيء وله ما في السماوات ومافي الأرض. وكلّما ظنوه ولداً له وكلّما يظنون فهو ملكه وله:

﴿بَلْ لَهُ مَافِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: فكيف تسعه الأفكار؟ مع العلم بأنّ الفكر والمفكرله، فَايّة حاجة له بالولد؟ مع أنّ كلَّ مافي السماوات والأرض يحتاج إليه في الوجود والبقاء ومبهوت له: «لَهُ قَانِتُونَ».

ولمّا كانو لم يمتلكوا الوجود بأنفسهم، ومسخّرين للطبيعة بأمر الله، اشيراليها بـ«ما» التي هي لغير العقلاء: «لَهُ مَافِي السَّمَاوَات...»، ولمّا كان لهم ذات ووجود، ويبحثون بلسان الفطرة عن مبدأ الكمال، ويسلكون طريق التقرّب إليه وُصِفوا بجمع المذكر السالم الذي يوصف به العقلاء: «قَانِتُونَ» فكلّ مافي السماوات والأرض له وجهان: مقهورون ومملوكون من وجه واحد وتحت تصرّف الله. ومن وجه آخر يتقدّمون في طريق التكامل والتطوّر في ظروف الطبيعة والزمان وقابليتهما. وهذان الوجهان يخصّان ظواهر التكوين التي تبدو في السماوات والأرض «لَهُ مَافي السَّماوات...».

أمّا السماوات والأرض وأصول العالم كالمادة والطبيعة والزمان والمكان فهي ظواهر إبداعيّة: غير مسبوقة بزمان ومادّة واستعداد: «بَدِيْعُ السَّماوَاتِ وَٱلأَرْضِ...»: لمّا كانتأصول السماوات والأرض لم تتهيّأ من التركيب والاستعداد، وهي من مقولة الأمر، فهي إذاً كانت بأمره وإرادته وبدون واسطة ودفعة واحدة، وبدون فاصل زمان واستعداد، وهذه توجد بالإرادة الأزليّة المسبوقة بالحكمة:

﴿وَإِذَا قَضَى أمراً فَإنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: كما أنّ النفس الانسانيّة التي هي ظاهرة ضئيلة من إرادة الله الأزليّة سبحانه توجد دائما على صفحة عالم الذهن اللامتناهي أمواجاً من الصور كلها مرتبطة بارادته وقائمة به، ثم يُبدي صورا بالتدريج خارج الذهن حسب الظروف الزمانيّة والماديّة وبقوّة الإرادة، فترتسم في الطبيعة.

﴿وَقَالَ الَّذِيْنَ لاَيَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْتَأْتِيْنَا آيَةٌ﴾: يَظنّ البعض من قصر

الرأي أنّ الفوز لهم فقط، ولايعتبرون الآخرين على حق، ويحصرون الله في معابدهم ويجعلون له ولداً. ويريد البعض الآخر من الجهل وقصر الرأي أن يواجهوا الله ويتكلّم معهم، أو يرسل لهم علامةً خاصّة.

ولمّا كان هؤلاء لم يتقدّموا في العلم والرأي، وهم كالماضين في الجهل وقصر النظر يفكرون كما كان يفكر اليهود قبل عدّة قرون: عندما كانوا يطالبون أنبياءهم أحياناأن يروا الله جهرة ويكلّموه، وكانوا تارة يطالبون بآيات خاصّة:

﴿كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهمْ﴾: مع إنّ عقول هؤلاء يجب أنْ تكون متقدّمة، وأفكارهم اسمىٰ من أفكار الماضين، لكنّهم يفكّرون مثلهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ﴾: والذين يقولون لماذا لا يكلّمنا الله أولم ينزّل لنا آيةً؟ لمّا كان بصر عقلهم واذن ذكائهم محجوبيين بالوهم والظن، وليسا على يقين (وظاهر «يوقنون» كونهم نحو اليقين، لا أنه خبر عن المستقبل)، لا يسمعون كلام الله عن لسان الآيات، ولا يرونه، وإلّا فالله يتكلّم مع كلّ شخص على قدر فهمه بلسان آياته التي تبدي قدرته وحكمته وتبيّن المقصود من التكوين[1]، ووفقاً لهذا البيان فانّ ـ «قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ» جواب لِـ «لَوْلاَ يُكَلِّمُنا اللهُ!» و «أَوْتَأْتِيْنَا بِآيَةٍ» أيضا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيْراً وَنَذِيْراً وَلاَتُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيم﴾: البشارة: خبر عما يُسِرّ في المستقبل والإنذار: خبر عمّا يُحزِن في المستقبل. والبشارة والإنذار يؤثّران في الذين تيقّظ فيهم الشعور بالمستقبل، وقد تعرّفوا على لغة آيات الوجود وبيانها، وسمعوا نداء الحق وضميرهم. إنّ هؤلاء المفكرين من أصحاب القلوب المستيقظة يفكّرون في آيات السماء والأرض، ويدركون أنّ لخالق العالم وربّه قصد: ﴿رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذٰا بَاطِلاً...﴾.

---

١) جاء في محاورات سقراط الحكيم مع تلامذته مايقرب من هذا المضمون: يسأل التلاميذ: لماذا لايكلّمنا مبدأ الخَلق والخير الأعظم الذي تقول أن له قصد في تكويننا؟ يقول سقراط: إنّه يتكلّم معكم دائما بلسان ضميركم الذي يدعوإلى الخيروالصلاح، ويحذّر من السوء والشرّ، وبلسان عامّة الناس، وآيات العالم ونظامه و...

إذا كان الانسان لايميّز بنفسه الحق والباطل، والخير والشرَّ إلى حدّما، ولم يصل إلى مرحلة اليقين الأولى التي ذكرتها الآية السابقة، لا معنى للبشارة والإنذار ولاأثر لهما. والرسالة والمسؤولية هي أن تجعل هذا اليقين والتمييز الفطريّ المجملَ مفصّلاً، وهذا الإدراك المبهم واضحاً، ونداء الوجدان هذا اكثر بلاغاً. ولهذا فإن إحدىٰ علامات كمال النبوّة، الكمال في البشارة والانذار وإلفات الانظار إلى المستقبل. فالفِطَر والعقول المستعدّة تتشعشع بنور الوحي، ويزداد شعاع نظرتهم من البشارة والإنذار. أمّا الذين انحدروا من منزلة الفطرة، وابتلوا في الأوهام والجهل المركّب يلازمون جهنّم، وليس هنالك مسؤولية بالنسبة لهم: ﴿وَلاَتُسْأَلُ عَنْ اصْحَابِ الجَحِيمِ﴾، بهذا البيان يكون «لاتُسألُ» بضمّ التاء واللام، «النفي المجهول» اكثر مناسبة من «النهي المعلوم» بفتح التاء وسكون اللام: إنّك أيّها النبيّ بشير ونذير بالحق! ولست مسؤولاً عن أصحاب جهنم. أو لاتسألْ عن حال أصحاب جهنم ماذا يجري عليهم. والواو إمّا أن تكون إستئنا فية أو عاطفيّة، والعطف على الآيات السابقة، او على آخر الآية السابقة: لست مسؤولا عن أصحاب جهنم، ولن يرضى عنك اليهود والنصارى أبداً (بهذا العنوان والوصف):

﴿وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ اَليَهُودُ وَلاالنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم...﴾: لوكانوا يجلون عن أنفسهم صبغة اليهوديّة والنصرانية، ويميلون إلى الحق لكنت، ترضى عنهم، ولوكنت تتبع طريقهم التي جعلوها ديناًلهم، لكانوا يرضون عنك. ولمّا كنتَ متّبعا هدي الله الذي هو الهداية نحو الخير والكمال، لاتتمكّن أن تتّبع الأفكار والأساليب القوميّة التي اصطنعوها:

﴿قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ اَلهُدَى﴾:غير الهداية الإلهيّة التي هي دين الله والاستبصار بقضايا الوجود والتكاليف، الأهواء النفسيّة التي تنصب في قالب الدين أحياناً. والثبات على تلك الهداية الإلٓهيّة يؤيّد العلم، ويؤدّي إلى ولاية الله وعونه. والذي يتّبع الأهواء مع مثل هذه الهداية والعلم، خرج عن معرض ولاية الله وعونه، وانْ كان نبيّاً معصوما بالفرض:

﴿وَلَئِنْ اتَبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ اَلعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَهِ مِنْ وِلِيّ وَلا

نَصِيرٍ﴾ هذه الأهواء التي صارت بلون الدين وغطّتها قشرة من العصبيّات أكثرُ ماتكون من اليهود والنصارىٰ الذين لم يتّبعوا الحقّ والكتاب كما ينبغي، ولكنّ الذين جلت هداية الكتاب ظلمة أوهامهم وشعّ نوره في قلوبهم وأرواحهم، ويتلون الكتاب حقّ تلاوته، يؤمنون بهذا الكتاب السامي والهُدى الكامل.

﴿الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوتِهِ أُولٰئِكَ يُؤْمِنُون بِهِ﴾: يبدو أنّ جملة «يَتْلُونَهُ...» خبرّية وليست حاليّة حتى تحتاج الىٰ تقدير. بناء على هذا، فالمقصود من «الَّذِيْنَ» يجب أن يكون جماعة خاصّة، ويستفاد من «آتَيْنَاهُمْ» وصول الكتاب وحلوله في أفكارهم وقلوبهم. وإلاّ فالكتاب جاء للجميع سواء من يتلونه حق تلاوته أو الذين يتلونه بألسنتهم ويمرّون عنه. وتفيد جملة «أولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» التعظيم والاقتصار على هذه الجماعة وكمال إيمانهم، وهي خبر بعد خبر: وانّ نفوذ هداية الكتاب وتلاوته كما ينبغي التي هي مع التدبر والتأمّل كلاهما يؤدّي إلى مثل هذا الايمان الثابت المستمر الذي يكشف حجب الأهواء ويعرض الحق كماهو.

يحتمل أن تكون الكلمات والجمل في هذه الآية ذات معان وتراكيب مختلفة: الكتاب: القرآن، كتب الأنبياء الماضين، مطلق الكتاب. يَتْلُونَهُ: يقرأون ذلك الكتاب أو القرآن، ويتّبعونه، يبيّنون الكتاب أو وصف النبيّ، هذه جملة حاليّة، أو خبريّة «أُولٰئِكَ يُؤمنونَ بِهِ» مبتدأ وخبر بصورة مستقلّة، او خبر فقط، او خبر بعد خبر لِلذِينَ.

وممايجدر بالتوسّع في الرأي وشمول الآية هو أنّ «آتَيْنَاهُمْ» خبر عن الماضي والمستقبل المحقق الوقوع.

والكتاب مطلق الكتاب ونوعه. «يَتلوُنَهُ» خبر عن الماضى والمستقبل المستمر.

لقد كشفت الآيات السابقة النقاب عن أفكار عامّة أهل الكتاب الباطنيّة وتعصّباتهم وغرورهم إلى درجة بحيث سدّت نوافذ أمل ذلك النبيّ بالحقّ الذي كان يأمل كثيراً بهدايتهم وإيمانهم وتفتح هذه الآية أمام نظرته نافذة عن المستقبل القريب والبعيد وكأنّها تُبدي الناس من ذوي الفطرة الطاهرة وطلّاب الحق وأهل الكتاب والرأي في الأمكنة

والأزمنة المختلفة الذين سمت أفكارهم عن العصبيّات والتقاليد، ويتلون كتاب الله باتّساع رأي ودقّة، ويشعّ على قلوبهم وعقولهم نور آيات الحقّ وبراهينه، و يتجهون نحوه كلّيّاً ويتمسّكون به، وسيقومون بحقّه خير قيام اكثر من الذين يتظاهرون باتّباع هذا الكتاب، ويتلون آياته باللسان فقط. والذين يكفرون بهذا الكتاب، ويحجبون نور هدايته وأشعّته بحجب العصبيّات والأهواء عن نفسهم وعن الآخرين، فإنّ عملهم وسيرتهم هذه ضارّة وخاسرة وهم أيضاً خاسرون:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ[1]﴾

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيْلَ اْذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى اْلعَالَمِيْنَ (١٢٢) وَاْتَّقُوا يَوْماً لاْتَجزي نَفْسٌ عَنْ نَفسٍ شَيْئاً وَلاْيُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاْ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاْ هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) وَإِذِ اْبتَلىٰ إِبْرَاهِيْمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِيْ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَاماً قَالَ وَمِنْ ذرِّيَّتي قَالَ لاْيَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا اْلبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقام إِبْراهِيْمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا الىٰ إِبْرَاهِيْمَ وإِسْمَاعِيْلَ أَنْ طَهّرا بَيْتِيَ للطَّائِفِيْنَ واْلعَاكِفِيْنَ وَالرُّكَّعِ اْلسُّجُودِ (١٢٥)﴾.

معاني المفردات:

الإبتلاء: مواجهة الصعوبات، التكليف الصعب، الامتحان.

---

١) تحقّقت تنبّؤات هذه الآية على مرّ الزمان. يوجد الآن رجال من ذوي البصيرة والتحقيق أدركواهداية القرآن بين تغطيات القرون الماضية المظلمة وعصبيّاتها، ويتلونه حقّ تلاوته، ويؤمنون بأفضليّته، ويدافعون عن حماه، وإنّ «كارليل» الإنجليزي مؤلف «الابطال» و «جون ديون برت»، ومؤلف «العذر عن التقصير بحق محمد والقرآن ... نماذج بارزة من هؤلاء الرجال. ومن جهة أخرى لمّاكان اكثر المسلمين لم يؤدّوا حقّ تلاوة القرآن، وابتعدوا عنه، وبدلا من أن يرفعوا علم هدَاية القرآن، ويتقدّموا، اتبعوا الآخرين، فانحدروا، وأصبح عبدة الأهواء المتعصبون كفاراً، وما اكثر الأضرار التي رأتها النفوس والمجتمعات البشريّة وما سوف تواجه من خسائر من جراء انحراف المسلمين وتعصّب الكافرين؟!

وكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» تأليف السيّد ابي الحسن الحسني الندوي الهندي لدليل على هذه الخسائر.

الكلمات: جمع كلمة: اللفظ ذو المعنى، الجملة التامّة المؤثّرة، من الكَلم: الجرح.

الإتمام: الإنهاء. التكميل. الإيصال إلى النهاية.

الإمام: المقتدىٰ. الرجل النموذجيّ المتّبَع، الخيط الذي يستقيم به البناء. من أمّ: القصد، الإتجاه نحو شيء.

الذريّة: النسل والأولاد الكثيرون المنتشرون مباشرة وغير مباشرة. من الذرء، أو الذرو،

أوالذرّ: نثر التراب، نثر البذور، نبت العشب من التربة.

يَنال: من النيل: الاستلام، الحصول على شيء.

البيت: الدار، محلّ الراحة ليلا، الدار الخاصّة، مصراعان من الشِعر، الأسرة، من بات في المكان: أنهى الليل الىٰ الصباح.

مَثَابة: مرجع: المحل الذي يُتَّجَهُ إليه.

المقام: الموقف، الموقع المهم.

الطائف: الدائر.

العاكف: الملازم في مكان واحد، المعتكف.

الركّع: جمع راكع (يرجع الىٰ الآية ٣٣).

السجود: جمع ساجد هنا(يرجع الىٰ الآية ٣٤).

﴿يَابني إِسْرَائِيْل اذْكُرُوْا...﴾: يخاطب القرآن بني اسرائيل للمرّة الثالثة في هذه السورة: الأولى: كان تذكيرهم بالنعمة الخاصة وطلب الوفاء بالعهد. الثانية: سرّ أفضليّتهم واسفليّتهم وآثار زللهم وغرورهم، ثم بيّن تناسق أفكارهم مع المسيحيّين وموقفهم جميعاً صفّاً واحداً ضدّ المسلمين. والثالثة: هذا الخطاب الذي يبدأ بفصل جديد ومواضع أخرىٰ بعد التذكير بالنعمة وأفضليتهم، والتفكير باليوم الآخر، ليتذكّروا أنّ هذه النعمة والأفضليّة متى انحدرت إليهم وممّن وبأيّ سبب؟

أوّل داعٍ إلى الحقّ، والأب العظيم، وأوّل رجل ينسب إليه أهل الكتاب وقوم اليهود

ونسب قريش، هو الذي يتصل به الجذر الدمويّ والدينيّ لكلّ هؤلاء الذين وقفوا صفّاً واحداً بوجه الاسلام. كان هو الامام العظيم، وبدأت الدعوة إلى الاسلام:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾: إمتحن الله ابراهيم بكلمات. هل واجه الابتلاء برؤية كتابة أوسماع ألفاظٍ وعبارات؟ وكيف أَتَمَّ هذه الكلمات، وكيف وصل باتمامِهِنَّ إلى درجة الامامة الساميَة؟

وبالنظر الى كلمة الابتلاء، والأخذ بنظر الاعتبار المنطقة والبيئة التي كان قدفتح ابراهيم فيها عينيه، وأفكار ابراهيم وسيرته واحتجاجه، وجهاده يمكن إدراك معنى الابتلاء وحقيقة الكلمات وإتمامِهِنّ: والمعنى المطابق للإبتلاء هو الكون في الشدّة، وكون الانسان في شدة فيه اختبار وامتحان، أو يوجب تكليف وجاء بمعنى الاختبار والامتحان والتكليف أيضاً. ولهذا السبب أخذ اكثر المفسّرين الابتلاء بمعنى الامتحان والتكليف.

والمبتلى هو الذي يواجه وينازع الجواذب والعوامل المختلفة كالمبتلىٰ بالمرض أو الحب... بحيث تجرّ جواذبه المزاجيّة او النفسيّة إلى جهة واحدة، والجواذب الأخرىٰ او المحيط والموانع الى جهة أخرىٰ، فاذا كانت جاذبة الخير أو الشر، او المرض والصحة، أو الوصل والهجر تفصل الشخص عن الجواذب الأخرىٰ أو تصرفه، فقد ظفر عن البلاء والابتلاء وارتاح وطمأن.

فتح ابراهيم عينه في محيط مليءٍ بأوهام الشرك وعبادة النجوم، وكانت العمارات الشامخة الفخمة لهيا كل الاصنام والنجوم قد ارتفعت نحو السماء من كل جانب، وكان علماء النجوم الذين يختلقون المغيّبات بألبستهم البيض ووجوههم المهيبة يحرسون هذه المعابد والهياكل، وكانوا قدا حتلّوا جميع القلوب. وكان أهل تلك المناطق مقيّدين بأوهامٍ قداختلطت بعلوم ذلك العصر الخاصّة، ومدّت جذورها في النفوس بالوراثة والتقليد والتعظيم، وكان جميع الطبقات يطأطئون رؤسهم أمام الأصنام التي تمثّل القادة السابقين ودَوْر الربوبيّة وتدبير النجوم، وترغمُ جباه الخشوع في التراب (تراجع الآية ١٠٢ في.

شرح أوهام كلدة وبابل). وفي أيّة ذاكرة تجد الفكرة طريقها سوى أنـهّم جـميعاً كـان يفكّرون؟ وأيّة عين عقلٍ كانت ترى سوى أنّهم جميعا كانوا يرون؟ وأيّـة نـفس كـانت تتمكّن من الانعتاق من قيود تلك الأوهام وتدرك بطلانها؟ وأيّ لسان كان يجرأ على قول كلمة معارضة؟ وأيّة إرادة كانت تتمكن أن تثبت بوجهها؟

توضّح آيات من القرآن عن ابراهيم وابتلاءاته من كل ناحية: وحصيلة مضمون الآية السادسة والسبعين من سورة الانعام هي: بعد أن أشرقت كلمة الحق في وجوده حاجج أباه (أبو الأسرة)، ينكر الأوهام والشرك ويحكم عليها [ببطلانها]، تظهر له قدرة ملكوت السماوات والأرض، حتى وصل إلى مرحلة اليـقين. ثـم يـنسحب عـن ذلك المـحيط المشرك، ويفكّر في عزلته بدراسة الشروق والغروب وإشعاع الكواكب. فـيدرك ـ بـعد ظهور الملكوت والقدرة الربوبيّة ـ التوحيد الربوبيّ.

إنّ ما أدار وجه أهل ذلك المحيط وعامّة الناس عن مبدأ التكوين هو الشرك بالربوبيّة، واتخاذ الأرباب، لا الشرك بالمبدأ والصانع. وقد زال عن أمام عين ابراهيم غبار أفكـار الجماهير حول روحانية النجوم وتدبيرها وربوبيتها الذي كان مُثاراً من أوهام المحيط، بدراسة لشروق الكواكب وغروبها وكونها مسخَّرة. ثم أعلن عن ظـهور هـذه الحـقيقة واتجّاهه نحوها، وهدأ فكره من القلق والخوف وسكن الىٰ الأمان، فلم يخش بعد ذلك من التهديد بغضب الآلهة والأرباب التي لا أثرلها.

تبدي هذه الآيات كيفيّة تقدّم كلمة الربوبيّة بابراهيم من محيط الشرك إلى مقام رؤية الملكوت ووِجهته وهدوء باله، وأنّه أتمّ هذه الكلمة. وأثارته كلمة الرحمة مـن مـوضع الأمان والهدوء من أجل انقاذ الناس من القيود المطبقة على عقولهم وجعلتهم عباداً لغير الله، فقام بلغة الدعوة والاحتجاج وسار بين أولئك الضالّين.

وتعرض سورة الانبياء، في الآية الثالثة والخمسين ابراهيمَ برشد خاصّ: وأنّه قـائم بوجه أبيه والآخرين، وانهال عليهم باللائمة: ولماذا اعتكفوا على أقدام الأصنام باصَّغارو الذلّ؟ وأنّهم قد استندوا إلى طريقة آبائهم الماضين. فيعلن ضلال الماضين، فلايريدون أن

يصدّقوا، فيتكلّم باعتقاد راسخ وإرادة حاسمة، ويـدعوهم إلى ربـوبيّة ربّ السـماوات والأرض وخالقها، ويعلن ـ بلاتقيّة ـ عزمه على الكيد بالأصنام وتحطيمها.

يتجسم تحطيم إبراهيم للأصنام من مجموع الآيات والروايات كمايلي: كانّما كانت ذات ليلة والجماهير متجهة إلى بيوت الأصنام زرافات ووحدانا وكانوا منشغلين بالدَبْكِ والخشوع أمامها ليلفتوا أنظارها إليهم، وكانت كلّ طبقة تطلب حاجتها من ربّ نوع تلك الحاجة. وبمجرّد أن رجع الجميع إلى دورهم، وأطبقوا جفونهم مطمئنين، هبّ ابراهيم من مكمنه بالفاس الذي كان معه، وكسر الأصنام قاطبة إلاّكبيرها الذي وضع أمامه الفأس من أجل إلقاء الحجّة عليهم. وكان الناس يتناشدون ـ بعد كسر الأصنام ـ عن اسم ابراهـيم وعنوا نه ليلقوا القبض عليه ويقدّموه للمحاكمة العامّة. ويشير ابراهيم في إفادته إلى الصنم الكبير الذي كانت آلة الجريمة وعلامتها معه، أو الأصنام الأخرى الباقية منها: فـاسألوا الأصنام اذا كانت تنطق وتدافع عن نفسها؟

وكانمّا إبراهيم كان في صدد مثل هذه المحاكمة العامّة ليحطم عشّ أوهـام نـاحتي الأصنام ويهزّ عقولهم كما حطّم الأصنام المنصوبة في معابد الأصنام. ولابدّ لهذا السؤال والجواب من أن يوقظ الأفكار الراقدة، ويصحوا الاشخاص المستعدون على أنـفسهم، وتطأطِئ رؤوس، وترتسم آثار الخجل والاستغراب على بعض الوجوه. ويوجّه ابراهيم ضربة عنيفة وصريحة اخرى إلى أفكارهم: ماهذه الفكرة؟ تعبدون ما لايضرّ ولاينفع. فلم يملكوا قدرة الدفاع عن أنفسهم! فيرتهب حرس الأصنام وسدنة المعابد من قوّة منطق ابراهيم وكلامه المحطّم للأصنام. فيثيرون المشاعر العامّة للبقاء على خـمود الأفكـار، للنهوض إلى نصرة الآلهة، ليحكموا على ابراهيم بالموت حـرقاً بـالنار، ويـلهبون نـاراً باشتراك الجميع من أجل إحراق إبراهيم، ويأمرون بالقائه بواسطة المنجنيق وأمام حشود المتفرّجين وحماة الأصنام في وسط لهيب النيران، ولكن إرادة الله وروح ابراهيم المحقّة جعلت النار برداً وسلاما عليه، وأصبحت خطة إشعالهم النار هباءً منثوراً.

تثني الآية الثانية والأربعون فما بعدها من سورة مريم على ابراهيم بالصدق والنبوّة

وتصديق الحق إلى درجة بحيث يقف بوجه أبيه: لماذا يعبد مالايسمع ولايبصر ولا اثرله؟! ويدعوه لاتّباع نفسه، ويسمّي عبادة الأصنام بعبادة الشيطان والأوهام، ويحذّر أباه من عذاب الله. فيطرده أبوه. فيهدّئ غضب أبيه باحترام، ولكنّه يبتعد عن محيط الأوهام.

وفي سورة ابراهيم تعرض الآية السبعون فما بعدها ابراهيم قائما بالاحتجاج مع قومه، وينحو باللائمة على عبادتهم الأصنامَ، ويحاول عسى أن يفتح عيون أولئك الجماهير بتدبير الله الأحد وتصرّفه. فيقول: ﴿الَّذِيْ خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطعمني وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَيَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحيينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَلِي يَوْمَ الدِينِ﴾ ثم يسأل الله أن يمن عليه بالحكم وإلحاقه بالصالحين: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكما وَألحقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاْجعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ في الاخرين، وَاْجعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاْغفِرْ لأبِي إنّه كَانَ مِنَ الضَالّين، وَلاَتُخْزني يَوْمَ يُبْعَثُونَ...﴾.

وتعرض الآية الثامنة والخمسون بعد المائتين من سورة البقرة، ابراهيم محطّم الأصنام في مقابل الملك المستبِدّ المستعبِد، وقد وقف بوجه ذلك الجبّار يحاججه، ويكشف الحجاب عنه ليرى الله ببرهان الحياة والتسخير والتصرّف [بالموجودات] ليصدّ ريح غروره ويُبهته. وتعرض الآية الثالثة والستّون بعد المائتين ابراهيمَ بلغة التضرّع والإلحاح إلى الله أن يريَه الله سرّ الحياة والمعاد ليطمئنّ قلبه. فيعلّمه ربه أخذ أربعة من الطير وتعليمها!!

وتشير سورة الصافات من الآية الثانية والثمانون فما بعدها إلى ابراهيم صاحب القلم السليم، واحتجاجه مع أبيه وقومه، ونظرته إلى النجوم، وإعراضه عن الناس، وخطابه الساخر للأصنام، والقبض عليه، والحكم عليه حرقاً بالنار، وبشارته بولد صالح صابر، فتقول: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بغُلاَمٍ حَليمٍ، فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إنّي أرَى في المَنام أنّي أذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَاً تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ اَفعَلْ ماتؤمَرُ سَتجِدُنِي إنْ شَاءَ اللّهُ من الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أسْلمَا وَتَلَّهُ للْجبِيْنِ، وَنَادَيْنَاهُ أنْ يَاإبرَاهِيمُ قَدْصَدَّقتَ الرُّؤْيا إنّا

كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ، إنَّ هٰذا لَهُوَ البَلاغُ المُبينُ﴾.

هذه خلاصة محتوى الآيات الموجودة في السور المختلفة التي تشير الى ابراهيم ـ بلحن وتعبير خاصّ في كل سورة ـ من كل ناحية وجانب، فمن جهة تشير اليه بين جواذب المحيط والعلاقات والعواطف، ومن جهة اخرى الابتلاء بالأفكار والجواذب الفكرية.

اذا كان المقصود من «الكلمات» الكلمات الموجودة في الآية موضوعة البحث، هو العبارات والألفاظ أو التكليف البسيط، فلا تتناسب والابتلاء والإتمام. فلابد ـ إذاً ـ أن تكون لتلك الكلمات من سرّ وحقيقة التي استوعبت فكر ابراهيم، واجتذبته لنفسها وابتلته. وتنكير «كلماتٍ» تفيد هذا المعنى أيضاً. كما أنّ في الآيات الأخرى كلّما جاءت لفظة كلمة أو كلمات فهي ناظرة إلى بعض الحقائق أو المواضيع، والتي جاءت على صورة ألفاظ أو أعيان موجودات أو صور نفسيّة، وملحقة بالمتكلّم والمؤثّر والمحرّك في النفوس، مثل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسمُهُ ٱلمَسِيحُ﴾، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ﴿لَوْ كَانَ ٱلبَحرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، ﴿وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَى﴾، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾.

وبالنظر الىٰ معاني الكلمة والكلمات في الآيات الأُخرىٰ، ربّما تكون الكلمات التي ابتُلِيَ بها ابراهيم هي الحقيقة الملكوتيّة وأعيان الموجودات الثابتة في العالم التي انعكس نورها على فطرة ابراهيم النيّرة، وارتبطت برغباته وتحرّكات ضميره إلى درجة بحيث ابتلته واجتذبته إلى نفسها إلى أن وصلت آثارها إلى حدّ الكمال وتحقّقت في باطنه.

وربّما تكون نفس الكلمات التي تلقّاها آدم، ولأنّه كان في محيط الفطرة، ولم يواجه جاذبيّة معاكسة أعادته كليّاً نحو التوبة (تراجع الآية ٣٧)، ولكنّ ابراهيم الذي فتح عينيه في محيط العادات والتقاليد، ابتُلِيَ أوّلاً بالجاذبيّات المعاكسة، ثم اجتذبته الكلمات إليها، فاتمّها ابراهيم بصورة اكثر تأثيراً و ظهوراً: تقدّمت به كلمة الربوبيّة الى كشف الملكوت ومشاهدته وتغيير الجهة. وأوصلته كلمة البحث عن سرّ الحياة والبقاء إلى الإطمئنان واليقين. وجرّته كلمة التضحية والصفح في سبيل الحق وإنقاذ الناس إلى الذهاب إلى النار

وقطع العلاقات. وعرضته كلمة الاستسلام في مقابل ارادة الله إلى ذبح الولد بيده.

إنّ هذه الكلمات والنظرة المودعة في أساس فطرة الإنسان، هي المحرّكة نحو الكمال العلميّ والعمليّ. وتكون التقاليد والشهوات والدوافع النفسيّة الأخرىٰ حجاباً على الفطرة، ومانعاً مِن إشعاع الآيات، وإتصال حبل الآيات بالكلمات. ولذا لم يكن لهذه الكلمات تلك الحركة لدى الجميع بحيث تبتليهم، وتجرّهم إلى الإتمام. ولو ظهر قليل من الجاذبيّة، ولم تطل حتى تضعف وتتوقّف. والدوافع الفطرية كالفقاعات التي تنبع من أعماق أصل الإنسان، وتنفجر باصطدامها بالامواج المعاكسة وتغيب. ولو أنّ الكلمات في فترة ظهورها التي لم تتلوّث، واصطدامها بآثار المحيط والتقاليد والعادات والشهوات، لم تغب، توجِد تجاذباً في الباطن، ويبتلي الإنسان. وفي هذه الصورة إمّا أن تقطع العوامل العارضة صلة الفطرة بالعقل الإكتسابيّ، وتجنّبه الابتلاء بالكلمات الباطنية وإتمامها، وإنّ كلمات البحث عن الحقّ والإطلاع على أسرار الحياة والموت والتضحية من أجل نجاة الناس المنعقدة في جبلّة الجميع بزيادة أو نقيصة، تتقدّم بالنفوس إلى حدّ الكمال.

والذي تريد حكمة الله وإرادته أن توصله إلى درجة الإمامة المطلقة، تبتليه أوّلاً بمثل هذه الكلمات، ثم يوصله بمدده الخاصّ إلى الكمال.

وكما أنّ الكلمات النفسيّة قد تحقّقت في ذات ابراهيم، فإنّه قد وصل بكلمة الصبر والتحمّل والصفح والعفو عن القريب والبعيد، والمرأة السيئة الخُلق ذات الحجج الواهية، وإكرام الضيف والجود في سبيل الله، والآداب الظاهريّة، والنظافة البدنية (وهي السنن العشر) إلى الكمال. فكلّ كلمة من هذه الكلمات كانت موضع ابتلائه، وكلّما يُشاهَد في التفاسير والروايات حول الكلمات فهي مصاديق ونماذج من الكلمات الظاهرية والباطنيّة.

وأخذ بعض المفسرين الكلمات على أنّها الخصال العشر التي يدعونها بسنن ابراهيم وخصال الفطرة. خمسة منها حول نظافة الرأس والوجه وترتيبه، وخمسة حول البدن.

وقد نقل هذا التطبيق عن ابن عبّاس، ويعترض أحد محقّقي العصر (المرحوم عبده)

بشدّة على هذا التطبيق، ويعتبره من التطبيقات الإسرائيليّة، ويبدو أنّ هذا الانطباق لم يكن في غير محلّه لانّ تنظيف الظاهر وترتيبه وتحسينه لعامّة الناس وإن يكن موضع اهتمام، لكنّه لم يكن من الإبتلاءات، ولكنها تعتبر موضع ابتلاء بالنسبة للشخص الذي يتعرّض لدرجة الإمامة،وله مثل هذا الشعور والإحساس القادر الدقيق؛ لأن مثل هذا الشخص بابتلائه بالكلمات المعنوية لا يتمكّن من أن يغفل عن الإهتمام بظاهره وتحسينه. كما أنّ كثيراً من أهل الرأي والفكر وأصحاب الدرجات العلميّة والروحيّة الذين لم يهتمّوا بنظافة الشعر والأسنان والألبسة، وتنظيم الظاهر، لا يستحقون درجة الزعامة والامامة.

يتبيّن من رواياتنا التي تذكر أنّ الأحكام العشر أتت إلى إبراهيم بعد الوصول إلى درجة الإمامة، أنّ مثل هذه الأمور الظاهريّة لم تكن من موارد الإبتلاء ومقدّمات الإمامة.

والخلاصة: قبل أقوال المفسرين وأكثر منها، يمكن التعرّف على الفطرة القاهرة، والجاذبيّات المعنويّة، والإدراكات العقليّة، والابتلاء بين الجاذبيّات، وسرّ الكلمات وإتمامها، من الآيات النازلة بحق هذا الشخص السامي الإلهيّ، وبالتأمّل في الآية الثامنة والعشرين من سورة الزخرف، يمكن الحصول على المعنى الجامع لكل هذه المعاني: ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ**﴾.

وبعد إتمام الكلمات، أو بإتمامها وإكمالها، أصبَحَ جديراً بدرجة الإمامة الساميَة، أو أنّ إتمام الكلمات نفسها وصلت لتلك الدرجة:

﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾: فالإمامة جعل إلهيّ، وليست جعلاً تشريعيّاً ومعاقدةً وبدون سابقة فحسب، بل مسبوقة ومترتّبة على إتمام الكلمات وتحقّقها في شخصيّة بارزة فوق الطبيعة العامة، ولذا فإنّ هذه الدرجة أُعلِنَت له بدون حرف الربط أو التفريع الذي يدلّ على مغايرة الجملتين عن بعضهما، مثل: «فقال»، كما يستفاد من مضمون الآية ومفهوم اللفظ «إماماً» وإطلاقه أنّ الامام هو النموذج الكامل لكلّ الكمالات

العقليّة والنفسيّة والبدنيّة. ولمّا لم تُبيَّن جميع هذه الخصوصيّات والابتلاءات والكمالات لدرجة النبوّة والرسالة، فيجب أنْ تكون درجة الإمام أسمىٰ من النبيّ أو الرسول الذي لم يتمّ الكلمات ولم يصل إلى درجة الامامة. إذاً فدرجة الامامة حاصلة لكلّ نبيٍّ ورسول كريم أيضاً.

وربّما كان آخر ابتلاءات إبراهيم الابتلاء بكلمة الإسلام، الذي هو التسليم لأمر الله وإرادته. وقد أتمّ هذه الكلمة أيضاً بتسليمه لأمر الله وموافقته على ذبح ابنه الوحيد. وكان من ابتلاءاته أيضاً بناء البيت من أجل إبقاء كلمة التوحيد وتمثيلها، في صحراء نائية قاحلة، وقد أتمهما كليهما في نهاية حياته.

﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي...﴾؟: إنّ طلب الإمامة للذرّيّة يدلّ على هذه الواقعيّة، وهي أنّه وصل إلى درجة الإمامة عندما كان له أبناء، وكان يقرأ في جباههم وأولادهم هذه الجدارة واللياقة، ولذا فإنّه تقدّم بهذا الطلب، وبمجرّد وصوله إلى أواخر حياته وكانت له ذرّية وأولاد، وطلب هذا الطلب لهم، يفيد أن إتمام الكلمات بأجمعها والوصول إلى درجة الإمامة كان بعد نبوّته.

مع أنّ إبراهيم وصل إلى هذه الدرجة بالإبتلاء بالكلمات وإتمامها، لم يكن يتقدّم بهذا الطلب لو لم ير الجدارة لمثل هذه الدرجة في ذريّته، بلحن الاستفهام والطلب: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِي»؟ الذي تبدو فيه عين الأمل إلى إجابة الله وجدارة الذرّية. وكأنّما كان ابراهيم في هذا الطلب ناظراً إلى وراثة الذرّية في الفكرة والدم، ولكن قانون الوراثة مهما يكن مؤثّراً لا يكفِ لإحراز درجة الإمامة. ويجب للوصول إلى هذه الدرجة تحقّق شروط ومقدمات نفسيّة وعمليّة أخرى أيضاً.

﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِيْنَ﴾: ويجب أن يكون هذا العهد هو الإبتلاء بالكلمات واتمامها؛ لأنّ الانحرافات النفسيّة والظلم بأيّة صورة كانت تُلفِت اهتمام الإنسان عن الكلمات والإبتلاء بها، وتكون مصدر ظلمة في الباطن، بحيث تجعل كلمات الفطرة في الظلام، وتحجبها عن معرض إشعاع الآيات وكلمات الوجود. ولهذا إمّا أن لا يظهر ابتلاء،

واذا ظهر ابتلاء واهتمام لم يدم حتى تطغى ظلمة الظلم علـى نـاحية النـفس المـضيئة وتجعلها تحت الظلام، وتذهب بالكلمات إلى المحاق. ومعنى عدم حصول الظالم على هذا العهد الخاص هو أنّ الظالم بعيد عن هذا العهد إلى درجة أنّه لم تصل يده إليه أيضاً.

وبالنظر الى ما قيل تستنتج من هذه الآية الموجزة التي هي نموذج من الإعجاز في البلاغة والتمثيل وبيان معاني أسرار الإمامة وشروطها، هذه الأمور:

١ـ لمّا ابتُلِيَ ابراهيم بالكلمات وصل الى درجة الإمامة، وكان هذا الابتلاء بـلحاظ ضميره القاهر، ودافع فطرته الساطعة، وقابليّته النفسيّة الخاصّة. بناء على هذا يجب أن يكون جهاز الإمام النفسي فوق طبيعة الآخرين العامّة، حتى يُبتَلىٰ بالكلمات ويـؤدّي تكليف هذا العهد كما ينبغي، ويحصل على الفعليّة في جميع الكمالات. وبعد اجتياز هذه المراحل يكون إماماً وقائداً لهداية جميع الناس، لِيوجِدَ تطوّرا في النوع الانساني بهدايته الوجوديّة والمنطقية الخاصّة. بناء على هذه الخصوصيّات والمواصفات النفسيّة لا يمكن اعتباره مثيلا للنوع الانساني العام، بل الفرق بينه وبين النوع الانساني كفرق الانسان مع أنواع الحيوانات الأخرى. أو بتعبير آخر إنّ ذلك طفرة في مسيرة تكامل الإنسان. وتصف الآيتان الثانية والسبعون والثالثة والسبعون من سورة الأنبياء الذين وصـلوا الى درجـة الامامة من ذرّية إبراهيم بهذه الأوصاف: ﴿وَوَهَبْنَا له إسحٰقَ ويَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِيْنَ، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلاةِ وَإِيْتَاءَ ٱلزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِيْنَ﴾.

تفيد التعابير: ﴿وَهَبْنَا، نَافِلَةً، جَعَلْنَا صَالِحِيْنَ﴾ في هذه الآية أنّ جِبِلّتَهم الأولى قبل الإمامة كانت فوق طبائع البشر العامّة، وطفرة في عالم التكوين؛ لأنّ الهِبَة هي العطاء بلا عوض وغير المتوقّع. والنافلة: الغنيمة والحصول أكثر مما يتوقّع وأكثر من الفرض. وتفيد كلمة الجعل الصلاحيّة والاستعداد قبل درجة الإمامة. وبهذه الجبلّة السـامِيةِ واللـياقة النفسيّة جعلهم الله أئمةً ليهدوا البشر من كل النواحي إلى الأمام. وقد أصبحت قلوب هؤلاء باتّصالها بالوحي ينبوعاً للخيرات، وكانوا بأنفسهم مقيمي الصـلاة ومـؤتي الزكـاة؛ لأنّ

﴿أوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزكَـاةِ﴾ غـير الأمـر بـالخيرات والصلاة والزكاة والتكليف بها، واعادت هذه الآية إلى الأذهان في الختام عبوديّتهم لله وعدم انحرافهم.

٢ـ يجب على الامام بعد تلك اللياقة والابتلاء إتمام الكلمات، وأن تتحقّق الكلمات في وجوده، وأن يصل إلى الفعليّة في جـميع الكـمالات الإنسـانيّة. والآيـة الخـامسة والعشرون من سورة سجدة تبيّن وضع الإمام والإمـامة السـابق واللاحـق كـما يـلي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يوقِنُونَ﴾.

٣ـ يتبيّن من «إنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ» التي نسب الله فيها الجعل لنفسه، وقد جاءت بلام الانتفاع، أنّ الإمامة جعلٌ إلهيٌّ ولصالح عامّة الناس. لأنّ الشعور بطلب الهداية وتـقليد النموذج واتّباعه من المشاعر الفطريّة الباطنيّة البشريّة التي أوجدتها فيه الحكمة الإلهية حسب قانون التكامل العام، وكما أنّ آلاتٍ وأعضاءَ خُلِقَت لكل كائنٍ حيٍّ ـ وفقا للجهاز الغريزيّ ـ واهتدىٰ لاستخدامها، وكذلك في المحيط الخارجيّ أُعِدَّت آلات لسدّ الحاجة، فيجب تكوين نماذج أكمل من أجل الاحساس بالاتّباع والبحث عن النموذج، ليجدَ هذا الحسّ والدافع مطلوبه ويتّبعه، كما أنّ تكوين الرجل والمرأة المتناسب والأذواق العلميّة والفنيّة المختلفة، جاءت حسب قانون التطابق والتكامل هذا.

ومهما تدارسنا تاريخ حياة الانسان بصورة أكثر، ترى هذه الرغبة ودافع البحث عن النموذج أوضح من كل رغبة، نرى أنّ الإنسان كان في كل عصر ووضع طالب نماذج من الكمال الانسانيّ، وكلّما وجد كمالاً واحداً أو عدّة كمالاتٍ في شخص اتّخذه إماماً وان كان ناقصاً في جهات أخرىٰ. وكأنّما يوجد مقياس في ذهن الانسان يقيس به نـماذج الكمال ليرى أيّها يطابق ذلك المقياس بصورة أكثر. واذا وجد شخصاً أكمل بهذا المقياس يتّبعه، وإذا لم يجد يقف عند ذلك الذي وجده. ويصنع له تمثالاً من الخشب او الحجر من أجل تجسيد عظمته وكماله، ويبادر من المعنىٰ إلى الصورة!

٤ـ يمكن إدراك تأثير الوراثة الفكرية والنفسيّة في الذريّة من أجل نيل درجة الإمامة

معنى المقام هذا هنا. بناءً على هذا فإنّ الموضع المبنيّ بجانب الكعبة والصلاة فيه واجبة يجب أن يكون رمزاً من مقام ابراهيم الواقعيّ الموسّع، والذي قام فيه مـن أجـل إتـمام الكلمات وإعلان الحق ومن أجل الله، ويجب على الآخرين أنْ يتّخذوه مصلّىً بذكرى ابراهيم، ويقوموا فيه لِله ويتقرّبوا إليه.

وكلُّ مسجد أقيم في أيّ مكان كان، لما كان فرعا وشعاعا من ذلك البيت الأوّل، يجب أن يكون مثابةً للناس ومركزاً للأمان، وأن يُقام فيه للحق، وتنتظم فيه الصفوف، وأن يطهّر من التلوّث بالشرك والنجاسات والاتجاه لغير الله، استذكاراً للقائمين بالحق:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ...﴾ العهد لم يكن تكليفا أو أمراً؛ لأنّ التكليف والأمر يكون من قبل الشخص الذي له الحكم وحده، ولكنّ العهد يكون فيه قبول المتعهّد شرطاً أيضاً. وكذلك يتبيّن من الحرف «إلى» ايضاً أنّ العهد جاء إليْهما، وكأنّه قد تحقّق في وجودهما، لا أنّه أُخِذَ منهما العهد؛ لأنّه بناء على هذا يجب أن يقال: « وَعَهِدْنُا مِن، أو عَنْ...» لأنّ ابراهيم واسماعيل كانا قد طهّرا حرم فكريهما ونفسيهما من لوث الدنيا المغبرّة ومن الشرك والأوهام والذنب والرجس، وجنّبا نفسيهما ذلك، وتـجلّى عـليهما التوحيد المحض، هذا هو العهد الذي تحقّقا به، وبهذا العهد يجب أن يحافظا على طهارة حرم بيت الله من كلّ لوث وآثار الشرك، وتكون أنظمته خالصة لِله ولتطهير النفوس. لأنّ كل طريقة توصل إلى المطلوب فهي عهد محقّق يجب على الشخص السالك أنّ يتّخذه سبيلا، ويحرّض الآخرين إليه أيضا، ويزيل الموانع عن طريق سالكيه.

ولمّا كان هذا البيت مضافا ومنسوباً إلى الذات الإلهيّة المقدّسة «بَيْتِيَ» ومناسكه ظهورٌ لتلك الطريقة التي اتّخذها إبراهيم ثمّ إسماعيل من بعده، فإنّ تطهيره من التلوّث بالشرك والرجس والإنصراف عن الحقّ، هو أوّل شرط للطريق وسالك الطريق والمورد والوارد:

﴿لِلطَّائِفِينَ وَٱلعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾: إنّ تطهير بيت الله ومناسكه من كلّ ما يصرف الفكر عن التوحيد، ويثير العاطفة والغريزة الدنيئة، ويعبث بالأمن الداخلي النفسيّ والمحيط الخارجيّ، التطهير يكون بصالح هذه النُخبة وتمهيد الطريق لهـم: ﴿أَنْ طَـهِّرَا

بَيْتِيَ لِلطَّائِفِيْنَ...﴾ ـ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لإِبْراهِيْمَ مَكَانَ ٱلبَيْتِ أَنْ لاْ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِيْنَ وَٱلقَائِمِيْنَ وَٱلرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج/٢٨)، الأمر بالتطهير في هاتين الآيتين لمّا جاء بدون متعلّق فهو يفيد التعميم ؛ فهذا البيت نفسه وآدابه وواجباته حتى لباس الحاج وحركاته وأفكاره جميعاً يجب أنْ تكون طاهرة من كلّ ناحية.

إنّ هذه الأوصاف والعناوين الأربعة: «لِلطَّائِفِيْنَ وَ....» يمكن أن تقصد الفئات المختلفة التي كل فئة منها تكون على شكلٍ حسب إدراكها وأفكارها. ويحتمل أن يكون قاصدو الحقّ وبيته فئةً واحدة في حالات مختلفة. وربّما تشير هذه الأوصاف إلى الدرجات والمراتب التي سلكها إبراهيم الخليل. بمجرّد أن تجلّى الحقّ للسالك يوصِل فكرته وإرادته التي تنزع دائماً نحو المنافع والشهوات الشخصيّة، بالحقّ، ويديره حول مركز الحقّ والصالح العامّ كأجزاء العالم الصغيرة والكبيرة. إنّ هذه الحقيقة في عالم الصورة، تظهر بصورةالطواف حول البيت المنصوب على يد ابراهيم، والمنسوب والمضاف إلى اللهِ. وعندما يتحرّر الطائف من الجواذب النفسيّة نهائياً، ويشاهد الحق بالحركات الدائرية في كل جهة وجانب يكون ملازما ومعتكفا فيه. «وَٱلعَاكِفِيْنَ»، أو بناء على وصف سورة الحج القائمين بدلا من العاكفين، وكأنّه يشير إلى القيام بالحق والواجب بعد الطواف. وعندئذٍ يغضّ العاكف أو القائم نظره عن نصف وجوده أو أكثره وعن العالم، ويفنى في نور العظمة والقدرة، وينحني أمامه، ويركع للتقرّب إليه فيكون راكعا: «وَٱلرُّكَّعِ». وبعد أن غشّته أنوار العظمة وفنى فيها، يغضّ النظر عن كل شيء بصورة السجود، ويضع رأسه على التراب، ويفقد وجوده في مقابل الإرادة الأزليّة: «ٱلسُّجودِ».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْراٰهِيْمُ رَبِّ ٱجعَلْ هٰذا بَلَداً آمِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَٱليَوْمِ ٱلآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيْلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلىٰ عَذابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلمَصِيْرُ ﴿١٢٦﴾ وَإذ يرفعُ ابراهيمُ القواعِدَ من البيتِ واسماعيلُ ربنا تقبَّلْ مِنَّا إِنَّك أَنْتَ ٱلسَّميعُ ٱلعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنا وَٱجعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبعَثْ فِيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلكِتَابَ وَٱلحِكْمَةَ وَيُزَكِّـيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلعَـزِيْزُ ٱلحَكِيْمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

معاني المفردات:

ابراهيم: أصله: آب رام: الأب الكبير، قيل ابراهام أيضاً: أبو الأمّة.

البلد: المنطقة القابلة للسكنى والتي يتعلق بها الشخص، من بَلَدَ في المكان: اذا مكث وسكن به.

متع: النهار بلغ غاية ارتفاعه، طال، استفاد من الشيء حتى النهاية.

الرفع: الأخذ، التصعيد.

القواعد: جمع القاعدة، الأساس، ومن القعود: الجلوس.

اسماعيل: بحسب اللغة: سامع الله (من الله)، ابن ابراهيم من هاجر أمه سارة.

مسلم: من أسلم: استسلم، قَبِلَ، خضع، طأطأ.

مناسك: اسم مكان وزمان ومصدر من النُسُك: العبوديّة، إنجاز العبادة التامة.

يزكّي: من التزكية: التربية، الزيادة، تنظيف الأرض، الإظماء، أخذ زكاة المال، مدح النفس.

العزيز: صفة: القويّ الذي لا يتمكّن منه أحد ولا يعجز، الفريد في القوة، بلانظير.

البعث: الإثارة، النهوض، الانتفاض من النوم، الاهتياج.

الحكمة: الآراء والعقائد الصحيحة المتينة، من حَكَمَ: ارتكز، تصلّب بنفسه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذا بَلَداً آمِناً وَٱرزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثمَرَاتِ...﴾:

بيّنت الآية السابقة الغاية والخطّة لأول بيتٍ الذي هو مَثابةً للناس جميعاً، ومركز تغيير الإرادة ومصدر أمن النفوس. وهذه الآية هي أوّل دعاء إبراهيم لاستقرار الأمان برعاية الله الخاصّة في منطقة هذا البيت والمدينة التي تؤسّس حوله، وتـتهيّأ وسـائل العـيش

للواردين فيه وللحارسين عليه؛ لأنّ تأمين الأمن والعيش لأهل هذه المدينة كان خارجاً عن قدرة ابراهيم، فأراد بالدعاء والطلب من الله أنْ يتحقّق ذلك؛ لِيتحقّق غرضه وخطّته من بناء البيت. طلب ابراهيم أولا العيش والرزق من الله لجميع أهل البلد «وَٱرزُقْ أهْلَهُ»، ثمّ جاشت غيرته في طلب الحق، أو توبيخ الله له حول إمامة الذريّة، مما جعله يتّجه بدعائه إلى المؤمنين خاصّة:

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ وَٱليَوْمِ الآخِرِ﴾: مَن آمَن: بدل أهلَه، بدل البعض من الكلّ، لمّا كانت رحمة الله شاملة وعامّة ويرزق الجميع، ولكنّ الذين اختاروا بأنفسهم طريق الكفر، تكون فائدته قصيرة ومحدودة:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾: الإمتاع: الإفادة، واستفادة الغير من المال والقوّة. فالتمتّع من الرزق المحدود في مزاج الكافر المنحرف كالتمتّع الحيوانيّ، ونسبة التمتّع الحيوانيّ إلى التمتّع الإنسانيّ الذي يتقدّم برزقه بجاذبيّة الإيمان ويُظهره بصورة الحياة والنور والقوّة، قليلة جدّاً. وذلك الرزق القليل أيضاً في مزاج كفرهم يهيّئ مادّة العذاب والانجذاب اليه:

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾:

ذَاكَ إنْ يَشْرَبْ يكنْ نورَ الأحَدْ ولهذا الشربُ بُخْلٌ وحَسَد[1]

استجيب دعاء ابراهيم: فأصبحت مدينة مكّة بين قبائل العرب الغازية والعالم المضطرب يومذاك مكان أمان، فلم يستول عليها غازٍ وفاتحٍ. وفقط انفتحت أبوابها يوم فتح مكة بوجه خاتم المرسلين لِيُتِمَّ عهد ابراهيم، ويطهّره من لوث الشرك والأصنام. مع العلم بأنّ بيت المقدس والمدن الأخرى ومواضع العبادة كانت دائماً موضع هجوم الفاتحين وتخريب المخرّبين، ولطف الله، ونفوذ هذا البيت المعنويّ في القلوب، وبعده ـ إلى حدٍّ ما ـ عن الأنظار كان مصدر أمنه، وجعله بعيداً عن متناول الأحداث. وأمنه أدّى إلى تردّد الأموال التجاريّة وحمل الثمرات إليه قبل الاسلام وبعده: ﴿أوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ

١) الأصل الفارسي لجلال الدين المولوي. ترجمتُه إلى العربية. المترجمان.

﴿حَرَماً آمناً يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (القصص / ٥٧).

ولو أوّلنا الحرم الآمن كالعرفاء، أو عمّمناه بالنفوس الإيمانية، يمكن أن يقال: النفوس التي تستقر في أمن الايمان تتمتّع من كل ثمرات قواها وادراكاتها المعنوية دائماً وبصورة غير محدودة. ولكنّ الكافرين متعتهم من مثل هذه الثمرات محدودة ومنقطعة.

﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾: إذْ: في هذه الآية والآيات الأخرى المبدوءة بها، ظرف زمان وتفيد التنبيه والتذكّر. معنى يرفع «يُصَعِّدُ» وهي أعمّ من يبني أو يصنع، وتفيد رفعة المقام والحصول على المقصود أيضا. كما أنّ الأسس والقوانين «القواعد» المرتكزة في المادّة ترفعها إلى المعنى وعالم الروح. من البيت: بيان القواعد، وأنّ مِنْ تبعيضية، واسماعيل الذي جاء بعطف مطلق وبعد نهاية الجملة (بدلا من: يرفعان ابراهيم واسماعيل) يدلّ على أنّ اسماعيل كان يعمل مستقلّا وقبل رفع القواعد، وكان يساعده بأنواع العمل.

الآية الثامنة والعشرون من سورة الحج: ﴿وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ...﴾ تدلّ على أنّ مكان البيت كان بعناية الله وبحث إبراهيم حتى أراه الله المكان «بَوَّأْنَا»: كان مكاناً قريباً من خطّ الاستواء، ومِنْ أوّل قطعةٍ تكوّنت من الأرض (تراجع مقدمة كتاب «بسوى خدا ميرويم» كان ابراهيم يبحث عن تلك المنطقة لبناء البيت بحيث تكون طاهرة عن جميع الأرجاس، وبعيدة عن متناول المدنيّات المصطنعة والأفكار والمعلومات ذات الغرور وهيجان الشهوات والآمال الكاذبة. وإنّ يد تدبير الله اجتازت به المدن ومراكز المدنية العريقة مثل بابل والشام ومصر، والصحراوات والوديان الخضرة النضرة، فوجد مكان البيت وسط صحراء الحجاز الرمليّة بعيداً عن القوانين البشريّة والحكومات الفرديّة والقصور الطبقيّة ـ التي كلّها قيود وسلاسل على القابليّات، وحجبٌ على الفِطَر البشريّة الحرّة ـ وفي قعر وادٍ تحيطه سلسلة من الجبال الجافة. وجد قطعة من الأرض كانت تشعشع كالجوهرة الساطعة قبل وجود القطع الأخرىٰ وقبل أن يخطو الانسان على وجه الأرض. وكان هذا الإشعاع قبل قرون من أن تستعبد قوانين الأنظمة البشريّة من قبل

جماعة أو فئة الجماهير لخدمتهم، وفتح طرق الإمتيازات والظلم والإعتداء. المنطقة كانت تشعّ عليها انوار الشمس والقمر والنجوم، وكأنّما كان أوّل إشعاع من نور الحياة هناك. في تلك العصور التي كان يهبّ فيها النسيم على البحار، وكان الملائكة يسبّحون حول الأرض، وكانت رحمة الله وسعت كل مكان، ولم تكن أيّة حركة من الدوابّ محسوسة، وكانت ارادته هي الآمرة الوحيدة على جميع الموجودات، وفي الحقيقة كانت أوّل نقطة استقرّ فيها عرش الرحمة وأمر الله.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة حول اختيار مكان أوّل بيت لِلهِ وأسرار أعمال الحج ومناسكه:

«ألا تَرَونَ أنَّ اللهَ سبحانَه اختبر الأوّلينَ من لَدُنْ آدمَ صلوات الله عليه إلى الآخرينَ مِن هذا العالَم بأحجارٍ لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع. فجعلها بيته الحرامَ الذي جعله للناس قياماً، ثمّ وضعه بأوْعرِ بِقاعِ الأرضِ حجراً، وأقلّ نتائق الأرضِ مَدَراً، وأضيقِ بطون الأودية قُطراً، بين جبال خشنة، ورِمالٍ دَمِثَةٍ، وعيونٍ وَشِلةٍ، وقُرىً منقطعة. لا يزكوبها خفٌّ، ولا حافرٌ ولا ظِلفٌ. ثمّ أمَرَ آدمَ وَوَلَدَهُ أنْ يثنوا أعطافَهم نحوَهُ، فصارَ مثابةً لِمُنْتَجَعِ أسفارِهِم، وغايةً لِملْقى رِحالِهِم. تَهوِي إليه ثِمارُ الأفئدةِ من مفاوز قفارٍ سحيقةٍ، ومَهاوي فِجاجٍ عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتّى يهزّوا مَناكِبَهم ذُلُلاً يُهلّلونَ لِلهِ حَوْلَه. ويَرمُلُونَ عَلَى أقدامِهم شُعْثاً غُبْراً له. قد نبذوا السرابيلَ وراءَ ظهورِهم، وشوّهوا بإعفاءِ الشّعورِ محاسِنَ خَلْقِهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً جعله اللهُ سبباً لِرحمته، وَوُصْلة إلى جنّته. ولو أراد سبحانه أنْ يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام بين جنّاتٍ وأنهار، وسَهْلٍ وقَرارٍ، جَمِّ الأشجار، داني الثمارِ، مُلتَفّ البُنا، متّصَلِ القُرَى، بَينَ بُرَّةٍ سَمراءَ، ورَوضَةٍ خضراءَ، وأريافٍ مُحدِقةٍ، وعِراصٍ مُغدِقةٍ، ورِياضٍ ناضِرَةٍ، وطُرُقٍ عامرةٍ، لكانَ قد صَغُرَ قَدرُ الجزاءِ على حَسَبِ ضَعفِ البلاءِ، ولو كان الاساسُ المحمولُ عليها، والأحجارُ المرفوعُ بِهَا بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خضراء، وياقوتةٍ حمراء، ونورٍ وضِياءٍ لَخَفَّف ذلك مُسَارَعةَ الشكّ في الصّدورِ، ولَوَضَعَ مجاهدةَ إبليسَ عن القلوب،

وَلَنَفى مُعْتَلِجَ الرَّيب مِنَ النّاسِ، وَلكِنَّ اللهَ يختبرُ عبادَهُ بأنواعِ الشدائدِ، ويتعبَّدُهُم بأنواع المَجَاهِد، ويبتليهم بضُرُوب المكارِهِ إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، واسكانا للتذلّل في نفوسهم. وليجعَلَ ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضلِهِ، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه».

بداية هذه الخطبة: «أنّ الله سبحانه اختبر الاولين من لدن آدم...» تصرّح بأنّ هذا البيت كان قد تأسس قبل بناء ابراهيم، أو أن مكانه كان موضع اهتمام، والآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ ظاهرة في هذا المعنى أيضاً، لأنّه اذا كان المقصود تعيينَ مكانٍ للبيت، كان من الأنسب تعبير «هذا المكان، أو: مكانا للبيت»، وهناك روايات تؤيّد هذا الموضوع أيضاً.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: إنّ هذا الدعاء المطلق الذي لم يُحدّد بالقول والنيّة يُبيّن جيّداً حال هذين البانيين ووضعهما: دعاءٌ يوضّح خضوعهما وانقطاعهما، وكان ينبع من سرّ قلبيهما، ويظهر على لسانيهما، وكأنّهما كانا مقهورين أمام عظمة الله وإرادته إلى درجة بحيث لا يرون عمل البناء شيئاً مهمّاً، ولم يذكراه أبداً.

إنّ قبول أيّ شيء يعود إلىٰ أن القابل يجعله جزء وجوده، ويأخذ بنظر الاعتبار مقصود الذي قدّمه. والمقصود من طلب القبول في هذه الآية، ربّما كان ليجعل اللهُ هذا البناء مشمولا بربوبيّته «ربّنا»، ويمنح الأحجار والطين التي ارتصفت على بعضها وهي متعرّضة للفناء، صورة البقاء، ويكون في أشعة صفته الربوبيّة كثوابت العالم، فيكون مصدر تربية الناس.

إنّ هذا الطلب الذي كان ينبع من الضمير الطافح بالاخلاص إلى الله والرحمة بالناس، قُبِل في حضرة اللهِ. لأنّه لم تزلزل بناءه عصبية الجاهليّة ومنافسة قحطان وعدنان، ولا غطّت عليه بحجاب النسيان ظلمات الشرك، بل كان دائما ضياءً للهداية ودليلا للتوحيد في ظلمة جاهليّة العرب والعالم، وكان نوراً يشعّ في كل زاوية وجانب من العالم، وتأسّست معابد ومساجد باسم الله على يدٍ مخلصة.

نعم؛ إنّ حكمة الله قد استجابت دعاء ابراهيم، وحافظ على ذلك البيت من الحجر

والطين في مقابل عوامل النحت والتعرية، ومنحه البقاء بـتلك الصـورة، مـع العـلم بأنّ موجبات زواله وفنائه داخل الجزيرة وخارجها كان أكثر من أي بـناءٍ مـرصوص، لأنّ حماته في الداخل كانوا العدنانيّين فقط، وهم أولاد إسماعيل وكانوا عارفين [بشئونه]، وقد منحتهم هذه الحماية الوراثيّة السيادة والأفضليّة، لذا كان عـلى العـرب الآخـرين المتعصّبين هواة التمييز أنْ لا يتعرّضوا لأفضلية قبيلة عدنان وسيادتهم، واليهود (أولاد اسحاق) الذين كانوا متنفّذين اقتصاديّاً في مناطق من الجـزيرة، كـانوا يـعتبرون بـيت المقدس قبلتهم الوحيدة، وكانوا يخشون من النفوذ المعنويّ واتّجاه الناس نحو الكـعبة على قبلتهم ومركزيّتهم (كما أثاروا تلك الضوضاء حول تغيير القبلة، وسيأتي البـحث عنها، ولم يذكر أيٍّ شيءٍ في التوراة حول بناء البيت على يد إبراهيم وإسماعيل). وكان خارج الجزيرة كل واحدة من الدولتين العُظميين الروم وايران تحاول أن تسيطر عـلى العرب، وتجلبهم نحوها، كما أنّ الروم جذبوا عرب الشام نحوهم وأدخلوهم في الديـن المسيحيّ، وأنّ ملك الحبشة واليمن جهّز جيشا مزوّد بالفيلة الحربيّة لهدم الكعبة، وقـد ذكرت سورة الفيل قصّة اندحارهم وفنائهم. والعرب جعلت سنة هذه الحادثة مبدأ تاريخ، ومع أنّ المشركين كانوا ينصبون العداوة للدعوة الاسلاميّة لم ينكروا هذه الواقعة، وكانت الدولة الايرانية تسعى بكلّ جهدها لإزالة تمركز العرب الذي كان حول هذا البيت. ومع كل هذه العوامل الدينيّة والسياسيّة، فقد ظلت عظمة هذا البيت وقدرته المعنويّة تزداد يوماً بعد يوم، وكان خلال هذه القرون مَطافاً، وضواحيه محيطاً للأمن، ومناسكه قائمة.

يقال إنّ عمارة الصنم الكبير الذى كان اسمه «وَدّ» كانت من ألبسة الإحرام. ومثل هذا اللباس كان يشاهد على هياكل آلهة مصر والهند والصين، مثل: «تمثال كـونفوشيوس، ولاوتز» ويحدس البعض أنّ لباس الإحرام هذا مثل طواف الصابئة واليونانيّين اقتبس من آداب ابراهيم الخليل. كلّ ما كان، فإنّ المشهود هو أنّ هذا البيت وحرمه واصول مناسكه ظلّت محفوظة، مع العلم بأنّ بيتاً مقدّساً كبيت المقدس هُتِكَ وأُحرِقَ وهُدِّم عدّة مرات!!

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ...﴾ إنّ هذا الدعاء والطلب إلى الحدّ الذي كان يتعلّق

بإرادة إبراهيم واختياره، قد تحقّق فيه وفي اسماعيل، والأمر يتعلّق بعناية الله الخاصة أكثر ممّا يكون في حدود الاختيار بحيث يكون التوفيق دائماً وتامّاً، ليدير وجهيهما عن الغير ويجعلهما مسلمين لِله؛ وأيضاً فإنّ هذا الدعاء ذكرى الهدف الغائيّ لهذا البناء. وكأنّما هذه النيّة وهذا الطلب كانا مزيجين مع طين وماء هذه البنِية، وتجسّدان روح بانيَيْها في هذه الصورة، ليكونا في تكميل البناء ومناسكه وآدابه فردين كاملين شاخصين للاسلام، ومسلمَيْن من كل جانب لارادة الله ومنفّذين لأمره، ومن ذريّتهما ينشأ أناس بنفس الفكرة والتنسيق ومسلمِين بكل معنى الكلمة، ليدوروا وحول محور الحق والعدل مثل جميع ظواهر العالم من الذرّات إلى الكُرات: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

بمجرّد أن استيقظ الشعور والعقل الفطريّ، وأشرقت عليه أشعة الصفات، وفتحت عينه، تُصنَعُ العقيدة أوّل الأمر، وعندما يميل القلب نحو تلك الحقيقة السامية، يتقدّم نحو الإيمان. وعندما استوعبت جاذبة التوحيد والصفات جميع أنحاء النفس الإنسانيّة، واستولت بارادتها على جميع القوى والعواطف والغرائز وحولتها إلى تلك الجهة، فالمرتبة الأولى التسليم. وحينما زالت جميع المقاومات والتحرّكات المخالفة، يتحقّق الاسلام الكامل. وربّما كان هذا المورد هو طلب ابراهيم واسماعيل لنفسيهما ولبعض المستحقّين من ذريّتهما. ومعنى الاسلام هذا هو آخر مرتبة لكمال التوحيد. كما أنّ الاسلام والتسليم الظاهر في مقابل حكومة الاسلام وشريعته هو أوّل مرحلته.

بطلب ابراهيم بعد طلب الاسلام، من الله رؤية المناسك:

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: لا تعليمها الذي يتلقاه الفكر فقط، بل يريد أن يريه كل جزء من العبادات ومواضعها. أو يعلّمه بصورة تكون كالرؤية. بناء على هذا كانت جميع المناسك منذ تأسيس البيت وفقاً لأوامر الله، وقد تعبّد بها إبراهيم. تبدأ هذه المناسك من الطواف والسعي، وتتم بالتضحية التي هي رمز الاسلام الكامل. وكل واحد من هذه المناسك من الطواف والسعي والوقوف بعرفات، والمشعر، والرمي، والذّبح هو رمز لمرتبة من مراتب التكامل في التوحيد، ولكنّ جميعها من حيث التعبّد تكميلٌ للإسلام؛ لأنّ معنىٰ العمل

التعبّدي هو هذا الذي يؤدّيه المكلّف من جهة الإطاعة.

وكلّما يكون التعبّد أكثر، تتأصّل إطاعة الله في روح المتعبد أكثر، ويستوعب الاسلام كل نفسه، وبتعبير آخر تستسلم قواه ودوافعه النفسية الأخرى إلى الحقّ. ولهذا فان إنجاز العبادة لو انحرف التوجّه فيها قليلا عن الإطاعة والتعبّد الخالص، كالتوجّه إلى كسب نفع، أو دفع ضرر، ولمّا كانت حقيقة العبادة وروحها لم تتحقّق، فهي باطلة. وربّما كان لهذا السبب جميع أسرار العبادة مجهولة على الجميع، والقليل المعلوم منها يجب أن لا يكون مورد توجّه في النيّة والتعبّد، ليوصل التعبّد إلى كمال الإسلام، أي أنّ الاسلام البسيط الأوّل ينتشر في جميع قوى النفس، وينظّم جميع الأعمال باتّجاه القرب والكمال. وبمثل هذا التعبّد والتسليم يكون جميع الفكر والنفس والعمل محكوما لإرادة الله. وبعد ذلك تجتذب رحمة الله ولطفه المسلم إليها، وتنقذه من الجاذبيّات المخالفة، ويتلقّى توبته من عند الله:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: بناء على هذه الأدعية الثلاثة: «طلب الاسلام، إراءة المناسك، وقبول التوبة» مرتبطة ببعضها، فالسابق مقدمة وقاعدة للاحق، واللاحق مكمّلٌ للسابق، لذا فانها جاءت في آية واحدة وبعد قول واحد: «ربّنا»، وكأنّ مراتب التسليم والتعبّد والتوبة الصعوديّة صورة أخرى من طريق العودة نحو الجنّة وموطن الانسان الأول الذي هبط منه.

﴿رَبَّنَا وابعث فِيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلكِتَابَ وَٱلحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: هذا آخر دعاء ابراهيم. والإشارة إلى المقصود النهائي من بناء البيت الظاهر أو جهازه الباطن إلى أنْ يثار نبيّ في شعاع ضواحيه ونور مناسكه ومن بين ذريّة أعرضت عن كل شيء واتّجهت إلى الله وأسلمت له، ويقومَ ليوصلَ العقول والنفوس المستعدّة إلى النتيجة بتلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة والتزكية. وإنّ طلب إعداد ذريّة مسلمة قبل بعثة الرسول، ربّما كان لإعداد المجال لنفوس تلك الذريّة لبعثة مثل هذا الرسول؛ ليكمّل إسلامهم الفطريّ، ويغرس في أفكارهم بذور الكتاب والحكمة باشعاع الآيات

وتزكية النفوس.

المقصود من الآيات، أو الكلمات والعبارات التي هي علامات لله، أو آيات وعلائم للوجود جاء بصورة تعبيرات وكلمات بليغة. وتلاوة الآيات من أجل تفتّح عين عقلهم ونظرتهم الباطنية. ولو كان معنى الكتاب الأمور الثابتة الواجبة، فإنّ المقصود هو تعلّم القوانين والأحكام والتمكّن من الاجتهاد فيها. وهذا المعنى أنسب من تعليم الكتابة أو الكتابة. وكل ما يؤدّي من العلوم العامة الى تحكيم الآراء والعقائد وثبات الطباع المقبولة وتنظيم طرق الحياة أو يكون مقدمة لها فهو حكمة. والحكيم هو الذي له آراء واعتقادات ثابتة لا ينتابها الخلل، ولا تجد الشبهة إليها طريقاً ولا تتزلزل. والقرآن الذي هو ينبوع الحكمة والدليل إليها، بتلاوته والتدبّر في آياته يعلّم أصول التوحيد والمعاد والفضائل الأخلاقيّة والآراء التكليفيّة والعمليّة، ويوثّق جذورها. وفي الحقيقة فإنّ المعلومات والمعارف ـ بدون نفوذ الآيات وتصرّفها ـ هي مقدار من التصوّرات والتصديقات التي لا أساس لها، ولا تكون قاعدة للتزكية والتكامل والثبات. وانّ ما يجعل الفرد صلبا ورشيداً وثابتاً هي تلك الآراء والعقائد المتينة، وتزكية النفوس من الرذائل والإجتماع بالأراذل.

لأنّ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس هي المقصود النهائيّ الغائيّ من هذه البعثة، وكل الأوامر والقوانين والأحكام وبيان الحقوق والحدود من أجل إيجاد محيطٍ تنمو فيه بذور الاستعدادات والقابليّات، وتعطى ثمار العلم والحكمة، وتظلّل أوراقها وغصونها على رؤوس الآخرين، وتتطهّر النفوس من الأحقاد والعقد والشهوات الدنيئة، وتتكوّن دنياً صافية نورانيّة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلحَكِيمُ﴾: إنّ هذا النبيّ الكريم باتكاله على عزّة الله القهّار وصلته بحكمته التي لم تزل قام وأوجد أمّةً مستندة إلى هاتين الصفتين (العزيز الحكيم)، واستمدّت من قدرتها الباطنية المُعِزّة الحكيمة قوّةً وتفتحت، كما أنّها مع عدم حصولها على أيّة آلات مادية ومحيط مساعد قد وجدت طريق الصلاح والإصلاح ودلّت عليه الآخرين. وتلاوة الآيات ربطت النفوس بهاتين الصفتين وأوصلتها بهما. وبهذا الاتصال

مَاكَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾

معاني المفردات:

يرغبُ: من رغب: تعلّق قلبه، طلب، أعجبَ، وَرَغِبَ عنه: أعرض عنه ولم يقبله.

سَفِهَ: استخفّ، أذلّ، غضّ نظره عن.

اِصطفى: استخلص، طهّر، اختار، من الصفا: التنظيف من الأكدار، الاستخلاص.

أمّة: الناس المتواكبون المتسايرون.

خَلَتْ: مضت، أفرغت مكانها.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾: ملّة ابراهيم كانت تلك الطريقة التي اختارها ابراهيم وسمّابها وأوصلها إلى درجة الإمامة، من الابتلاء بالكلمات وإتمامها ونيل درجة الإمامة والتسليم التامّ لارادة الله. وظهر سرّ ملّة ابراهيم في بناء البيت ومناسكه، وثبتت إلى الأبد، وظهرت تلك الملّة في كلمة الإسلام الجامعة، والتي معناها الحقيقي هو نفس المعنى والحقيقة التي تقصدها هذه الآيات: التسليم بكل معنى الكلمة: تسليم القوى الباطنيّة للعقل الايمانيّ، وتسليم العقل لإرادة الله، التسليم لما يحدث في سبيل الله، التسليم للأوامر والقوانين الإلهيّة. وهذا هو الإسلام الذي يرقى بالقيم الانسانيّة ويمنح انساناً مثل ابراهيم شخصيةً ثابتةً مستقيمة مطمئنة. واذا لم يستسلم الإنسان للحقّ، لم يتمكن أن يتمتّع بقابليّاته وقواه، فيتعرّض للميول المختلفة، ويكون موضع استخدام الآخرين، ويبقى بلا أساس ومادّة: «إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» وبَعْدَ بَيَان شخصيّة ابراهيم الممتازة وطريقته، يتقدّم هذا السؤال والإستفهام الانكاري التوبيخي لكل إنسانٍ ذكيّ يريد أن يحتفظ بقيمته وشخصيّته: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»؟! لا يعرض أي إنسانٍ ذي قيمةٍ عن هذه الطريقة والسلوك. إن الّذين يعرضون عن طريقة ابراهيم هم الذين استخفّوا بأنفسهم واحتقروها: «إلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»!! ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ

﴿فِي ٱلدُّنْيَا..﴾» بقدر ما يكون الإعراض عن ملّة ابراهيم باعثاً على السَفَهِ ومؤدّياً بالنفس الإنسانيّة إلى الاضطراب، ووجودها إلى الفناء، يكون الاتّباع لملّة ابراهـيم مـؤدّياً إلى الأفضليّة والإصطفاء والبقاء والتنوّر. كما استخلصت جواذب الحقّ وعوامله ابـراهـيم ورفعته من بين القِوى النفسيّة الدنيئة ودنيا العامّة، وحقّقت شخصيّته المختارة.

فليتأمّل الإنسان في كلمات هذا الكلام وتعابيره ولحنه: «وَلَـقَدْ» تشـير إلى تـحقّق حقيقة الإصطفاء. انّ نسبة الإصطفاء لجمع المتكلم، ولحن الفَـتْحَاتِ المـتتاليةِ «وَلَـقَدْ اصْطَفَينَاهُ» تفيد سموّ إبراهيم واصطفاءه بإمداد القوى الإلهيّة. وبعد حـركات وأصـوات ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَينَاهُ﴾ ذات الفتحات، تأتي حركة الكسرة وصوتها في «فِي الدُّنْيَا» فتفيد ظرف الدنيا والقوى النفسيّة الدنيئة التي ارتفع إبراهيم عنها واختير. هذه الجملة القصيرة نموذج من تمثيل القرآن الإعجازيّ الذي يجسّد أمام العين وضع ابراهيم النفسيّ وتخلّصه من الجواذب النفسيّة وأفضليّته واصطفاءه، بالحركة والحياة والفعل والانفعالات النفسيّة. وبعد اجتياز هذه المرحلة، يعيد نظرته عندئذ إلى درجات ابراهيم العالية، في ذلك العالم والمواضع التي لا يدركها اكثر الناس، والكلمة الجامعة لها هي:

﴿وَإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِيْنَ﴾.

ثم يُلفِتُ القرآنُ نظرنا إلى مبدأ هذا الإصطفاء ومصدره «اِصْطَفَيْنَاهُ» في الدنيا، وتلك الجدارة واللياقة في الآخرة؛ لكيلا ننس هذه الحقيقة:

﴿إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾: كان أوّل مصدر هذا الإصطفاء والكمالات هو نداء ربّه الذي سمعه إبراهيم من ضميره، وكان ذلك النداء نداء الربوبيّة الخاص ودعوتها: «رَبُّهُ». هـذا النداء الربوبيّ الخاص، فتح عين باطنه واصطفاه حتى جعله يستسلم إلى ربوبيّته العامة:

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلعَالَمِيْنَ﴾.

بناءً على هذا فإنّ مِلّة ابراهيم واصطفاءه بدأت من التسليم للربوبيّة الخاصّة والعامّة. كالجوهرة التي تستسلم بيد الصانع، فتتخلّص من الأكدار وتكـون مـصقولة وشـفّافة. والمادّة البترولّية عندما تُصَفَّى، يخرج منها النور والحرارة، وكل مادّة من المواد المتبعثرة

التي لا روح بها ولا حركة ولا طَلاوة عندما تستسلم للقوى الحيويّة النباتية أو الحيوانيّة تصفو وترتفع، وتحصل على قابليّة كلّ درجات الأفضليّة.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾: إنّ هذا الدّين وطريق الكمال والقيم الانسانيّة التي كان ابراهيم مؤسّسها وتابعها، كان يوصي بها بنيه، وكذلك الآباء الكرام يوصون بها أبناءهم الأعزّاء أبناء الأنبياء. وكان إبراهيم ويعقوب يحوّلان إلى أبنائهما باهتمام خاصّ مادّة السعادة الخالدة وخلاصة الدين والرسالة، ويذكّر انهم بتعبير يطفح بالعطف الأبويّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ من بين الأوهام والأفكار المبعثرة البشريّة التي كانت ممتزجة منذ قرون بفطرة طلب الحق والتديّن:

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾: عليكم الوصول إلى درجة الإسلام باتّباع ملّة آبائكم ودينهم، وإنْ لم تصلوا إلى هذه الدرجة كآبائكم بسرعة، فحاولوا في نهاية الحياة أن تضعف علائقكم بالدنيا وجواذبها أو تنقطع، وتكونوا كالثمرة والبذرة الناضجة التي تستسلم للطبيعة وعوامل الحياة، وتبدأ بحياة جديدة ومتكاثرة، فتستسلموا إلى الله:

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: إنّ عطف يعقوب على ابراهيم بفاصلة «بَنِيْهِ» (بدلاً من: ووصّى بها ابراهيم ويعقوب)، وبدون ذكر أبي يعقوب «إسحق» يفيد ببلاغة خاصة: أنّ هؤلاء الآباء كلٌّ واحد منهم كان يوصي بنيه بصورة مستقلّة بمثل هذه الوصيّة.

إنّ إضافة إله (إلهك، وإله آبائك) للإشعار بأنّ أوّل داعٍ للتوحيد في دنيا الشرك والأوهام وعبادة الآلهة المصطنعة والمختلفة كان إبراهيم هذا وبنوه.

والآن يُبدي ـ من أجل التأكيد على هذه الوصيّة وإقامة الحجّة على أهل الكتاب ـ يعقوب في حال الموت، عندما يفتح عينيه نحو عالم الخلود، ويغمض عينيه عن الدنيا:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾؟! إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟: أم للاستفهام الإنكاريّ وللتعظيم والتمثيل والتقرير: تبدي يعقوب في حال الاحتضار يحيط به أبناؤه ينظرون إليه ليسمعوا آخر وصاياه، وينفّذونها، فيفتح في تلك الحال شفتيه، ويسأل بهدوء وكلمات متقطّعة وقصيرة وبصورة استفسار لا فرض من أبنائه: «مَا تَعْبُدُونَ

مِنْ بَعْدِيْ»؟ ويدرك الأبناء قصد أبيهم، ويتذكّرون تعاليم حياته، فيجيبونه بسرعة وكلمات جامعة لِيغمض عينيه مُرتاح البال، ويطمئنّ ببقاء الملّة ودين آبائه بين أبنائه:

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبَائِكَ إبراهِيْمَ وإِسْمَاعِيْلَ وَإسحٰقَ إلهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: كان هذا دين الأنبياء الماضين وطريقتهم:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: كان الجميع في طريق واتّجاه واحد ونحو مقصد واحد وداعٍ واحد ودعوة واحدة. وقد أدّى هؤلاء واجبهم الحيويّ كما ينبغي وذهبوا، وأوكلوا ميدان الحياة إلى القادمين، [ليروا] ماذا يعمل الآخرون؟ يجب أخذ هذه المواضيع من كلمة: «أمّة» و«خَلَتْ».

يجب على هؤلاء الباقين أن يتخذوا طريقة أولئك الماضين، وأن يقبلوا دعوتهم ووصيّتهم ويؤدّوها. ولا يتمكن هؤلاء بنسبة البنوّة والاسم والعنوان ـ من أن يسجّلوا بحسابهم أعمال أولئك وسيرتهم، ويحسبون أنّ هذه تؤدّي إلى أفضليّتهم وامتيازهم:

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ ولَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾: إنّ نتيجة سعي أولئك تكون لهم وتتعلّق بهم، وكذلك مكتسباتكم [تعود لكم]. وكما أنّ الماضين لم يكونوا مسؤولين عن أعمالكم، أنتم الأبناء أيضا لستم مسؤولين عن أعمالهم:

﴿ولا تُسْئَلُونَ عَمّا كانوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوْداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوْا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيْفاً وَمَا كانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِيْنَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلىٰ إِبْرَاهِيْمَ وَ إِسْمَاعِيْلَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيْسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَانْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وإِنْ تَوَلَّوا فإنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيْعُ ٱلعَلِيْمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُوْنَ (١٣٨)﴾

معاني المفردات:

الحنيف: المايل [عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق]، المستقيم، المتمسك بالاسلام، تابع دين ابراهيم.

الأسباط: جمع السبط: ولد الولد، قبائل اليهود، لأنّهم كانوا جميعاً أولاد يعقوب.

شِقاق: مصدر شَقّ: الكسر، الإنفصام.

صِبغة: بكسر الصاد وفتحها: نوع من التلوين، الملّة والدين لانه يصبغ الانسان بلون عقيدة وأخلاق خاصة.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: أضاءت الآيات السابقة جوهرة الدين الإلهيّ في شخصيّة إبراهيم وإمامَتِهِ، وفي بناء بيت التوحيد ومناسكه، وبيّنت النتيجة النفسيّة الضارّة للإعراض عن مِلّة ابراهيم، وصيّة الآباء للأبناء، وعدم تأثير نسبة الأبناء للآباء. وهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أتباع ابراهيم، مسخوا ذلك الدين الإلّهيّ الطاهر، وصنعوا لهم من العصبيّات والغرور والمراسيم والتقاليد أسماء وعناوين، ويعرفون طريق الهداية تحت هذه الأسماء والعناوين. لذا في مقابل الدعوة الاسلاميّة التي هي نفس ملّة إبراهيم ودين الأنبياء السابقين، يقولون: يجب أن يكون الشخص يهوديّاً أو نصرانيّاً ليهتدي. وكذلك كل فئة تعدّ دينها على حق ودين الآخرين على باطل.

ربّما كان السكوت عن ذكر فاعل «قَالُوا» يدل على تفاهة القائلين وقصر نظرهم. ويُستفاد من الآمر: «كُونُوا» الذي يدل على الأعلَويّة أنّ هذه الدعوات والأمور الغَرورة هي مِن قِبَل الرُؤساء والقادة المُضِلّين. أيّها النبيّ أَعلِن هذا الموضوع أنّ الدّين الحق هو دين ابراهيم الذي أعرض عن كل باطل وغير الحقّ، وكان في صِراط الله المستقيم، ولم يشرك أبداً:

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: سُمِيَ إبراهيمَ حنيفاً لأنه أعرض عن الكفر والشرك، واتّجه نحو التوحيد الفطريّ، وكان في الطريق المستقيم، لأن

معنى الحنيف، الشخص المائل عن الطريق الممهّد العامّ، إلى طريق الحق المستقيم. وأخذ البعض معنى الحنيف بمعنى الحاج؛ لأنّ البيت الحرام ومناسكه مظهر دين ابراهيم وحافظه، أو المقصود من الحاج قاصد طريق الله. لمّا كان بعض العرب قبل الاسلام يرون أنفسهم تابعي ملّة إبراهيم كانوا يقولون لهم الحنفاء ولدينهم «الحنيفيّة».

هذه الآية برهان على صورة الجدل: إمّا ملّة إبراهيم الطاهرة التي لم تتلوّث بالشرك، تكون طريق الحقّ والهداية. أو ما جعلتموه أنتم ـ أهلَ الكتاب ـ بصورة دين؟ لمّا كنتم تقبلون بأنّ دين ابراهيم هو طريق الهداية، اذاً فالأسماء التي حدّدتم بها الدين ومصطنعة من قِبَلِكم باطلة وظلال.

والآن، وبعد عرض الدين الحق، وإبطال دعاويهم، على المسلمين أن يعلنوا عن إيمانهم التوحيديّ بالتفصيل:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِل إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيْمَ وَ...﴾: لمّا كان الإيمان الخالص بالله والإيمان بما أنزِل على خاتم النبيّين القاعدة الوحيدة والمعرّف والمقياس للإيمان بالأنبياء الآخَرين، فقد ذكر هذا الإعلان في البداية منفصلاً، وربّما لهذا السبب لم يُذكر شيء عن الإيمان برسول الاسلام الكريم؛ ليظهر أنّ شخصيّته الفرديّة ﷺ فانية في إرادة الله وما أنزِلَ، ولم يكن هو سوىٰ مرآة يتجلّى فيها جميع الأنبياء ودعوتهم. ويفيد تكرار «ما أُنزِلَ» ونسبة ذلك إلى إبراهيم واسماعيل واسحٰق ويعقوب والأسباط وحدة الوحي وأصول دعوتهم، لأنّهم كانوا أوّل الدعاة إلى أصول التوحيد والتسليم لإرادة الله. وتغيير تعبير «ما أُنْزِلَ» إلى «مٰا أوتِيَ» يشير إلى الكتب والاحكام والآيات التي أعطِيتَ إلى الأنبياء أصحاب الكتب. بناء على هذا إذا لم يكن الإيمان بالتوحيد الخالص المحكم وبما أنزل على خاتم الأنبياء، فالإيمان بالأنبياء الآخرين وما أنزِل عليهم لم تكن له قاعدة صحيحة وبرهان واضح، ولا يتّضح وجه الأنبياء الماضين الواقعيّ وأصول دعوتهم وكتابهم كما كان. ويحصل من الإيمان الإجماليّ والكليّ بما أنزِلَ، الإيمان التفصيليّ بأحكام الأنبياء وكتبهم لا سيما مثل موسىٰ وعيسىٰ وعامّة الأنبياء.

وقد اختير هؤلاء جميعاً من قِبَلِ الله لتربية الناس:

﴿وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: عندئذ علينا نحن ـ المسلمين ـ أن نعلن بألّا نفكّر بالفرق بين أصحاب الرسالة والآيات الحقّة، ونعتبرهم جميعاً من قبل الله، ولم نكن كأتباع الأديان الأخرىٰ صبغوا الدين الإلهيّ بصبغة العصبيّة القوميّة والقبليّة، وجعلوا الدين آلة للتفرقة، والأنبياء بعضهم بوجه البعض الآخر، وتمسّكنا بالإسلام العام من الاسلام الخاصّ:

﴿لاٰ نُفرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا..﴾ هناك ايمان يتمكّن من إنهيار الحدود وفتح طريق الهداية، بحيث لا يكون هو محدوداً بالحدود القومية والقبليّة وأمثالها. هذا الإيمان هو الذي يجب عليكم أنتم ـ المسلمين ـ إعلانُه. فأذا كان هؤلاء يؤمنون بمثل ما أنتم به مؤمنون، فهم مهتدون، وإذا اتّخذوا الدين في إطار الحدود القوميّة والعصبيّة والأنانيّة، فهم باسم الدين يبحثون عن طريق الاختلاف والتفرقة:

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ...﴾؛ بناء على هذا فإن كلمة «مثل» لم تكن زائدةً كما تصوّرها البعض. مثل: للتمثيل وإظهار الايمان الحرّ الطاهر من العصبيّات المتحقق في وجود المسلمين الأبرار أصحاب القلوب النيّرة المخاطبين. وأيضاً يفيد تسامح دعوة القرآن وسعتها ولطفها: بمجرّد أن يزيلوا الألوان المصطنعة ويؤمنوا مثلكم فقد سلكوا الطريق باتجاه إدراك الحق. فاذا لم تكن كلمة «مثل» لم يُعرض نموذج للتمثيل، ويمكن لأهل الكتاب أن يقولوا: إنّنا نؤمن بجميع الأنبياء! مع أنّ إيمانهم الظاهر مفرّق في الباطن، ولم يكن مثل إيمان المسلمين الواقعيّ. إنّ المسلمين الذين يجب ألّا يكون لهم سوى الصبغة الإلهيّة، وعليهم أن يتّبعوا الحق، تربطهم جاذبيّة الحق والتوحيد بالناس الآخرين من طلّاب الحق أكثر فأكثر، والذين حوّلوا الدين بلون أطباعهم يسلكون طريقة التفرقة شاءُوْا أم أبَوْا. وعندما يتّجهون نحو الاختلاف والتفرقة يشتّتون قواهم. بناء على هذه القاعدة النفسيّة الاجتماعيّة، فإنّ الله سوف يصون المسلمين من شرّهم وكيدهم:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ﴾: لأنّ الله يسمع تحاورهم الخفيّ ويعلم أفكارهم الباطنيّة.

﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ له عَابِدُونَ﴾: «صِبغَةَ اللهِ» بالفتحة، بيانٌ لِمِلّة إبراهيم، أو مفعول فِعلٍ محذوف مثل: نريد، أو نتّبع. وبالضَّمَّةِ خبرٌ لِـ«هي» أو «تِلكَ».

إنّ مصدر اختلاف وامتياز الاشخاص والقبائل وملل العقائد والسنن التي تظهر بصبغة الدين ونظام الحياة، هو التعصّبات وغريزة حبّ التفوّق، التي تزيد في تلوينها لهذه المميّزات. إنّ هذه الألوان المميّزة كألوان الأجسام الطبيعيّة التي تجزّئ النور البسيط حسب بناء كل جسم، وتجعله بلونها الخاص المميَّز. فالملل وأتباع الأديان أيضاً يجب أن يستسلموا لنور الحق المطلق كالأنبياء والأئمّة. وإذا لم يستسلموا، وهضموا الدين في نفسيّاتهم الشخصيّة والقوميّة وجزّؤوه، فالصبغة التي يتّخذونها باسم الدين لم تكن صبغة إلهيّة. هذه الألوان المصطنعة ناتجة عن نفسيّاتهم، وتجزئة نور الدين الإلهيّ البسيط الجامع الذي ليس له جمال ولا كمال، ولا ثبات ولا بقاء؛ لأنَّ مثل هذه الألوان الفرديّة والقوميّة انعكاس من التقاليد و أوهام الأشخاص والأقوام وهي معرّضة للتغيير والزوال. وهي دائماً تؤدّي إلى الاختلاف والضلال. والهداية والتوحيد في اتّباع ملّة إبراهيم وتسليم النفس لِلهِ، الذي يكشف انعكاس نور الله والتلوين الإلهيّ: «وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً». إنّ عبادة الله ورجوع وجهة الباطن نحوه تطهر النفس من الأكدار والعصبيّات. وتجلو عن نفسها كل صِبغةٍ، وتصقلها من أجل أن تتجلّى فيها الإرادة الإلَهيّة وصفاته العالية، كما أنّ الأجسام الجامدة باستسلامها للقوى الحيويّة تظهر بلون وجمال أفضل، وتميل إليهما: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1].

---

١) إنّ قصّة تلوين الروميّين والصينيّين التي نظمها جلال الدين الرومي المولوي تبيّن هذه الحقيقة:

قالتِ الرّومُ سوىٰ دفع الصَّدأ — لَم يُفِد والنّقشُ واللونُ خَطَأ
أغلَقوا الباب وكانوا يصقلون — كالسَّمَا صاروا صفاءً لِلعيون
إن بَدا في الغَيمِ ضوءٌ للنظر — فهو من نجمٍ وشمسٍ وقمر

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ ءأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)﴾

معانى المفردات:

الحاجّة: من الحج: القصد، الاختلاف الطويل. الخصومة.

الكتمان: التغطية، غض النظر عن الحق.

غافل: من الغفلة: التعامي، [السهو]، التفويض، النسيان.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ...﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري في مقام التوبيخ: لأنّهم جعلوا الصبغة الإلّهيّة ودين الفطرة بصبغة إمتيازاتهم القوميّة وعصبيّاتهم وأعمالهم وتشريفاتهم، ولا يريدون أن يتركوا هذه الألوان والإمتيازات، ويحاربون الدعوة إلى دين الاسلام والصبغة الإلّهيّة ويخاصمونها. ماذا يقولون؟ يحاججون حول الله؟ واقتصروا بالله عليهم وعلى معابدهم؟! مع العلم بأنّ ربوبيّته بالنسبة للجميع واحدة، والجميع بالنسبة لربوبيّته متساوون. لأنّ صفة ربوبيته في الجميع ظاهرة بصورة متساوية، إذاً فالألوهيّة التي هي صفة جامعة واسمه الجامع متساوية للجميع، ولا تخصّ قوماً وشعباً. بناء على هذا «رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» اشارة إلى دليل ضمن الدعوى وردّ المحاججة.

اذا كانوا يعتبرون الأعمال المضافة إليهم التي صنعوها ديناً وتوجب الإمتياز، فإنّ نتيجة هذه الأعمال تعود على العامل وترتبط به، وذلك العمل عمل الدين الذي أُلهِمَ من

= مائتا لونٍ تجد منها الطريق — لعديم اللّون يا هذا الرفيق
كالسحاب اللون يبدو للنظر — وعديم اللون يبدو كالقمر
ترجمت هذه الابيات من الفارسية. الترجمان

وفقاً لمشيئته، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وبهذه الهداية وهذا التحوّل والنسخ وبمثل هذه الأحكام وهذا الإعراض نحو الكعبة هو الذي ينقذكم ـ أنتم أمّةَ الاسلام ـ من الانحراف، ويرفع مستوىٰ عقولكم، لتكونوا من ذلك المحيط المرتفع شهداء على الآخرين، فيكون هذا المسير الوسط وهذه الأفضليّة سيرتكم وطبعكم دائماً:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: ويكون الرسول وسيرته أيضا شاهداً عليكم وميزانا لكم: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْداً﴾.

إنّ تغيير القِبلة في الحقيقة نحو الكعبة، هو إعادة الاتّجاه نحو ملّة إبراهيم التي هي مبدأ الدين وروح الإسلام ليتجلّى منظر ملّة ابراهيم وطريقته أمام عين المسلمين في الليل والنهار دائماً، وليتخلّصوا من جمود اليهود والمسيحيّين والعرب وانحرافاتهم الذين يعتبر الجميع أنفسهم منتسبين إليه. وإنّ شمول النظرة هذه لمّا تكوّنت لدى المسلمين: «لِتكُونُوا» سوف يكونون شهداء على أتباع الأديان الأخرىٰ. والسرّ الآخر من أسرار القبلة هو أن يثبت ويظهر طبع الاطاعة والاتّباع من الرسول الطليعيّ في المسلمين.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ...﴾ وهؤلاء الجماعة من المسلمين ينفصلون ويتميّزون عن أولئك الذين ينقلبون على الأعقاب (الرجعيّين):

﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلىٰ عَقِبَيْهِ﴾ من أجْلِ ألّا تفسد نواة الإيمان ونطفته في قلوبهم، وتنعقد بصورة متينة وتنمو:

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيْعَ إِيْمَانَكُمْ﴾: وفي النهاية تكون جميع هذه القوانين والأحكام والتغييرات من المبدأ الرؤوف الرحيم: ﴿إنّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوْفٌ رَحِيْمٌ﴾.

إلٰهي نقسم عليك بأسمائك وصفاتك نوّر قلوبَنا بنور هداية القرآن، واشملنا برحمتكَ ورأفتك.

نُنْهي الجزء الأوّل من هذا الكتاب «اشراقٌ من القرآن الكريم» بهاتين الآيتين اللتين هما مقدمة تغيير القبلة. ويبدأ الجزء الثاني من حكم تغيير القبلة.

أعتذر من الإخوة الذين كانوا ينتظرون إتمام طبع هذا الكتاب، وكانوا قلقين من تأخيره. لأنّ الجميع يعرفون العقبات المختلفة، ووضع المحيط، وصعوبات طبع الكتاب، لا سيما تفسير القرآن، أكثر من العقبات والصعوبات العادية، وقد حدثت عقبات أخرى وحوادث منذ الشروع بطبع الكتاب بصورة مستمرّة، وحدثت تكاليف ومسؤوليّات أخرىٰ.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وآله الطاهرين، والطيبين من أصحابه أجمعين. وبعد؛ لقد تمّت ترجمة الجزء الأوّل من كتاب «اشراق من القرآن الكريم» ضُحى يوم الخميس، الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام لسبعةِ وأربعمائةِ وألف سنةٍ مضت على الهجرة النبويّة الشريفة، سائلاً المولى القدير أن يمنّ على المؤلّف وعلينا وعلى جميع المؤمنين برحمته ومغفرته ورضوانه.

عباس الترجمان

الفهرس الاجمالي

